

# الشرق الأوسط

مهد الحضارات وبؤرة الصراعات



By Dr. Mohammed Hasan Omar

A reflection on the divine order, human endeavor, and the  
moral continuity of civilizations.

2025

الشرق الأوسط:

مهد الحصارات وبؤرة الصراعات

إعداد

د. محمد حسن عمر

2025



## الإهداء

إلى طلاب الحقيقة—

إلى أولئك الذين يقرؤون التاريخ لا طلباً للغلبة، بل إعمالاً للضمير؛  
الذين يدركون أن المعرفة بلا أخلاق نورٌ عقيم؛  
والذين يؤمنون أن كل عصرٍ، مهما اشتد ظلامه، لا يخلو من صدق  
الهداية الإلهية.

إلى أبنائي وأحفادي—

لعلكم لا تملّون من السؤال "لماذا"،  
ولعلكم تسبّرون دائماً في الطريق الضيق بين الإيمان والعقل،  
حيث تسكن الحكمة، وتولد الحضارة من جديد.



## الشكر والتقدير

يقوم هذا العمل على أكتاف عدد لا يُحصى من المؤرخين واللغويين وعلماء الآثار والباحثين، الذين كرّسوا حياتهم للبحث عن الحقيقة وصون المعرفة، فأناروا الطريق للأجيال القادمة.

أدين بامتنانٍ عميقٍ لأولئك الذين أتاح لنا إخلاصهم العلمي وانفتاحهم الفكري إعادة قراءة تاريخ الشرق الأوسط المعقد بوضوحٍ وعدالةٍ متجدّدين.

وأخصّ بالشكر الشريك الفكري والتقني **الذكاء الاصطناعي - ChatGPT**، الذي جعل هذا الحوار ممكنًا، محوّلًا البيانات الخام، والأدلة اللغوية، والمصادر التاريخية إلى سردٍ معرفيٍّ متماسكٍ وميسّر.

كما تمتد تقديري إلى الباحثين والمترجمين والمحررين الذين أسهموا في ضمان الدقة والاتساق بين المصادر القديمة والحديثة، وإلى كل من قدّم دعمًا صامتًا لهذا المشروع عبر سنواتٍ من البحث والتأمل.

وأخيرًا، أوجّه أعمق شكري إلى القراء وطلاب التاريخ الذين يتناولون هذا العمل بنفس الصدق والفضول الذي ألهم تأليفه.

أمل أن يساهم هذا المشروع، ولو بقدرٍ يسير، في ترسيخ فهمٍ أصدق لتاريخنا الإنساني المشترك.

د. محمد حسن عمر

أكتوبر ٢٠٢٥

## فهرس المحتويات

صفحة	الموضوع
9	تمهيد الشرق الأوسط: مختار بمشيئة إلهية ومثقلٌ بالقدر
12	نظرة عامة على البنية والمنهج والغاية
	الجزء الأول — الشرق الأوسط منذ عصور ما قبل التاريخ: (حوالي 100,000 – 10,000 قبل الميلاد)
17	الفصل الأول: الأسس ما قبل التاريخ
	الإطار الزمني الثاني: الأسس النيوليتية للحضارة: (10,000–3,500 BCE)
22	الفصل الأول: التحول من الحركة إلى الاستقرار
26	الفصل الثاني: اليقظة بين الفكر والمادة
	الإطار الزمني الثالث: العصر البرونزي والثورة الحضرية (3500–1200 ق.م.) ظهور المدن، والقوانين، والضمير الجمعي
37	الفصل الأول: من القبيلة إلى المدينة – المقدمة: التحول العظيم
43	الفصل الثاني – القانون والمقدس القانون كضمير منظم للحضارة
57	الفصل الثالث – التجارة والتقنية وشبكة التبادل
	الإطار الزمني الرابع: عصر الممالك والنبوة (1200 – 1 ق.م.)
66	الفصل الأول – إمبراطوريات النظام
76	الفصل الثاني – فجر الوحي
93	الفصل الثالث – الإيمان والتحولات: اليهودية والمسيحية واليقظة العربية

<b>الجزء الثاني: الشرق الأوسط من 1 ميلادية إل الحرب العالمية الأولى</b>	
98	الفصل الأول — إمبراطورية في طور التحوّل: بيزنطة، فارس، والعتبة العربية
111	الفصل الثاني: الرسالة النبوية
119	الفصل الثالث — النهضة العباسية: الإسلام وولادة الحضارة من جديد
131	الفصل الرابع: تحوّل ميزان القوة ونهاية النظام الكلاسيكي للشرق الأوسط (القرنان 10-13م)
138	الفصل الخامس: العوالم العثمانية والصفوية والمملوكية (القرنان السادس عشر — الثامن عشر الميلاديان)
144	الفصل السادس: الشرق الأوسط وبزوغ العالم الحديث (القرن التاسع عشر الميلادي)
149	الفصل السابع — النزاعات والحروب الكبرى في مناطق الشرق الأوسط (من القرن السابع إلى الثامن عشر الميلادي)
156	الفصل الثامن — الاهتمام الغربي بالشرق الأوسط: استمرارية تاريخية
	<b>الجزء الثالث — الشرق الأوسط من الحرب العالمية الأولى إلى الحاضر الانهيار، والثورة، وعصر العولمة</b>
163	الفصل الأول — الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط
170	الفصل الثاني — الوعود المتحالفة والاتفاقات السريّة
178	الفصل الثالث — سقوط الدولة العثمانية ونظام الانتداب (1918- 1920)
188	الفصل الرابع: الجبهات الموازية والمناطق الطرفية — الشرق الأوسط الأوسع أثناء الحرب العظمى وبعدها
	<b>النظام الاستعماري وعصر اليقظة (1920 – 1950)</b>
230	الفصل الأول: من الانتداب إلى الثورة — النظام الاستعماري وسياسات المقاومة

264	الفصل الثاني — التحديث وبناء الدولة: تركيا، إيران، وبحث السيادة
295	الفصل الثالث — عصر الانقلابات والأيديولوجيات (1950- 1970)
304	الفصل الرابع — النفط، الصراع، وإعادة الاصطفاف (1970- 1990)
319	الفصل الخامس — العولمة، الحرب، والنظام المتشظي (1990- 2010)
338	الفصل السادس: الانتفاضات وإعادة التشكل — الشرق الأوسط في القرن الحادي والعشرين
367	الفصل السابع: حاضرٌ متشظٍ ومستقبلٌ غير متخيّل
385	الفصل الثامن: النظام العالمي في تحوّل — الشرق الأوسط وتغيّر ميزان القوى
434	الملحق أ — المراجع والمصادر التاريخية الأساسية
437	الملحق ب — المصطلحات والاختصارات
	Appendix C — Chronological Timeline



## تمهيد

### الشرق الأوسط: مختار بمشيئة إلهية ومثقل بالقدر

بعد إتمام ونشر الأجزاء السابقة من هذه السلسلة التاريخية — من وديان اليمن وسهول الجزيرة العربية إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، إلى يلاذ ما بين النهرين وفارس والأناضول — دخلتُ مرحلة من التأمل الهادئ. فقد كشفت كل منطقة عن أسرارها الخاصة: صلابة شعوبها، واستمرارية إيمانها، والدورات المتكررة من الوحدة والانقسام التي تُشكل حكاية الإنسان. غير أنني، حين نظرتُ إلى تلك الدروس المتناثرة، أدركتُ حقيقةً أعمق: لم تكن حكايات منفصلة، بل فصولاً من سردٍ واحدٍ عظيم، لا يُمكن فهمه حقاً إلا بالعودة إلى مركزه — إلى الشرق الأوسط، ذلك الملتقى الفريد الذي التقت فيه الرسالة بالعقل، واختبر فيه الإنسان في أعمق تجاربه الحضارية.

ليس صدفةً أن تكون هذه المنطقة — صغيرة على الخريطة، عظيمة في الأثر — ميداناً للالتفات الإلهي. فبعد أن أوجد الخالق — الله، الرب، مصدر الوجود كله — الكون في نظامٍ كاملٍ وأودع في كل مخلوقٍ روحه الهادية (رُوحه أو برنامجهِ الداخلي)، بدا كأنه أعدَّ هذه الأرض بالذات لتكون ساحة اللقاء بين السماء والأرض. ففيها صيغت الجبال والأنهار، والصحاري والبحار، لا لتكون مناظرٍ فحسب، بل دروساً. لقد أصبحت الجغرافيا بحدِّ ذاتها معلمةً، تصل القارات، وتشكل مسارات الهجرة، وتغذي النمو الروحي والفكري للإنسان.

لم يكن الشرق الأوسط مهد الحضارات فحسب، بل كان مدرسة الضمير. ففيه حرث الإنسان العاقل التربة بلاد الرافدين، ونقش المعابد في الأناضول، ورفع بصره إلى سماوات مصر باحثاً عن الخالق الغائب عن الأبصار. ومن وديانه وواحاته انبثقت أوائل الشرائع الأخلاقية والأبجديات والقوانين التي ربطت السلطة بالمسؤولية. في هذه الأرض تعلَّم الإنسان للمرة الأولى كيف يترجم الغموض إلى معنى، وكيف يُعبّر عن النظام الإلهي بلغةٍ وقياسٍ وعبادة.

لكنَّ الإعداد الإلهي لم يقتصر على الجغرافيا، بل شمل الفطرة الإنسانية ذاتها. فقد وهب الخالق الإنسان بوصلةً أخلاقيةً — طبيعةً نقيّةً فطريةً (الفطرة) — وأرسل الأنبياء والرسل بين الحين والآخر ليذكروا البشرية بما تعرفه فنيته. كانت رسالاتهم متسقة عبر العصور والحضارات:

- السلام هو النظام الطبيعي للوجود.
- المحبة والأخلاق هما أساس التعايش.

- الوحدة طريق الازدهار، والانقسام سبيل الانهيار.
- التنوّع رحمةٌ تُحتفى بها، لا خطرٌ يُخشى منه.
- وإذا حلّ الجشع أو الكبر محلّ الشكر والعدل، عمّ الفساد في كلّ طبقات الحياة.

ومن خلال نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد — عليهم جميعاً الصلاة والسلام — نادى الصوت الإلهي بالحقيقة الخالدة ذاتها: أن تذكر الخالق، وتحافظ على الأرض، وتصور كرامة الإنسان. جاءت كل رسالة حين ضلّ الإنسان في غروره أو نسيانه، لتُجدّد العهد بين السماء والبشر.

غير أنّ التاريخ شاهدٌ على أنّ قلب الإنسان قابلٌ للتلقّي كما هو ميالٌ إلى العصيان. فالأرض نفسها التي أنجبت الأنبياء والكتب المقدسة أنجبت الملوك والأصنام. والتربة التي احتضنت الوحدة أُنبتت الانقسام. وعلى مدى آلاف السنين، أصبح الشرق الأوسط منارة نورٍ وميدان صراعٍ في آنٍ واحد — مرآة لطموحات الإنسان العليا وزلاته السفلى. قامت فيه إمبراطورياتٌ تتنادى بالعدل ثم انقادت إلى الفتح، وظهرت أدیانٌ جاءت لتوحد ففسرّها الناس لتفرّق. وغالبًا ما غرق صوت التوحيد في ضجيج المصالح والطموحات. ومع ذلك، وفي كلّ سقوطٍ ونهوض، تبقى حقيقة واحدة لا تزول: إنّ الحضارة لا تبقى إلا حين تتذكّر أساسها الأخلاقي.

ومن ثمّ، فليس هذا الكتاب سرّدًا متتابعًا للحروب والسلالات، ولا حكايةً متسلسلةً للأنبياء والملوك؛ إنّهُ بحثٌ عن الأنماط الأخلاقية في مجرى التاريخ — محاولةً لتتبّع كيف يتجلّى النظام الإلهي في التجربة الإنسانية، وكيف تزدهر الحضارات بالضمير وتسقط حين تهجره. ينظر هذا العمل إلى التاريخ لا كمتحفٍ للأحداث، بل كوحى حيٍّ — سجلٍ لحوار الإنسان مع نفسه.

إنّ الصفحات التالية وُضعت لا لتُخبر فحسب، بل لتدعو إلى التأمل. من هجرات ما قبل التاريخ إلى ثورات العصر الرقمي، ومن بناء المعابد إلى صعود التكنولوجيا، ومن وحي الأنبياء إلى تمرد الأيديولوجيات — يتناول كلّ جزءٍ من هذا العمل سؤالاً محوريًا واحدًا:

**ماذا يمكن أن نتعلّم من الماضي لاستعادة الانسجام في الحاضر؟**

واعتقد أنّ الجواب يكمن في استعادة التوازن بين المادي والمعنوي، بين التقدّم والغاية، بين القوة والتواضع. فالشرق الأوسط — أرض النور الأول والصراع الدائم — لا يزال يحمل مفتاح ذلك التوازن. فطالما ظلّ منقسمًا، تظلّ الإنسانية نفسها ناقصة. قصته ليست إقليميّة فحسب، بل حضارية — مرآة لرحلة الروح الإنسانية الطويلة بين النور والزلل، بين الوحي والعصيان.

إنَّ هذا العمل يُراد به أن يكون سجلاً وتذكراً معاً: بأنَّ المعرفة كانت دوماً موجودةً في التاريخ، وإنْ غُيِّبَتْ تحت ركام الفتوحات والنسيان؛ وبأنَّ الجغرافيا المقدسة للشرق الأوسط — تلك التي شهدت خطوات الإنسان الأولى، وكلماته الأولى، وصلواته الأولى — لا تزال تهمس بالرسالة ذاتها إلى كل جيل:

أنَّ السلام والعدل والوحدة ليست مثالا بعيد المنال، بل هي النظام الطبيعي للخلق ذاته.



## نظرة عامة على البنية والمنهج والغاية

إنَّ كلَّ دراسةٍ جادَّةٍ للحضارة يجب أن تبدأ بسؤال المعنى: لماذا تتقدَّم الإنسانية في بعض العصور وتتعثَّر في أخرى؟

فعندما يُنظر إلى التاريخ على أنَّه مجرد سجلٍّ للحكام والحروب، فإنَّه يُخفي أكثر ممَّا يُظهر. أما حين يُدرس بوصفه مرآةً لضمير الإنسان، فإنَّه يتحوَّل إلى معلِّمٍ حيٍّ للتجربة البشرية.

وكتاب **الشرق الأوسط: مهد الحضارات وبؤرة الصراعات** كُتِب بهذا الروح — روح التأمل في الكيفية التي صاغت بها الجغرافيا والأخلاق والهداية الإلهية مصير الإنسان في هذه المنطقة المحورية، وكيف أثر ذلك في الاتجاه الأخلاقي والعقلي للحضارة ذاتها.

هذا العمل لا يقتصر على تسلسل الأحداث؛ بل يسعى إلى كشف منطق التاريخ: المبادئ الأخلاقية المتكرِّرة التي تحكم صعود الأمم وسقوطها. ف وراء كل إمبراطوريةٍ معادلةٌ أخلاقية، وخلف كل انهيارٍ فضيلةٌ منسية. ويُقدِّم الشرق الأوسط — عبر قوسه الطويل الممتد من الوحي إلى الدولة والإصلاح — أوضح مثالٍ على تلك الحقيقة.

وبناءً على ذلك، يتبع الكتاب تسلسلاً زمنياً موضوعياً لا يعتمد على القرون، بل على **مراحل تطوُّر الإنسان** — الجسدية والفكرية والأخلاقية.

ومن تكوين المستوطنات الأولى على وجه الأرض إلى أزمت السياسة الحديثة، يكشف كلَّ طورٍ كيف يتفاعل النظام الإلهي مع حرية الإنسان.

## الجزء الأول — الشرق الأوسط منذ عصور ما قبل التاريخ

### أسس الحضارة

يتناول هذا الجزء كيف أصبحت الجغرافيا المعلِّم الأول للإنسان. فأنهار الشرق الأوسط وصحاريه وممرَّاته الجبلية لم تشكِّل التجارة والاستيطان فحسب، بل غرست روح التعاون والتحمُّل والوعي الأخلاقي.

ومن أولى المدن في سومر ومصر إلى الشرائع الأخلاقية في بلاد الرافدين والأناضول، بدأ الإنسان يترجم الإلهام الإلهي إلى قانونٍ وفنٍ ومجتمع.

## الجزء الثاني — الشرق الأوسط من السنة الأولى للميلاد حتى الحرب العالمية الأولى

### الإيمان والإمبراطورية واللقاء

في هذا القسم تتكشف اللقاءات الكبرى بين الأنبياء والملوك، بين الإمبراطوريات والرسالات، وبين الثقافات والعقائد.

فمن بزوغ الإسلام وانتشار العلم إلى النظم العثمانية والصفوية، يظهر الشرق الأوسط كمفترقٍ سياسيٍّ ومختبرٍ أخلاقيٍّ في آنٍ واحدٍ

وحين كانت التنوعات تُحترم، ازدهرت الحضارة؛ أما حين استُخدمت سلاخًا، تمرّقت. ويُعرض العصر الإسلامي هنا لا كمرحلة فتوحات، بل كتركيبٍ أخلاقيٍّ عظيمٍ قامت فيه الوحدة على العدل لا على العرق.

## الجزء الثالث — الشرق الأوسط من الحرب العالمية الأولى حتى الحاضر

### الانهيار، والثورة، والعصر العالمي

يتناول هذا الجزء المفارقة الحديثة: كيف جلب التحرّر من الإمبراطورية تجديدًا وارتباكًا في آنٍ واحدٍ.

فلاستعمار لم يُمزق الحدود فحسب، بل هُشم الانسجام الأخلاقي. والوطنية التي وعدت بالوحدة كثيرًا ما استبدلت الإيمان بالأيديولوجيا. وقد منحت ثروات النفط رخاءً ماديًا لكنها عمّقت الفجوة الطبقيّة. قامت ثورات، وسقطت إمبراطوريات، وأعدت العولمة تشكيل الهوية نفسها. ومن الانتدابات والحروب العربية الإسرائيلية إلى العصر الرقمي والربيع العربي، يتتبع هذا القسم كيف لا يزال الإقليم يصارع لتحقيق التوازن القديم بين الحرية والإيمان.

### المنهج والمنظور

إنّ منهج هذا العمل ليس لاهوتيًّا بحثًا ولا سياسيًا محضًا، بل تكامليًّا. فكل فصلٍ يجمع بين الدليل التاريخي، والبصيرة النصية، والتأمل الأخلاقي. ويحافظ على نبرة تحليليةٍ يسيرةٍ تجمع بين القارئ الأكاديمي والعام، وبين المؤمن والمتسائل، في بحثٍ مشتركٍ عن المعنى.

أما المنظور، فمستمدٌّ من الإيمان، ومنضبطٌ بالعقل؛ مستوحى من الوحي، لكنه واعٍ بواقع التاريخ

وحيث تفصل الدراسات الحديثة بين التاريخ المقدّس والتحليل الدنيوي، فإنّ هذا الكتاب يُعيد وصلهما — لا بوصفهما عقيدةً جامدة، بل كصوتين متناغمين في حوارٍ واحدٍ بين الإنسان وخالفه.

ويُختتم كل قسمٍ بتأملاتٍ ورسوم توضيحيةٍ تبيّن كيف تتفاعل الجغرافيا والعقيدة والنظام الأخلاقي عبر الزمن، بحيث يتمكّن القارئ من تتبّع استمرارية الفكرة — من المعبد إلى البرلمان، ومن الوحي إلى الدستور.

## الغاية والدعوة

في جوهره، هذا الكتاب دعوةٌ لا إلى الحنين، بل إلى الفهم. فالماضي ليس عبئًا ينبغي الهروب منه، بل فصلًا ينبغي إعادة قراءته. وإن ظلّ الشرق الأوسط منطقةً صراعٍ، فذلك لأنّه لم يُتمّ بعد دوره الإلهي كجسرٍ للسلام بين الأمم.

ومن خلال إعادة تتبّع رحلته — من أنهاره وأنبيائه إلى إمبراطوريّاته وانقساماته الراهنة — يسعى هذا العمل إلى استرداد الوعي المفقود: أنّ الوحدة الأخلاقية، لا الوحدة السياسية، هي المعيار الحقيقي للحضارة.

إنّ تاريخ الشرق الأوسط هو في جوهره تاريخ الإنسانية نفسها؛ ودرسته هي إعادة اكتشافٍ للخيوط التي يربط بين الوحي والعقل، وبين القديم والحديث، وبين المادة والروح.

## إطار الموضوعات الحضارية

### كيفية تنظيم الدراسة

تُنظَّم هذه الدراسة في مجموعة من الإطارات الزمنية، يمثّل كلٌّ منها حقبةً تاريخيةً مميزةً.

وفي كل إطارٍ زمنيٍّ، تُعاد دراسة الموضوعات الأساسية للحضارة لتتبع كيف تطوّرت المجتمعات الإنسانية — وبوجهٍ خاص حضارة الشرق الأوسط — في الإيمان والحكم والثقافة والحياة المادية.

ويُتيح هذا المنهج للقارئ أن يرى الاستمرارية والتحوّل عبر الزمن، لا مجرد تسلسلٍ للأحداث.

فكلّ موضوعٍ يُعدّ نافذةً لفهم كيف تستجيب الحضارات لهداية الله، وللواقع الجغرافي، وللضغوط الاجتماعية، وللتحديات الأخلاقية.

### الموضوعات التسعة للحضارة

#	الموضوع / المكوّن	محور التحليل في كل إطار زمني
1	الإيمان والرؤية الكونية (العقيدة والأخلاق)	الرؤية الأخلاقية والروحية التي تُشكّل هوية الجماعة وغايتها.
2	المجتمع والبنية الاجتماعية	تنظيم الأسرة والقبيلة والطبقات وأدوار الجنسين؛ العدالة الاجتماعية والتماسك.
3	الحكم والتنظيم السياسي	أشكال السلطة والقيادة — من مجالس القبائل إلى الخلافات والسلالات.
4	الاقتصاد والتجارة والحياة المادية	الأسواق، والنظم التجارية، والملكية، وإعادة توزيع الثروة.
5	العلم والتعليم والمعرفة	نقل العلم، والتقاليد الفكرية، والبحث العلمي.
6	الفن واللغة والتعبير الثقافي	العمارة، والأدب، والتوليف الإبداعي بين الثقافات.
7	الجغرافيا والتوسّع والعمران	التفاعل بين البيئة والاستيطان والتنقّل.
8	التفاعل الحضاري والتبادل بين الأمم	الاتصال الدبلوماسي والعلمي والتجاري مع الحضارات الأخرى.
9	الموارد والغذاء والاستدامة الاقتصادية	توفّر الموارد الطبيعية وإدارتها والزراعة والإنتاج — القاعدة المادية التي تُقيم الحياة والتجارة.

## الإيقاع التحليلي عبر الأطر الزمنية

يتناول كل إطارٍ زمنيٍّ هذه الموضوعات التسعة ضمن سياقه الخاص:

- في الإطار الزمني الأول، يتركز التحليل على العالم ما قبل الإسلام، وبيئة الجزيرة العربية، والظروف الممهّدة للوحي.
- في الإطار الزمني الثاني، ينتقل التركيز إلى بزوغ الإسلام وتشكّل الخلافة وبناء النظام الأخلاقي الجديد.
- أما الأطر اللاحقة، فتتبع التنوّع الإقليمي، وازدهار العلوم، وتفتّت السياسة، والتحوّلات الحديثة — وكلّ ذلك عبر المنظور ذاته.

### غاية هذا الإطار

من خلال إعادة دراسة هذه المكوّنات في كل عصر، تهدف الدراسة إلى:

- إبراز الترابط بين الحياة الأخلاقية والعقلية والمادية.
- إيضاح تفاعل الإيمان والحكم مع الجغرافيا والاقتصاد.
- البرهنة على أنّ قوّة الحضارات أو ضعفها لا تقوم على السلطة وحدها، بل على مدى عدلها في إدارة القيم الروحية والموارد المادية معاً.

# الجزء الأول — الشرق الأوسط منذ عصور ما قبل التاريخ: (حوالي 100,000 – 10,000 قبل الميلاد)

## الفصل الأول: الأسس ما قبل التاريخ

### العصر الذي التقى فيه الإنسان بجغرافيته

قبل أن تقوم الإمبراطوريات بزمانٍ طويل، كانت المنطقة التي نعرفها اليوم باسم الشرق الأوسط تُشكّل بالفعل مصير الإنسان

فهي تمتد بين إفريقيا وآسيا وأوروبا، وتكوّن الممرّ المركزي للهجرات — جسراً بين القارات أكثر من كونها حداً فاصلاً بينها. هنا كانت الجغرافيا قدرًا محتومًا: صحاري تحرس، وأنهار تُغذي، وجبال تدعو إلى العزلة والتأمل.

وخلال آلاف السنين الباردة التي أعقبت العصر الجليدي الأخير، تبع البشر الباحثون عن الدفء والماء والحياة هذه الممرات شمالاً من إفريقيا. فأصبحت شبه الجزيرة العربية وساحل اليمن والبلاد الشامية ممراتٍ طبيعية. وتؤكد الاكتشافات الأثرية من جبل فايا في دولة الإمارات العربية المتحدة ومن موقع غوبكلي تبه في الأناضول أنّ هذه الأراضي لم تكن مجرد طرق عبور، بل مدارس — حيث تعلّم الإنسان الأول كيف يتكيف ويتعاون ويبدع (Armitage et al., 2011; Schmidt, 2010).

### الجغرافيا: المعلم الأول

قدّمت منطقة الشرق الأوسط كلّ اختبارٍ ستواجهه الحضارة لاحقاً. فالأودية الخصبة لنهرَي دجلة والفرات فرضت الريّ والعمل المشترك؛ والنيل علّم الإيقاع والقياس عبر فيضانه السنوي؛

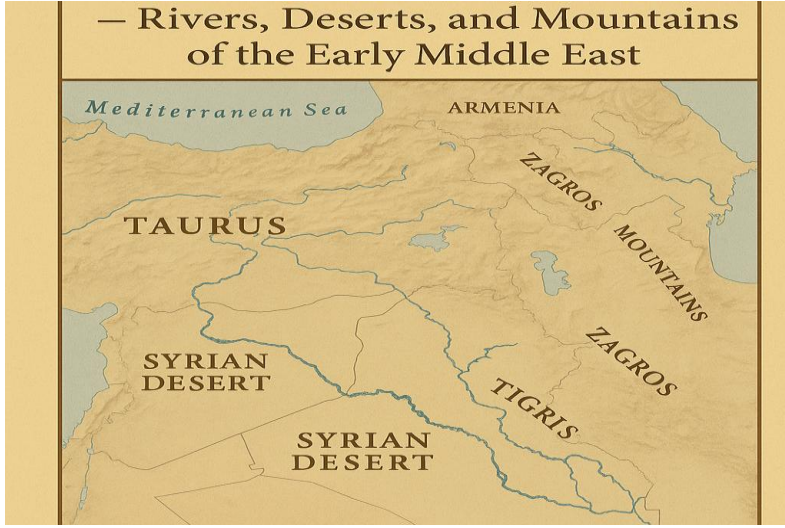
وساحل الشام فتح طرق الفضول والتبادل؛  
وصحارى الجزيرة رَوّضت الحركة وغرست الصبر والتحمّل.

في هذه البيئات المتنوّعة، تعلّم الإنسان العلاقة المتبادلة بين البيئة والخيال — وأنّ البقاء يعتمد على التعاون بقدر ما يعتمد على الشجاعة. (Cunliffe, 2018)

هنا، لم تقتصر الجغرافيا على تشكيل المجتمعات، بل صاغت الفكر نفسه. أصبح التأمل والملاحظة عادةً للبقاء، وغدا الإيقاع — إيقاع الفصول والفيضانات والنجوم — أساساً للمعرفة.

لم تُغزّ الأرض، بل دُرست وصُبرت وعُبدت مع الزمن باعتبارها أوّل وأعظم معلّم للإنسان.





### البيئة التي فرضت التعاون

دفعت هذه البيئات الإنسان إلى التعاون. ففي المناطق التي شحَّ فيها المطر، تعلّمت الجماعات أن تُوجّه المياه معاً، وحيث كانت الأرض قاسيةً، بنّت المساكن من الحجر والطين. لقد فرضت الطبيعة أول عقدٍ اجتماعيٍّ غير مكتوب: **البقاء من خلال التعاون**. ومن هذا العهد غير المعلن نشأ أول مبدأ أخلاقيٍّ للبشرية — أن الحياة لا تزدهر إلا حين تُشارك. (Mithen, 2003).

### أولى الجماعات البشرية

بين عامي 15,000 و10,000 قبل الميلاد، بدأ الصيادون في هذه المناطق يستقرون قرب مصادر المياه الدائمة.

وفي الهلال الخصيب، جربوا زراعة الشعير والقمح، واستأنسوا الماعز والأغنام، وبدأوا بتخزين فائض الحبوب.

وتكشف مواقع مثل أريحا في غور الأردن عن بيوتٍ حجرية، ومخازن جماعية للحبوب، وآثار جدرانٍ واقية — دلائل على أنّ الإنسان كان يتعلّم فنّ البقاء في المكان (Kenyon, 1979; Bar-Yosef, 1998).



إنَّ الانتقال من الترحال إلى الاستقرار غيّر كل شيء. أصبح الزمن يُقاس بالفصول، وغدت الملكية والذاكرة متجذّرتين في المكان. لقد زُرعت بذرة الحضارة لا بالغزو، بل بالزراعة والرعاية.

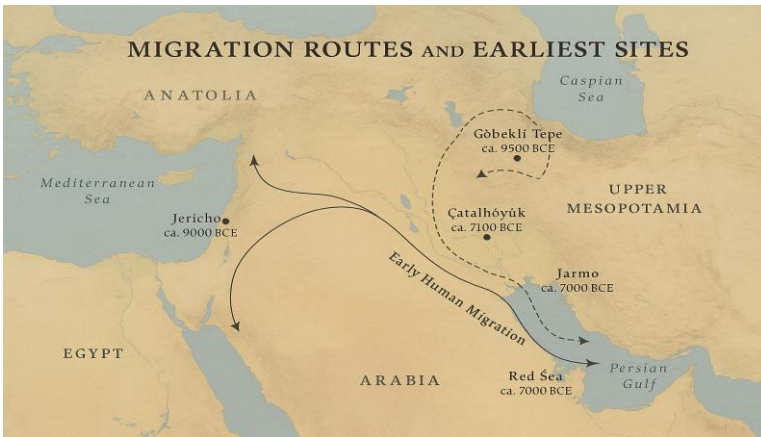
## لغة الأرض

قبل نشوء الأبجديات بزمنٍ طويل، كانت الأرض نفسها تُقرأ كنصٍّ مفتوح. فقد حدّدت الجبال الحدود، وأرشدت النجوم الاتجاهات، وتحولت الأنهار إلى تقاويم. الرموزُ المنقوشة في الحجر أو المرسومة على الطين عبّرت عن الامتنان والرهبة والخوف — محاولاتٌ أولى لجعل المعنى مرئيًا، ولربط قصة الإنسان بالمشهد الطبيعي الذي شكّلها. (Cauvin, 2000).

ومن هذه الإيماءات البدائية وُلدت لاحقًا الكتابة والفنّ والطقس الديني؛ لكن في تلك البدايات، كانت اللغة تولد من الدهشة — أول حوارٍ بين الإنسان والعالم من حوله.

## الهجرة والذاكرة

ومع انحسار الجليد وازدياد السكان، انطلقت موجاتٌ جديدةٌ من الهجرة نحو الشمال إلى الأناضول والقوقاز، والشرق نحو فارس، والغرب نحو مصر وشمال إفريقيا. لم تكن تلك الفتوحات غزواً، بل اتساعاً في دائرة الإمكان. حملت كل مجموعةٍ في داخلها ذاكرة الأرض التي غدّت أسلافها — جغرافياً صامتةً منقوشة في حكاياتهم ومساراتهم. (Cunliffe, 2018).



## الخيوط الثقافية والبصيرة الأخلاقية

استمرّت الخيوط الثقافية عبر أرجاء الشرق الأوسط المبكر — أساطير مشتركة عن الخلق، وتبجيلٍ للسماء والشمس، وعاداتٍ دفنٍ تُعبّر عن الإيمان بالاستمرارية بعد الموت.

فحتى قبل ظهور الكتابة، كانت لغةً روحيةً غير مكتوبة توحد شعوب المنطقة، تُنقل عبر الطقوس والذاكرة لا عبر النصوص.

### أول بصيرة أخلاقية

تحوّل التعاون الذي فُرض بحكم الضرورة إلى تعاونٍ نابع من الاختيار. فإنّ تقاسم الماء، وتقسيم الحبوب، وحماية القرى معاً، رسّخ الوعي بأنّ الخير له قيمة عملية.

كانت الأخلاق الأولى بيئيةً قبل أن تكون لاهوتية — إدراكاً بأنّ الانسجام مع الأرض يضمن الانسجام بين الناس. (Lévy-Bruhl, 1926) ومن هذا الوعي نشأت فكرة الخلافة أو الوصاية على الأرض، وهي الفكرة التي تردّد صداها في كلّ رسالةٍ إيمانيةٍ لاحقةٍ نبتت من هذه التربة.

### تأمل — الجغرافيا كتابٌ مقدّس

لم تكن أرض الشرق الأوسط مجرد مسرحٍ للتاريخ، بل مؤلفٌ فصله الأول. في صحاريه تعلّم الإنسان الصبر، وفي أنهاره اكتسب الإيقاع، وفي جباله وجد التأمل. هنا استيقظت الروح الإنسانية — لا بأمرٍ أو وحيٍ مباشر، بل بخلقٍ يهمس بدروسه من خلال الطبيعة نفسها.

كانت الجغرافيا أول كتابٍ مقدّس للبشر، ولا تزال آياته تُتلى حتى اليوم.

### الأسس النيوليتية للحضارة

لم تكن المستوطنات النيوليتية (العصر الحجري الحديث) معزولةً أو بدائية. تكشف الحفريات في تشاتالهيوك وجرمو وسوسة عن شبكاتٍ للتبادل، وتخصّصٍ في الجرف، واتصالٍ رمزيٍّ ومعرفيٍّ يُفند فكرة "العالم ما قبل المدني البسيط" (Hodder, 2012).

كانت تلك المجتمعات في طورٍ من الوعي الجمعي، حيث بدأت أدوات الفكر، واللغة، والفنّ تتشكّل معاً لثَمَد الطريق لظهور الحضارة.

# الإطار الزمني الثاني: الأسس النيوليتية للحضارة (10,000–3,500 BCE)

## الفصل الأول: التحول من الحركة إلى الاستقرار

يُعدّ التحول الذي شهدته الجماعات البشرية في الشرق الأوسط بين الألفين العاشر والسادس قبل الميلاد من أعمق التحولات في التاريخ الإنساني — الانتقال من الحياة المتنقلة إلى الحياة المستقرة

فالمناظر الطبيعية التي احتضنت هذا التحول — من أودية الأنهار إلى السفوح العليا والسهول الخصبة — لم تكن مجرد خلفية للتغيير، بل شريكاً فاعلاً فيه.

ومع استقرار المناخ العالمي بعد العصر الجليدي الأخير، تكيف سكان الشرق الأوسط الأوائل مع الفرص البيئية الجديدة

تحولت الممرات التي كانت تصل بين إفريقيا والعربية وآسيا إلى طرقٍ للاستمرارية، تحمل مع البشر الأفكار والبذور والحيوانات المستأنسة. وفي هذه المناطق المتقاربة بدأت الجماعات بزراعة الحبوب البرية، وتربية الماشية، وبناء المساكن الدائمة.

بحلول عام 9000 قبل الميلاد، تكشف مواقع مثل أريحا في وادي الأردن وغوبكلي تبه في أعالي بلاد الرافدين عن مزيجٍ مذهش من الابتكار التقني والتعبير الروحي — عصرٍ كانت فيه الطقوس جزءاً من البقاء، وكانت العمارة في آنٍ واحد مأوى ورمزاً (Armitage et al., 2011; Schmidt, 2010).

### أمثلة على المواقع النيوليتية المبكرة

الموقع	الوصف
غوبكلي تبه	عمارة شعائرية وجماعية في شمال بلاد الرافدين (حوالي 9000 ق.م)
أريحا	استيطان وزراعة مبكرة (حوالي 9000 ق.م)
جرمو	استئناس القمح والشعير (حوالي 7000 ق.م)
تشاتالهيوك	بنية شبه مدنيّة وجداريات رمزية (حوالي 7100 ق.م)
سوسة	تجارة مبكرة وتخصّص حرفي (حوالي 6500 ق.م)

## شبكة بيئية ديناميكية

شكّلت هذه المجتمعات جزءًا من شبكة بيئية ديناميكية صاغت الجغرافيا وساندتها الأنهار والأمطار والدورات الموسمية.

ومع مرور الوقت، تحوّلت إلى **مختبرات للحضارة**، صقلت فيها الإنسانية مهارات الزراعة والعمارة والتجارة والإيمان — المكونات التي سنعرّف العالم القديم.

## دور الأنهار والتضاريس

مارست الجغرافيا تأثيرًا حاسمًا على مسار نشوء الحضارات الأولى. فنهرا **دجلة والفرات**، اللذان يجريان عبر سهول الرافدين، أتاحا قيام أنظمة الري التي مكّنت من الزراعة الفائضة والتنظيم الاجتماعي المعقد. وأدّى **نهر النيل** في مصر و**نهر الأردن** في بلاد الشام دورًا مشابهًا، إذ غدّى كلّ منهما مسارًا ثقافيًا متميزًا، رغم اشتراكهما في المنطق البيئي ذاته. (Wilkinson, 2003)

وفي الشمال والشرق، قدّمت جبال **طوروس وزاغروس** المعادن والأخشاب والمراعي الموسمية، فربطت اقتصاديات الجبال بالسهول.

أما الصحاري السورية والعربية المحيطة، فلم تكن حواجز، بل **حدودًا متحركة** — ممزّاتٍ للتجارة والرعي والتبادل الثقافي.

وهكذا نشأت الحضارة من **حوارٍ جغرافيٍّ** بين وفرة الأنهار وقسوة الصحراء، وبين الاستقرار والترحال، والخصب والجفاف.

ذلك التوازن بين هذه العوالم هو الذي شكّل **الأنماط الاجتماعية والروحية للشرق الأوسط**.

## المناخ والخصب وميلاد الهلال

بين عامي 7500 و5000 قبل الميلاد، دخلت المنطقة مرحلةً من الاستقرار المناخي سمحت بهطولٍ مطريٍّ منتظمٍ في القوس الشمالي الغربي من الشرق الأوسط. هذا الحزام الطبيعي من الخصب، الممتدّ من **دلتا النيل** عبر بلاد الشام حتى بلاد الرافدين، أصبح معروفًا باسم **الهلال الخصيب**. (Breasted, 1916)

داخل هذا القوس، طوّرت الجماعات الزراعة البعلية، وانتقاء البذور، وتربية الحيوانات، فأُسِّست بذلك **القاعدة البيئية للحضارة**. أما ما وراء حدوده، فقد استمرت المناطق الصحراوية — كالجزيرة العربية والصحراء السورية — في احتضان الرعاة البدو، الذين تفاعلوا مع المستوطنين الزراعيين، مكوّنين توازنًا مبكرًا بين الحركة والاستقرار.

### الأنماط البيئية الأساسية

الوصف	المنطقة
رعيٌّ مكثّف وزراعة فائضة (سومر، عيلام)	السهول النهرية
رعيٌّ، تعدين، وبدايات علم المعادن (زاغروس، طوروس)	الجبال والهضاب
رعيٌّ متنقّل، تجارة، وتقاليد شفهيّة (العربية، السورية)	حواف الصحراء

### شبكات التبادل وبدايات التعقيد

بحلول عام 6000 قبل الميلاد، لم يعد الشرق الأوسط فسيفساء من القرى المنعزلة، بل **شبكة متداخلة من التفاعل**.

ربطت طرق التجارة الطويلة محاجر السبج في الأناضول بتجار الأصداف في الخليج، والمزارعين الأوائل في بلاد الشام.

تبادلت المجتمعات المواد والرموز والأفكار بسرعةٍ مذهلة، مهددةً لظهور أنظمة التجارة الكبرى في سومر وعيلام ومصر. (Algaze, 2008)

تشير الأدلة الأثرية إلى أنّ **التخصّص الاقتصادي** سبق قيام المدن. فقد تنوّعت المهارات — من الفخار والنسيج إلى التعدين — مما خلق تبعيةً متبادلةً تطلّبت تعاونًا منظمًا.

ومع مرور الزمن، تبلورت هذه الشبكات الاقتصادية والروحية في شكل **مؤسساتٍ حضريّةٍ ومعابدٍ وأنظمة حكمٍ** مع مطلع الألف الرابع قبل الميلاد.

## من القرى إلى المدن

بحلول عام 4000 قبل الميلاد، بلغت التجربة النيوليتية ذروتها في ظهور أولى دول المدن في بلاد الرافدين.

في أوروك وإريدو ونيبور، امتدت قنوات الري، وتوسعت التجارة، وتحولت المجمعات المعبدية إلى مراكز إدارية.

وكان اختراع الكتابة — في البداية لأغراض المحاسبة — اللحظة التي أصبحت فيها ذاكرة الإنسان دائمة وحضارته واعية بذاتها.

لم يكن هذا التحول فجائيًا، بل تطورًا تدريجيًا نبع من آلاف السنين من التكيف بين الإنسان وبيئته.

فأولى المدن لم تكن ثمرة غزو، بل ثمرة تعاون — بُنيت على استمرارية التقاليد النيوليتية وخصوبة الأراضي التي احتضنتها.

## تأملات في الاستمرارية

لا يمكن تفسير نشوء الحضارة في الشرق الأوسط بالظروف المادية وحدها. إنها تعكس استمرارية الخيال — ذلك الجهد الإنساني المتواصل لتنظيم المكان والزمان والمعنى وفق إيقاع الطبيعة.

فالأودية التي حملت الطمي حملت أيضًا الذاكرة، والجبال التي قيّدت الحركة ألهمت الرهبة والتأمل.

من المستوطنات إلى الحضارات، ظلّ الشرق الأوسط أكثر من مجرد مركز للابتكار؛ لقد كان مرآة للتكيف الإنساني.

وما زال، حتى اليوم، جغرافيا حيّة للأصول — حيث اتخذت أولى تعبيرات الجماعة والروح والإبداع صورتها الخالدة.

## الفصل الثاني: اليقظة بين الفكر والمادة

لم يكن العصر النيوليتي مجرد تحولٍ مادي، بل كان **يقظةً للعقل**. فما إن ضمن الإنسان الغذاء والمأوى، حتى تحول انتباهه إلى الأنماط الخفية وراء العالم المنظور.

إنّ الفضول ذاته الذي روّض الأنهار والحقول بدأ يُروّض ذاته. أصبحت الأدوات والرموز امتدادًا للعقل الإنساني — وسائل لحفظ الذاكرة، وتوقع السلوك، وتشكيل الواقع عن قصدٍ وإرادة.

وعبر أرجاء الشرق الأوسط، بين عامي 9000 و3500 قبل الميلاد، لم يعد الابتكار وسيلةً للبقاء فحسب، بل سعيًا إلى **الإتقان والسيطرة الواعية**. أصبح إيقاع الفصول، ووزن الحجر، وطول الظل مقاييس يتعلّم الإنسان من خلالها **تنظيم الوجود**

في هذا العصر، لم تكن المعرفة نظريّةً مجردة، بل **حكمةً عملية**، تُتحت وتُصاغ وتُقاس (Renfrew, 2008).

### من الحجر إلى النحاس: تكنولوجيا التحول

الأهمية الثقافية	الابتكار / الاستخدام	التاريخ / التقريبي	المادة	المرحلة
الزراعة والدفاع	شفرات مصقولة، مناجل، رؤوس سهام	10,000 – 7,000 ق.م	الصوّان، السبج	العصر الحجري الحديث
بداية علم المعادن والتخصّص الحرفي	الصهر والطرق والصبّ	7,000 – 4,000 ق.م	النحاس الطبيعي	العصر الحجري النحاسي (الكالوليثي)
الأساس للاقتصاد الحضري	أدوات وأسلحة وأوانٍ أقوى	3500 ق.م فصاعدًا	خليط النحاس والقصدير	العصر البرونزي المبكر

كان اختراع الصهر — تحويل الحجر إلى معدن — أول فعلٍ إنسانيٍّ واعٍ للتحوّل، يعكس كيمياء الطبيعة نفسها.

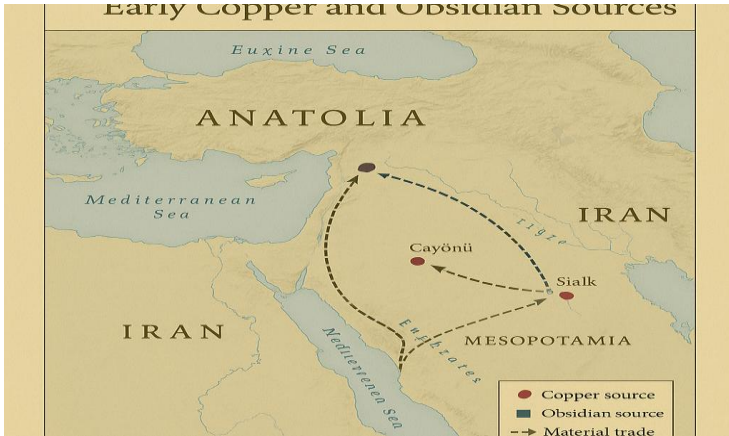
وقد تطلّب ذلك ملاحظةً وتجريباً وذاكرةً: متى تُسخّن المادة، ومتى تُبرّد، وكيف تُشكّل. مثل علم المعادن بذلك علاقةً جديدةً بين الإنسان والمادة — قدرةً على إعادة خلق الخلق. (Tylecote, 1992).

كما عمّق العمل المعدني التنظيم الاجتماعي، إذ احتاج التعدين والصهر إلى عملٍ جماعي منسّق، ونقلٍ للمعرفة التقنية عبر الأجيال. وتكشف مواقع مثل تشايونو وتبة جورا وتمنة عن أفرانٍ مبكرة ورواسب نفايات معدنية، تشهد على أن التجريب تحوّل إلى إنتاجٍ منظم (Moorey, 1994). أصبحت هذه المجتمعات المعدنية من أوائل الجماعات التي ربطت التقدّم التقني بالمعنى الروحي — حيث اعتُبرت الورشة في آنٍ واحدٍ مصنعاً ومذبحاً.

إنّ إتقان التحوّل — من الخام إلى المعدن، ومن الطين إلى الإناء، ومن الرمز إلى الكتابة — عبّر عن ثورةٍ فكريةٍ أوسع.

فأعظم اكتشافٍ للإنسان لم يكن المادة نفسها، بل إدراكه أنّ الطبيعة يمكن أن تُتعلم وتُعاد صياغتها وتُحسّن.

ومن هذا الوعي وُلدت السلالة الفكرية للعلم والحضارة.



## The Earliest Metals and the Networks of Exchange



## البدايات الأولى لاستخدام النحاس وشبكات التبادل

يُعرى أقدم استخدام للنحاس إلى الأناضول — وبشكلٍ خاص في تشاينونو وتشاتالهيوك — وإلى سفوح زاغروس في إيران، حيث كان النحاس الطبيعي يُطَرَق لتشكيل الخرز والدبابيس. (Maddin, Muhly, & Stech, 1998) كما انتقل حجر السبع من شرق الأناضول مئات الكيلومترات إلى قرى بلاد الشام، مما يُظهر أنَّه بحلول عام 7000 قبل الميلاد كانت شبكات التبادل المادي قد ربطت بين المجتمعات البعيدة.

وهكذا أصبحت التكنولوجيا لغةً التواصل بين الشعوب، وصار كل ابتكار تجربةً مشتركةً في مسيرة التقدّم

فكل شفرة مصقولة، وكل نسيج منسوج، وكل وعاء مشكّل من الطين، جسّد في آنٍ واحدٍ قدرة الإنسان على التكيف والتخاطب — حوارًا ماديًا بين الحضارات الأولى. وقد مهدت هذه الشبكات التفاعلية الطريق أمام طرق التجارة والثقافة التي ستربط أرجاء المنطقة لألفياتٍ لاحقة.

## اختراع القياس

المنطقة	الوظيفة	التاريخ التقريبي	الوسيط
شمال بلاد الرافدين	عدّ المواشي أو السلع	حوالي 8000 ق.م	رموز طينية (كرات، مخاريط، أقراص)
مصر وبلاد الشام	تتبع موسمي أو عددي	حوالي 7000 ق.م	علامات على العظم أو الحجر
سومر	حفظ الرموز مختومة لضمان الأمانة	حوالي 4000 ق.م	أغلفة طينية (بولا)
أوروك، جنوب بلاد الرافدين	ترميزٌ عدديٌّ مجرّد	حوالي 3500 ق.م	ألواح منقوشة (الكتابة المسمارية البدائية)

نشأت الحاجة إلى القياس والتدوين جنبًا إلى جنب مع الزراعة والتجارة. فقد كانت الرموز الطينية والعلامات المنقوشة على الحجر أول أدوات المحاسبة — رموزًا ملموسة للفكر المجرد.

وبحلول عام 4000 قبل الميلاد، بدأ السومريون يختمون هذه الرموز داخل أغلفة طينية لضمان الأمانة في التبادل؛ ثم سرعان ما حلت العلامات نفسها محل الأشياء التي كانت تمثلها. (Schmandt-Besserat, 1992)

كانت تلك بداية التفكير الرمزي — إدراكًا أن المعنى يمكن أن يُحفظ ويُنقل ويُتحقق منه.

لقد شكّل القياس جسراً بين المادي والمجرد — حيث منح الرقم شكلاً للقيمة، وولدت الكتابة من الرغبة في التذكّر.

## فعل العدّ وميلاد التجريد

حوّل فعل العدّ اللامرني إلى مرني.

كانت العلامة على الطين أكثر من مجرد تسجيل؛ لقد أصبحت ذاكرةً خارجيةً تمكّن المجتمع من حفظ المعلومات بما يتجاوز حدود الذاكرة الفردية. لقد تعلّم العقل الإنساني أن يفكر بالرموز.

كلّ رمزٍ كان يُطرّ تجربةً إنسانية: حبة قمح، قطيعاً من المواشي، أو دورة قمر. وهكذا بدأت الرياضيات كمنهج أخلاقي — سعياً لضمان العدل والدقة في التبادل. كانت الأرقام أدوات أخلاقية قبل أن تصبح تجريداتٍ فكرية. (Ifrah, 2000)

## الكتابة البدائية وميلاد الفكر الرمزي

بحلول أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، انفصلت الرموز عن أصولها المادية. ظهرت أنظمة الكتابة البدائية في بلاد الرافدين ومصر عندما أدرك الناس أنّ العلامات يمكن أن تمثل ليس الأشياء فحسب، بل الأفكار والأسماء والأفعال والأصوات. (Cooper, 2004).

تكشف ألواح أوروك (حوالي 3300 ق.م) عن هذا الانتقال من العلامات البسيطة إلى الرسوم التصويرية المتقنة، حيث حمل كلّ نقشٍ طبقاتٍ متعدّدة من المعنى — عديدة إدارية وروحية.

لقد وُلدت الكتابة كـ توليفةٍ بين الذاكرة والخيال.

وفي مصر، حدث تطوُّر موازٍ على ضفاف النيل، حيث جمعت الرموز الهيروغليفية صورَ الحياة — الطيور والأنهار والنجوم — في لاهوتٍ بصريٍّ متكامل. لقد أصبح الفعل الكتابي مشاركةً في الخلق نفسه؛ فالكلمة المكتوبة كانت عملاً مقدَّساً، يُعيد الإنسان من خلاله الانسجام مع النظام الكوني. (Allen, 2013)

### أدوات العقل: القياس والهندسة والزمن

تعمَّقت المعرفة حين بدأ الإنسان يقيس المكان والزمان. فالحقول احتاجت إلى المسح الدقيق، والقنوات إلى الزوايا القائمة، والعمارة إلى هندسةٍ مستقرة.

ومن هذه الممارسات نشأت أول أنظمة القياس الخطي والهندسة المبكرة (Robson, 2008).

كما أدَّى رصد السماء —مسار الشمس، ودورة القمر، وطلوع النجوم — إلى وصل السماء بالأرض، وربط الغيب بالزرع.

ومن هذا الترابط وُلدت التقاويم الزراعية التي سمحت بتوقُّع الفيضانات والمواسم. لقد حوِّل التطوُّع إلى الأعلى الزراعة إلى علم الفلك، والعمل إلى طقسٍ مقدَّس. وهكذا أصبح الشرق الأوسط أولَ منطقةٍ في التاريخ يتحوَّل فيها الرصدُ الحسيُّ إلى تفكيرٍ تجريديٍّ —جسراً بين التجربة والملاحظة من جهة، والتأمل العقلي من جهةٍ أخرى.

### التدين البدائي وتقديس العالم الطبيعي

في كلِّ مزارٍ أو مستوطنةٍ من العصر النيوليتي — من غوبكلي تبه إلى تشاتالهيوك —كان الإيمان منقوشاً في العمارة

لم يكن العالم الطبيعي — الجبال والأنهار والنجوم — منفصلاً بعدُ عن الإلهي؛ بل كان هو الإلهي نفسه. (Cauvin, 2000)

امتزج امتنان الصياد، ورجاء المزارع، ورهبة الحرفيٍّ أمام النار، لتصوغ أولى الرؤى الكونية

كانت الآلهة الأولى مبادئ لا شخصيات: الخصب، والماء، والنار، والشمس، والعاصفة.  
كان العبادة آنذاك اعترافًا لا خضوعًا — حوارًا بين الخلق والوعي.

ومع ميلاد علم المعادن والكتابة، اكتسب هذا الحوار طابعًا دائمًا. تحوّلت المزارات إلى معابد، والرموز إلى نصوص مقدّسة، وأصبح بحث الإنسان عن النظام مزيجًا من الضبط الأخلاقي والدقة الرياضية.

### تأملات: مقياس العقل

بدأ التحوّل النيوليتي بتشكيل الأرض، وانتهى ب تشكيل العقل. حوّلت المعرفة البقاء إلى معنى.

فعندما عدّ الإنسان قطعانه، بدأ يعدّ الزمن؛ وعندما نقش العلامة، نقش الذاكرة؛ وعندما قاس الحقل، قاس نفسه أمام اللامحدود.

وهكذا، لم تولد أدوات الحضارة من الغزو، بل من التأمل. ومن خلالها دخل الإنسان عصر الوعي، فجر المعرفة الأولى.



*A map indicating major cities and trade routes, showing the diffusion of Greek civic models across a multi-ethnic population.*

## تأمل

لم تكن التحوّلات الهلنستية في فلسطين عزلةً ثقافية، بل كانت عملية اندماجٍ وتكاملٍ حضاري.

لقد أفرز التفاعل بين التقاليد الإغريقية والكنعانية نسيجاً ثقافياً كوزمبوليتانياً، يتحدّى أيّ تصوّر للانغلاق العرقي أو الانعزال الثقافي.

فحيوية الأرض لم تنبع من التماثل أو التجانس، بل من انفتاحها على التأثير والتبادل.

في مدنٍ مثل الإسكندرية وجدارة وأورسالم، تجسدت هذه الحيوية في تبادلٍ فلسفيّ وتعليمٍ ثنائي اللغة وأشكالٍ فنيةٍ هجينة، تعكس منطقةً تتحاور مع ذاتها — لا حدودٍ إيمان، بل جبهةٌ حضارة. (Gruen, 2011)

### ثالثاً: النظام الروماني (63 ق.م – 324 م)

أدّى وصول بومبي إلى المنطقة عام 63 قبل الميلاد إلى إخضاع فلسطين للإشراف الروماني، بدايةً كملكٍ تابعة، ثم كجزءٍ من الإقليم الإمبراطوري "سوريا فلسطين". كان اهتمام روما بالمنطقة استراتيجياً في المقام الأول، إذ شكّلت تضاريسها جزءاً من منظومة الدفاع الشرقية وممرّاً تجارياً يربط مصر والعربية وسوريا (Millar, 1993).

تحت الإدارة الرومانية، أُعيد تنظيم فلسطين في بلدياتٍ مدينية متصلة بشبكةٍ متناميةٍ من الطرق والموانئ والتحصينات.

وأصبحت مدن مثل قيصرية البحرية وسبسطية والقدس وجدارة وسكيثوبوليس مراكزٍ للتجارة والإدارة والتفاعل الثقافي.

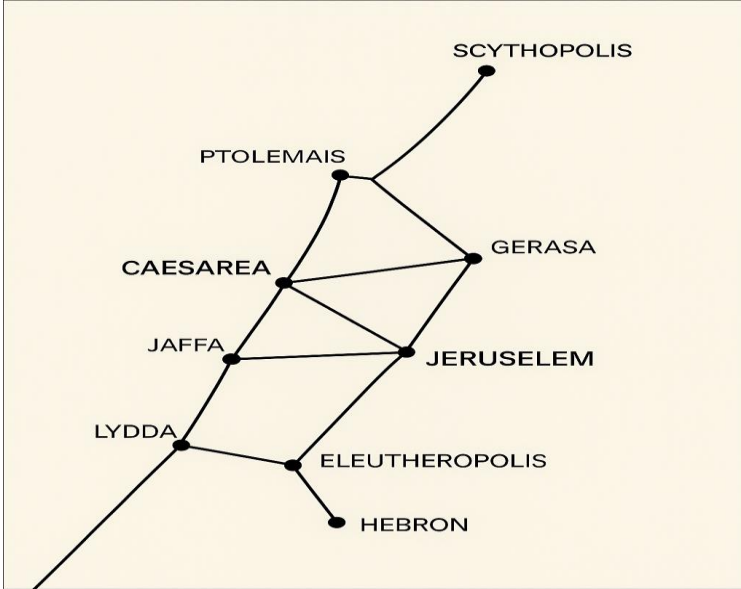
تولّى الولاة الرومانيون — أولاً البريفكت ثم البروكوريكتور — إدارة الضرائب والعدالة والسياسة الإمبراطورية، في حين احتفظت المجالس المحلية والهيئات الكهنوتية بقدّر محدودٍ من الاستقلال الذاتي.

ولم تكن النتيجة وحدةً سياسيةً متجانسة، بل فسيفساءً أقاليم تحكمها منظوماتٌ متداخلةٌ من القانون الروماني والعرف المحلي والسلطة المعبدية.

تُظهر الشواهد المادية من هذه الحقبة — المدرجات، والقنوات المائية، والفسيفساء، والنقوش، والنقود — وجود بنية تحتية مزدهرة واقتصادٍ مندمجٍ ضمن العالم المتوسطي الواسع. (Goodman, 2007)

وكان مصطلح اليهودية (يودايا) خلال هذه الفترة يشير إلى إقليمٍ فرعيٍّ إداري، لا إلى كيانٍ سياسيٍّ مستقلٍّ، فيما ضُمَّت المنطقة تعددًا سكانيًا وثقافيًا واسعًا: كنعانيين، يهودًا وسامريين ويونانيين وأنباطًا وسوريين ورومانًا يعيشون جنبًا إلى جنب.

لقد مثَّلت هذه التّعقيدات الثقافية واللغوية والإدارية جوهرَ فلسطين الرومانية — لا ككيانٍ متجانسٍ، بل كمجتمعٍ ديناميٍّ تتقاطع فيه الهويات. كانت مقاطعة صاغتها قوى التكيف بقدر ما شكَّلتها قوى السيطرة، حيث تعايشَت واقعية الإمبراطورية مع استمرارية الموروث المحلي.



**Figure 3: Urban Network of Roman Palestine (c. 100 CE)**  
A diagram showing Roman roads linking major cities, highlighting Caesarea as the administrative capital and Jerusalem as the religious center.

## تأمل

كرّس العصر الروماني هوية فلسطين المتعدّدة. فقد أصبحت مدنها عُقدًا للإمبراطورية، حيث تعايشَت الأرامية واليونانية واللاتينية في الحياة اليومية

تراجعت فكرة الكيان القومي أو العرقي الواحد أمام واقعٍ أكثر تعقيدًا من الترابط المدني والتكامل الاجتماعي.

كانت الأسواق والمدارس والمنتديات تجسيدًا للمثال الروماني في النظام المتعدد الثقافات — عالمٍ موحدٍ بالبنية التحتية والتجارة والقانون، لا بالدم والنسب (Millar, 1993).

## رابعًا: التيارات الفكرية والدينية

شهدت الفترة الكلاسيكية المتأخرة حراكًا فكريًا غير مسبوق. ففي فلسطين ومراكزها المجاورة، انخرطت طوائف ومذاهب فلسفية متنوّعة في حواراتٍ فكريةٍ ولاهوتيةٍ صاغت الروحَ الدينية في الشرق والغرب لقرونٍ لاحقة.

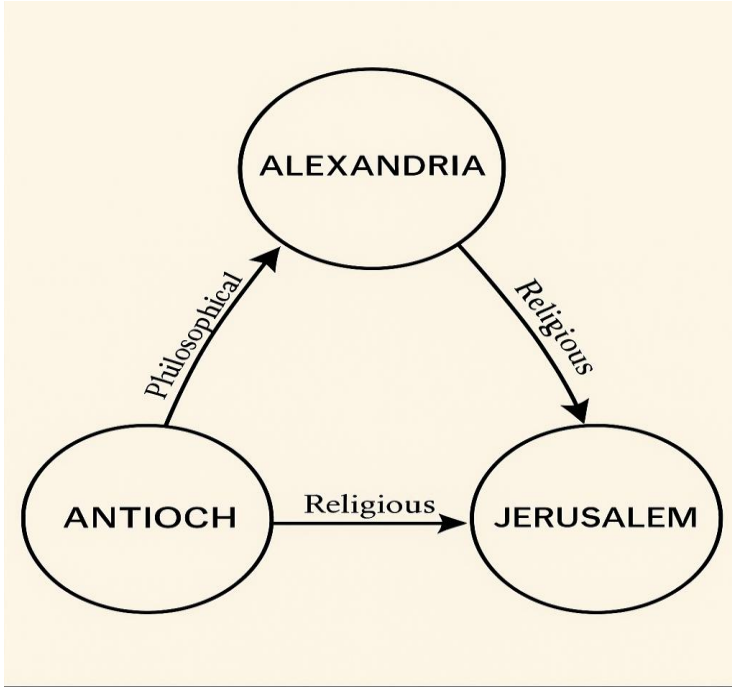
فمن بين الطوائف اليهودية، مثّلت الفريسيين والصدوقيين والإسنيين رؤى متباينة حول الشريعة، والطهارة الشعائرية، والعدالة الإلهية.

ومن رحم هذا الإطار الروحي ظهرت الجماعات المسيحية الأولى، التي أعادت تفسير التوحيد بمعانٍ كونية.

وفي الوقت ذاته، أثّرت الفلسفة الهلنستية — من الرواقية إلى الأفلاطونية المحدثة — في الفكر الإقليمي عبر منهجٍ عقليٍّ وتأمليٍّ ميتافيزيقيٍّ (Goodman, 2007; Runia, 1995).

ولم تقتصر هذه اللقاءات الفكرية على أورسالم وحدها. فقد حافظت مراكز كبرى مثل الإسكندرية وأنطاكية ودمشق على تواصلٍ علميٍّ نشيطٍ مع علماء فلسطين، مُشكّلةً شبكةً تبادلٍ فلسفيٍّ ولاهوتيٍّ. وفي الإسكندرية على وجه الخصوص، قدّم فيلو اليهودي نموذجًا فريدًا للجسر بين الميتافيزيقا اليونانية واللاهوت العبري، مطوّرًا توليفةً سبقت المدارس الفلسفية في المسيحية والإسلام. (Wolfson, 1947).

وعبر هذا المشهد الثقافي، تلاقى العقل اليوناني التأملي، والتصوف الرافدي، والتوحيد العبري في لغةٍ روحيةٍ مشتركة. وكانت النتيجة استمراراً لا صراعاً — خطاباً إنسانياً كونياً مهّد الطريق للتحوّلات الفكرية الكبرى في أواخر العصور الكلاسيكية وبدايات العصر الإسلامي.



*Figure 4: Intellectual Crossroads of the Levant*

A conceptual diagram tracing the flow of philosophical and religious influences between Alexandria, Antioch, and Jerusalem.

## تأمل

يُمثّل التعدد الفكري في فلسطين الكلاسيكية أحد أعظم مختبرات الفكر في التاريخ الإنساني.

فإنّها لم يكن في إمبراطورية أو سلطان، بل في دورها كوسيطٍ للأفكار — حلقة وصلٍ بين التقاليد الأخلاقية والمبتايفية والعلمية للعالم القديم. من الإسكندرية إلى أورشليم، ومن أنطاكية إلى دمشق، تدفّق العلم عبر اللغات والعقائد، مُشكّلاً جسراً بين الروحانية الشرقية والفلسفة الغربية (Goodman, 2007).



لقد منحت هذه التركيبية الثقافية المتقاطعة المنطقة معنى يتجاوز الجغرافيا. فأصبحت فلسطين أكثر من أرضٍ محددةٍ على الخريطة؛ غدت ملتقىً مفهوميًا تلتقي فيه الوعي والعقل، والتقليد والابتكار.

## خاتمة

في العصر الكلاسيكي، لم تكن فلسطين أرضَ ممالكٍ بل أرضَ جماعات — فسيفساء مدنٍ وطوائفٍ ومدارسٍ، جمع بينها التجارة والجدل والجغرافيا المقدسة المشتركة. تكمن أهميتها التاريخية في قدرتها الاستثنائية على امتصاص الحضارات التي مرّت بها وإعادة تفسيرها — الفارسية واليونانية والرومانية وسائر حضارات المشرق.

وعبر طبقاتٍ متعاقبةٍ من الوجود الإمبراطوري، تطوّرت في المنطقة هويةٌ متميزة — ديناميكية، متعددة، وخصبة فكريًا. (Millar, 1993) لم يأتِ العصر الكلاسيكي بتوحيدٍ سياسي، لكنه أنجز ما هو أعمق: إنصهار الثقافات الذي أنجب إرثًا أخلاقيًا وروحيًا ما زالت أصداءه تتردّد عبر القرون.

هنا، في هذا الملتقى بين الإيمان والفلسفة، تكوّن الحمض الفكري الأول للعالم الحديث.

# الإطار الزمني الثالث: العصر البرونزي والثورة الحضرية (3500–1200 ق.م.) ظهور المدن، والقوانين، والضمير الجمعي

## الفصل الأول: من القبيلة إلى المدينة – المقدمة: التحول العظيم

يبين عامي 3500 و1200 قبل الميلاد، شهد المجتمع الإنساني أحد أعمق التحولات في تاريخه — الانتقال من المجتمعات القبلية إلى الحضارة الحضرية. تطوّرت القرى المتناثرة في العصر النيوليتي إلى مدنٍ منظمّة ذات أنظمةٍ إداريةٍ وعمارّة ضخمةٍ ولغةٍ فنيةٍ وأخلاقيةٍ مشتركةٍ.

وقد عُرف هذا العصر باسم الثورة الحضرية، حيث برزت أوروک وإريدو في بلاد الرافدين، ومنف في مصر، وماري على الفرات، وجبيل على الساحل المتوسطي. ورغم اختلاف كلٍّ منها تبعًا لجغرافيتها ومواردها، فإنها جميعًا اشتركت في نزعةٍ إنسانيةٍ واحدةٍ — البحث عن الدوام، والتدوين، والهوية الجماعية.

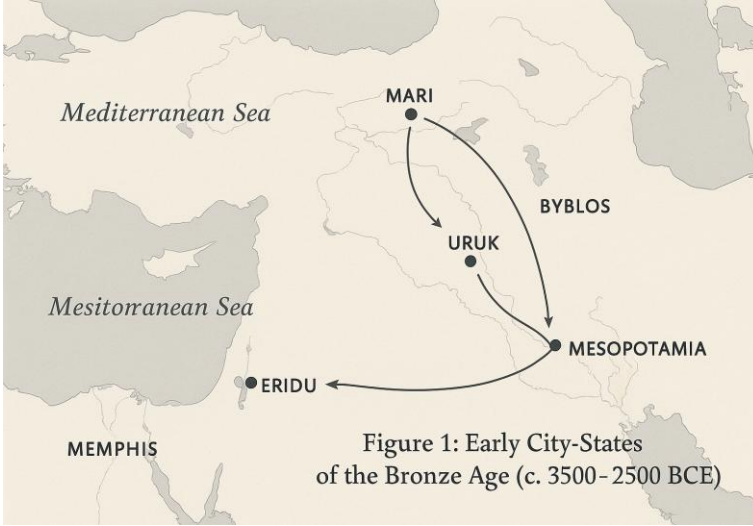
### أولاً: ميلاد دولة المدينة

بلغت مدينة أوروک (في جنوب بلاد الرافدين) ذروتها حوالي عام 3300 قبل الميلاد، وكانت تمثل مستوىً جديدًا من التنظيم الإنساني — مركزًا للسكان والإدارة والعبادة والتجارة معًا.

عمل المعهدهان الكبيران، إينانا وأنو، في آنٍ واحد كمعابدٍ دينيةٍ ومراكزٍ بيروقراطيةٍ، حيث كان الكتّاب يسجّلون المعاملات، والكهنة يديرّون اقتصاد الحبوب والنذور.

وعبر الهلال الخصيب، ظهرت مراكز مشابهة — مثل إريدو وماري وجبيل — ربطت القرى المحيطة بها عبر شبكات الري والتجارة ورعاية المعابد. وفي مصر، نشأت منف كمركزٍ سياسيٍّ ورمزيٍّ موحدٍ لوادي النيل من خلال تنظيم العمل المركزي والتعبير المعماري الضخم (Algaze, 2020; Childe, 1950; Liverani, 2014; Nissen, 2002).

**Figure 1: Early City-States of the Bronze Age (c. 3500–2500 BCE)**



*A map showing major urban centers: Uruk, Eridu, Mari, Byblos, and Memphis, with trade corridors along the Euphrates, Nile, and Mediterranean coast.*

## تأمل

لم تكن المدينة مجرد إنجاز اقتصادي، بل كانت ابتكاراً أخلاقياً. لقد مثلت أول تجربة إنسانية مشتركة للتعايش تتجاوز روابط القرابة والدم. فأصبحت الوحدة أقوى من النسب، والعهد الاجتماعي قائماً على العمل والعبادة والذاكرة.

في هذا التحول، تحولت المدينة إلى مشهد أخلاقي بقدر ما كانت مادياً — تجسيداً لرغبة الإنسان في الاستمرارية والنظام في صورة ملموسة ودائمة (Childe, 1950; Liverani, 2014).

## ثانياً: العمارة والمركز المقدس

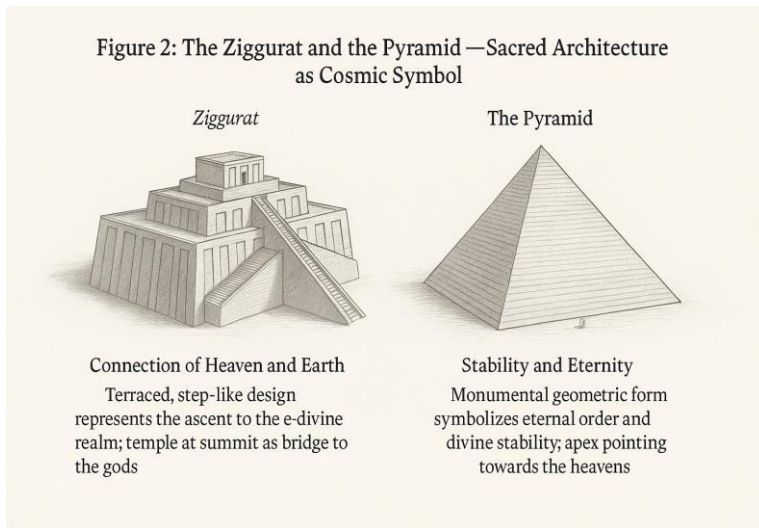
عكست العمارة الضخمة نشوء الوعي الجمعي وتطور الهوية الجماعية. ففي بلاد الرافدين ارتفع الزقورة كرمز مدرج يصل السماء بالأرض، تتوجها مقامات الآلهة — آلهة الخصب والعدالة

وفي مصر، تجسّد هذا المبدأ في الأهرامات والمعابد الجنائزية التي مثّلت فكرة الملكية الإلهية ونظام “ماعت” الأزلي، رمز الحقّ والتوازن والعدل الكوني.

كانت هذه الأبنية إنجازاتٍ هندسيةٍ وروحيةً معاً، شَيّدتها أنظمةٌ هائلةٌ من العمل المنظّم بإشراف الكهنة والكتبة.

وهي تكشف عن وعيٍ مبكرٍ بالهندسة وعلم الفلك والديمومة — وعن فكرةٍ جوهرية مفادها أن العمارة يمكن أن تجسّد النظام الأخلاقي للكون.

من خلال الحجر والطين، بدأ الإنسان يعبّر عن فهمه للزمن والألوهية والفناء في أشكالٍ خالدةٍ تتحدى الزمن. (Kemp, 2006; Nissen, 2002; Algaze, 2020)



*A comparative diagram showing the Ziggurat of Ur and the Step Pyramid of Saqqara, illustrating their structural logic and spiritual function.*

## تأمل

كانت المعابد والأهرامات أوّل كتبٍ من حجر — بياناتٍ عن المعنى قبل ظهور الأبجدية.

وحَدّت الفنّ والرياضيات والإيمان في صيغةٍ خالدةٍ للتذكّر.

وفي تناسقها وضخامتها، أصبحت العمارة الأولى وسيطاً للتواصل، تحفظ طموح الإنسان قبل أن تحفظ اللغة المكتوبة ذلك الطموح. (Kemp, 2006; Childe, 1950).

### ثالثاً: نشوء البيروقراطية ونُظم الحُكم

فرض النمو الحضري أنظمةً جديدةً للتنسيق والتنظيم. فقد أَدَّى ظهور الكتبة — أول المتخصصين المتدربين على إتقان الرموز والكتابات الأولى — إلى تحويل الإدارة من الذاكرة الشفوية إلى المسألة المدونة.

تكشف الألواح الطينية من أوروك وإبلا عن سجلاتٍ للجرد والحصص والعقود، بينما تُظهر النقوش الهيروغليفية المصرية المراسيم الملكية والوقف المعبدية. ومن هنا، تحوّل الحكم إلى مؤسسة قائمة بذاتها — عقلٍ جماعيٍّ مجسّدٍ في الأرشيفات والموظفين.

وتحوّل الزعيم القبلي إلى ملكٍ كاهنٍ أو وكيلٍ إلهي، يجمع بين السلطة البشرية والنظام الكوني.

لكن هذا التحوّل جلب معه التراتبية:

فعلى القمة وقف الحاكم والكهنوت، وتحتهم الكتبة والحرفيون والتجار والعمال — كلٌّ مرتبطٌ بواجبٍ تجاه إيقاع المدينة في العمل والتدوين والعبادة.

لم تعد المدينة الدولة مجرد مستوطنة، بل أصبحت كائناً أخلاقياً حياً تحكمه قوانين النظام والتوازن والذاكرة. (Liverani, 2014; Nissen, 2002; Algaze, 2020).



*A schematic chart showing the social order — ruler and priests at the apex, followed by scribes, artisans, farmers, and laborers — illustrating the integration of function and faith.*

## تأمل

مع الكتابة جاء النظام، ومع النظام جاءت المسؤولية. لم تكن البيروقراطية بعد طغياناً، بل كانت ذاكرةً منظّمةً من أجل البقاء — ابتكاراً أخلاقياً بقدر ما كان إدارياً. لقد أصبحت اللوحة الطينية ضمير المدينة، تضمن أن تتجاوز العقود والواجبات والعدالة حدودَ الكلام والفناء. (Nissen, 2002; Liverani, 2014)

## رابعاً: البعد الأخلاقي للمدينة

لم تكن المدن الأولى مجرد مراكز للسلطة، بل كانت تجارب على مقياس أخلاقي. فللمرة الأولى عاش الناس بين آلاف الغرباء، مرتبطين لا بقرابة الدم، بل بقوانين وشعائر وتوقعاتٍ مشتركة.

حلّ المعبد والسوق والأرشفيف محلّ نار المخيم القبلي كقلبٍ للحياة الجماعية. ومن هنا، نشأ نوعٌ جديد من الضمير الإنساني — وعيٌّ بأن الانسجام يعتمد على العدل لا العصبية، وعلى التعاون لا النسب.

وقد أصبحت هذه البصيرة بذرة الحضارات اللاحقة: حيث شكّلت القانون والأخلاق والروحانية ركائز النظام والهوية. (Childe, 1950; Dever, 2003; Liverani, 2014).

## تأمل

مثّلت المدينة في العصر البرونزي ميلاد الضمير في الحجر والطين. فعندما تعلّم البشر البناء معاً، تعلّموا أيضاً العيش لهدفٍ مشتركٍ — هدفٍ يسمو على القبيلة.

لقد احتوت أسوار المدينة ليس البيوت فقط، بل المثل العليا: الذاكرة، والعدالة، والتعاون. (Algaze, 2020; Kemp, 2006)

## خاتمة

أعاد الانتقال من القبيلة إلى المدينة تعريف علاقة الإنسان بالزمان والمكان والمقدّس. فمن خلال العمارة والكتابة والإدارة، عبّرت المجتمعات الحضرية الأولى عن إيمانٍ بالاستمرارية — بأن البقاء لا يحققه الفرد، بل الجماعة.

أصبحت المدينة المرأة الأولى التي رأى فيها الإنسان عظمتَه وضعفه معًا — انعكاسًا لقدرته على الخلق والتذكر والبقاء.

وفي التفاعل بين الطين والروح، أرست الحقبة البرونزية أسس الحضارة الإنسانية نفسها (Algaze, 2020; Childe, 1950; Kemp, 2006; Liverani, 2014; Nissen, 2002).

## الفصل الثاني – القانون والمقدس

### القانون كضميرٍ منظمٍ للحضارة

#### مقدمة

بحلول منتصف العصر البرونزي، تجاوز المجتمع الإنساني مرحلة العمل الجماعي في المدن إلى إنجازٍ أكثر تجرّيداً — هو ابتكار القانون

في بلاد الرافدين ومصر والأناضول وبلاد الشام، بدأت الجماعات البشرية تُعبّر عن مبادئ النظام التي تُلزم الحاكم والمحكوم على السواء.

أصبح القانون الضمير المرئي للحضارة، إذ حوّل الأخلاق من عرفٍ موروثٍ إلى بنيةٍ مقصودةٍ ومنظمةٍ.

وامتزج الدين بالحكم، فتولّدت الشرائع والطقوس والفلسفات الأخلاقية التي رأت في العدالة مسؤوليةً إلهيةً واجتماعيةً معاً.

وفي المعبد وقاعة القضاء والأرشيف الملكي، سعى الإنسان إلى ترجمة ضميره الأخلاقي إلى شكلٍ خالدٍ ودائم (Liverani, 2014; Algaze, 2020; Childe, 1950).

#### أولاً: ميلاد القانون المدوّن

يُعدّ أقدم قانونٍ شاملٍ معروف — قانون الملك حمورابي في بابل (حوالي 1750 ق.م — (تركيباً مهيباً جمع بين التقاليد السابقة وصاغها في نسقٍ موحدٍ. وقد نُقش هذا القانون على مسلةٍ من الديوريت يبلغ ارتفاعها نحو ثمانية أقدام، وأعلن ليس العقوبات فحسب، بل النظام الأخلاقي نفسه الذي أقرته الآلهة.

تناولت مواده شؤون الملكية والعقود والأسرة والجريمة، كاشفةً عن مجتمعٍ متميزٍ الطبقات، لكنه يسعى إلى الاستقرار عبر المبدأ والعدل. وفي مقدمته، يستدعي حمورابي إلهه شمش — إله الشمس والعدالة — بوصفه المصدر الإلهي للسلطة، فيجمع بذلك بين الدين والأخلاق والحكم في منظومةٍ واحدةٍ.



ومن خلال شريعة حمورابي، لم تعد العدالة فعلًا إراديًا أو انتقامًا شخصيًا، بل أصبحت عهدًا مكتوبًا بين الحاكم والشعب، حيث تجسّد الإقرار الإلهي في منطق القانون الإنساني (Liverani, 2014; Nissen, 2002; Bryce, 2005).



Figure 1: The Stele of Hammurabi (c. 1750 BCE)

*A diagram showing the upper relief depicting King Hammurabi receiving the law from the god Shamash, symbolizing divine sanction of justice.*

## تأمل

لم يكن قانون حمورابي مجرد نصّ قانوني، بل كان أوّل دستورٍ أخلاقيٍّ للبشرية. لقد أدرك أن السلطة لكي تبقى، يجب أن تُقَيّد بالعدالة. فعندما نُقِشت القوانين على الحجر، كانت الحضارة الأولى تنقش ضميرها في الخلود —محوّلة السلطة إلى مساءلة، والعدالة إلى أساسٍ للبقاء (Liverani, 2014; Childe, 1950).

## ثانيًا: مفهوم “ماعت” والمثال المصري للنظام

بينما قامت بلاد الرافدين بتقنين القانون، قامت مصر بتجسيده. فقد مثّل مفهوم ماعت (Ma'at) في الفكر المصري تناغم الكون —وحدة الحق والعدالة والتوازن.

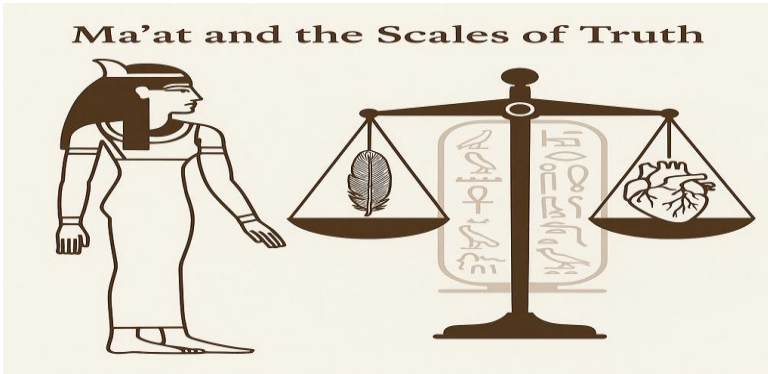
وكان **الفراعنة** يحكمون لا بمراسيم فحسب، بل باعتبارهم **أوصياء على ماعت**، مسؤولين عن حفظ التوازن الكوني بين **الآلهة والطبيعة والمجتمع**.

وكان القضاة يُعرفون باسم **كهنة ماعت**، وفي كتاب **الموتى** تُوزن كلُّ روحٍ في الميزان مقابل **ريشة ماعت** — رمز الحقيقة المطلقة.

وبذلك أصبحت العدالة في مصر ليست واجباً مدنياً فحسب، بل **تكليفاً كونياً**، يربط سلوك الإنسان بالنظام الإلهي.

وعلى خلاف الشرائع العقابية في بلاد الرافدين، كانت **العدالة المصرية إصلاحيةً** تصالحية، تهدف إلى **استعادة الانسجام** لا الانتقام. فإعادة ماعت كانت تعني إعادة إيقاع الخلق نفسه — ذلك التوازن الأخلاقي والكوني الذي تقوم عليه الحياة. (Kemp, 2006; Hornung, 1999; Assmann, 2002).

**Figure 2: Ma'at and the Scales of Truth**



*A depiction of the weighing of the heart scene: the heart of the deceased balanced against the feather of Ma'at, representing moral equilibrium.*

## تأمل

كانت عبقريّة مصر في كونها **أخلّقت الكون نفسه**. فمن خلال الربط بين **الحق والنظام**، حوّلت ماعت العدالة من حاجة اجتماعية إلى واجب مقدّس — توازن بين الفعل الإنساني والانسجام الإلهي. وفي هذا التصرّو، لم تكن الأخلاق تُفرض من سلطة خارجية، بل تنبع من بنية الخلق

ذاتها، حيث امتزجت الأخلاق بعلم الكون في منظومة واحدة من المعنى والنظام (Assmann, 2002; Hornung, 1999; Kemp, 2006).

### ثالثاً: المعاهدات الحثية وأخلاقيات العهد

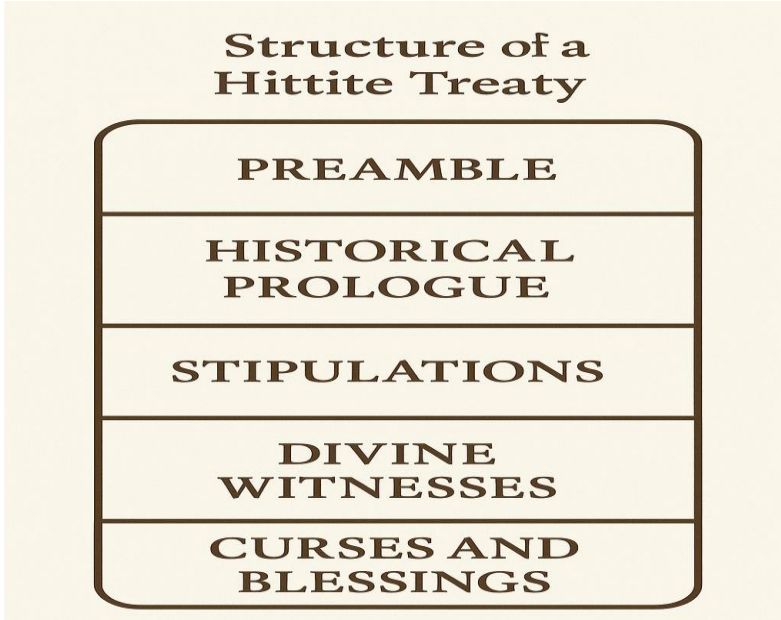
في الأناضول، أضافت الإمبراطورية الحثية بُعداً جديداً إلى مفهوم القانون: هو المعاهدة بوصفها عقداً أخلاقياً.

فبين نحو 1400 و1200 قبل الميلاد، كان الملوك الحثيون يُنظّمون علاقاتهم مع الدول التابعة عبر عهود مكتوبة رسمية تُختم بأيمان إلهية مقدسة. تبدأ كل معاهدة بمقدمة تاريخية تستعرض أعمال الملك الإحسانية السابقة، ثم تتبعها بنود الالتزامات، والبركات الموعودة للوفاء، واللعنات المترتبة على الغدر.

ولم تكن تلك الوثائق مجرد أدوات دبلوماسية، بل كانت تعبيراً عن الذاكرة الأخلاقية — إذ ربطت الإحسان الماضي بالواجب المستقبلي. لقد جمع النموذج الحثي بين القانون والتاريخ والإيمان، مؤسساً لفكرة جديدة مفادها أن السلطة المشروعة لا تقوم إلا على الاعتراف المتبادل والمسؤولية الأخلاقية.

كان هذا النموذج — حيث الالتزام يستند إلى الذاكرة والاختيار — ذا أثر عميق في التقاليد التعاقدية التوراتية والشرقية اللاحقة، حيث لم تنشأ العدالة من القهر، بل من الرضا والوعي تحت الشهادة الإلهية (Bryce, 2005; Liverani, 2014; Kitchen, 1969).

**Figure 3: Structure of a Hittite Treaty**



*A schematic layout showing the standard sections: Preamble, Historical Prologue, Stipulations, Witnesses, Blessings, and Curses.*

كان العهد الحثي أكثر من دبلوماسية؛ كان لاهوتًا أخلاقيًا. فقد قدّم فكرةً ثوريةً مفادها أن الولاء ليس سياسيًا فحسب، بل أخلاقي أيضًا — وأن العلاقات بين القوى تحتاج إلى الإيمان بقدر ما تحتاج إلى القوة.

### رابعًا: الكتابة أداة العدالة

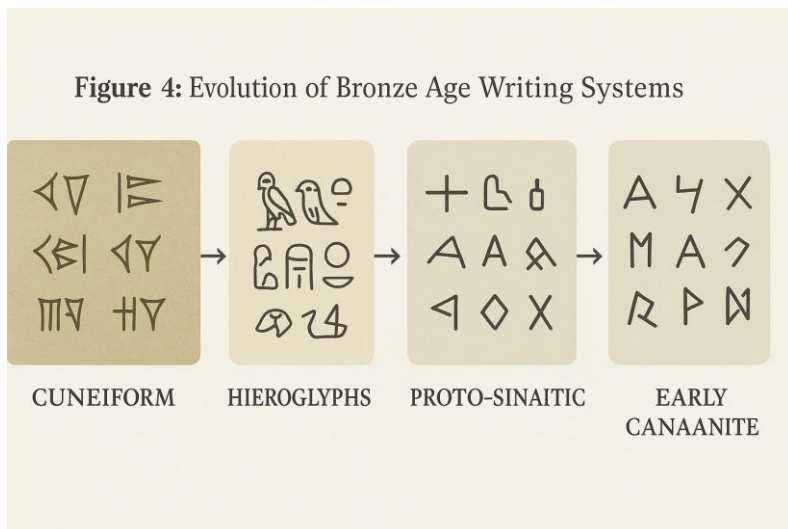
تزامن نشوء القانون والكتابة المقدسة مع تطوّر أنظمة الكتابة — الأدوات التي حفظت بها الحضارة نظامها واستمراريتها.

- في بلاد الرافدين، دُوّنت الكتابة المسمارية العقود والشرائع والفرمانات الملكية.
- وفي مصر، حُطّت الهيروغليفية بالأدعية والطقوس والمراسيم الملكية.
- أما الكتابات السامية المبكرة فقد بدأت بتبسيط الرموز، مما أدى إلى ديمقراطية الكتابة وتوسيع نطاق المعرفة القانونية لتتجاوز الكهنوت إلى عامة المجتمع.

لقد غيّرت هذه الأنظمة مفهوم الحكم؛ إذ أصبح القانون للمرة الأولى أطول عمراً من الحاكم نفسه.

جعلت الكتابة العدالة غير شخصية، ودائمة، وقابلة للمراجعة — وهو مبدأ سيغدو الركيزة الفكرية والروحية للحضارات اللاحقة، من التوراة إلى القرآن الكريم.

### Figure 4: Evolution of Bronze Age Writing Systems



*A comparative diagram showing cuneiform tablets, Egyptian hieroglyphic stelae, and early alphabetic inscriptions from the Sinai.*

## الكتابة: الميلاد الثاني للضمير

فما كان يوماً يُتلى على ألسنة الكهنة، صار يُسجّل بأيدي الكتبة — شهادة خالدة تربط بين الأحياء والأموات تحت أفق أخلاقي واحد. ومن خلال ديمومة النقش، حقّق الإنسان استمرارية في المسؤولية: إذ أصبح الكلام، الذي كان زائلاً، أبدياً، وغدت الذاكرة منضبطة بمنطق القانون (Nissen, 2002; Childe, 1950).

## خامسًا: القداسة والدولة

خلال العصر البرونزي، لم تكن الدين والقانون منفصلين، بل توأمين في نشأة الحضارة.

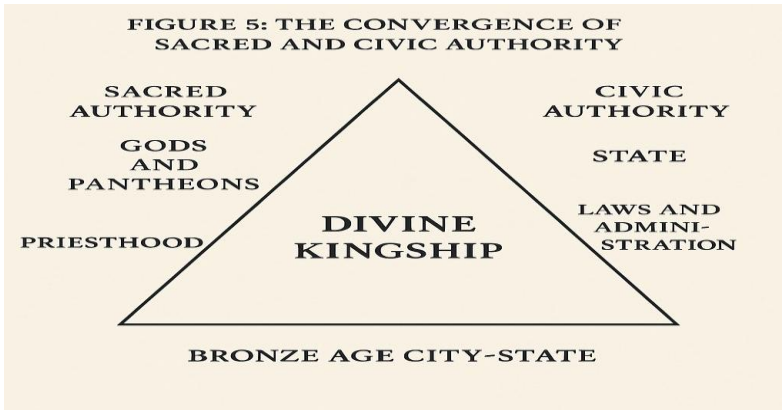
فقد مثل الكهنوت الطبقة الأخلاقية والإدارية معًا، يتوسّط بين الإلهي والسياسي. وكان مجمع الآلهة ذاته صورة مصغرة للمجتمع البشري — كلُّ إله يجسّد جانبًا من العدالة أو الخصوبة أو الحرب، فتنشكّل من صورهم المؤسسات الإنسانية.

في بلاد الرافدين، كان الملوك يُلقَّبون بـ«رعاة الشعب»، المكلفين بحفظ النظام الإلهي على الأرض.

وفي مصر، لم يكن الفرعون مختارًا من الآلهة فحسب، بل مولودًا منها — ابنًا إلهيًا تتمثل مهمته في صون ماعت.

أما في الأناضول، فقد حكم الملك الحثّي بالعهد والقسم، يستمد سلطته من الذكرى الطقسية والالتزام الأخلاقي.

وهكذا قدّمت القداسة أكثر من مجرد شرعية للحكم؛ لقد أُرست بنية لاهوتية للحكم، تُعرّف الخير والشر من خلال الطقس بقدر ما تحدده المراسيم. فأن تحكم، هو أن تحافظ على التوازن بين السماء والأرض، وأن تقضي، هو أن تجسّد الإرادة الإلهية في صورة بشرية (Liverani, 2014; Bryce, 2005; Kemp, 2006; Assmann, 2002).



*A conceptual diagram showing overlapping circles of Religion, Law, and Kingship, symbolizing their fusion in Bronze Age civilizations.*

لقد وُلِدَ القانون في المعبد قبل أن ينتقل إلى القصر. فحين اتّحد الأمر الإلهي مع النظام المدني، اكتشفت الحضارات الأولى أن أطول الإمبراطوريات عمراً لم تُبنَ من الطوب، بل من الإيمان. صار المعبد أول محكمة، والكاهن أول قاضٍ — فتحوّل العبادة إلى حكم أخلاقي، والإيمان إلى هندسة اجتماعية. (Assmann, 2002; Liverani, 2014).

## الخاتمة

من مسألة حمورابي إلى ماعت المصرية والمعاهدات الحثيّة، كشف العصر البرونزي عن حقيقة عميقة: أن الحضارة تبقى بالعدالة.

حوّل القانون السلطة إلى مسؤولية، والدين إلى أخلاق، والكتابة إلى ذاكرة أخلاقية خالدة.

واتّحد المقدّس والاجتماعي في لغة كونية واحدة — هي الإيمان بأن النظام يجب أن يخدم الحياة، وأن العدالة، التي نطق بها الآلهة، يجب أن تُكتب بأيدي البشر.

ومن خلال هذا التزاوج بين الإلهي والإنساني، دخلت البشرية عصرها الأول من الوعي الأخلاقي — حيث أصبح حكم المجتمع لا ينفصل عن حكم الضمير (Kemp, 2006; Bryce, 2005; Liverani, 2014; Nissen, 2002).

## تأمل

إن القانون هو الضمير المنظّم — تحويل الحق الإلهي إلى واجب إنساني. إنه الجسر بين السماء والأرض، والانضباط الذي يُحوّل الحدس الأخلاقي إلى بنية للحضارة.

ومن خلاله تعلّمت الإنسانية أن تحكم لا بالقوة فحسب، بل بالذاكرة — أن تتذكّر لماذا يجب أن تحكم بالعدل. (Childe, 1950; Algaze, 2020).

## التقاليد الموازية للقانون والنظام المقدّس

### أولاً: ما بعد بابل — السوايق السومرية والآشورية

قبل أن ينقش حمورابي مبادئه على الحجر بزمنٍ طويل، كانت شعوب جنوب بلاد الرافدين قد صاغت بالفعل أسس النظام القانوني.

فقد مثل قانون أورنامو (حوالي 2100 ق.م)، المكتشف في أنقاض مدينة أور، أقدم مجموعة قوانين معروفة في التاريخ.

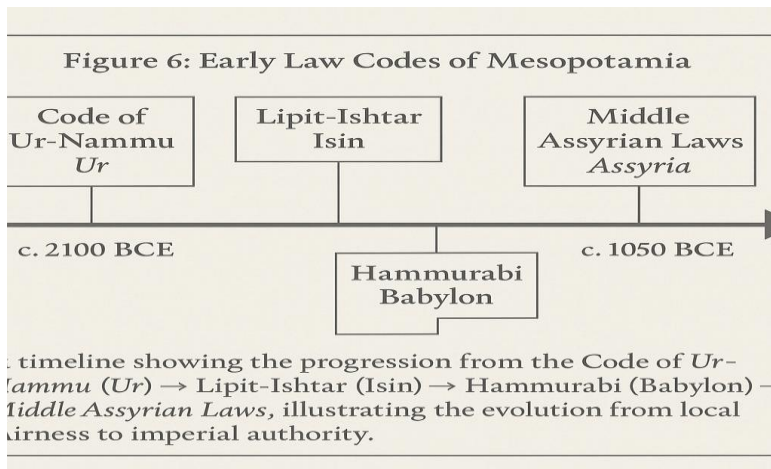
وكانت نبرته إنسانية واضحة، تُفضّل التعويض على الانتقام: فبدلاً من العقوبات الوحشية أو الإعدام، نصّ على الغرامات والتعويضات — اعترافاً أخلاقياً بأن العدالة ينبغي أن تُصلح لا أن تُفني.

أما قانون لبِت-عشتار في إيسن (حوالي 1900 ق.م)، فقد طوّر تلك المبادئ أكثر، رابطاً بين القانون والعدل الإلهي والملوكية. تُظهر هذه الأنظمة المبكرة حضارةً تسعى إلى التوازن بين السلطة والرحمة، ممهّدةً لما سيعرف لاحقاً بالازدواجية الأخلاقية التي صاغت كلاً من الشرائع البابلية والأخلاق التوراتية.

أما القوانين الآشورية الوسطى (حوالي 1300–1100 ق.م)، فقد مثّلت مرحلةً إمبراطوريةً جديدة، حيث أصبح القانون أداةً للنظام عبر إمبراطورية واسعة ومتنوعة.

نظّمت تلك القوانين الملكية والإرث والزواج والعبودية، مكرّسةً الانتقال من عدالة محلية مرنة إلى سلطة مركزية صارمة.

لقد عبّر النظام الآشوري عن نضج فنّ الحكم — حيث أصبح القانون وسيلةً ليس للعدالة فحسب، بل للإمبراطورية ذاتها (Liverani, 2014; Nissen, 2002; Bryce, 2005).





إن الرحلة من أور إلى بابل تُجسّد مسيرة نُضج العدالة ذاتها —من التعاطف إلى الإمبراطورية، ومن أخلاقيات القبيلة إلى عالمية القانون. فما بدأ كإحساسٍ بدائيٍّ بالإنصاف تطوّر إلى عهدٍ مكتوبٍ للحضارة، حيث لم تُعدّ العدالة ميراثاً، بل عقلاً ومنطقاً وإعلاناً وذاكرةً محفوظة (Liverani, 2014; Nissen, 2002).

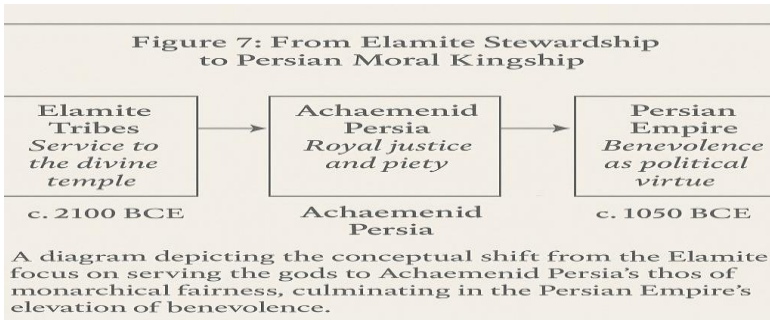
## ثانياً: عيلام والمفاهيم البارزة للعدالة قبل الفارسية

إلى شرق بلاد الرافدين، برزت حضارة عيلام —المتركزة في سوسة وأنشان — كإحدى أوائل الثقافات الفارسية التي جمعت بين الوصاية الإلهية والمسؤولية الاجتماعية.

تشير النقوش المنسوبة إلى ملوك عيلام إلى واجبهم أمام الآلهة، لا كفاتحين بل كأوصياءٍ على الخلق، مؤكدين على طهارة الحكم وقُدسية القسم. لقد كان الحكم في عيلام يُفهم بوصفه أمانةً مقدسة —مزيجاً من النزاهة الروحية والواجب المدني.

وقد مهّد هذا التيار الأخلاقي لظهور النموذج الأخلاقي للملوكية الأخمينية لاحقاً. فعندما فتح كورش الأكبر بابل عام 539 ق.م، حملت إعلاناته —كما حفظها أسطوانة كورش— صدى التقاليد العيلامية والرافدية معاً. فقد قدّم نفسه لا كغازٍ مدمر بل كمُصلِحٍ وبانٍ، مؤكّداً حق الشعوب في العبادة بحرية والعودة إلى معابدها وأوطانها.

في رؤيته تلك، أصبحت العدالة عقداً كونياً بين الحاكم والإنسانية، تتجاوز العرق والعقيدة. ولم تعد السلطة تُشرعُن بالخوف، بل بالخدمة —فالحاكم وصيّ على النظام الإلهي وضامنٌ لكرامة الإنسان (Briant, 2002; Kuhrt, 2007; Potts, 1999).



## تأمل

في فارس، أصبحت العدالة جغرافياً أخلاقية — مبدأً يوحد الشعوب المتنوعة عبر الاحترام لا الإخضاع

لم تُتصوّر الإمبراطورية بوصفها سيطرةً وهيمنةً، بل وصايةً ورعايةً، حيث تقوم شرعية الحاكم على صون كرامة المحكومين. إن الإسهام الفارسي في الحضارة لم يكن في الفتح العسكري، بل في توحيد التنوع توحيداً أخلاقياً

رؤية جعلت من العدالة لغةً مشتركةً بين الإنسان والسلطة (Briant, 2002; Kuhrt, 2007).

## ثالثاً: جنوب الجزيرة العربية وقوانين الحرمات

في أعماق جنوب الجزيرة العربية، بعيداً عن وديان الرافدين ووادي النيل، نشأت حضارات سبأ وقثبان ومعين وحضرموت، وقد صاغت هذه الممالك أنظمتها الخاصة من القوانين والقداسة. كُتبت تلك التشريعات بخط المُسند على ألواح من الحجر الجيري أو النحاس، ويرجع تاريخها إلى نحو 1500 ق.م، كاشفةً عن مجتمعاتٍ تربطها أخلاقيات العهد والميثاق أكثر مما تربطها الأوامر الملكية.

كانت معابد المقه في مأرب ليست مراكز دينية فحسب، بل مجالس مدنية تتخذ فيها القرارات المتعلقة بالتجارة والري والرفاه العام، ويُقدّس في أنٍ واحدٍ

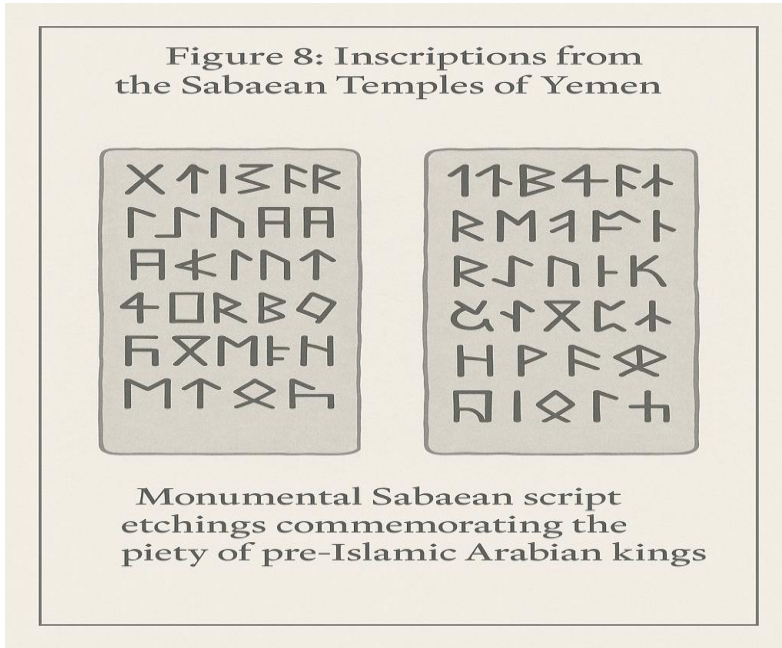
لقد أدّى القانون في جنوب الجزيرة وظيفتين متكاملتين — شعيرة مقدسة وعقدًا اجتماعيًا عامًا، يربط النظام الأخلاقي للسماء بـ النظام المادي للمجتمع.

وكانت القوانين المتعلقة بالماء — أثمن الموارد في الصحراء — تجسيداً بليغاً لهذا التداخل بين الأخلاق والبيئة والمساءلة الإلهية، إذ كانت العدالة هي ما يضمن البقاء ذاته.

ومن أقدم تلك القوانين ما يُعرف بـ قانون الآبار، الذي نظم حقوق القبائل المجاورة وواجباتها في صيانة قنوات الري.

وكانت مخالفة هذه القوانين ليست جريمة مدنية فحسب، بل خطيئة ضد الآلهة، التي يُعتقد أن رضاها يجلب الخصب والمطر.

ومن خلال هذه المبادئ، حفظت حرمان الجزيرة العربية ما يمكن تسميته بـ لاهوت المسؤولية تجاه الطبيعة والجار — أول أخلاق بينية في التاريخ، مبنية على الإيمان والميثاق (Robin, 1997; Beeston, 1981; Breton, 2007).



### تكشف الشرائع العربية الجنوبية

أنها تمثل حضارة كان فيها الإنسان والطبيعة والألوهية كياناً واحداً لا ينفصل — فالقانون كان عهداً بين الإنسان والأرض التي تغذيه. وفي تلك الحرمان الصحراوية، كان النظام الأخلاقي بينياً وروحياً في آن واحد: فمخالفة العدالة كانت إخلالاً بتناغم الخلق نفسه. (Robin, 1997; Breton, 2007).

## رابعاً: التلاقي الأوسع — الجغرافيا الأخلاقية الموحدة

مع نهاية العصر البرونزي، تجاوز مفهوم العدالة حدوده المحلية ليصبح مثلاً مشتركاً في العالم المترابط للشرق الأدنى. لقد انتقلت العدالة مع التجار والدبلوماسيين والكتبة على طول شرايين التبادل التي ربطت بين وادي السند ودجلة والفرات وبلاد الشام والبحر الأحمر.

عبرت كل حضارة عن القانون بلغة الخاصة —  
الردّ السومري، وماعت المصرية، والعهد الحثي، والوصاية الفارسية، والقداسة  
العربية  
لكنها جميعاً تحدت قواعد أخلاقية واحدة: أن النظام أمانة مقدسة.

كانت أرشيفات المعابد ومسلات الملوك وحرمان القبائل  
ليست سوى تجليات متعددة لحقيقة واحدة —  
أن السلطة لا تكتسب شرعيتها إلا بخدمتها للعدالة واتساقها مع الإرادة الإلهية.

وتدلّ وحدة هذه الجغرافيا الأخلاقية على أن العصر البرونزي،  
لم يكن عصر ممالك منعزلة،  
بل حواراً أخلاقياً واسعاً —

تبادلاً للأفكار حول القانون والواجب ومعنى النظام في قصة الإنسان  
(Liverani, 2014; Algaze, 2020; Kuhrt, 2007).

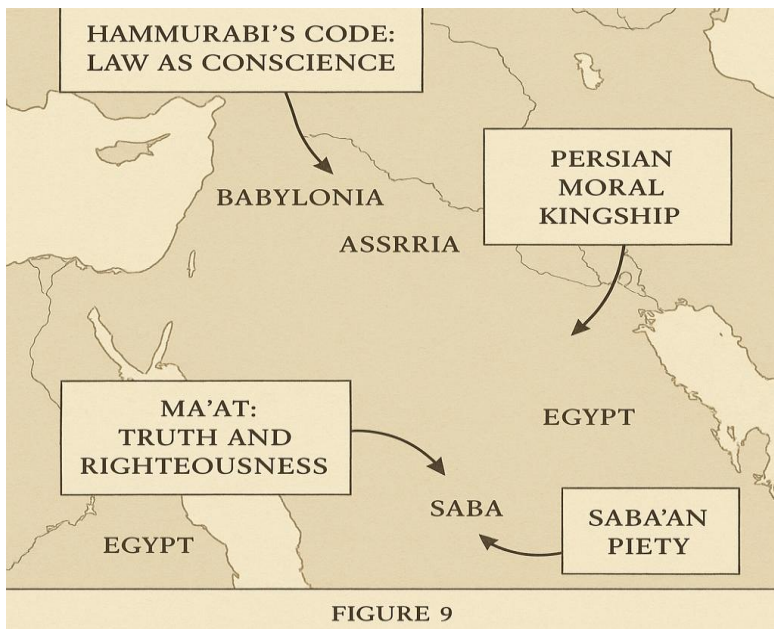
## العصر البرونزي: عصر الترابط العالمي الأول

لم يكن العصر البرونزي عصر المدن والقوانين فحسب؛  
بل كان أول عصر للاتصال الكوني.  
فعبّر الصحارى والجبال والبحار،  
بدأت المجتمعات الإنسانية تنسج شبكات مبكرة للتجارة والمعرفة والفن.

أصبح العالم الممتد بين النيل والفرات ومرتفعات الجزيرة العربية  
نسيجاً من التبادل المتواصل،  
يربط الحضارات البعيدة عبر تجارة المعادن والحبوب والمنسوجات والأفكار.

وامتدت ممّرات التواصل من جيل وأوغاريت على الساحل الشامي إلى دلمون ومَجَن وسبأ في الجزيرة العربية، ثم شرقاً إلى عيلام ووادي السند.

وبحلول منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد، كانت هذه الدائرة المترابطة تؤدي دور ممّر متواصلٍ للتفاعل — بمثابة السابقة الأولى للعولمة الحديثة، حيث كانت السلع والرموز والأفكار تنتقل بحرية تماماً كما تنتقل التقنيات والمعتقدات (Algaze, 2020; Liverani, 2014; Kohl, 1987).



*A regional map showing the primary centers of law and sacred kingship — Ur, Babylon, Thebes, Hattusa, Susa, and Marib — connected by trade and cultural routes of moral exchange.*

## الفصل الثالث – التجارة والتقنية وشبكة التبادل

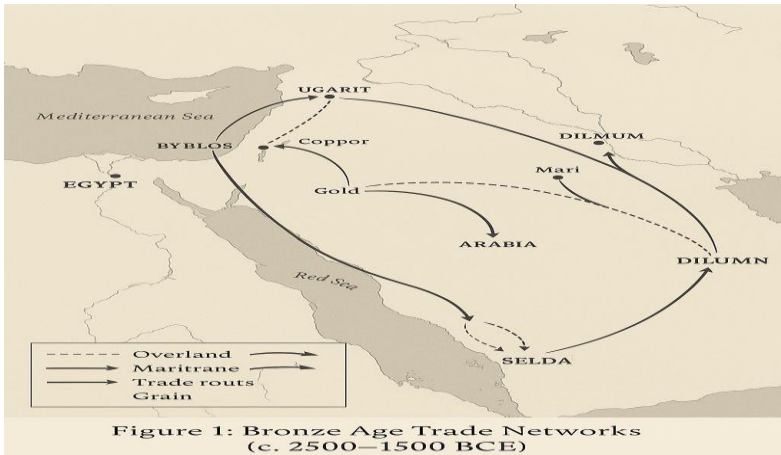
أولاً: اقتصاد العصر البرونزي — دوران المعادن والبضائع

كانت المادة المميّزة للعصر البرونزي هي البرونز، وهو خليط من النحاس والقصدير. ولأن هذين المعدنين نادراً ما يُوجدان معاً في موضع واحد، فقد تطلّب إنتاجهما شبكات تجارة واسعة الامتداد عبر القارات القديمة.

- النحاس كان يُستخرج من قبرص وعُمان (مَجَن القديمة) وسيناء والأناضول.
- أما القصدير فكان أكثر ندرة، يأتي أساساً من آسيا الوسطى وشرق الأناضول والهضبة الإيرانية.

وقد ولّد هذا النقص المتبادل اقتصاداً ضخماً للحركة والتبادل. سارت قوافل التجار عبر صحاري سوريا والجزيرة العربية، فيما كانت السفن تجوب مياه النيل والخليج الفارسي والساحل الشامي، ناقلَةً المعادن والحبوب والأخشاب والسلع النفيسة.

أصبحت موانئ مثل جبيل وعُكَّار وأوغاريت محطات نابضة بالحياة، تلتقي فيها الذهب المصري مع المنسوجات الرافدية والنحاس العربي والأرز الشامي. ولم تكن هذه الطرق البحرية والبرية شرايين اقتصادية فحسب، بل كانت الجهاز الدوري للحضارة، تحمل تدفق الثروة المادية والمعنى الثقافي في آنٍ واحد. (Kohl, 1987; Muhly, 1973; Potts, 1990)



لم تكن التجارة في العصر البرونزي عملاً جشعاً، بل وسيلة بقاء

لقد كانت التجارة ضرورةً وجوديةً، لا نزوةً طمع. فقد وُحِّدَت الشعوب البعيدة في إيقاع واحد — إيقاع التبادل الذي جعل الحضارة ممكنةً. وعبر الصحاري والبحار، غدت التجارة لغةً تعاونٍ، تحوّل الاحتياج إلى اعتمادٍ متبادلٍ، والمسافة إلى حوارٍ (Algaze, 2020; Kohl, 1987).

### ثانيًا: الطرق البحرية والبرية الكبرى

لقد استند عالم العصر البرونزي إلى شريطين رئيسيين للتبادل: الطرق البرية في الهلال الخصيب، والممرات البحرية في البحر الأحمر والخليج العربي.

سارت القوافل التجارية من مدينة ماري على الفرات مرورًا بـ تدمر إلى دمشق، رابطةً بين بلاد الرافدين ومصر عبر ممرات الصحراء ومحطات الواحات.

وفي الوقت نفسه، كانت سفن دلمون (البحرين حاليًا) ومَجَن (عُمان) تنسّق مياه الخليج العربي، ناقلةً النحاس والأخشاب والسلع الفاخرة بين سومر وعيلام ووادي السند.

أما البعثات المصرية فقد وصلت إلى بلاد بونت — التي يُرجّح أنها تقع في القرن الإفريقي أو جنوب الجزيرة العربية — وعادت محمّلةً بـ البخور والعاج والذهب والأخشاب النادرة.

وفي الجنوب الأقصى، أصبحت موانئ قُتْنَا وعدن في اليمن محطاتٍ رئيسيةً للتبادل بين إفريقيا والشرق الأدنى، رابطةً حوض البحر الأحمر بعالم المحيط الهندي.

لم تكن هذه الطرق مجرد مسارات تجارية، بل كانت ممراتٍ حضاريةً تدفّقت عبرها الأفكار والتقنيات والعقائد جنبًا إلى جنب مع السلع.

وفي إيقاعها المنتظم للحركة يمكن تتبّع البذور الأولى للاقتصاد العالمي — شبكة نسجها الإنسان العادي لا الإمبراطوريات وحدها،

(Potts, 1990; Kitchen, 1993; بدافع خالد هو رغبة التواصل والارتباط  
Liverani, 2014; Beeston, 1981).



*A diagram showing key trade corridors — the Euphrates and Nile routes, Arabian Gulf and Red Sea maritime paths — linking the major civilizations of the Near East.*

### تأمل

لم تكن البحر ولا الصحراء حواجز، بل جسورًا.  
ومن خلالهما اكتشف العالم القديم أن الارتباط — لا العزلة — هو أساس الازدهار الحقيقي.

ففي إيقاع القوافل وأسرعة الأساطيل التجارية،  
تعلم الإنسان أن البقاء لا يعتمد على الفتح، بل على التبادل  
(Kohl, 1987; Potts, 1990).

### ثالثاً: التقنية والابتكار

خلف عظمة التجارة كانت تقف ثورة موازية في العمق —  
إنها ثورة التكنولوجيا.



لقد غيّر اختراع العربة الحربية مفاهيم الحركة والحرب معًا. فقد أدخلت من آسيا الوسطى حوالي عام 2000 ق.م، وكانت عربةً خفيفةً تمزج بين الخشب والبرونز والجلد، فأصبحت رمزا عالميًا للمكانة والقوة من مصر إلى عيلام. وبها أعيد تعريف مفاهيم السرعة والاستراتيجية والسلطة الملكية، إذ تحوّلت الحركة نفسها إلى رمزٍ للحضارة.

وتقدّم علم صهر المعادن بالتوازي مع ذلك. فقد طوّر الحرفيون الأفران وتقنيات الصهر والمزج المعدني، ممّا أتاح إنتاج أدوات وأسلحةٍ وحِرفٍ أقوى وأكثر دقة. لقد مثّل إتيقان النار والمعدن مظهرًا للتقدّم المادي ورمزًا للقوة الرمزية أيضًا— فقد حوّل الإنسان عناصر الأرض الخفية إلى أدواتٍ للثقافة والسيطرة.

وفي الوقت نفسه، جسّدت أنظمة الري والهندسة تنامي قدرة الإنسان على تسخير الطبيعة. أظهرت قنوات بلاد الرافدين وشبكات الريّ النيلية في مصر وعيًا دقيقًا بدورات المواسم، وربطت بين التقنية والاستقرار الزراعي والنظام الاجتماعي.

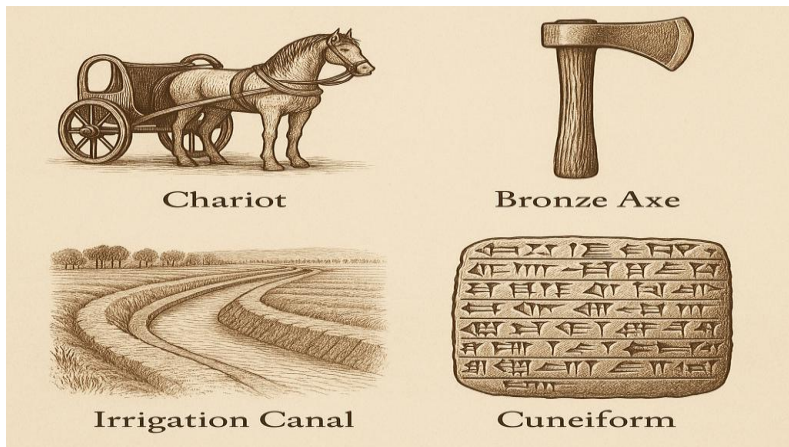
ولتنفيذ مثل هذه المشاريع، كان لا بد من أدواتٍ فكرية جديدة. فازدهرت الرياضيات والقياس:

سجّل كتبة بابل الحسابات باستخدام النظام الستيني (الأساس 60) —  
الذي يُعدّ سلف نظامنا الزمني الحديث —  
بينما أتقن مهندسو مصر الهندسة لمحاذاة المعابد، ومسح الأراضي، وتوقع فيضان النيل.

لقد شكّلت هذه الابتكارات مجتمعةً المفردات التقنية للحضارة — معرفةً مشتركةً تجاوزت الحدود، وربطت الشعوب لا بالتجارة فحسب، بل بمنطق التقدّم ذاته

(Liverani, 2014; Nissen, 2002; Kemp, 2006; Muhly, 1973; Moorey, 1994).

**Figure 3: Technological Achievements of the Bronze Age**



*A comparative chart showing key innovations — chariots, metallurgy, irrigation canals, and early mathematics — across Mesopotamia, Egypt, and Anatolia.*

## تأمل

لم يكن العقل في العصر البرونزي يرى فصلاً بين العلم والمقدس. كانت التقنية نوعاً من العبادة — شكلاً من الامتنان لله عبر إتقان الخلق. فأن يُشكّل المعدن، أو تُقاس السماء، أو يُوجّه الماء لم يكن مجرد عملٍ نفعيٍّ، بل فعلٌ تبجيلٍ وإجلالٍ. كل أداة كانت شهادة إيمان، وكل ابتكار صلاةً متحركةً في الزمن. (Kemp, 2006; Nissen, 2002).

## رابعاً: الفن ولغة الجمال

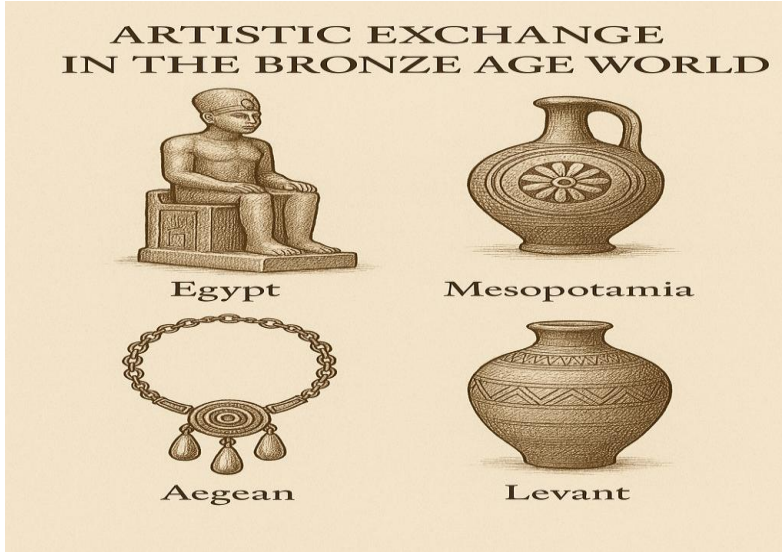
وجد ازدهار العصر البرونزي صوته الأبقى في الفن — لا بوصفه ترفاً، بل وسيلةً رمزيةً للتعبير والمعنى.

ففي المراكز الكبرى للشرق الأدنى، حوّل الفنانون الثروة المادية إلى لغةٍ بصريةٍ للروح، أعطوا العبادة والهوية والسلطة شكلاً محسوساً خالداً.

- في مصر، زينت الذهب واللازورد والعقيق الأحمر القبور والمعابد، لتكون رمزاً للأبدية والرضا الإلهي.
- في بلاد الرافدين، حوّلت الأختام الأسطوانية الفنّ إلى إدارة — روايات مصغرة تحكي الأساطير والعقود والمعاملات.
- في فارس وويلام، جسدت التماثيل البرونزية والنقوش الحيوانية حيوية الملوك وقوى الحماية والخصب.
- في جنوب الجزيرة العربية، ظهرت التماثيل الجبسية والمجامر المنحوتة بدقة مذهلة، تحمل نقوش تعيدّ تجمع بين الفن والتقدمة المقدسة.

لقد أسهم حراك الفنّانين والرموز والمواد عبر طرق التجارة في تكوين ذائقة جمالية مشتركة، مزجت بين مؤثرات إفريقية وعربية وآسيوية. ومن خلال هذا التبادل، أصبح الفن شكلاً من أشكال الدبلوماسية — حواراً صامتاً بين الحضارات، حيث غدا الجمال لغةً كونيةً يفهمها الجميع (Winter, 2000; Potts, 1990; Beeston, 1981; Moorey, 1994).

**Figure 4: Artistic Exchange in the Bronze Age World**



*Visual montage showing representative artifacts: Mesopotamian cylinder seals, Egyptian jewelry, Anatolian metalwork, and Sabaean alabaster sculpture.*

## تأمل

كان الفنّ هو المعاهدة الصامتة للعالم القديم — الجمال بوصفه أول لغةٍ للدبلوماسية، يُذكَر الحضارات بأنّ الثقافة هي روح التبادل. ومن خلال الأشكال المشتركة والرموز المتبادلة، كشف الفنّ عن حقيقةٍ أعمق من التجارة: أن حوار الإنسانية بدأ لا بالكلمات، بل بالدهشة (Winter, 2000; Potts, 1990).

## خامساً: عالم الاعتماد المتبادل

بحلول عام 1500 قبل الميلاد، لم تُعد أيُّ حضارةٍ تعيش في عزلةٍ. فحُبوب مصر كانت تُغذّي بلاد الشام، والنحاس العربي كان يُزوّد سومر بالسلاح، والقصدير الفارسي كان يُغذّي ورش البرونز المصرية.

لقد كانت الاقتصادات الكبرى للشرق الأدنى مرتبطةً في دائرةٍ من الضرورة، حيث عوّض وفّر كل منطقةٍ نقصَ الأخرى.

لم تكن التجارة إذن ترفاً للأثرياء، بل شريان الحياة البنيوي للحضارة — القوة الخفية التي استقرّت بها الممالك ونمت بها مسيرة التقدّم. ومن خلال القوافل والموانئ والتحالفات، أصبح ازدهار أيّ مملكةٍ لا ينفصل عن ازدهار جيرانها.

وعندما انهارت تلك الشبكات حوالي 1200 قبل الميلاد، يفعل موجات الهجرة والحروب والاضطرابات المناخية، تداعّت معها الإمبراطوريات التي قامت على أسسها. فسقوط أوغاريت وحاتوسا وموكناي

لم يكن مجرد نهايةٍ سياسية، بل كشف حقيقةً أخلاقيةً وماديةً — أن الترابط هو أساس البقاء، وأن العزلة هي مقدّمة الانهيار (Liverani, 2014; Cline, 2014; Muhly, 1973; Algaze, 2020).

## Flow of Materials and Ideas in the Bronze Age



*A conceptual map illustrating the circulation of essential commodities — copper, tin, gold, grain, and ivory — with arrows representing both trade and cultural diffusion.*

تأمل

إن الاتصال هو الذي يصوغ المصير. لقد أثبت العصر البرونزي أن تقدّم الإنسان لا يقوم على العزلة، بل على التبادل — تبادل السلع والأفكار والرؤى. ومن خلال الحركة واللقاء، تعلّمت الحضارة أن الازدهار لا يولد من التملك، بل من العلاقة. (Algaze, 2020; Kohl, 1987).

## الخاتمة

لقد نسجت شبكة التجارة والتقنية والفن في العصر البرونزي أولَ عالمٍ مترابطٍ بحق. من موانئ جبيل إلى معابد مأرب، ومن قنوات بابل إلى أهرامات الجيزة، كان نبض التبادل يوحد البشر عبر الصحارى والجبال والبحار.

سارت التجارة والابتكار والإيمان معًا تنتسج شبكةً ماديةً وأخلاقيةً حوّلت التعايش إلى حضارة. وقد أرسّت هذه الشبكة من الاعتماد المتبادل أسس كل ما تلاها: من انتشار اللغات إلى امتزاج التقاليد، وولادة مصانير مشتركةٍ عبر القارات.

ولا تزال أصدااء تلك المرحلة تتردد في حضارتنا العالمية الحديثة، مذكّرةً إيّانا بأن التقدم لا يُصان بالجدران التي نبنيها، بل بالروابط التي نحافظ عليها — تلك هي الوصية الخالدة لعصرٍ علّم الإنسان أول مرة كيف يعيش ويتعلّم ويزدهر مع الآخرين (Liverani, 2014; Cline, 2014; Potts, 1990; Kemp, 2006).

# الإطار الزمني الرابع: عصر الممالك والنبوة (1200 – 1 ق.م)

الإمبراطوريات الأولى، الضمير النبوي، وميلاد الفلسفة

## الفصل الأول – إمبراطوريات النظام

أولاً: من الانهيار إلى التوحيد

شهدت القرون التي تلت عام 1200 قبل الميلاد إحدى أعمق التحولات في تاريخ الإنسانية. فقد أدّت انهيارات دويلات العصر البرونزي — الناتجة عن الغزوات والمجاعات واضطراب شبكات التجارة — إلى بزوغ عالمٍ جديدٍ من الحديد والإمبراطورية والفكر.

ومن رماد الممالك المتناثرة نهض نظامٌ سياسيٌّ أكثر انضباطاً واستمرارية، قائمٌ على المركزية والإدارة المنظمة.

لقد كانت تلك مجتمعاتٍ تعلّمت من السقوط؛ فقوتها لم تكن في الفتح العسكري فحسب، بل في قدرتها على تحويل الذاكرة إلى مؤسسة، والفوضى إلى نظام.

وفي أرجاء شرق المتوسط والشرق الأدنى، أعادت القوى الكبرى تنظيم نفسها في دولٍ أقوى وأكثر تماسكاً، قادرةً على مواجهة الأزمات عبر البنية والإدارة.

برزت في هذا المشهد مصر في عصر المملكة الحديثة، والإمبراطوريتان الآشورية والبابلية الحديثتان، ثم فارس في عهد الأخمينيين، نموذجاً لهذا الطور الجديد من الحضارة.

فقد أنشأت هذه الدول جيوشاً دائمة وإدارات مهنية وأنظمة مدونة للضرائب والقوانين، مؤسسةً بذلك أولى البيروقراطيات الإمبراطورية في التاريخ.

لقد تحوّل عصر الملوك إلى عصر الدولة اتحاداً بين الحكم والفكر والسلطة الأخلاقية الذي سيشكل الخيال السياسي للعالم القديم قرونًا طويلةً قادمة (Liverani, 2014; Kuhrt, 2007; Bryce, 2005; Kemp, 2006; Cline, 2014).



## إعادة بروز الإمبراطوريات

كان المشهد السياسي في الشرق الأدنى وشرق البحر المتوسط بعد انهيار ممالك العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1200 ق.م) مزيجاً من التفكك والتجدد التدريجي. وتُظهر خريطة تلك الفترة عودة القوى الإمبراطورية الكبرى إلى الظهور — من مصر في عهد المملكة الحديثة في الجنوب، إلى الدويلات الحثية في الأناضول، ونواة الإمبراطورية الآشورية الحديثة في بلاد الرافدين، والكيانات الفينيقية والإسرائيلية المبكرة على الساحل الشامي.



تشير الأسهم على الخرائط إلى طرق التجارة والحملات العسكرية التي أعادت ربط العالم القديم بعد غزوات شعوب البحر، لتستعيد بذلك تدفق البضائع والأفكار والنفوذ الذي انقطع. وقد شكّل هذا إعادة البناء الإقليمي للنظام الأساس لظهور أولى الإمبراطوريات المركزية في التاريخ — دول قادرة على بسط سلطتها عبر القارات من خلال الإدارة والتنظيم بقدر ما من خلال القوة العسكرية.

في مصر، وسّع فراعنة المملكة الحديثة — خصوصًا تحتمس الثالث ورمسيس الثاني نفوذهم عميقًا في النوبة وسوريا-فلسطين، مؤمنين سلطانهم عبر معاهدات تبعية وتحالفات زواجية ودعاية أثرية ضخمة. ويمثّل صلح قادش (حوالي 1274 ق.م) بين مصر والحثيين أقدم معاهدة سلام دولية معروفة — دليلاً على إدراك مبكر بأن الاستقرار لا يتحقق بالقوة وحدها، بل بالنظام المتفاوض عليه.

أما الآشوريون، فبدأوا في القرن التاسع قبل الميلاد تأسيس أول إمبراطورية منظمة في تاريخ الفتوحات. كانت عواصمهم المحصّنة — نينوى ونمرود وخورساباد — رموزًا لدمج الهيمنة العسكرية بـ التحكّم الإداري. وعلى الرغم من صرامة حكمهم، تكشف أرشيفاتهم عن نشوء نظم المراسلات الرسمية، التي ستصبح لاحقًا البذور الأولى للبيروقراطية الإمبراطورية.

أما البابليون فقد ورثوا هذه الهياكل وصقلوها، فجمعوا بين العظمة المعمارية والطموح الفكري. فمن بابل خرجت المعابد والزيقورات، لكن أيضًا وعيٌ أدبيّ جديد جمع بين الأسطورة والملاحظة العقلانية — كما يظهر في ملحمة جلجامش والسجلات الفلكية ونصوص الطوابع التي سعت إلى توحيد المصير الإنساني مع النظام الكوني (Kuhrt, 2007; Liverani, 2014; Bryce, 2005; Cline, 2014; Dalley, 1998).

## ثانيًا: التركيب الفارسي — التوليفة الكبرى للإمبراطورية

بلغت الإمبراطورية الفارسية (القرنان السادس إلى الرابع ق.م) تجربة الشرق الأدنى في الحكم الإمبراطوري ذروتها الفكرية والأخلاقية — فكانت توليفةً بين القوة والتعبد. أسسها كورش الأكبر، فوحدت أراضي شاسعة تمتد من وادي السند إلى بحر إيجة تحت نموذج فريد من الإدارة الكوزموبوليتية.

كان فتح كورش لبابل عام 539 ق.م بداية عصرٍ جديد من التسامح الإداري. فبدلاً من محو التقاليد المحلية، قامت فارس باحتضانها، مسموحةً بـ تعايش اللغات والأديان والقوانين ضمن إطارٍ إمبراطوري واحد. أصبح الحكم وصايةً لا استعباداً، يستمد شرعيته من رؤية أخلاقية للعدالة مستوحاة من التعاليم الزرادشتية والتراث الرافدي القديم.

في عهد داريوس الأول، اكتسب هذا النموذج بنيةً مؤسسية واضحة: أدخلت العملة الموحدة، ونُظمت الأوزان والمقاييس، وأنشئ نظام بريدي واسع يربط الأقاليم عبر مسافات شاسعة. وكان الطريق الملكي، الممتد أكثر من 2500 كيلومتر من سوسة إلى ساردس، رمزاً لهذه الرؤية الجديدة للإمبراطورية — حيث أصبحت البنية التحتية أيديولوجياً، والطرق والسجلات والإصلاحات أدواتٍ لتوحيد عالمٍ متعدد الثقافات.

مثّلت التوليفة الفارسية إذاً أكثر من مجرد توسّع سياسي؛ كانت تكاملاً حضارياً، حيث تحولت الإدارة إلى فنٍ أخلاقي، وأصبح تنوع العالم يُدار بالنظام لا بالتطابق (Briant, 2002; Kuhrt, 2007; Potts, 1999; Cook, 1983).



### ثالثاً: اليقظة الأخلاقية — عصر النبوة والوحي

مع توسّع الإمبراطوريات، نشأت في الشرق الأدنى تيارات فكرية مضادة حملت تأملاً أخلاقياً عميقاً.

في عالم أصبح يُعرّف على نحوٍ متزايدٍ بـ الفتح والتدرّج الهرمي للسلطة، برز الأنبياء والمصلحون ليواجهوا الفراغ الأخلاقي للقوة، مُعيدين تعريف الدين بوصفه ضمير الحضارة.

لقد غيّرت أصواتهم الفهم القديم للإله — من كونه حامي القبيلة إلى كونه الحاكم الكوني العادل، فولدت بذلك فكرة أن العدل — لا الهيمنة — هو ما يصون مصير الإنسان.

في التقليد الإسرائيلي، مثّل موسى تحرير الإيمان من الطغيان. حوّل ناموس العهد، المتجسّد في الوصايا العشر، الوحي إلى أخلاقٍ كونيةٍ تقوم على العدالة والرحمة والمسؤولية أمام الله. ثم وسّع الأنبياء اللاحقون — إشعيا، إرميا، عاموس، وميخا — هذه الرؤية إلى فلسفةٍ أخلاقيةٍ للتاريخ، فنذّروا بـ الظلم والنفاق الطقوسي وغرور الملوك، مؤكدين أن الأمم تُدان لا بقوتها، بل باستقامتها.

شكّلت هذه الرسائل نقطة تحوّل في تطوّر الدين — من العبادة الشكلية إلى التوحيد الأخلاقي. وكانت رسالتهم قاطعة: إن الحق لا يُقام بالمعبد ولا بالعرش، بل بانسجام السلوك الإنساني مع عدل الله.

وفي الوقت نفسه، ظهرت في فارس تعاليم زرادشت (زَرَأُشْتَرَا) التي صاغت ثنائية كونية بين الأشا (الحق والنظام) والدروج (الباطل والفوضى). أعاد الزرادشتيون تعريف الحياة الأخلاقية كساحة للصراع الأبدي بين الخير والشر، وجعلوا من الاختيار الأخلاقي جوهر الإيمان. وقد أثر هذا التصور تأثيراً عميقاً في مفاهيم الخير والشر، والجنة والنار، والحساب الإلهي، جامعاً بين البصيرة الروحية والنظام الميتافيزيقي.

وبحلول القرن السادس قبل الميلاد، أصبحت الروح النبوية ظاهرةً عالميةً. فقد شهدت الحضارات الكبرى يقظاتٍ متوازيةً في أماكن مختلفة من العالم:

- في الهند، أعادت الأوبانيشاد وتعاليم غوتاما بوذا توجيه الدين من الطقوس الخارجية إلى اليقظة الداخلية والرحمة الأخلاقية.
- في الصين، وضع كونفوشيوس ولاو تسي أسس الفلسفة الأخلاقية والتوازن الكوني، ساعين إلى الانسجام بين الفضيلة والسلطة والنظام الطبيعي.
- في اليونان، بدأ طاليس وفيثاغورس وهيراقليطس ثم سقراط يتساءلون عن طبيعة الحقيقة والعدالة والعقل، محولين الأسطورة إلى تفكير والطقس إلى بحث فلسفي.

وقد مثلّ التقاء هذه الحركات ما يسميه العلماء اليوم «العصر المحوري» عصرًا التفتت فيه أعظم حضارات البشر إلى الداخل لتسأل سؤالاً واحدًا خالداً: ما معنى أن يعيش الإنسان في ضوء الحقيقة؟ (Assmann, 2011; Jaspers, 1953; Armstrong, 2006; Kuhrt, 2007; Boyce, 1979; Liverani, 2014).

### جدول مقارنة – أبرز التقاليد الأخلاقية في الألفية الأولى قبل الميلاد

نظرة الإنسان إلى المسؤولية	مفهوم العدالة والنظام	الشخصيات / النصوص الممثلة	التركيز الأخلاقي الأساسي	الحقبة التقريبية (ق.م)	التقليد / المنطقة
الإنسان وكيلٌ أخلاقيٌّ لله، مسؤول عن العدالة والرحمة والحق.	العدالة الإلهية عهدٌ بين الله والبشر؛ الأمم تُحاكم بالاستقامة لا بالقوة.	موسى، إشعيا، إرميا، عاموس؛ التوراة وكتب الأنبياء.	المساءلة الأخلاقية أمام إله واحد؛ رفض النفاق الطقوسي والظلم الاجتماعي.	القرن 5-9	التقليد النبوي العبري (بلاد الشام)
الإنسان يختار الاستقامة بحرية؛ كل فعلٍ أخلاقيٍّ يسهم في	النظام كوني وأخلاقي؛ العدالة هي التوافق مع الحقيقة.	زرادشت؛ الأوستا.	الصراع الكوني بين الحق (أشنا) والباطل (دروج).	القرن 6-8	الزرادشتية (فارس الهضبة الإيرانية)

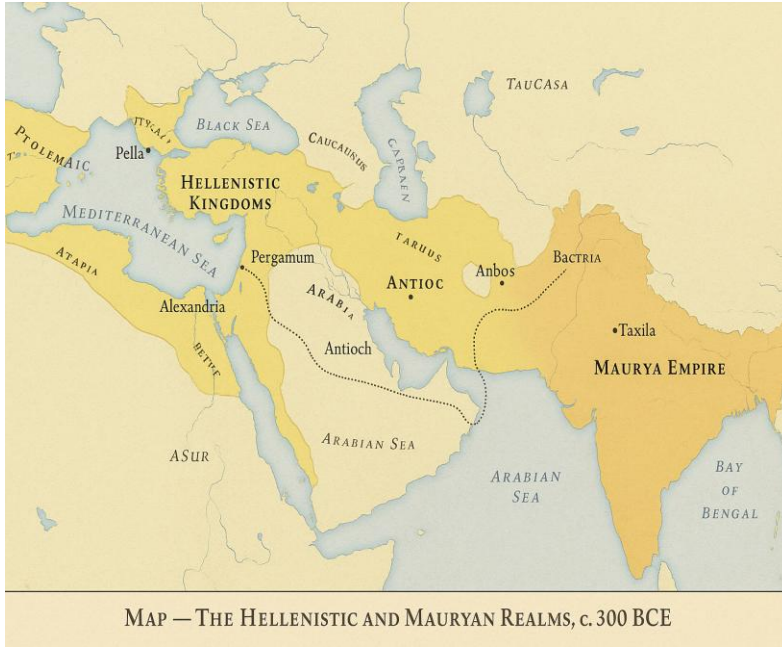
نظرة الإنسان إلى المسؤولية	مفهوم العدالة والنظام	الشخصيات النصوص الممثلة	التركيز الأخلاقي الأساسي	الحقبة التقريبية (ق.م)	التقليد / المنطقة
حفظ النظام الكوني.					
الانضباط الذاتي والرحمة يحققان الانسجام والتححرر (النيرفانا).	العدالة قانونٌ كرميٌّ: الأفعال تخلق نتائجها الأخلاقية خارج النظام الاجتماعي.	بوذا (سيدهارتا غوتاما)؛ التريبيتاكا.	التحرّر من خلال السلوك الأخلاقي والرحمة والتأمل؛ تجاوز الرغبة والجهل.	القرن 3-6	البوذية (الهند / جنوب آسيا)
على كل إنسانٍ أن ينمّي فضيلته ليحافظ على أخلاق المجتمع.	العدالة تتحقق عبر اللي (الأداب) والرن (الرحمة)؛ الانسجام بديلٌ عن الإكراه.	كونفوشيوس، منسيوس؛ «التحليلات»، «منغ زي.»	النظام الأخلاقي عبر الفضيلة والبرّ الأسري والانسجام الاجتماعي؛ الحاكم قنوة أخلاقية.	القرن 4-6	الكونفوشيوسية (الصين / شرق آسيا)
يجب أن يحكم العقل الشهوات؛ فالمعرفة والفضيلة لا ينفصلان.	العدالة انسجام الأجزاء في النفس وفي الدولة.	سقراط، أفلاطون، أرسطو؛ «الجمهورية»، «الأخلاق النيقوماخية.»	البحث العقلي في الفضيلة والعدالة والحياة الفاضلة؛ التوازن بين العقل والطبع الأخلاقي.	القرن 4-6	الفلسفة اليونانية (اليونان / المتوسط)

رغم التباعد الجغرافي، سعت هذه التقاليد جميعها إلى موازنة السلوك الإنساني مع نظام أخلاقي أو كونيّ أسمى، ممثلةً أولى اليقظات الأخلاقية العالمية التي نقلت أساس الحضارة من الملوكية الإلهية إلى الضمير الإنساني.

## تأمل

رغم تباعد الأزمنة واللغات، تكشف هذه التقاليد عن تيار فكريّ واحد متصل — هو الصحوة الأخلاقية العالمية في الألفية الأولى قبل الميلاد. فبعد أن أتقن الإنسان نظام الإمبراطورية الخارجية، بدأ يبحث عن نظام الضمير الداخلي.

ولم يعد يُقاس السلطان بالفتح والسيوف، بل بـ القدرة على حكم الذات — أن تسود الروح على القوة. (Jaspers, 1953; Assmann, 2011; Armstrong, 2006).



## تلك التطورات — مسار الضمير الإنساني

تكشف هذه التطورات عن نمطٍ تاريخيٍّ متكرّر — هو التحول التدريجي من الشرعية الإلهية للملوك إلى الشرعية الأخلاقية والعقلانية. ففي جميع الحضارات، تحول القانون من أداة للسيطرة إلى مرآة للضمير،

وتحوّل الدين من طقسٍ للعبادة إلى حكمةٍ ومعرفة،  
وتحوّلت الفلسفة من تساؤلٍ ذهني إلى مسؤوليةٍ أخلاقية.

ومن خلال هذا المسار، تعلّمت الإنسانية أن السلطة لا تُبرّر بالوراثة أو الفتح،  
بل بالعدل والفهم. أصبح حكم الأمم انعكاسًا لحكم الإنسان لنفسه —  
إنها يقظة الحضارة إلى رسالتها الأخلاقية  
(Assmann, 2011; Armstrong, 2006; Jaspers, 1953).

### خامسًا: نهاية العالم القديم

في القرون الأخيرة قبل الميلاد، توخّد حوض البحر المتوسط والشرق الأدنى  
تحت هيمنة روما — الوريثة لكلٍّ من العقلائية اليونانية والروحانية الشرقية.

نشأت	الجمهورية	الرومانية	في	القرن	السادس	قبل	الميلاد،
فجعت	القانون	أساس	الحياة	المدنية،			
مستعيدة	فكرة	العدالة	الإلهية	القديمة			

لكنها صاغتها بلغة الاجتهاد البشري والتقنين المدني.

بهذا التوليف، أكمل العالم القديم دائرته الأخلاقية والفكرية:  
من الملكية الإلهية إلى البيروقراطية الإمبراطورية، ومن الوحي إلى العقل،  
ومن الأسطورة إلى التاريخ. أصبحت الإمبراطورية مسرحًا لتلاقي تراث مصر وبابل  
وفارس واليونان وإسرائيل — حضارةٌ تسعى إلى الخلود عبر القانون لا النسب.

ومع ذلك، ظلّت حقيقة واحدة ثابتة وسط كلّ التحوّلات:  
هي التوتر بين القوة والمبدأ، بين نزعة السيطرة والرغبة في تقويمها أخلاقيًا.  
فالإمبراطوريات قامت على الانضباط والنظام،  
لكنها لم تُكتب لها الاستمرارية إلا حين توازنت بالعدالة.

لقد أصبح الأنبياء والفلاسفة ضمير العالم،  
ينكرونها بأن حضارةً بلا فضيلة ليست إلا أنقاضًا متفتنة الزخرفة،  
صالحةً للعبرة أكثر من السيادة (Kuhrt, 2007; Cartledge, 2009; Boesche, 2003; Thapar, 2002; Liverani, 2014).

## الخط الزمني — من إمبراطوريات النظام إلى إمبراطوريات الضمير

الشخصيات الممثلة	التطورات الرئيسية	المنطقة	الحقبة
رمسيس الثاني، تغلث فلاسر الأول	صعود الإمبراطوريات العسكرية، الدبلوماسية، تقنية الحديد	مصر، آشور، الحثيون	1200– 900 ق.م
إشعيا، إرميا، عاموس	تدوين القوانين، لاهوت المنفى، الأخلاق النبوية	بلاد الرافدين، الشام	900–600 ق.م
كورش الأكبر، زرادشت، كونفوشيوس	الإمبراطوريات العالمية، التوحيد الأخلاقي، اليقظة الفلسفية	فارس، الهند، الصين	600–400 ق.م
سقراط، أشوكا، شيشرون	الفلسفة العقلانية، القانون الجمهوري، العالمية الأخلاقية	اليونان، الهند، روما	400–1 ق.م

## تأمل

القوة بلا ضابط تولد الخراب، والحكمة بلا رحمة تصبح غرورًا.

لقد علّمتنا إمبراطوريات العالم القديم كيف نُنظّم وجودنا،  
لكن الأنبياء والفلاسفة علّمونا كيف نتأمّل فيه. وبنهاية العصور قبل الميلاد،  
اكتشفت الإنسانية أعظم حقيقتها: أن العدل، لا الفتح، هو المعيار الأخير للعظمة.



## الفصل الثاني – فجر الوحي

### إبراهيم الحنيف وإعادة يقظة ضمير

عصر التأمل (حوالي 2500 – 1500 ق.م)

شهد الألف الثالث قبل الميلاد مرحلةً جديدةً في وعي الإنسان. فعلى امتداد سهول الرافدين وجبال اليمن، بلغت المجتمعات درجةً من النضج في الريّ والكتابة وتنظيم الدولة. ومع اتساع رقعة الإمبراطوريات ونُظُمها، بدأت ثورة صامتة — ليست ثورة سيوف وجيوش، بل ثورة ضمير وبصيرة.

وفي خضمّ هذا العصر، برزت شخصيةٌ غيّرت إلى الأبد الأفق الأخلاقي للحضارة الإنسانية:

إنه إبراهيم عليه السلام، الحنيف، الذي تزامن زمنه مع ذروة العصر البرونزي، حين كانت طرق التجارة تصل بين موانئ بخور اليمن وهاكل بابل ووادي النيل. ولم تكن البضائع وحدها هي التي تنتقل عبر هذه الطرق، بل الأفكار والرؤى حول الحياة والنظام والإله.

وفي قلب هذا العالم المتّصل، جاءت بصيرة إبراهيم لتعيد تعريف علاقة الإنسان بالله.

#### 1. تأملات إبراهيم

خلافاً لكهنة عصره وملوكه، لم يقترب إبراهيم من الكون بورثة عمياء، بل عبر ملاحظة عقلية وتأمل مباشر في الوجود. نظر إلى النجوم والقمر والشمس — تلك التي كان قومه يقَدِّسونها — فرأى في طلوعها وأفولها دلالة فنائها. وقد حفظ القرآن هذا الحوار العقلي الخالد:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ  
فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام 75-79)

لقد قاده العقل إلى الوحي. وكان تحطيمه للأصنام فعلاً رمزياً ومعرفياً في آنٍ واحد — رفضاً للمحسوس الزائل، وتوجّهاً نحو السرمدى الأبدي.

ومن هذا الإدراك وُلدت الحنيفية — دين التوحيد الخالص، المؤسس على التفكير والتواضع والحرية الأخلاقية. (Firestone, 2012; Cragg, 1994; Izutsu, 2002.)

## 2. الحنيفية — الإيمان بالفطرة

لم تكن ثورة إبراهيم ضد الدين، بل ضد جموده واحتكاره. ففي عالم تُدار فيه الطقوس عبر اقتصاد المعابد وتُبرَّر فيه السلطة — الحق الإلهي للملوك، أعلن أن معرفة الله لا تكمن في الأصنام الحجرية ولا في الوساطات الكهنوتية، بل في الفطرة — ذلك الإدراك الفطري للخير والشر الذي أودعه الله في كل إنسان.

كانت هذه الفطرة سابقةً على الكتاب، وتمثّل العهد الأول للروح مع خالقها. فالحنيفية دعت إلى تجديد هذا العهد من خلال التأمل والعدل. وهكذا أصبح الوحي امتداداً للعقل، وجسراً بين الإيمان والفكر، والغيب والشهادة.

“السلطة تفسد حين يقودها الخوف، لكن الضمير يطهر حين يقوده التأمل”.

لقد مثّلت الحنيفية أول تعبير واضح عن التوحيد الأخلاقي — دينا يخطب العقل كما يخطب القلب، ويجعل الوعي الأخلاقي أساس العبادة. (Izutsu, 2002; Rahman, 1980; Waines, 2003.)

## 3. سلالة الإيمان — من هم بنو إسرائيل؟

بعد قرون، سيُستعاد المجتمع الإيماني الذي أسسه إبراهيم في الذاكرة بوصفه بني إسرائيل — أبناء إسرائيل. لكن وفق الأدلة اللغوية والنصية، كان هذا الاسم يشير في الأصل إلى جماعة روحية من المؤمنين، لا إلى سلالة عرقية.

ففي الفهم الإسلامي المبكر، كان إسرائيل رجلاً صالحاً من ذرية من حافظوا على ذكر الله منذ عهد نوح، وأتباعه كانوا استمراراً للعهد الأخلاقي، لا لقبيلة بالمعنى الإثني. ومن ثم، فإن بني إسرائيل تعني ذرية الضمير — الذين ورثوا الهداية بالإيمان لا بالدم.

ومع مرور الزمن، غلبت التفسيرات السياسية والقومية على هذا المعنى العالمي، غير أن جوهره ظلّ قائمًا: فهو يشير إلى بقية الإنسانية المؤمنة، تلك الجماعة التي تحمل عهد الله عبر العصور. (Paret, 1962; Wansbrough, 1977; Rahman, 1980.)

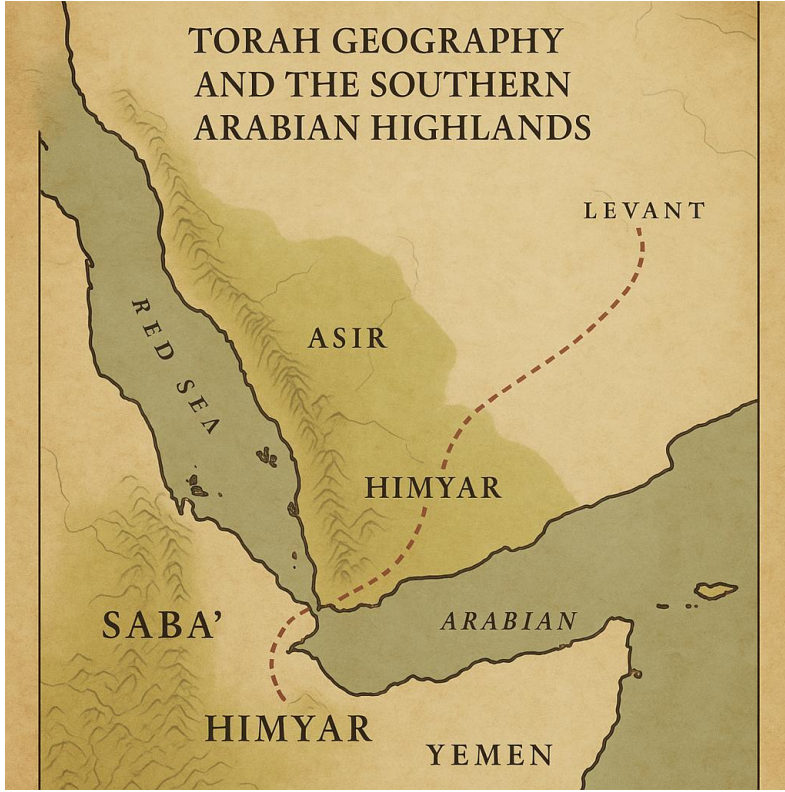
#### 4. جغرافية الوحي — جنوب الجزيرة والتوراة في موطنها الجنوبي

لطالما تصوّر الباحثون الجغرافيا المقدسة في اتجاه الشمال — نحو بلاد الشام. لكن الدراسات الحديثة اللغوية والآثرية والبيئية بدأت تعيد رسم هذه الخريطة.

تشير الأدلة المستقاة من الأسماء الجغرافية والنباتات والتوزيع القبلي إلى أن كثيرًا من روايات التوراة وشخصياتها قد يكون أصلها في الجنوب العربي، خصوصًا في اليمن ومرتفعات عسير.

فهذه المنطقة الغنية بالمنشآت المانية القديمة والنقوش المعبدية تحفظ أسماء أماكن وملامح ثقافية تشبه إلى حدٍ كبير ما يرد في أسفار العهد القديم. وكانت جزءًا من شبكة التجارة الكبرى التي ربطت طرق البخور في الجزيرة العربية — بابل ومصر — وهي ذات المسالك التي عبرها عالم إبراهيم في حركته وتأمله.

وهكذا يبدو أن الوحي والجغرافيا كانا وجهين لحقيقة واحدة: كلاهما متجذّر في الحركة والتفكير والبحث عن الثبات وسط الزوال. (Kitchen, 1994; Beeston, 1981; Robin, 1997; Potts, 1990; Lundin, 2020.)



## الاكتشافات والنقوش: مملكة سبأ وحِمير وميراث التوحيد في الجنوب العربي

تكشف التنقيبات الأثرية والنقوش القديمة أن مملكتي سبأ وحِمير — وهما من المراكز الكبرى للإصلاح التوحيدي في جنوب الجزيرة العربية — تشتركان في تشابه مذهل مع التقاليد الإسرائيلية المبكرة. فـ منشآت الريّ في مأرب، وهياكل صِرواح، وطرق البخور في حضرموت تجسّد نفس الترابط بين الشريعة والعبادة والازدهار الذي تصفه أسفار موسى.

لقد ازدهرت هذه الممالك، خصوصاً بين القرنين التاسع والرابع قبل الميلاد، حيث تبنّت أخلاق العدالة والمسؤولية الجماعية والإيمان بخالق واحد، كما تعكسه النقوش السبئية والحِميرية التي تذكر اسم رَحْمَن — «الرحمن» — وتشير شواهد العمارة الضخمة والسجلات الإدارية والإصلاحات الدينية إلى استمرارية لاهوتية بين توحيد إبراهيم الحنيف والتراث الإبراهيمي اللاحق في بلاد الشام.

ومن ثمّ، فإن الجغرافيا المقدّسة للوحي لا تنحصر في إطار الشمال الشامي، بل تمتد إلى مرتفعات اليمن ووديانه وعسير، حيث التقت العقيدة والبيئة والعقل لتؤسس حضارةً أخلاقيةً راسخة. (Beeston, 1981; Robin, 1997; Breton, 2007; Kitchen, 1994; Lundin, 2020.)

### مؤشرات مقارنة: اليمن مقابل فلسطين

المؤشر	الأدلة في اليمن	الأدلة في فلسطين
الأسماء الجغرافية	وجود نظائر جنوب عربية لأسماء مثل صهيون والموريا وشيلوه	العديد منها لا يتطابق مع مواقع كنعانية قديمة
النبات والزراعة	التين والرمان واللبن موطنها الأصلي اليمن	نادرة أو غائبة في كنعان خلال العصر البرونزي
التركيب القبلي	تشابه ملحوظ مع العشائر السبئية والجميرية	لا توجد استمرارية قبلية مماثلة
الطرق والمسافات	تتوافق مع مسالك القوافل العربية ومقاييسها	لا تتسجم مع جغرافيا الشام المحلية

تسجّل النقوش السبئية المكتوبة بالخط المسند طقوساً ومعماراً معبدياً يشبه تصميم الهيكل الأول كما تصفه المصادر العبرية اللاحقة. كما تعكس سد مأرب وأنظمة الريّ الواسعة المحيطة به الاقتصاد الزراعي الكبير الذي توحى به النصوص المقدسة المبكرة— مجتمعةً كانت الهندسة والإيمان والإدارة فيه عناصر متداخلة في خدمة النظام والعدالة والعبادة.



## A Himyaritic Religious Inscription Discussing Temples and Offerings

### مخطوطات البحر الميت تشير إلى الجنوب المقدس

تشير بعض التفسيرات المكتشفة ضمن مخطوطات البحر الميت إلى هذا الاتجاه الجنوبي في الذاكرة المقدسة، إذ تذكر ما تصفه بـ «جبل الله في صحراء الجنوب». تُلمح هذه الإشارات إلى أن الجغرافيا الروحية للوحي قد كانت موجّهة في الأصل نحو العربية السعيدة — أي اليمن الخصيب الجبلي، قلب العالم القديم ومهد الحضارات الجنوبية.

### 5. تسلسل النبوة — من إبراهيم إلى موسى

من هذا المنظور، يظهر الوحي لا كسلسلة معجزات منفصلة، بل كتيار حضاري متواصل — حوار متنام بين العقل والأخلاق والهداية الإلهية.

لقد أرست حنيفية إبراهيم الأساس، ثم جاءت تورا موسى لتصوغ هذا الأساس في نظام تشريعي شامل.

كلاهما خرج من نفس الجغرافيا الروحية — من مرتفعات جنوب الجزيرة العربية — قبل أن تنقل التقاليد اللاهوتية والسياسية اللاحقة قصصهما إلى الشمال نحو بلاد الشام.

تنبّئ بذلك ممالك سبأ وجَمِير ليس كمجتمعات هامشية، بل كمراكز مبكرة للتوحيد النبوي، حيث نضجت مفاهيم العدالة والشرعية والعهد قبل أن تنتقل شمالاً عبر التجارة والهجرة والمنفى.

بهذا الفهم، كانت الحضارة تسير مع القوافل، وكان الوحي يسير مع الضمير — تذكيراً بأن الرحلة المقدسة للإنسانية كانت دومًا على طرق التأمل واليقظة الأخلاقية. (Robin, 1997; Beeston, 1981; Breton, 2007; Kitchen, 1994; Lundin, 2020; Paret, 1962.)

## 6. إرث إبراهيم وتراكم الوحي عبر العصور

يتجاوز إرث إبراهيم حدود الزمن والمكان. فهو يقف على العتبة التي فيها أدرك الإنسان لأول مرة أن الإيمان رحلة فهم لا وراثية.

لقد وضع الرؤية التي شكّلت الهيكل الأخلاقي للحضارة، والذي بُني عليه لاحقًا الأنبياء من موسى وداود إلى عيسى ومحمد عليهم السلام.

وكما تتطوّر الحضارة بالتعلّم التراكمي، كذلك يتجلّى الوحي تدريجيًا، تتكيف كل رسالة مع القدرة العقلية والروحية لعصرها. فالأنبياء لم يأتوا بألهة جدد أو عقائد متناقضة، بل جددوا الحق الأخلاقي الواحد بلغة يفهمها الناس في زمنهم.

وهكذا، يصبح الوحي مرآة للحضارة ذاتها — تعليمًا متواصلًا لروح الإنسان. فعبر العصور، نما العلم والإيمان معًا، يقودان البشرية إلى وعي أعمق بالوحدة والعدالة والمقصد الأخلاقي. (Firestone, 2012; Assmann, 2011; Armstrong, 2006; Rahman, 1980.)

## تأمل

لم يكن أول وحيٍ صوتًا من السماء، بل فكرةً في عقل رجلٍ رفع بصره نحو النجوم وسأل. ومنذ تلك اللحظة، تذكّرت الإنسانية أن العلم والإيمان ليسا نورين منفصلين، بل شعاعان من فجرٍ واحد.



## الخاتمة إلى العالم القديم

### الاستمرارية، الضمير، وجذور الحضارة

يميل القارئ الحديث إلى تصور أسلاف الإنسانية البعيدين أولئك الذين عاشوا في عصور الحجر والبرونز والحديد المبكر — بوصفهم كائناتٍ بدائيةٍ تحركها الغريزة أكثر من الفكر. لكن سجل التاريخ يروي قصةً مختلفة تمامًا. فشعوب تلك العصور بنّت، ورصدت، وقاست، وتأمّلت. لم تكن كائنات بقاءٍ فحسب، بل عقولاً واعية تحركها الفضول والغاية والشعور الأخلاقي.

من صانعي الأدوات الأوائل إلى فلكيي بابل، ومن مهندسي مصر إلى رياضيي الهند، أظهر الإنسان في كل عصرٍ النزعة الخلاقة ذاتها التي تُعرّف الحضارة اليوم. كل مقياسٍ للتقدم — في العلم، والفن، والإدارة، والتشريع — يعود في جذوره إلى تلك القرون التكوينية الأولى.

إن نهوض الإنسان لم يبدأ بحضارةٍ واحدة، ولم ينبثق من فراغ، بل كان — ولا يزال — عمليةً تراكميةً، سلسلةً من النقل والتبادل تربط العصور القديمة بالحديثة. انتقلت الأفكار عبر التجارة والهجرة والنبوة، وعبر المعلمين واللغات والرموز التي تغيّرت أشكالها ولكنها حفظت معناها. وما نرثه اليوم ليس اختراعًا عفويًا للعقل الحديث، بل استمرارًا مصقولًا للبصائر التي وُلدت قبل آلاف السنين.

وكذلك، استمرّت الرحلة الأخلاقية للإنسانية بلا انقطاع. ف قصة الوحي لم تبدأ فجأةً مع أنبياء الكتب، بل سبقهم الإنسان الذي عاش على هداية الفطرة — تلك الحدس الأخلاقي الفطري الذي أودعه الله في النفس البشرية. هذا الوعي الأول بالشكر والعدل والرغبة وجّه المجتمعات الأولى نحو الانسجام مع الخلق. وحين ضلّت عن بوصلتها الداخلية، جُددت الهداية عبر رسلٍ تخاطب كل أمة بلسانها وثقافتها.

من هنا، فالوحي ليس انقطاعًا عن الحضارة، بل هو قرينها الأخلاقي — نهزّ موازٍ يسري إلى جانب تطور الفكر الإنساني. وكما تطوّر العلم والإدارة تدريجيًا، كذلك تطوّر فهم الحقيقة الإلهية كاشفًا عن مراتب متصاعدة من النور، كل عصرٍ بحسب نضج وعيه.

إن قصة العالم القديم ليست حكاية ظلمةٍ سبقت النور، بل نورٍ يتصاعد تدريجيًا. ف بَنَاءُو الإمبراطوريات وطالبو الحكمة وحملة الوحي اشتركوا جميعًا في مشروع إنساني واحد: السعي إلى النظام والمعرفة والعدل.

وحين نعبر من عالم العصور القديمة إلى أفقٍ تاريخيٍّ جديد، نحمل معنا وعيًا بأن الحضارة والوحي هما تركتان متداخلتان — كلاهما تراكمي، إلهي الإلهام، وكلاهما يشهد على حقيقةٍ واحدةٍ خالدة: أن رحلة الإنسان — فكرًا وروحًا — كانت دومًا بإرشاد المصدر نفسه. (Assmann, 2011; Armstrong, 2006; Jaspers, 1953; Liverani, 2014; Kemp, 2006; Rahman, 1980.)

## تأمل

الماضي ليس ظلًا بدائيًا، بل جذرٌ كل ما يبقى. الحضارة هي ذاكرة الخلق المجددة، والوحي هو ضميرها وقد تجلّى.

## الموارد وسبل المعيشة في الإطار الزمني الأول

إن بقاء المجتمعات العربية وتفاعلها قبل الإسلام اعتمد ليس فقط على التحالفات القبلية والعقائد، بل على الموارد التي غذّت حياتها اليومية. فقد حدّدت الجغرافيا ملامح الفرصة والقيود: ف ندرة الماء وقلة الأرض الخصبة غدّت روح التنقل والتجارة والمرونة. وفي كل إقليم من الجزيرة العربية تكوّن توازنٌ خاص بين الزراعة والرعي والتجارة. من المدرجات الزراعية في اليمن إلى أسواق القوافل في الحجاز، ظلّ الاقتصاد مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالعطايا الطبيعية ومسالك التجارة التي وصلت الجزيرة ب إفريقيا والهند والبحر المتوسط.

## جدول — الموارد والأسس الاقتصادية في الإطار الزمني الأول (حوالي 400-610م)

أهم الموارد الطبيعية والمادية التي شكّلت سبل العيش في الجزيرة العربية المبكرة .

الموارد والمنتجات الرئيسية	الإقليم / السياق
زراعة النخيل والشعير ومحاصيل الواحات، تربية الإبل، وتجارة البخور والمرّ والجلود.	غرب الجزيرة (الحجاز)
اللبان والعمّور والتوابل والمنسوجات والزراعة المطرية؛ وصلات بحرية مع الهند وإفريقيا.	جنوب الجزيرة (اليمن وحضرموت)
طرق القوافل بين الشام والعراق؛ زراعة محدودة تعتمد على الآبار والأودية.	شمال الجزيرة (النبطية ومناطق الحدود)
صيد اللؤلؤ والأسماك والتجارة مع فارس وشبه القارة الهندية.	شرق الجزيرة (البحرين وساحل الخليج)
اقتصاد رعي بدوي (الإبل، الغنم، الماعز)؛ تبادل قبلي لللحوم والألبان والجلود.	الداخل الصحراوي



Illustration 1 — Roman-Parthian Frontiers (1st-3rd c. CE)

### ٣. الديناميات الداخلية

حتى في ذروة العظمة الإمبراطورية، كانت الاضطرابات تغلي تحت سطح النظام الظاهر. ف القرون الأولى للميلاد لم تكن فقط عصر التوسع الإمبراطوري، بل أيضاً زمن هشاشة التماسك الداخلي — ذلك التوتر الدائم بين الاستقلال الإقليمي والسيطرة المركزية، وبين الهوية المحلية والحكم الشمولي العالمي.

- **تمرد تدمر بقيادة الملكة زنوبيا في القرن الثالث الميلادي مثل هذا الصراع بوضوح.**  
إذ وُحِّدَت زنوبيا لفترة وجيزة أراضي سوريا ومصر، متحدية سلطة روما في الشرق، وجامعةً بين الفخر المحلي والطموح الإمبراطوري. ورغم أن هزيمتها أعادت النفوذ الروماني، فإن تمردها كشف عن عمق الاستياء الإقليمي الكامن تحت مظاهر النظام الإمبراطوري.
- **على السهوب العربية، تحوّلت الصراعات بين الغسانيين (حلفاء البيزنطيين) والمناذرة (تابعي الساسانيين) إلى حروب بالوكالة جعلت الصحراء ساحة لصراع النفوذ بين القوتين العظميين. ومع ذلك، ظلّ الملكان العربيان بمثابة وسطاء ثقافيين وعسكريين، أوفياء لحلفائهم الأجانب، لكن متجذرين في هويتهم القبلية واللغوية.**
- **وفي مصر، أدى تزاوج الإدارة الهلنستية مع الضرائب الباهظة إلى اندلاع انتفاضات ريفية متكررة، كاشفةً عن الهوة بين نخبة الإسكندرية الكوزموبوليتية وسكان وادي النيل الزراعيين.**
- **أما أرمينيا، فقد جعلها اعتماد المسيحية في أوائل القرن الرابع الميلادي حذاً روحياً واستراتيجياً بين روما وفارس، تتناوب عليها الغزوات والتبعية، إذ سعى كل من الإمبراطوريتين إلى بسط نفوذ ديني وإقليمي عليها.**

كشفت هذه الحركات أن السلطة الإمبراطورية كانت دوماً موضع تفاوض، تحافظ على نفسها بقوة السيف، لكنها كانت مهددة من داخلها بفضل التنوع ذاته الذي منحها قوتها. (Kennedy, 2001; Daryaei, 2009; Sartre, 2005; Millar, 1993; Frye, 1984.)

#### ٤. العلاقات بين الإمبراطوريات

شهد ميزان القوى تحوُّلاً جذرياً عام ٢٢٤م حين سقطت سلالة الأرساقيين الفرثية على يد الساسانيين، الذين أعادوا إحياء النموذج الفارسي القديم للملكية المركزية تحت راية الأرثوذكسية الزرادشتية.

ومن هذه التحوُّل وُلد الصراع البيزنطي-الساساني، الذي سيُعَرِّف الشرق الأدنى طوال الأربعة قرون التالية.

تجلَّى هذا الصراع الطويل عبر أرمينيا وسوريا وبلاد الرافدين في حلقاتٍ متكررةٍ من الحملات والمعاهدات والدمار. استنزفت الحروب الخزائن، وأفرغت الحدود من سكانها، وحولت المدن المزدهرة إلى حصونٍ عسكرية. وأصبح الفلاحون جنوداً، وتحولت الاقتصادات المحلية إلى اقتصاداتٍ مبنية بالحرب لتلبية مطالب الإمبراطورية.

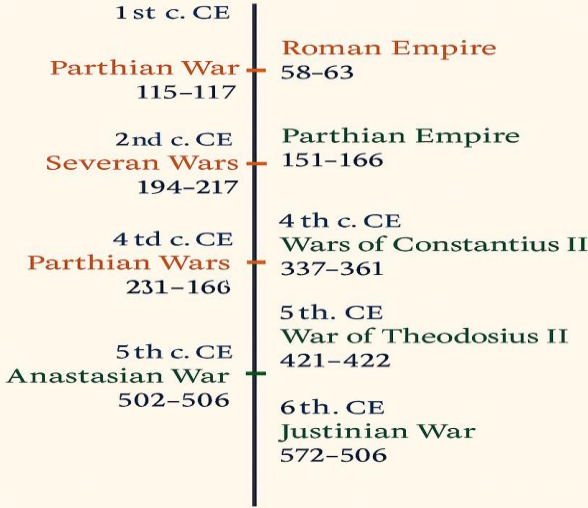
ادّعت كل قوة الحق الإلهي في الحكم: ف الأباطرة المسيحيون في القسطنطينية رفعوا الصليب شعاراً واحتكموا إلى النظام الأخلاقي للمسيحية، بينما الملوك الساسانيون المتوجون بالنار حكموا باسم أهورا مزدا، إله الحقيقة والنظام الكوني (أشَه/أشَا).

وهكذا تحوَّلت المنافسة السياسية إلى صراعٍ كوني — نزالٍ لم يكن فقط على الأرض، بل على التعريف الأخلاقي للحضارة ذاتها.

وفي هذا البوتقة من الصراع، أصبحت حدود الإمبراطوريات حدوداً للعقيدة، واستعدَّ العالم القديم، دون وعي، لبزوغٍ وحيٍ جديدٍ من صحراء الجزيرة العربية، سيُعيد رسم الخريطة الأخلاقية للتاريخ.

(Daryae, 2009; Frye, 1984; Kennedy, 2001; Greatrex & Lieu, 2002; Howard-Johnston, 2010.)

## MAJOR ROME- PARTHIA-SASANIAN CONFLICTS



*Illustration 2 — Major Rome-Parthia-  
Sasanian Conflicts, 1st-6th c. E*

### 5. التجارة والفكر بين الصراع والوصل

ومع ذلك، لم تُوقف الحروب حركة التجارة. فقد كانت طرق الحرير والبخور تمتد بأمان عبر الجزيرة العربية وبلاد الشام، تربط الإسكندرية ودمشق وتدمر بـ اليمن والهند والصين.

كان التجار العرب ينقلون اللبان واللؤلؤ والمنسوجات شمالاً، بينما قام الكتّاب اليونان والسريان بترجمة المؤلفات الفارسية والهندية، وتبادل الحرفيون من الجانبين الخزاف والنقوش في الزجاج والجص والفسيفساء. هذا الحراك المستمر للصناعات والأفكار شكّل الأساس الفكري العميق الذي ستنهض عليه الحضارة الإسلامية اللاحقة.

## مقارنة بين نظامي الحكم الروماني والساساني

الجانب	الإمبراطورية الرومانية	الإمبراطورية الساسانية
المركزية	بيروقراطية إمبراطورية شديدة المركزية تحت سلطة الإمبراطور؛ تُدار الأقاليم عبر ولاية مُعينين.	حكم ملكي مطلق تحت سلطة الشاهنشاه ("ملك الملوك")، تُسيّر الأقاليم عبر الساترايات الوراثيين.
القانون والإدارة	قانون روماني مُدَوّن ومراسيم إمبراطورية تُنفّذ عبر جهاز قضائي محترف.	مراسيم ملكية تمتزج بالتقليد القانوني الزرادشتي، يشرف عليها الكهنة (الموبدان) والنبلاء.
الدين والأيدولوجيا	أصبحت المسيحية الدين الرسمي بعد عهد قسطنطين؛ يُعدّ الإمبراطور حامياً إلهياً للإيمان.	الزرادشتية هي الدين الرسمي؛ معابد النار تحت رعاية الملك، ويُنظر إلى الشاه كحاكم مفوض من الإله.
التجارة والاقتصاد	تجارة متوسطة منظمة برسوم محددة ومسارات قوافل مؤمنة.	سيطرة على طريق الحرير وموانئ الخليج الفارسي؛ الضرائب والجزية مصدر الدخل الملكي.

### ٦. التيارات الدينية والفكرية

سارت التحولات الدينية جنباً إلى جنب مع إعادة التشكيل السياسي في القرون الميلادية الأولى. فبينما تنافست الإمبراطوريات على السيطرة، تطوّرت الديانات والفلسفات على تخومها، مُعيدة تشكيل المشهد الأخلاقي للعالم القديم.

بعد تدمير الهيكل الثاني في عام ٧٠م، أعاد اليهود تنظيم مجتمعهم حول المدارس الربانية، منتقلين من العبادة القربانية إلى دراسة الشريعة والذاكرة. وأصبحت مدرستا سورا وبومبيثا في بابل مراكز للفكر الديني، حيث تم تدوين المشناه والتلمود، ليتحوّل الإيمان إلى عهدٍ محمولٍ بالعلم والذاكرة، قادرٍ على الصمود أمام المنفى والإمبراطورية.

أما المسيحية، المنبثقة من التربة السامية نفسها، فقد انتشرت من سوريا ومصر إلى ما وراء الحدود الإمبراطورية.

نقل المبشرون والرهبان رسالتها إلى الجزيرة العربية ومرتفعات أرمينيا وحتى الشرق الفارسي، حيث امتزجت بالفلسفات المحلية والتأملات الصوفية. تعرّضت أحياناً للاضطهاد وأحياناً للتسامح، لكنها أصبحت أصبحت في النهاية إيماناً عالمياً، يغرس في الوعي الإنساني مفاهيم الرحمة والفداء والعلاقة بين الإله والإنسان.

في المقابل، بلغت الزرادشتية ذروتها في ظلّ رعاية الساسانيين، مقدّمةً لإيران لاهوتاً للنظام والملكية قائماً على الصراع الكوني بين الحقيقة (أشا) والباطل (دروج). كانت معابد النار رموزاً للنور والطهارة، تربط السلطة الملكية بالشرعية الإلهية.

أما في الجزيرة العربية، وخارج نطاق الإمبراطوريات، فقد تأمل الشعراء والحكماء والحنفاء في أصل الخلق والواجب الأخلاقي. تكلم الكهّان بلغة الشعر، وحافظت البيوت المقدسة على بقايا التوحيد القديم، واتجه الباحثون عن الحقيقة من الأصنام إلى الإله الواحد الغائب عن الحواس. في هذا الجو الغني بالتبادل الثقافي، نضجت المفردات الروحية للمنطقة — مثل الرحمة، العدل، العهد، والنور.

وهكذا،

تحوّل الشرق الأدنى إلى بوتقة التقاءٍ روحي وفكري، تهيأت فيها الإنسانية لاستقبال الوحي الجديد. فمن تعدديته انبثقت الرؤية القرآنية، جامعة الأصوات المنفرقة للعصور القديمة في لغةٍ واحدةٍ للإيمان والعقل. (Boyce, 1979; Frye, 1984; Kennedy, 2001; Crone, 1987; Brown, 1998; Shahîd, 1984.)



7.



**بحلول القرن السادس الميلادي** كانت أربعة قرونٍ من الاستنزاف الإمبراطوري قد أضعفت كلاً من البيزنطيين والفرس. تراجعت التجارة، وتناقص السكان، وأصبحت العقيدة هي المحور الجديد للولاء. ومن بين هذه الحدود المتهالكة، انبثقت وحدة جديدة — هي الحضارة العربية الإسلامية، التي ورثت إرث روما وفارس، لكنها حوّلتها إلى رؤيةٍ كونيةٍ جديدة.

## الفصل الثالث – الإيمان والتحوّلات: اليهودية والمسيحية واليقظة العربية

### ١. مدخل موضوعي

يبين القرن الأول والسادس الميلادي، تحوّل الشرق الأوسط إلى بوتقةٍ للتحوّل الديني. فقد تراجعت الآلهة المتعددة في اليونان وروما والجزيرة العربية، وحلّت محلّها منظومة من الديانات التوحيدية التي أعادت تشكيل الأسس الأخلاقية والفكرية للمنطقة.

أعادت اليهودية تعريف ذاتها في المنفى، وتحوّلت المسيحية من حركةٍ إصلاحيةٍ داخل اليهودية إلى عقيدةٍ عالميةٍ، بينما بدأت الجزيرة العربية، رغم بعدها عن مراكز الإمبراطوريات، تتحرك بروحٍ من القلق الروحي والبحث عن الحقيقة.

كان هذا هو العصر الذي وُلدت فيه اللغة الأخلاقية للعالم الحديث — الحقبة التي غدت فيها العقيدة فلسفةً، والكتاب شريعةً، والضمير بديلاً عن المعبد كمركزٍ للحضارة.

(Armstrong, 2006; Boyce, 1979; Brown, 1998; Kennedy, 2001.)

### ٢. اليهودية بعد الهيكل

شكّل تدمير الهيكل الثاني أحد المنعطفات الكبرى في التاريخ اليهودي. فبعد أن حُرّم الشعب من معبده وقرايينه، أعاد بناء هويته حول الدراسة والشريعة والذاكرة، فتحوّلت من عبادةٍ معبديةٍ طقوسيةٍ إلى حضارةٍ نصيّةٍ .

نشأ السلطان الربّاني أولاً في يبنه (Yavneh) ، ثم ازدهر في بابل، حيث أُسّست مدرستا سورا وبومبيثا، اللتان أنجزتا التلمود البابلي — القلب الفكري لليهودية بعد الهيكل.

- امتدّت الشتات اليهودي من الجزيرة العربية إلى الأندلس، وظلّت اليمن وبلاد الرافدين مركزين مزدهرين تحت حماية الفرثيين والساسانيين.

- أصبح التجار والعلماء اليهود وسطاء أساسيين في اقتصاد طريق الحرير، يربطون بين فارس والهند والبحر المتوسط، حاملين معهم ثقافة منضبطة من القراءة والقانون.

بهذه المرونة الفكرية، لم تكتفِ اليهودية بالبقاء، بل حوّلت البقاء ذاته إلى منظومة فكرية عالمية، جاعلةً من الإيمان المنظم والنص المدوّن نموذجًا سيّلهم الديانات اللاحقة. (Neusner, 1987; Goodman, 2019; Rubenstein, 2003; Gafni, 1990.)

### ٣. صعود المسيحية

وُلدت المسيحية في المشرق الروماني، كتنابرٍ إصلاحي داخل اليهودية يرتكز على تعاليم عيسى الناصري. وبحلول القرن الرابع الميلادي، أصبحت الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية في عهد قسطنطين الكبير (مرسوم ميلانو، ٣١٣م). في مصر، ازدهرت الإسكندرية كمركزٍ لاهوتيٍّ عالمي، وأنتجت مفكرين كبارًا مثل أوريجانوس وأثناسيوس وكيرلس، الذين صاغوا أسس العقيدة المسيحية.

- في أنطاكية والرها، ازدهرت المسيحية السريانية، حافظةً للإرث اللغوي والطقسي السامي للكنيسة الأولى.
- في أرمينيا (٣٠١م) وإثيوبيا (حوالي ٣٣٠م)، أصبحت المسيحية دينًا ملكيًا قبل أن تتغلّب حتى في روما نفسها.
- أما الخلافات العقائدية الكبرى — بين النساطرة والمونوفيزيين والخلقيديونيين — فقد مرّقت وحدة المسيحية، ودفعت كثيرًا من المؤمنين الشرقيين إلى فارس والهند والجزيرة العربية، حيث التقوا بالفكر الزرادشتي واليهودي والمحلي.

ورغم الانقسامات، فإن رسالة الفداء والنعمة الإلهية تجاوزت العرق والإمبراطورية، مؤسسةً جغرافيا روحية جديدة امتدت من النيل إلى نهر جيحون، ومن البحر المتوسط إلى جبال الهملايا. (Brown, 1998; Brock, 1996; Meyendorff, 1989; Shahîd, 1984.)

#### ٤. التجديد الزرادشتي وصراع الأديان

في ظلّ الأسرة الساسانية (224-651م)، شهدت الزرادشتية نهضتها الأخيرة الكبرى. فقد جُمعت الأُفستا، وأُعيد ترميم معابد النار، وأصبحت طبقة الكهنة (المجوس) ركيزةً أساسية في النظام الإمبراطوري.

- فسّر المجوس الثانية الكونية — الصراع بين الحق (أشا) والباطل (دروج) — باعتبارها مبدأً روحيًا وسياسيًا معًا.
- سعت الدولة إلى توحيد ديني، فاضطهدت أحيانًا المسيحيين والمناويين وغيرهم من الفرق. ومع ذلك، أصبحت فارس paradoxically ملاذًا للهاربين من الصرامة العقائدية البيزنطية، مما يعكس توازنًا معقدًا بين السيطرة والتسامح.

لقد أكّدت الزرادشتية الساسانية على المسؤولية الأخلاقية، وتركيز النفس، وانتصار الخير النهائي، وهي مفاهيم ستجد صداها العميق في الأخلاقيات الإسلامية والمسيحية اللاحقة. ومن ثمّ كانت النهضة الزرادشتية في آنٍ واحدٍ خاتمةً للروحانية الإيرانية القديمة، ومقدمةً لـ عالمية أخلاقية جديدة ستخرج من الجزيرة العربية. (Boyce, 1979; Frye, 1984; Daryaei, 2009; Gnoli, 2000.)

#### ٥. التدين العربي قبل الإسلام

بينما تصارعت الإمبراطوريات في الشمال، كانت الجزيرة العربية تصوغ عالمها الروحي الخاص — عالمًا قبليًا، شعريًا، وباحثًا عن المعنى.

- كانت الكعبة في مكة، رغم امتلائها بالأصنام، تُحترم بوصفها بيت السلام والعهد، تحفظ في طقوسها ذاكرة التوحيد الأول.
- رفض الحنفاء عبادة الأصنام، وسعوا إلى إيمانٍ خالصٍ بآلهٍ واحد، على نهج إبراهيم الحنيف.
- ازدهرت الجماعات اليهودية والمسيحية في يثرب (المدينة) ونجران واليمن، فكوّنت جسورًا فكريةً بين توحيد الشرق القديم والبحث العربي الجديد.

- وتُظهر النقوش العربية بين القرنين الرابع والسادس الميلادي، أسماء إلهية مثل "الرحمن" (رَحْمَانُ)، مما يدلّ على تطوّر معجم لاهوتي جديد سيجد صدًى في القرآن لاحقًا.

بحلول مطلع القرن السابع، لم تعد الجزيرة العربية معزولة: ف قبائلها موصولة بالتجارة، وشعراؤها موحدون باللغة، ومفكروها متحدون بتوقي روعي متصاعد — إحساس بأن عصر الوحي يوشك أن يُستأنف من جديد. (Robin, 1997; Shahid, 1984; Beeston, 1981; Hoyland, 2001; Crone, 1987.)

## تأمل

لم تكن القرون بين الإمبراطورية والوحي زمناً للصمت، بل عصرًا للإصغاء. ففي المعابد والكنائس، في معابد النار، وفي محاريب الصحراء، كانت الإنسانية تُنقى أسنلتها، حتى أصبح العالم مستعدًا لإجابة جديدة.



Religious Centers of the Near East, 1st -6th centuries CE

## Religious Developments

60–600 CE	70 Destruction of the Temple <i>Rise of Rabbinic Judaism</i>
5th century CE	313 Edict of Milan <i>Christianity legalized</i>
4th Century CE	451 Council of Chalcedon <i>Doctrinal divisions</i>
1st Century CE	500 Spread of Christianity to Arabia <i>Rise of Ḥunafā' Monotheists</i>

### 6. تلاقي العقول والضمائر قبل الوحي

كان التقاء الفكر اليهودي، واللاهوت المسيحي، والميتافيزيقا الفارسية من أعظم ثمار القرون السابقة للوحي. فقد وُلد من هذا التفاعل مناخ فكري خصب مهّد لبزوغ أفكارٍ جديدة:

- قام المترجمون السريان بدور الجسر بين المعارف اليونانية والفارسية، فحفظوا الفلسفة والطب والعلوم القديمة من الضياع.
- حمل التجار والرهبان العرب القصص والأمثال والنصوص المقدسة عبر البحر الأحمر والهلل الخصب، رابطين بين المراكز الروحية الكبرى من الإسكندرية إلى اليمن.
- أصبحت القيم الأخلاقية الكبرى — الرحمة، والعدل، والزهد — عملةً مشتركة في الضمير الإنساني.

هكذا دخل الشرق الأوسط القرن السابع الميلادي وقد أنهكته الإمبراطوريات، لكنه ظلَّ حيًّا بالإيمان والتطلع، عالمًا يقف على عتبة الوحي الجديد.

# الجزء الثاني: الشرق الأوسط من 1 ميلادية إلى الحرب العالمية الأولى

## الإطار الزمني (1 AC to 600 AC)

### الفصل الأول — إمبراطورية في طور التحول: بيزنطة، فارس، والعتبة العربية

#### ١. مدخل موضوعي

بحلول القرن السادس الميلادي، كانت القوتان العظيمتان اللتان هيمنتا طويلاً على الشرق الأدنى بيزنطة في الغرب، وفارس الساسانية في الشرق — قد بلغتا مرحلة الإنهاك دون الانهيار.

لقد غيّر صراعهما الممتد عبر القرون جغرافيا الإيمان والتجارة والسلطة، فجعل المنطقة موحدة بالتواصل، وممزقة بالإرهاق.

في غروب العالم القديم، بدأت آفاق جديدة تتكوّن. كانت الأنظمة الإمبراطورية العتيقة لا تزال متألّنة بالمهابة، لكنها فقدت حيويتها الأخلاقية.

في المسيحية البيزنطية كانت تتعثر تحت وطأة الخلافات العقائدية، بينما واجهت فارس الزرادشتية إرهاق الامتداد المفرط والتصلب الديني.

من هذا المشهد المرهق حيث التقت العقيدة بالإمبراطورية، والقوة بالضمير نشأت شروط الوحي الجديد.

فمن الحدود العربية، خارج مدى البيروقراطية الإمبراطورية لكن داخل دائرة أفكارها وتأثيرها، خرجت قوة جديدة تُدّر لها أن تُعيد توحيد العالمين الروحي والسياسي اللذين فرّقتهما الإمبراطوريات القديمة (Howard-Johnston, 2010; Kennedy, 2001; Brown, 2013; Daryaei, 2009.)

## ٢. العالم البيزنطي: الإيمان والبقاء

بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية عام 476م،  
برزت القسطنطينية كمنارة الاستمرار،  
ومقرّ الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) التي أُعيد تصورُها.

من أسوارها الذهبية المطلة على البوسفور،  
سعت بيزنطة ليس فقط إلى حفظ الماضي،  
بل إلى تحويل النظام الروماني إلى حضارةٍ مسيحية.

- مثّل عصر جستنيان (527-565م) آخر محاولة لاستعادة مجد روما.  
فقد أطلق الإمبراطور حملاتٍ لاستعادة الغرب،  
ودوّن القانون الإمبراطوري في “جسد القانون المدني (Corpus Juris Civilis)،  
وبنى في العاصمة آيا صوفيا،  
التي جمعت بين الانتصار السياسي والهندسة المقدسة.
- أصبحت الكنيسة البيزنطية أداة الحكم وهويته في آنٍ واحد.  
سعت الأرثوذكسية، المقرّرة في مجعني نيقية وخلقيدونية،  
إلى توحيد العقيدة في إمبراطوريةٍ متعددة الأعراق.  
لكن هذا التوحيد جاء على حساب التنوع؛  
فالمخالفون العقائديون في سوريا ومصر وفلسطين —  
من اليعاقبة والأقباط —  
واجهوا الاضطهاد والعزلة.
- هذا الانفصال بين المركز الإمبراطوري والمؤمنين في الأطراف  
ستكون له عواقب بعيدة المدى؛  
إذ إن كثيرين من هؤلاء السكان،  
وقد ضاقوا ذرعًا بالقهر اللاهوتي والضرائب،  
رحّبوا لاحقًا بالحكم الإسلامي  
لا كغزوٍ، بل كنوعٍ من التحرر.

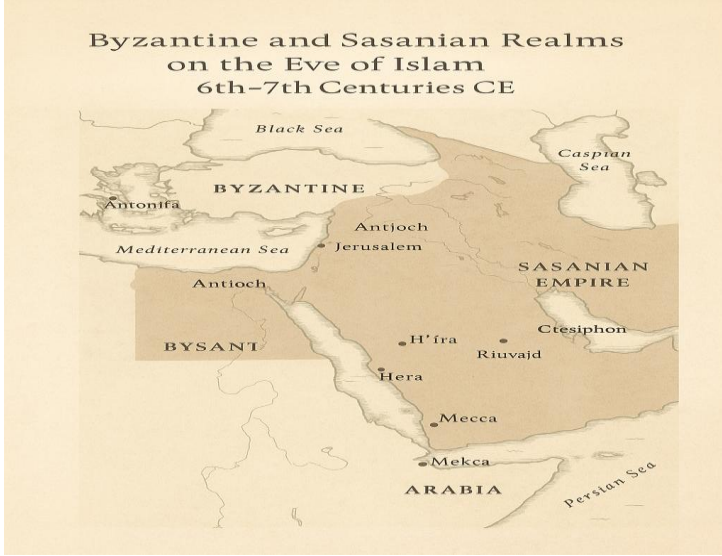
ورغم الانقسامات،  
ظلت بيزنطة حامية التراث الكلاسيكي، والإدارة الحضرية، وفكرة الإمبراطورية  
العالمية.

وكان حفظها للفلسفة اليونانية، والمنطق القانوني، والنظام المدني



من العوامل التي أثّرت بعمق في الإطار الفكري والمؤسسي  
للدول الإسلامية التي ورثتها لاحقاً.

(Cameron, 2012; Haldon, 1997; Mango, 2002; Brown, 2013;  
Kennedy, 2001.)



### ٣. الإمبراطورية الساسانية: السلطة والإيمان والانحدار

على الضفة الشرقية من الفرات،  
وقفت الإمبراطورية الساسانية كمرآةٍ لبيزنطة—  
في قوتها ورقبتها وثقتها بنفسها.  
ومن عاصمتها المدنية على دجلة، “المدائن (طيسفون)”，  
حكمت فارسٌ إقليمًا شاسعًا يمتد من الخليج الفارسي حتى آسيا الوسطى،  
يجمع فسيفساء من الشعوب تحت رؤية واحدة للنظام المقدس بالإيمان.

- قامت الملكية الساسانية على بيروقراطيةٍ مؤسّسة على اللاهوت  
الزرادشتي  
وعلى أيديولوجيا ملكيةٍ تعتبر الشاهنشاه (“ملك الملوك”)   
الضامن الأرضي لـ أشا (الحقيقة والنظام الكوني)  
الذي أرساه الإله أهورا مزدا.

- كانت ثروة فارس تنبع من التجارة.  
فالتجار الفرس سيطروا على طريق الحرير،  
رابطين موانئ المحيط الهندي في هرمز وصيراف  
بمدن مرو ونيسابور وبلخ،  
في شبكة اقتصادية امتدت عبر الشرق الأدنى وآسيا الوسطى.
- غير أن روعة الإمبراطورية كانت تخفي هشاشة بنيوية.  
فقد أدى التركيز المركزي المفرط، والصراعات الفنية، والنزاعات على  
العرش  
إلى تآكل التماسك الداخلي،  
وجعل الأقاليم عرضة للانقسام والنبلاء منقسمين في الولاء.

في عهد كسرى الأول أنوشروان (531-579م)  
و كسرى الثاني برويز (590-628م)  
بلغت فارس ذروة مجدها السياسي والثقافي.  
كان عصر أنوشروان زمنًا ذهبيًا للإصلاحات والبناء والتبادل الفكري،  
حين تعايشت العلوم اليونانية والهندية والفارسية في جُنديسابور،  
ممهّدة الطريق للنهضة الفكرية في العصر الإسلامي اللاحق.

أما كسرى برويز،  
فقد وسّع الإمبراطورية إلى أقصى حدودها،  
فاستولى على سوريا وفلسطين ومصر عام 614م،  
ودخل القدس وحمل معه الصليب الحقيقي،  
في انقلاب رمزي أنهى قرونًا من الهيمنة البيزنطية.

لكن هذا النصر كان عابرًا.  
فبعد عقودٍ من الحرب الشاملة،  
وقف كلٌّ من بيزنطة وفارس منهكًا،  
وقد استنزفت خزانتهما، وتبددت جيوشهما،  
وأصاب شعوبهما اليأس من المجد الزائل.

وفي غضون جيلٍ واحد فقط،  
كانت الوحدة العربية تحت راية الإسلام  
تجتاح حدودهما المنهكة،  
وتعيد تشكيل الخريطة السياسية والروحية للعالم القديم.

(Daryae, 2009; Frye, 1984; Howard-Johnston, 2010; Kennedy, 2001; Christensen, 1944; Wiesehöfer, 1996.)



#### ٤. الأراضي الحدودية والحلفاء الفدراليون

بين الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية  
امتد نطاقٌ واسعٌ متحوّل من الأراضي الحدودية،  
عبارة عن دولٍ عازلة، وتحالفاتٍ قبلية، وممراتٍ ثقافية  
كانت تفصل بين القوتين العظميين للعصور القديمة المتأخرة،  
وفي الوقت نفسه تربط بينهما.

- الغساسنة، العرب المسيحيون المتحالفون مع بيزنطة،  
تولّوا حماية الجهة الجنوبية من سوريا.  
وبصفتهم حلفاء فدراليين (Foederati) ،  
حصلوا على دعمٍ مالي من الإمبراطورية  
مقابل تأمين طرق القوافل وردّ غارات البدو.  
أصبحت قصورهم في الجابية وبصرى مراكزٍ للثقافة العربية المسيحية،  
حيث امتزج اللاهوت اليوناني بالفصاحة العربية.

- وإلى الشرق،  
كان المناذرة في الحيرة، الموالون لفارس الساسانية،  
يُشكّلون النظير الموازي للغساسنة.  
فقد تولّوا حماية حدود الرافدين،  
وأداروا التجارة بين الصحراء ونهر دجلة،  
ورعوا الشعراء والعلماء والخطباء  
الذين نقلوا التقاليد الفارسية والسريانية والعربية عبر الحدود.
- أمّا في الجنوب الأبعد،  
فقد لعبت الاتحادات القبلية والقبائل التجارية في شمال ووسط الجزيرة  
دور الوسيط في التجارة والدبلوماسية وتبادل الأفكار،  
رابطين طرق البخور اليمنية بـ طرق الحرير السورية والخليجية.

كانت هذه الدويلات الحليفة والمجتمعات الحدودية  
أكثر من مجرد أحزمةٍ دفاعية؛  
لقد تحوّلت إلى مختبراتٍ ثقافية،  
وفي داخلها تبلورت حضارة حدودية هجينة،  
تداخلت فيها العقلانية اليونانية، والمسيحية السريانية، والإدارة الفارسية،  
مع التقاليد الشفهية العربية.

ومن هذا التفاعل وُلدت ثقافةٌ جديدة على حافة الإمبراطوريات،  
تهيأت بها الجزيرة العربية لأن تكون مهداً لحضارةٍ عالميةٍ جديدة.  
فالصحراء التي كانت تراها الإمبراطوريات حاجزاً،  
أصبحت جسراً للتحوّل —  
فيها اختلطت اللغات، وتجادلت العقائد، وتكوّنت الهويات،  
ممّهدةً الطريق لأن تصبح العربية مركز التاريخ القادم.  
(Shahīd, 1984; Hoyland, 2001; Robin, 1997; Beeston, 1981;  
Daryaee, 2009; Kennedy, 2001.)

# Imperial Sovereignty: God, Caesar, and Shahanshah

## Historical Overview

In the Roman world, as the foundation of rulership, in the Mid East two competing yet interconnected imperial spheres. Those as old.

In the Roman world, Emperors like Augustus claimed title son “god” (Divi Filius), emphasizing their authority over the senate and armies—the Latin title Augustus implying divine support, (I. Roman Caesars declared themselves universal bishops, mediating between heaven-earth.

- Byzantine Empire—Byzantium, the Eastern Greek half of the Roman Empire, with capital at Constantinople used divine right of Christian emperors to justify central and indivisible power above the clergy and patriarch.
- Sasanians in Persia—resurrected the Achaemenid title Shahanshah (King of Kings.) intensifying Zoroastrian orthodoxy that consecrated monarchs as righteous guardians of the “Good Religion.”

## Ghassanids and Lakhmids

South of the Byzantine and Sasanian empires. Christian Arab Ghassanids and Zoroastrian Arab Lakhmids ruled buffer yet-gordons under imperial suzerainty.

- While the Ghassanids guarded Rome's desert frontier, the Lakhmids protected Persian territory from Bedouin raids.



## ٥. التجارة، المدن، والممر العربي

حتى في عصرٍ أنهكته الحروب واستنزفته الإمبراطوريات،  
ظَلَّت التجارة شريان الحياة في الشرق الأوسط.  
فاستمرارية التبادل عبر الصحارى والبحار  
لم تغدِ الاقتصادات فحسب،  
بل حافظت على تدفق الأفكار واللغات والمعتقدات،  
ناسجةً شبكة اتصالٍ متينة عبر حدودٍ كانت تتغير باستمرار.

- ربطت طرق القوافل تجارة البخور في اليمن ب موانئ غزة والبتراء ودمشق، حيث نُقلت اللبان والمر والتوابل شمالاً مقابل الحبوب والأقمشة والذهب.
- ازدهرت مكة ويثرب (المدينة) كمركزين محايدتين للتجارة، يجتمع فيهما التجار القادمون من المناطق البيزنطية والفارسية. وقد وُفرت حيادهما التجاري سلاماً هشاً بين القبائل، ضمن أعراف مقدسة ومواسم حج سنوية تضمن الأمن والازدهار.
- كان البحر الأحمر والخليج الفارسي امتدادين بحريين لهذه الشبكة، يربطان الهند وشرق إفريقيا بأسواق البحر المتوسط. ومن خلال هذه الممرات البحرية أصبحت الجزيرة العربية وسيطاً في التجارة العالمية، منفتحة على التيارات الفكرية والثقافية القادمة من ثلاث قارات.

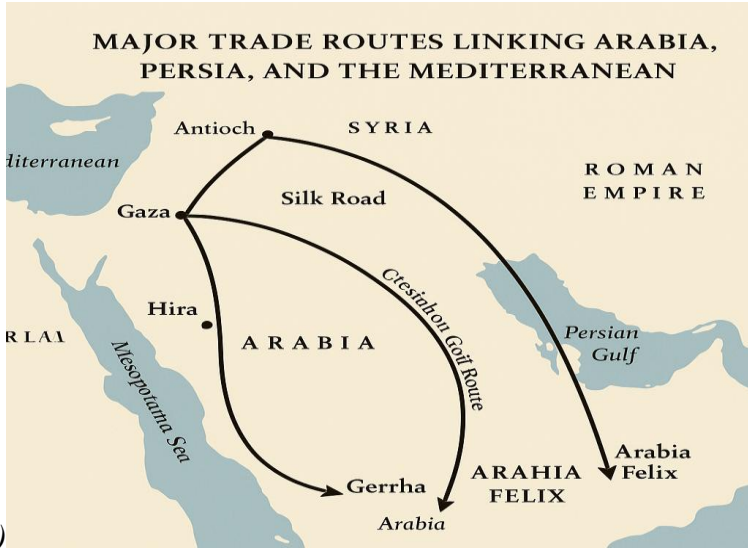
وفي الوقت نفسه،

استمرت الحياة الحضرية خارج الجزيرة في الازدهار. فقد كانت أنطاكية والحيرة والبصرة ملتقيات كوزموبوليتية حية، تتداخل فيها الهجرات الدينية، والرهبانية، والعلمية، والتجارية. هذه المدن تحوّلت إلى خزائن للتنوّع اللغوي واللاهوتي، حيث حُفظت الفلسفة اليونانية، والمسيحية السريانية، والإدارة الفارسية، وهي العناصر التي ستُنسج لاحقاً في نسيج الحضارة الإسلامية.

من خلال هذه الشرايين التجارية، كانت الأفكار تسافر كما تسافر التوابل، وتعبّر اللغات الحدود بسهولة عبور القوافل.

وبحلول نهاية القرن السادس الميلادي، لم تعد الجزيرة العربية هامشاً، بل أصبحت الممر المحوري بين الشرق والغرب — البوتقة التي سيتشكّل فيها الرسالة الكونية القادمة.

(Robin, 1997; Shahîd, 1984; Hoyland, 2001; Beeston, 1981; Kennedy, 2001; Power, 2012.)



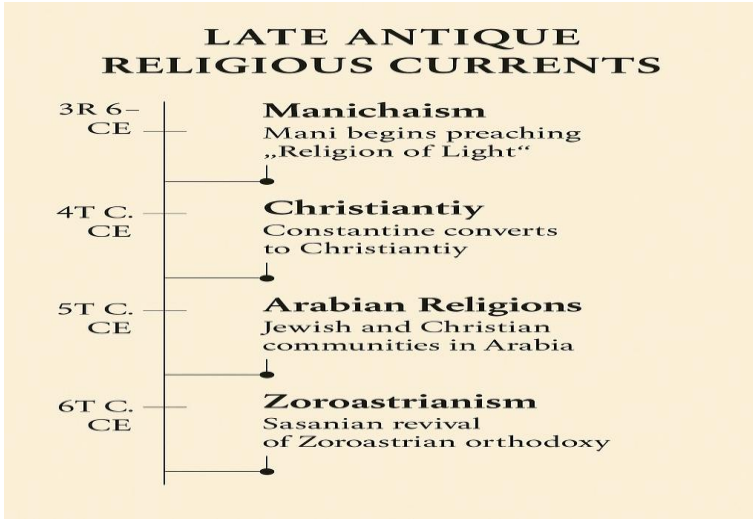
## ٦. الغليان الديني والتمازج الثقافي

مع أواخر القرن السادس الميلادي، أصبح المشهد الروحي في الشرق الأدنى فسيفساء متعددة الطبقات، تتداخل فيها التقاليد الدينية والفكرية، وتتجاور في حوارٍ وجدالٍ وتجديدٍ دائم. كانت الإمبراطوريات تقوم وتنهار، لكن الإيمان ظلّ الوسيط الأبقى الذي سعت من خلاله الإنسانية إلى تحقيق الاتساق وسط التمزق.

- كانت المسيحية آنذاك منقسمة بين الكرسيّات البطريركية المتنافسة — روما، القسطنطينية، أنطاكية، الإسكندرية، والقدس — تعاني من انشقاقات مجمع خلقدونية ولاهوتها الجدلي. ومع ذلك، ورغم تفتت الوحدة الكنسية، ازدهرت الحياة الرهبانية، لتجعل من الصحارى والجبال أديرةً للتأمل والانضباط، حيث صارت العزلة طريقاً إلى التقديس.
- أمّا الزرادشتية، التي كانت الركيزة الأيديولوجية للدولة الساسانية، فقد واجهت حركات إصلاحية داخلية مثل المازدكية، التي بشرت بـ الأخلاق الجماعية والمساواة الاجتماعية والعدالة الاقتصادية، فشكّلت تحدياً جذرياً للنظام الأرستقراطي السائد.

- وظلت اليهودية في أوج حيويتها الفكرية داخل المدارس البابلية في سورا وبومبيثا، حيث استمر التراث التلمودي في تشكيل الفكر الأخلاقي والقانوني عبر انتشار واسع في الشتات اليهودي.
- وفي الجزيرة العربية، انصرف الحنفاء — الباحثون عن التوحيد الخالص — عن عبادات القبائل وأصنام المعابد، متأملين في الخالق الواحد الذي تتجاوز حضوره المعبد والنسب. كانت رحلتهم فردية وشعرية، تحفظ النبضة الإبراهيمية حيّةً — نبضة الوحدة والتأمل.

لقد أنتج هذا العالم المتعدد — رغم انقسامه الظاهر وتداخله العميق — خطاباً مشتركاً عن النبوة والأخلاق والوحي. تحوّل الشرق الأدنى إلى حوارٍ واسع للأفكار، ملقّى لـ العقلانية اليونانية، والأخلاق الفارسية، والتوحيد السامي، والبيان العربي. ومن هذا التمازج، كانت تربة الحضارة تنتهي لبذرة جديدة، لوحي سيجمع لغات الإيمان المتفرقة في رسالة كونية واحدة. (Brown, 1998; Shahîd, 1984; Daryaee, 2009; Crone, 1987; Hoyland, 2001; Armstrong, 2006.)





## 7. الانهيار والتحول

كانت الحرب البيزنطية-الساسانية الأخيرة (٦٠٢-٦٢٨م)

آخر ارتعاشة في جسد العالم القديم.

فما بدأ صراعاً إمبراطورياً على المجد والعقيدة، انتهى باستنزافٍ متبادلٍ لحضارتين هيمنتا على الشرق الأدنى لألف عام.

احترقت المدن، وخوت الخزائن،

وخيم الصمت على الأرض تحت وطأة المجاعة والوباء.

أما حملات هرقل وخسرو الثاني، فعلى الرغم من انتصاراتها المؤقتة،

فقد تركت الإمبراطوريتين منهكتين من الداخل—

جيوشاً مهالكة، واقتصاداً منهكاً، وثقةً أخلاقيةً متصدعة.

وفي هذا الفراغ المظلم من اليأس والإعياء، انبثق موحدٌ غير متوقع: الوحي العربي.

فحين توحدت قبائل الجزيرة تحت إيمانٍ واحدٍ وشرعيةٍ جامعة، واندفعت نحو الشمال في ثلاثينيات القرن السابع الميلادي، لم يعد بإمكان العمالة الإمبراطورية الذين حكموا القارات أن يقاوموا هذه القوة الروحية المتجددة.

غير أن الفتوحات العربية لم تكن هدمًا للحضارة، بل كانت تجديدًا لها.

إذ لم يمحُ النظام الإسلامي الناشئ الماضي، بل امتصّه وارتقى به.

فمن بيزنطة ورث دقة البيروقراطية ومثالية القانون، ومن فارس أخذ البراغماتية الإدارية وفكرة الحكم المركزي، ومن تعدد الأديان في أواخر العصور القديمة استقى اللغة الأخلاقية والروحية التي حوّلت الإمبراطورية إلى رسالة.

وفي غضون جيلٍ واحد، انصهرت الميراثات الكبرى — الأثينية، والبابلية،

والقدسية— في حضارةٍ جديدة، تحمل حكمة العالم القديم المتراكمة

إلى عصرٍ متجدد من الإيمان والعقل والرؤية الكونية.

(Howard-Johnston, 2010; Kennedy, 2001; Daryaei, 2009;

Brown, 2013; Hoyland, 2001.)



## EARLY ARAB EXPANSIONS OVER FORMER BYZANTINE AND SASANIAN TERRITORIES

630–750 CE



#### ٤. الأراضي الحدودية والحلفاء الفدراليون

بين الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية امتد نطاقٌ واسعٌ متحوّل من الأراضي الحدودية، عبارة عن دولٍ عازلة، وتحالفاتٍ قبلية، وممراتٍ ثقافية كانت تفصل بين القوتين العظيمين للعصور القديمة المتأخرة، وفي الوقت نفسه تربط بينهما.

- الغساسنة، العرب المسيحيون المتحالفون مع بيزنطة، تولّوا حماية الجهة الجنوبية من سوريا.

وبصفتهم حلفاء فدراليين (Foederati)، حصلوا على دعمٍ ماليٍّ من الإمبراطورية مقابل تأمين طرق القوافل وردّ غارات البدو.

أصبحت قصورهم في الجابية وبصرى مراكزٍ للثقافة العربية المسيحية، حيث امتزج اللاهوت اليوناني بالفصاحة العربية.

- وإلى الشرق، كان المناذرة في الحيرة، الموالون لفارس الساسانية، يُشكّلون النظير الموازي للغساسنة.

فقد تولّوا حماية حدود الرافدين، وأداروا التجارة بين الصحراء ونهر دجلة، ورعوا الشعراء والعلماء والخطباء

الذين نقلوا التقاليد الفارسية والسريانية والعربية عبر الحدود.

- أما في الجنوب الأبعد، فقد لعبت الاتحادات القبلية والقبائل التجارية في شمال ووسط الجزيرة دور الوسيط في التجارة والدبلوماسية وتبادل الأفكار، رابطين طرق البخور اليمنية بـ طرق الحرير السورية والخليجية.

كانت هذه الدويلات الحليفة والمجتمعات الحدودية أكثر من مجرد أحزمةٍ دفاعية؛ لقد تحوّلت إلى مختبراتٍ ثقافية، وفي داخلها تبلورت حضارة حدودية هجينة، تداخلت فيها العقلانية اليونانية، والمسيحية السريانية، والإدارة الفارسية، مع التقاليد الشفهية العربية.

ومن هذا التفاعل وُلدت ثقافةٌ جديدة على حافة الإمبراطوريات،

تهيأت بها الجزيرة العربية لأن تكون مهداً لحضارةٍ عالميةٍ جديدة.

فالصحراء التي كانت تراها الإمبراطوريات حاجزاً، أصبحت جسراً للتحوّل —

فيها اختلطت اللغات، وتجادلت العقائد، وتكوّنت الهويات،

ممّهدةً الطريق لأن تصبح العربية مركز التاريخ القادم.

(Shahîd, 1984; Hoyland, 2001; Robin, 1997; Beeston, 1981; Daryaei, 2009; Kennedy, 2001.)

## الفصل الثاني: الرسالة النبوية

تُعَدُّ رسالة النبي محمد ﷺ واحدةً من أكثر التحوّلات عمقًا في التاريخ الإنساني. ففي غضون عقدين فقط، تحوّلت الجزيرة العربية من فسيّساء قبليّة متناحرة إلى رابطةٍ روحيةٍ وأخلاقيةٍ واحدةٍ توحدّها عقيدةٌ جامعة.

في قلب هذا التحوّل وُلدت الأُمّة — جماعةٌ يُحدّدها الإيمان والأخلاق، لا النسب أو الجغرافيا.

كانت البيعةُ مبدئيةً، لا عرقيةً؛ والقيادةُ تكليفًا أخلاقيًا، لا امتيازًا اجتماعيًا. فقد أرست تعاليم النبي ﷺ أركان الحياة العامة على العدل والمساواة والرحمة، جامعةً بين الوحي والعقل، والنظام والرأفة.

وقد تجسّد هذا الاكتمال في حجة الوداع، حين نزل الوحي الخاتم:

"اليوم أكملتُ لكم دينكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام دينًا".  
(سورة المائدة، آية ٣)

ومع هذا الكمال جاءت المسؤولية — مسؤولية حفظ الرسالة، وترجمتها إلى مؤسساتٍ باقيةٍ تُجسّد أخلاقها.

وعند انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى سنة ٦٣٢م، واجهت الأُمّة سؤالها الحاسم: كيف تستمر الهداية الإلهية عبر الولاية البشرية؟

فأصبح القيادةُ تكليفًا بالشورى والإجماع والأمانة. ومن هذا التحدي وُلدت الخلافة، ليست طموحًا للسلطة، بل امتدادًا للرسالة — مؤسسة لحفظ النظام الأخلاقي الذي أرسّته النبوة.

وقد ورث الخلفاء الراشدون الأربعة — أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي — لا دستورًا سياسيًا جاهزًا، بل إرثًا أخلاقيًا ساميًا. كانت وظيفتهم تجسيد النموذج النبوي: العدل في الحكم، والتواضع في القيادة، والوفاء للوحي.

هكذا لم تنتهِ النبوة بالموت، بل تجلّت في حضارة. دخل الإسلام التاريخ كإيمانٍ ونظامٍ معًا، قادرٍ على بناء الإمبراطوريات دون أن يفقد روحه.

وفي رؤية النبي ﷺ تستمر الحقيقة الكبرى: أن السلطة لا تكتسب شرعيتها إلا بالخدمة، وأن الحضارة لا تدوم إلا بالضمير.

(Donner, 2010; Hodgson, 1974; Kennedy, 2007; Crone, 1987; Armstrong, 2006.)

# ADMINISTRATIVE SYSTEMS OF THE EARLY CALIPHATE vs. BYZANTINE–SASANIAN MODELS

EARLY CALIPHATE	BYZANTINE– SASANIAN MODELS
TAXATION	
Simplified Islamic tax code	Complex, multilevel tax structures
BUREAUCRACY	
Maintained local officers and practices	Layered, centralized civil service
MILITARY	
Arab tribal army elite	Professional standing armies
COURT	
‘Modest’ caliphal court	Elaborate royal courts

## التحول من الخلافة الراشدة إلى الدولة الأموية (٦٦١-٧٥٠م)

شكّل الانتقال من الخلافة الراشدة إلى الحكم الأموي واحدًا من أعظم المنعطفات في التاريخ الإسلامي والعالمي.

فما بدأ جماعة إيمانية موحدة بالرؤية الأخلاقية، تطور إلى إمبراطورية قارية تدير شعوبًا متعددة وألسنة وثقافات متنوّعة.

لم يكن العهد الأموي قطيعةً مع الإرث النبوي، بل تكييفًا له مع واقع عالمي متسع. أُعيد تفسير الإيمان والشريعة والإدارة على نطاق غير مسبوق، فتحوّلت الدولة الإسلامية إلى حضارة مؤسسية منظمة، توازن بين الوحي والإمبراطورية،

وبين الغاية الأخلاقية والضرورة السياسية.  
(Hodgson, 1974; Kennedy, 2004; Donner, 2010.)

## صعود الأمويين

أعقبت اضطرابات سياسية مقتل الخليفة عثمان بن عفان، ثم الصراعات التي شهدتها عهد علي بن أبي طالب، كاشفةً التحديات التي صاحبت التوسع السريع وضرورة ضبطه بالمبادئ. تداخلت قضايا الشرعية والعدل والسلطة مع التنافسات القبلية والإقليمية، مهددةً وحدة الأمة الفتية.

من بين هذا الاضطراب برزت أسرة بني أمية من قريش، يتزعمها معاوية بن أبي سفيان، والي الشام ورجل الدولة الواقعي البصير. ومع صعوده بدأ نظام سياسي جديد — وراثي في الشكل، لكن متطور إداريًا في المضمون.

كان نقل العاصمة من المدينة إلى دمشق رمزًا لتحوّل عميق؛ انتقل مركز القوة من قلب الجزيرة الروحي إلى ملتقى الحضارات الشامية، حيث تجمعت خبرات الحكم الرومانية والشرقية القديمة. لم تعد الخلافة اتحادًا قبليًا، بل إمبراطوريةً مركزيةً تدير أراضي شاسعة وشعوبًا متعددة وشبكات تجارة عالمية.  
(Kennedy, 2007; Crone, 1987; Hinds, 1990.)

## التنظيم والإدارة

في العهد الأموي، اكتسبت الدولة الإسلامية مؤسسات الإمبراطورية. تم تقسيم الأقاليم إداريًا، وتعيين الولاة بصلاحيات محددة، وأنشئت شبكة البريد (البريد) لربط الأقاليم بالعاصمة.

وُحِّدَت أنظمة الضرائب، وجُعِلَت اللغة العربية اللغة الرسمية للإدارة، بدلًا من اليونانية والفارسية والقبطية. هذا التوحيد اللغوي لم يحقق الكفاءة الإدارية فحسب، بل مهّد لنهضة فكرية لاحقة، جعلت العربية لغة العلم والفلسفة والأدب.

أصدر الأمويون عملةً موحدة، وشيّدوا الطرق والحصون،  
وأعادوا بناء المدن.  
صارت دمشق والكوفة والبصرة وقرطبة مراكز للحكم والتجارة والحركة الفكرية.  
ومن وادي السند إلى الأندلس، دارت البضائع والعقول والأفكار  
في اقتصادٍ سياسي منظمٍ تحكمه القانون والاستقرار.  
(Hodgson, 1974; Kennedy, 2004; Lewis, 1993.)

## اتساع العالم الإسلامي

شهد العصر الأموي واحدةً من أسرع وأوسع مراحل التوسع في التاريخ.  
في الغرب، عبرت الجيوش الإسلامية شمال أفريقيا، وفتحت قرطاج (٦٩٨م)،  
وتوغلت عبر جبل طارق إلى الأندلس.  
وفي الشرق، بلغت ما وراء النهر وخراسان وحدود الهند، فاتحةً أبواب التواصل بين  
الإسلام وحضاراتٍ عريقة.

لكن هذا التوسع لم يكن عسكرياً فحسب؛ بل ثقافياً وحضارياً.  
فقد التقت عبقرية الإدارة اليونانية، وتراث الفكر الفارسي، وخبرات السريان  
والأقباط التقنية مع الإطار الأخلاقي والقانوني للإسلام.

نتج عن ذلك حضارةً هجينةً — عربيةٌ في القيادة، لكن عالميةٌ في الأفق.  
دمج الأمويون النخب المحلية، وحافظوا على العادات الإقليمية،  
وشجّعوا أسلمة الإدارة تدريجياً لا فرضاً.  
بهذا التوازن، تمكنت الإمبراطورية من الاستمرار والتكيف، ممهّدة الطريق للعصر  
العباسي الكوزموبوليتاني الذي سبّخها.  
(Kennedy, 2007; Hodgson, 1974; Donner, 2010.)

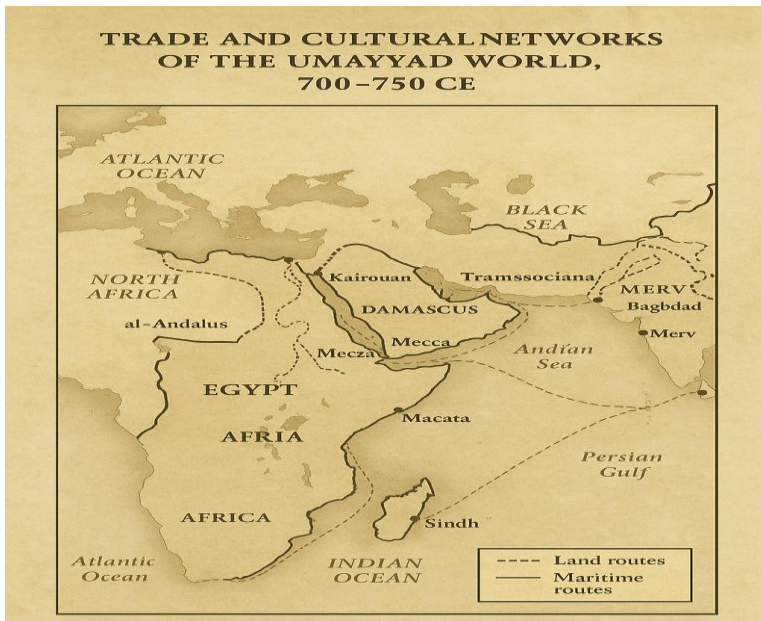
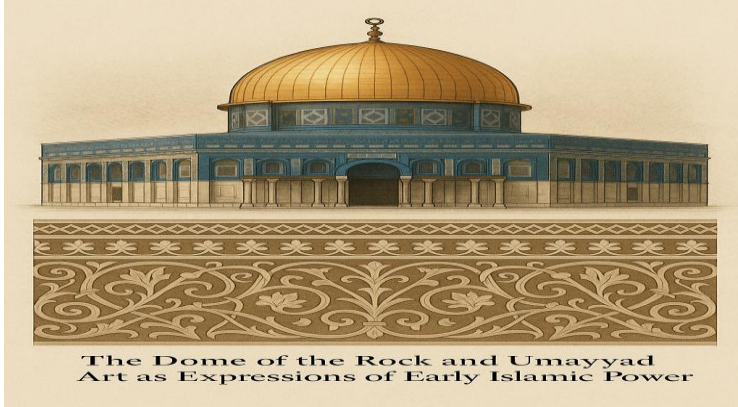
## تأمل تاريخي

كانت التحوّلات الأموية جسراً بين الوحي والإمبراطورية —  
بين النظام الأخلاقي للمدينة والنظام السياسي لدمشق.  
حافظت على جوهر الروح النبوية، ووسّعت آفاقها إلى فضاءٍ عالمي.

رأى النقاد في الأمويين نزعةً دنيوية، ورأهم المدافعون تطوراً ضرورياً لدينٍ مقدّرٍ  
أن يخاطب العالم. وكلاهما كان صادقاً: ففي عهدهم لم يعد الإسلام ديناً محلياً،

بل نظامًا كونيًا — العמוד الفقري الأخلاقي واللغوي والإداري  
لترتيب عالمي جديد.

ومن المدينة النبوية البسيطة نشأت إمبراطورية تمتد من الأندلس إلى السند،  
تجمع شعوبها بلسان واحد، وشرعية واحدة، وصلاة واحدة.  
(Donner, 2010; Hodgson, 1974; Kennedy, 2004.)





## الدين والمجتمع والهوية

واجه الخلفاء الأمويون تحدّيًا جوهريًا: كيف تُدار إمبراطورية إسلامية الإيمان، لكنها متعددة الأعراق والديانات؟

ضمّت الدولة شعوبًا من العرب والفرس والبربر والسريان والأقباط وغيرهم، تحت سلطةً سياسيةً واحدة، لكنهم احتفظوا بتقاليدهم الثقافية المتميزة.

ولتحقيق الوحدة وسط التنوع، تمّ تدريجيًا دمج الموالي (غير العرب المسلمين) في الجهاز الإداري والعسكري، مع الحفاظ على كفاءة النظم السابقة.

هذا التوازن الدقيق أدّى إلى عولمة الإسلام:

فما بدأ وحياً عربياً تحوّل إلى حضارة عالمية تجاوزت العرق والجغرافيا واللغة.

في الوقت نفسه، دخل العلم الديني مرحلته التأسيسية.

ظهرت مدارس التفسير الأولى في المدينة والكوفة والبصرة،

وبدأت جمع الأحاديث وبذور الفقه المبكر.

أسهم علماء مثل الزهري، والحسن البصري، وفقهاء المدينة الأوائل

في وضع الأسس الفكرية التي ستشكّل لاحقاً العلوم الإسلامية المتخصصة.

ومع تزايد الطابع الوراثي للسلطة السياسية، أخذ الحقل الديني والفكري

طابعاً مؤسسياً ومنظماً، أنتج بنيةً أخلاقيةً وعلميةً تجاوزت بقاء الدولة نفسها.

وهكذا، لم يكن العصر الأموي مرحلة توسع سياسي فحسب، بل عصر ترسيخ

فكري، تحوّل فيه الوعي إلى شريعة، والإيمان إلى حضارة.

(Donner, 2010; Hodgson, 1974; Kennedy, 2004; Crone, 1987.)

## الإرث والتحوّل

بحلول منتصف القرن الثامن الميلادي، امتدّ العالم الأموي من المحيط الأطلسي إلى

حدود الصين — أكبر كيانٍ متصلٍ عرفه التاريخ آنذاك.

لكن الاتساع جلب معه الهشاشة.

برزت توتراتٌ بين السلطة المركزية والأقاليم، وبين النخب العربية والمسلمين غير

العرب، وبين الطموح الأسري والمثل الأخلاقية للجماعة الأولى.

وانتهت هذه التناقضات بـ الثورة العباسية (٧٥٠م)، التي أنهت الحكم الأموي ونقلت مركز الخلافة شرقاً إلى العراق، مفتوحةً عصرًا جديدًا في التاريخ الإسلامي.

ومع ذلك، ظلّ إرث الأمويين حيًّا: فقد منحوا الإسلام بنية الإمبراطورية، وجعلوا العربية لغةً عالمية، وأعطوا البحر المتوسط والشرق الأدنى تماسكًا تاريخيًا جديدًا.

لقد حوّل الأمويون الإسلام من كيانٍ إيمانيٍّ سياسيٍّ، إلى نظامٍ عالميٍّ، أرسى الأسس المؤسسية واللغوية لنهضة فكرية وعلمية ستبلغ أوجها في العصر العباسي. (Hodgson, 1974; Kennedy, 2007; Donner, 2010.)

### الانتقال — من الإمبراطورية إلى الحضارة

بحلول منتصف القرن الثامن، كانت أسس العالم الإسلامي قد ترسّخت. فالرسالة التي بدأت في وديان الجزيرة العربية أعادت تشكيل القارات، واستوعبت الإمبراطوريات القديمة، ووحدت شعوبًا فرقتها اللغات والأعراق والعقائد.

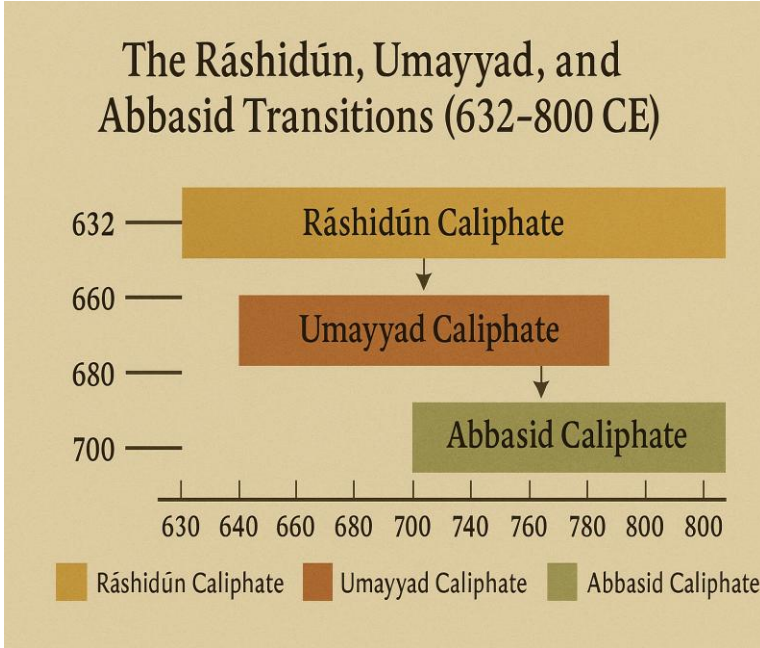
لقد أرسيت الخلافة الراشدة الجوهر الأخلاقي والسياسي للإيمان، وأعطى الأمويون له شكله الإمبراطوري المنظم. لكن تحت هذه الهياكل السياسية كان يجري تحولٌ أعمق — اندماج الأفكار واللغات والتقاليد في نسيج حضاريٍّ واحد.

أعاد العالم القرآني توجيه الفكر الإنساني نحو العدل والعقل والمساءلة الأخلاقية. وأصبحت اللغة العربية الوعاء المشترك للقانون واللاهوت والأدب، فيما أيقظ الاحتكاك بالتراث الفارسي واليوناني والسرياني تياراتٍ جديدةً من التأمل والبحث.

ومع بلوغ النظام الأموي حدوده، تجمعت الطموحات الإقليمية والحركة الفكرية شرقاً — ومن هذه التحولات وُلدت الخلافة العباسية، التي ورثت الضمير الأخلاقي للجماعة الأولى، وحملت طاقات فكرية وثقافية عالمية.

في ظل العباسيين، سيدخل الإسلام عصر المعرفة — عصرًا يمتزج فيه العقيدة بالفلسفة، والعلم بالفن، ليتشكل بذلك الطابع الحضاري للعالم الإسلامي

(Hodgson, 1974; Kennedy, 2004; Lewis, 1993; Donner, 2010.)



## الفصل الثالث – النهضة العباسية: الإسلام وولادة الحضارة من جديد

كان صعود الخلافة العباسية (٧٥٠-١٢٥٨م)

بداية عصر جديد في تاريخ الإسلام —

مرحلة نضجت فيها الوحدة السياسية التي أرساها الخلفاء الراشدون والهيكل الإداري الذي أتمه الأمويون،  
لتتحول الدولة إلى مشروع حضاري عالمي النطاق.

في بغداد،

انصهرت الطاقة الأخلاقية للوحي

مع التراث العقلي للعصور القديمة،

فانبثقت من هذا الاتحاد واحدة من

أعظم وأدوم الحضارات في التاريخ الإنساني.

ففي ظل العباسيين، بلغ الإسلام ذروة تحقّقه،

ليس كدين أو كإمبراطورية فحسب،

بل كحضارة للمعرفة،

أعادت تعريف العلم والفلسفة والإدارة والثقافة

لمئات السنين القادمة.

(Hodgson, 1974; Kennedy, 2004; Lewis, 1993; Donner, 2010.)

### تحوّل السلطة والرؤية

كانت الثورة العباسية حركة ثقافية بقدر ما كانت سياسية.

انبثقت من سخط واسع على الحكم الأموي، الذي ركّز السلطة في العرب،

مهمّشاً المسلمين من غير العرب (الموالي)، ومتسبباً في توتر وحدة الأمة.

استمد العباسيون شرعيتهم من الدعوة إلى العدل والمساواة، مدّعين النسب إلى

العباس بن عبد المطلب، عمّ النبي ﷺ.

وانطلقت حركتهم من خراسان في شرق إيران، بدعم من الفرس والعرب وسواهم،

في تعبير عن كونية الإسلام المتنامية — دينٌ تجاوز القبيلة والإقليم والعرق.

وفي سنة ٧٥٠م، سقطت الدولة الأموية، وأقام العباسيون نظاماً سياسياً وأخلاقياً

جديداً قائماً على الانفتاح والعلم.

كان هدفهم أن يوائمو المثل النبوية مع تعقيدات الحكم الإمبراطوري،  
 فيحوّلوا الإسلام من دولة إقليمية إلى حضارة كوزموبوليتانية بحق.  
 (Kennedy, 2004; Crone, 1987; Hodgson, 1974.)

## بغداد: قلب عالم جديد

إن تأسيس بغداد كعاصمة للخلافة سنة ٧٦٢م كان عملاً حضاريًا مقصودًا بكل معنى الكلمة. فقد اختير موقعها على نهر دجلة، بين إرث بلاد الرافدين العريق والتراث الفارسي العميق، لتجسد الاستمرارية والتجديد معاً — استمراراً للتقاليد الفكرية والإدارية القديمة، وتجديد مستمد من الرؤية الأخلاقية والعقلية للإسلام.

شُيّدت المدينة دائرية التصميم، في هيئة ترمز إلى الانسجام والنظام والكلية، تجسيداً هندسياً لوحدة الله في صورة عمرانية. ومنذ لحظة تأسيسها، لم تُصمّم بغداد كمقر للسلطة فحسب، بل كمركز للعلم والتبادل.

فقد كان موقعها عقدة تربط طرق التجارة بين الصين والهند والجزيرة العربية والبحر المتوسط، مما جعلها ملتقى عالمياً للبضائع والأفكار. تجاوز فيها المهندسون الفرس، والأطباء اليونان، والرياضيون الهنود، والعلماء العرب، فتحولت المدينة إلى قلب نابض لعصر الإسلام الذهبي.  
 (Hodgson, 1974; Kennedy, 2007; Gutas, 1998)



## من الإمبراطورية إلى الحضارة

في ظل الخلافة العباسية، تطورت الدولة الإسلامية من إمبراطورية سياسية إلى حضارة كوزموبوليتانية عالمية.

ومع الحفاظ على وحدة الإيمان، أشرف النظام العباسي على عالم متعدد الأعراق والثقافات، يضم العرب والفرس والترك والهنود واليونان والبربر وغيرهم—محولاً التنوع إلى مصدرٍ للحياة لا للانقسام.

برزت بغداد كمدينة لا نظير لها في عصرها: مدينة علم وتجارة وفنٍ وإبداع. أنشأ الخلفاء ودعموا المؤسسات العلمية مثل بيت الحكمة، الذي أصبح العقل المفكر للعالم الإسلامي.

وفيه ترجم العلماء وطوروا العلوم والفلسفات الإغريقية والفارسية والهندية، مولدين توليفاتٍ جديدة في الرياضيات والفلك والطب والميتافيزيقا.

جاء هذا الازدهار الفكري انعكاساً للرؤية الإسلامية للمعرفة (العلم) بوصفها عبادةً وأمانةً إلهية. ألهمت آيات القرآن التي تدعو إلى التفكير والتعقل والنظر نهضةً علميةً شملت جميع المجالات.

وأصبحت العربية اللغة العالمية للمعرفة، تربط العلماء من الأندلس إلى ما وراء النهر في حوارٍ واحدٍ يجمع الإيمان بالاكشاف. (Hodgson, 1974; Gutas, 1998; Kennedy, 2004; Nasr, 2007.)

## الحكم والمجتمع

طوّر العباسيون الهياكل الإدارية التي ورثوها عن الأمويين وعن إمبراطوريات الشرق الأدنى القديمة.

أصبحت البيروقراطية أكثر احترافاً، ونُظمت الضرائب بنظامٍ أدق، وأصبحت الحكومة منسجمةً أكثر مع المعايير الشرعية والأخلاقية للفقهاء الإسلاميين.

برز العلماء (الفقهاء والعلماء) بوصفهم مفسرين للشريعة الإلهية وضميرًا أخلاقياً للمجتمع، يوازنون بين سلطة الدولة وهداية الدين.

اجتماعياً، شهد العصر ازدهاراً عمرانياً واقتصادياً غير مسبوق. تحولت مدن مثل بغداد والبصرة والكوفة والقاهرة ونيسابور وقرطبة

إلى مراكز مكتظة بالسكان والتجارة والثقافة.  
ازدهرت الفنون والعمارة والأدب، معبرةً عن جمالٍ نابعٍ من الوحدة والنظام.

جسدت الزخارف الهندسية، والتوريقات النباتية، وخطوط الخط العربي فلسفةً عميقةً  
عن التناسق والنسبة الإلهية.  
أما الشعر والنثر — من أبي نواس إلى الجاحظ — فعبراً عن ثقةٍ فكريةٍ لحضارةٍ  
رأت في الإبداع امتداداً للإيمان.  
(Hillenbrand, 1999; Hodgson, 1974; Kennedy, 2007.)

## روح العصر

مثلَّ العصر العباسي أكثر من مجرد حكم سلالة — كان تجسيداً لرؤيةٍ كونيةٍ.  
فقد أصبح الإسلام ديناً وحضارةً، يحفظ حكمة العصور القديمة، ويلهم الابتكار في  
زمانه، ويُنبئ دروب المستقبل.

في مكتباته ومرصديه، ومحاكمه ومدارسه، وخذ العالم العباسي بين الروح والعقل،  
وبين الأخلاق والتجربة.  
لم تكن العقلانية والوحي خصمين، بل شريكين في فهم الخلق.

ومع أن وحدة الخلافة السياسية بدأت تتجزأ في القرنين التاسع والعاشر، فإن  
الحيوية الفكرية والأخلاقية التي أطلقتها ظلَّت تربط العالم الإسلامي عبر القارات.  
وهكذا بقيت النهضة العباسية واحدةً من ألمع الشواهد التاريخية على قدرة الإيمان  
والعقل والتنوع على بناء حضارةٍ كونيةٍ جامعةٍ.  
(Hodgson, 1974; Nasr, 2007; Kennedy, 2004.)

## الشرق الأوسط الأوسع: تحولات موازية من بيزنطة إلى بغداد

نشأت العالمية العباسية ضمن تحولٍ إقليميٍ واسعٍ.  
فبين القرنين السابع والثالث عشر، أصبح الشرق الأوسط مسرحاً لإعادة تشكيل  
حضاري: انهارت إمبراطوريات، وتوسعت ديانات، وأعيدت صياغة التقاليد القديمة  
في قوالب جديدة.

تطوّر العالم الإسلامي بالتوازي مع البيزنطيين، والفرس، والمصريين،  
الأناضوليين، ليصوغوا معاً النسيج الثقافي والسياسي للشرق الأوسط الوسيط.

## بيزنطة وتحول ميزان البحر المتوسط

حين بدأ النبي محمد ﷺ دعوته في مكة (حوالي ٦١٠م)، كانت الإمبراطورية البيزنطية —وريثة روما— تمرّ بمرحلة إرهابٍ وانقسام. أنهكتها الحروب المستمرة مع الفرس الساسانيين، وأضعفتها الأزمات الاقتصادية والانقسامات اللاهوتية.

أدت الحروب المدمّرة في أوائل القرن السابع إلى إنهاك الإمبراطوريتين معاً، فنشأ فراغٌ جيوسياسي تمدّد فيه الإسلام خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن السابع. ومع ذلك، نجت بيزنطة. وظلّت القسطنطينية حصناً للعلم المسيحي والتجارة.

وفي ظل النهضة المقدونية (القرنان ٩-١١م)، أحييت بيزنطة تراثها الفني واللاهوتي والإداري، وحافظت على الفلسفة والعلوم اليونانية، التي دخل كثيرٌ منها إلى العالم الإسلامي عبر الترجمة والتبادل. (Ostrogorsky, 1969; Mango, 2002.)

## فارس واستمرار الحضارة الشرقية

في الشرق، انهارت الإمبراطورية الساسانية أمام التوسع الإسلامي المبكر، لكن إرثها الثقافي ترك بصمته العميقة في النظام الجديد.

كان الإداريون والعلماء والحرفيون الفرس ركائز في البيروقراطية العباسية والحياة الفكرية. استنوع النظام الديواني الفارسي، وأعيدت صياغته بروح إسلامية.

وفي العهد العباسي، غدت الأقاليم الفارسية —خراسان، وما وراء النهر، وفارس — مراكز للإبداع والابتكار. أنجبت أسماءً مثل البيروني، والفردوسي، وابن سينا، والخوارزمي، الذين جمعوا التراث العقلي الفارسي بـ اللغة العربية والفكر الإسلامي.

نشأ من هذا التفاعل ما يُعرف بـ "العالم الفارسي الإسلامي"، وهو فضاء ثقافي واسع يمتد من العراق إلى آسيا الوسطى، تداخلت فيه الجمالية الفارسية مع العلم العربي الإسلامي، لتشكل هويةً حضاريةً كونيةً واحدة.

(Bosworth, 1980; Hodgson, 1974; Nasr, 2007.)



## مصر والهلال الغربي

حوّل فتح مصر (٦٤١م) البلاد من حدودٍ بيزنطيةٍ إلى ركيزةٍ أساسيةٍ في الاقتصاد الإسلامي. فبفضل وادي النيل الخصيب وموقعها بين إفريقيا وآسيا، أصبحت مصر حلقةً مركزيةً في شبكات التجارة الإسلامية.

وفي عهد الفاطميين (٩٠٩-١٧١م)، وهي سلالةٌ شيعيةٌ جعلت من القاهرة عاصمتها، ازدهرت البلاد كمناقصٍ علميٍ وتجاريٍ لبغداد. وأصبح تأسيس جامعة الأزهر رمزًا للدور المصري الدائم في الفقه والفلسفة والعقيدة.

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي (ت ١١٩٣م)، استعادت مصر مكانتها كمحورٍ سياسيٍ وأخلاقيٍّ في العالم الإسلامي. فبتوحيده مصر والشام، وانتصاره في حطين (١١٨٧م)، أعاد القدس وأحيا مثل العدل والوحدة في نصرته الإيمان. (Lev, 1999; Kennedy, 2004.)

## الأناضول والقوقاز ومناطق الحدود

كانت الحدود بين بيزنطة والإسلام مناطق احتكاكٍ وتبادل. تحولت الأناضول — التي تنازعت عليها القوى مرارًا — إلى بوتقة تفاعلٍ ثقافي بين اليونانيين والأرمن والأتراك. وكان انتصار السلاجقة في ملاذكرد (١٠٧١م) منعطفًا حاسمًا، مهددًا لأسلمة تدريجيةٍ ولا تترك المنطقة.

أما القوقاز — بما فيه أرمينيا وجورجيا وأذربيجان — فظلّ سيفسواء من الأديان واللغات، يجمع بين التأثيرات المسيحية والفارسية والإسلامية. ورغم الانقسام السياسي، ظلّت المنطقة جسرًا بين الحضارات. (Peacock, 2010; Golden, 1992.)

## المحيط الهندي وروابط آسيا الوسطى

خارج المراكز الكبرى، مدّ العالم العباسي نفوذه عبر التجارة والهجرة. أقام التجار المسلمون طرقًا بحرية تربط البحر الأحمر والخليج العربي بسواحل شرق إفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا، ناقلين معهم البضائع والأفكار — ومنها الكتابة والقانون والفن.

وفي الداخل، ازدهرت آسيا الوسطى في ظل السامانيين والسلاجقة،  
فبرزت بخارى وسمرقند ومرو كمراكز علم وثقافة، جمعت بين الفكر الإيراني  
والتركي والهندي، وأنتجت تركيبات جديدة في اللاهوت والعلم والأدب.  
(Hodgson, 1974; Frye, 1996; Kennedy, 2007.)

### الحملات الصليبية، التففت، والكارثة المغولية

منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، دخل العالم الإسلامي مرحلة من الاضطراب  
العميق.

فقد جلبت الحملات الصليبية (١٠٩٦-١٢٩١م) جيوش أوروبا اللاتينية إلى مواجهة  
مباشرة مع الشرق الإسلامي، وحول الشرق إلى حدودٍ ملتهبة بين الأديان.

ومع ذلك، حتى في ظل الحرب، استمر التبادل الحضاري في الطب والعمارة  
والفلسفة.

وبينما تعمق التجزؤ السياسي، واصلت بغداد والقاهرة ودمشق ازدهارها العلمي  
والفكري.

لكن النهاية المأساوية جاءت مع الغزو المغولي، الذي بلغ ذروته بسقوط بغداد سنة  
١٢٥٨م، في حدثٍ مثل نهاية رمزية للخلافة العباسية.

غير أن الإرث الفكري والروحي للعالم العباسي لم يمت؛ بل امتدَّ في الأندلس وفارس  
والهند، وفي كل موضعٍ ترسخت فيه اللغة العربية، والشريعة الإسلامية، وروح  
البحث العلمي.

(Morgan, 1986; Hodgson, 1974; Kennedy, 2007.)

### عالم في طور الالتقاء

بين عامي ٦١٠م و١٢٥٨م، شهد الشرق الأوسط تحولاً غير مسبوق في تاريخ  
البشرية.

فقد أدى انهيار الإمبراطوريات القديمة إلى نشوء نظامٍ أخلاقي وحضاري جديد  
تأسس على الإسلام.

استوعب العالم العباسي وأعاد صياغة إرث بيزنطة وفارس ومصر وآسيا الوسطى،  
مُنشئاً توليفةً فريدة من الإيمان والعقل والإبداع أعادت تعريف مفهوم الحضارة  
الإنسانية.

وعشية الغزوات المغولية، كان المشرق الإسلامي قد أصبح العقل الثقافي والفكري للعالم الوسيط — نقطة التقاء بين حكمة العصور القديمة ودينامية الوحي، ومن هذا الملتقى انبثقت عوالم فكرٍ جديدة استمرت في التطور قرونًا طويلة.

### التوليف الفكري: العلم والفلسفة والإيمان في العالم العباسي

لم يكن العصر العباسي مجرد عصر إمبراطورية، بل كان عصر العقل والمعرفة. فما بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلاديين، تحول الشرق الأوسط إلى أعظم مركز عالمي للتعليم.

كوّنت بغداد، إلى جانب البصرة والكوفة والقاهرة ونيسابور وبخارى وقرطبة، شبكة من المعرفة والبحث امتدت عبر القارات والحقول العلمية.

في مكتباتهم ومرصدياتهم وأكاديمياتهم، التقت التقاليد الفكرية الإغريقية والفارسية والهندية والبيزنطية تحت راية الرؤية الإسلامية الموحدة. أصبحت المعرفة (العلم) واجبًا روحيًا ورسالة حضارية، فنشأت توليفة ذهبية بين العلم والإيمان، غدت من أعظم إنجازات الإنسانية الفكرية والأخلاقية. (Hodgson, 1974; Gutas, 1998; Nasr, 2007; Kennedy, 2004.)

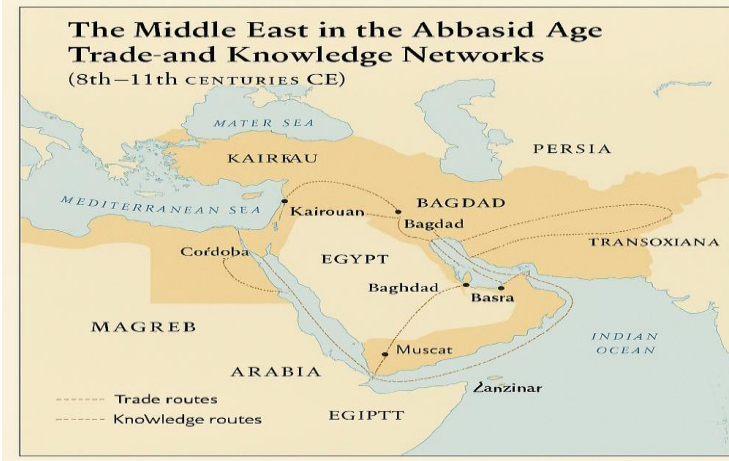


Figure 4.X – The Middle East in the Abbasid Age (8th–11th centuries CE). Trade and knowledge networks linking Baghdad, Cairo, and Samarkand illustrate the intellectual and commercial unity of the Middle Eastern world during the Abbasid era.

## التيارات الموازية خارج نطاق الخلافة

بينما كانت بغداد تقف في قلب التحول الفكري، شاركت الأقاليم المجاورة — وأسهمت — في هذا التركيب الأوسع:

- **بيزنطة:** تواصل حفظ المخطوطات اليونانية، وأذكت المناظرات اللاهوتية حول الثالوث وطبيعتي المسيح جدلاً فلسفياً صارماً. انخرط علماء مثل **فوتيوس وميخائيل بسيلوس** بعمق في المنطق الأرسطي والميتافيزيقا الأفلاطونية المحدثة، في موازاة حوارات الفلاسفة المسلمين شرقاً. (Mango, 2002; Kaldellis, 2007.)
- **اليهودية في الفضاء الإسلامي:** ازدهرت المراكز في العراق ومصر والأندلس. استند **سعديا جاؤون** ولاحقاً **موسى بن ميمون** إلى الفلسفة العربية وعلم الكلام، فمزجا العقل بالتأويل النصي؛ وتداولت أعمالهما عبر المتوسط، مبرهنَةً أن العالم الفكري الإسلامي تجاوز الحدود الدينية. (Goodman, 1999; Stroumsa, 2009.)
- **المدارس السريانية والأرمنية الرهبانية:** في أديرة الشام وبلاد الرافدين وأرمينيا، ترجم علماء نساطرة ويعاقبة وعلّقوا على النصوص العلمية اليونانية، وغالبًا ما كانوا وسطاء بين الأصول اليونانية ونظائرها العربية. (Gutas, 1998; Griffith, 2008.)
- **المسيحية اللاتينية:** في أوروبا الغربية — وهي ما تزال تتعافى من انكماش ما بعد روما — جاءت إعادة إدخال الفلسفة والعلوم الأرسطية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر أساساً عبر القنوات العربية، ولا سيما الأندلس وصقلية. غدت أعمال **ابن سينا** و**ابن رشد** مركزية في اللاهوت المدرسي، وشكّلت التيارات التي ستغذي النهضة الأوروبية (Burnett, 2009; Hasse, 2014.)

## الإيمان والعقل والبحث عن الانسجام

كان زخم العصر العباسي إبداعياً ومثارَ جدلٍ في آن. دار النقاش بين الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء حول صلة **العقل بالوحي**، وبين الإرادة الإلهية والقانون الطبيعي. سعى **المعتزلة** — وساندهم المأمون — إلى تأويل اللاهوت بالعقل، معتبرين أن العدل الإلهي يقتضي تمكين الإنسان من إدراك الحق الأخلاقي؛ بينما شدّد العلماء التقليديون على أولوية النص وحدود النظر العقلي. إنها لم تُستتبت الحضارة، بل أغنتها؛ فقد أفرزت تنوعاً في المدارس الفلسفية واللاهوتية والفقهية منح التراث الإسلامي عمقاً وقابليّةً للتكيف. ومع الزمن تبلور

توازن يجعل الإيمان هادياً للعقل، والعقل مُعَمِّقاً للإيمان — وهو توازنٌ ظل سمةً مميزةً للفكر الإسلامي بعد أقول الوحدة السياسية، (Frank, 1978; Makdisi, 1981; Griffel, 2009.)

## جمهورية مترابطة للمعرفة

من بغداد إلى قرطبة، ومن القاهرة إلى بخارى، صنع العالم العباسي **جمهورية للعلم** —فضاءً مترابطاً من العلماء والكتب والأفكار. وقد أحدث **تبني الورق** (عن الصين) ثورةً في نسخ النصوص، وأضحت **العربية** لغةً علمية مشتركة من الأندلس حتى تخوم الهند. جعل هذا الكوزموبوليتانيُّ الشرق الأوسط **مركز الأعصاب** للعالم الوسيط، واصلاً علوم الهند والصين بفلسفة اليونان ولاهوت الديانات الإبراهيمية. وبحلول القرن الحادي عشر، كانت ثمار هذا التركيب تفيض **إلى الخارج** —تؤثر في بيزنطة واليهودية والعالم اللاتيني، وتُسهم في **اليقظة الفكرية الأوروبية** (Hodgson, 1974; Gutas, 1998; Sabra, 1987.)

## الإرث

يقف التركيب الفكري للعصر العباسي بين أعظم منجزات الإنسانية: **التقاء ثقافات** حوّل المعرفة من ميراثٍ محلي إلى **مشروع كوني**. في هذه الحقبة لم يعد الشرق الأوسط مجرد معبر، بل صار **حضارة قائمة بذاتها**، نسجت الإيمان والعلوم والفلسفة والفنون في **رؤية منسجمة للعالم** ولمكانة الإنسان فيه (Hodgson, 1974; Nasr, 2007; Kennedy, 2004.)

## الفنون والأدب وثقافة المدينة في الشرق الأوسط (القرنان 8–13م)

### المدينة مرآة الحضارة

غدت عواصم مثل **بغداد والقاهرة ودمشق ونيسابور وقرطبة** مراكز للحكم والعلم والفن. سعت العمارة الحضرية — الأسواق والمساجد والحدائق والمدارس — إلى **مواهمة المادي بالروحي**. دار الفضاء العام حول المسجد والمحكمة والسوق، وشهدت الخانات والمكتبات والأحياء السكنية ثقافة تُثَمِّن الاستقرار والتبادل. أُديرَت

المدينة — تحت حكم عرب أو فرس أو ترك — بوصفها صورةً للنظام الإلهي موطّراً بالعدل والعلم والتناسب (Hodgson, 1974; Grabar, 1987).

## العمارة والزخرفة

تطورت لغة بصرية تجمع الفخامة مع التحفظ: مساجد وقصور مهيبية، وزخرفة تُفضّل الهندسة والخط والأرابيسك تعبيراً عن لا نهائية الخلق. تنوّعت الأساليب — من المنائر الحزونية في العراق، إلى القباب في مصر والشام، والأقواس المضّعة بالأندلس، والآجريات الدقيقة بإيران — ضمن نحوٍ واحدٍ للوحدة في التنوع. امتزجت تقنيات فارس وبيزنطة بابتكارات في القبوات والبلاطات وتخطيط المدن انتشرت من آسيا الوسطى إلى شمال إفريقيا (Blair & Bloom, 2003; Hillenbrand, 1999).

## الخط وقوة الكلمة البصرية

صار الخط ذروة الفنون. من قداسة المصحف نشأ انضباط بصريّ تجريدي تلتقي فيه العبادة بالإتقان: كوفي، نسخ، ثم ثلث تُزيّن المخطوطات والجدران والخزف والمنسوجات. ومدّت تقاليد موازية — بالفارسية والسريانية والأرمنية والعبرية ولاحقاً العثمانية — تقديسها للكتابة، فامتزجت اللهجات المحلية ضمن جماليات إقليمية قائمة على التناسق والإيقاع (Blair, 2006; Déroche, 2006).

## الشعر وثقافة البلاغة

ظلّ الشعر قلب التعبير — فناً وفلسفةً وذاكرةً وأخلاقاً معاً.

- في العربية: جود المتنبي وأبو نواس البيان والذكاء؛ وفي النثر صاغ الجاهظ وابن المقفع أدباً ومعايير للكتابة.
  - في الفارسية: بلور فردوسي ملحمة الهوية في /الشاهنامه/، وأفصح رومي وعطار عن السمو الروحي.
  - ازدهر الشعر العبري والسرياني بالتوازي، خاصةً في الأندلس مع يهودا الهلّوي وابن جببرول تحت تأثير عربي.
- أضحت الترجمة والإنشاد لغةً ثقافيةً مشتركة بين البلاطات والجامعات (Meisami, 1999; Monroe, 1971; Scheindlin, 1991).

## الموسيقى والأداء وتهذيب السمع

عولجت الموسيقى ضمن الأدب (الآداب) فاستكشفت بنية الصوت الرياضية وأثره الأخلاقي. من بغداد إلى أصفهان وقرطبة، تطورت أنساق الإيقاع والمقامات وأثّرت في التقليديين الإسلامي والمسيحي. وسافرت آلات مثل العود والرباب والقانون مع الكتب والأسطرلابات، مُشكّلة ذائقة المتوسط ثم أوروبا (Shiloah, 1995; Farmer, 1997.).

## الحياة الحضرية وثقافة المعاش

نشطت الأسواق بتجارة عالمية؛ وفتحت المكتبات والمدارس أبوابها للغرباء؛ وجسدت البيوت والحدائق والحمامات فنّ العيش بتوازن. وصف الرحّالة — ابن جبير، وابن فضلان، والمقدسي — عالماً من الأدب والمناظرة والضيافة، تُنظّم الصلاة إيقاع يومه ويُعدّ العلم أرفع زينته (Levtzion & Hopkins, 1981; Ibn Jubayr, 1952.).

## جمالية إقليمية ذات معنى

بحلول القرن الثالث عشر، تكوّنت فسيفساء من الثقافات توحدّها لغة حضارية مشتركة — رؤية جمالية وأخلاقية تتجاوز الدول. لم تكن العمارة والأدب والخط ترقّياً بل عوالم نظريّة مجسّدة؛ ترى الجمال صورةً للحقيقة. وحتى بعد الغزو المغولي، ظلّت المخطوطات والمعالم تشهد حضارةً وجدت الانسجام في التنوّع ورأت في العلم والجمال طريقتين متلازمين إلى المطلق (Hillenbrand, 1999; Blair & Bloom, 2003.).

## الفصل الرابع: تحوّل ميزان القوة ونهاية النظام الكلاسيكي للشرق الأوسط (القرنان 10-13م)

### التفتت والإقلمة

- السامانيون (999-819) والغزنويون (ق10-11) أحبوا الثقافة الفارسية ورعوا العلماء والشعراء.
  - الفاطميون (1171-909) جعلوا القاهرة مركزاً منافساً؛ وغدا الأزهر منارة للعلم.
  - البويهيون (1055-945) تسلّطوا على بغداد، فغدّت الخلافة العباسية رمزيةً مع بقاء مكانتها الروحية.
  - السلاجقة (ق11-12) وحدّوا السُنّة، ورعوا المدارس النظامية، وبسطوا نفوذهم إلى الأناضول، ممهدين لدول تُركية لاحقة.
- هذا التنوّع عكس مرونة الحضارة: فمع ضعف المركز، بقيت الكومنويلث الإسلامي متماسكاً (Bosworth, 1973; Peacock, 2015; Mottahedeh, 2001.).

### بيزنطة، المسيحية اللاتينية، والحملات الصليبية

انتعشت بيزنطة تحت السلالة المقدونية ثم تلقت صدمة ملاذكرد (1071) فانفتح الأناضول للاستيطان التركي. غدّت الهواجس في بيزنطة وأوروبا اللاتينية الحملات الصليبية (1291-1096) فصار الشام حدّ مواجهة — وتبادل. استولى الصليبيون على القدس أولاً، ثم قلبت قوى التفكك والصمود المحلي الموازين. أعاد صلاح الدين القدس سنة 1187، موجّداً مصر والشام. ورغم الخراب، زادت الحروب التجارة وتبادل المعرفة، وأسهمت في يقظة أوروبا (Tyerman, 2006; Kennedy, 2010.).

### صعود قوى جديدة: من السلاجقة إلى الأيوبيين

أدخل السلاجقة نخبة عسكرية تُركية فيما حفظ الكتّاب الفرس تقاليد الحكم الرشيدة؛ وأطلقت المدارس النظامية تعليمًا مؤسسيًا واسعًا. أسّس الأيوبيون — بزعامة صلاح الدين — السُنّة وأحيوا العمارة والتاريخ والفقهاء من القاهرة إلى دمشق . (Humphreys, 1977; Lambton, 1981.)



## الغزو المغولي وسقوط بغداد

جاء القرن الثالث عشر بالإعصار المغولي. وبعد تدمير إيران وآسيا الوسطى، تقدّم هولاكو إلى الرافدين فسقطت بغداد سنة 1258، وخرّبت مكتباتها وقُتل آخر الخلفاء العباسيين. سياسيًا انتهى النظام الكلاسيكي؛ أما فكريًا فهاجرت التقاليد وتجددت في القاهرة ودمشق وأصفهان وغيرها — ثم اعتنقت دول مغولية عديدة الإسلام خلال قرن. (Morgan, 1986; Amitai-Preiss, 1995).

## خاتمة عصر واستمرارية حضارة

بحلول منتصف القرن الثالث عشر، غدا الشرق الأوسط مجموعةً من القوى العربية والفارسية والتركية توحدّها الدين واللغة والثقافة. ورغم التفتت السياسي ظل مركزًا فكريًا وتجاريًا للعالم القديم. من 610 إلى 1258 لم يكن المشهد مجرد تعاقب دول؛ بل كان صياغة حضارة استوعبت تراث الشرق الأدنى القديم وفارس واليونان وبيزنطة، وبنّته إلى أفريقيا وأوروبا وآسيا. لم تُنه نهاية النظام الكلاسيكي الحضارة، بل نشرتها: إذ بقي روحها في لغاتها ومؤسساتها ومثلها (Hodgson, 1974; Kennedy, 2004; Nasr, 2007).

## ما بعد السقوط: إعادة تشكّل العالم الإسلامي (ق13-15م)

مثل سقوط بغداد أكثر من انهيار سلالة؛ لقد رمز لنهاية حقبة. وعلى امتداد ستة قرون كان الشرق الأوسط أبرز مركز عالمي للعلم والتجارة والحيوية الروحية. بدا الغزو المغولي — بادئ الأمر — أنه جاء على هذا الإرث: مدنٌ رماد، ومكتباتٌ محترقة، ومعارفٌ مبعثرة.

لكن من قلب الخراب نشأت إعادة تشكّل مدهشة. ففي القرون الثالث عشر إلى الخامس عشر، تغيّر المشهد السياسي والثقافي؛ وحلّت كثرة المراكز محلّ الوحدة الخلافية: القاهرة، تبريز، حلب، بورصة، سمرقند — كلٌّ منها ورث شذرات الإرث الكلاسيكي وجدها. ما خيل أنه تراجع كان في الواقع انتشارًا وتجددًا، وجدت فيه الإبداعية مرافئ جديدة وأشكالًا جديدة (Hodgson, 1974; Morgan, 1986; Amitai-Preiss, 1995; Kennedy, 2004).

## صعود المماليك واستعادة الاستقرار

في أعقاب سقوط بغداد، برزت مصر كنواة جديدة للقوة الإسلامية. فقد استولى المماليك — وهي نخبة عسكرية من أصول تركية وشركسية — على

الحكم سنة ١٢٥٠م، وأسسوا سلالةً حكمت لأكثر من قرنين ونصف القرن. جسّد صعودهم إيقاعاً متكرراً في تاريخ الشرق الأوسط: قدرة الجدارة العسكرية على استعادة النظام بعد الفوضى.

حقق المماليك ما كان يُعدّ مستحيلاً: ففي معركة عين جالوت (١٢٦٠م) قرب الجليل، أوقفوا الزحف المغولي، فألقوا قلب العالم الإسلامي من الدمار الكامل. لم تكن تلك معركة نصرٍ عسكري فحسب، بل انبعاثاً معنوياً للعالم مكلوم.

ومع توحيد مصر والشام تحت حكمهم، أعاد المماليك الاستقرار السياسي إلى معظم شرق البحر المتوسط. أصبحت القاهرة عاصمة العالم الإسلامي الجديدة، وأعيد إحياء الخلافة العباسية فيها رمزياً لتأكيد الاستمرارية، بينما تركزت السلطة الفعلية بيد السلاطين.

انعكست قباب القاهرة ومآذنها ومدارسها على سمائها كصورة لعصرٍ جديد من الثقة والورع.

وفي عهدهم استعاد الأزهر مكانته كأبرز مؤسسة للعلم الشرعي والفقه. ازدهرت المدينة تجارياً وثقافياً، تربط إفريقيا وآسيا والبحر المتوسط بشبكاتٍ هائلةٍ من تجارة التوابل والذهب والمنسوجات. (Amitai, 1995; Irwin, 1997; Behrens-Abouseif, 2012.)

## دول المغول الورثة وتجدد الحضارة

في المشرق، سلك إرث المغول مساراً غير متوقّع؛ فالذين كانوا غزاةً ومدمرين، تحولوا تدريجياً إلى رعاةٍ للنهضة. أسس هولاكو خان دولة الإلخانيين، وجعل من تبريز ومراغة عاصمتين إداريتين وثقافيتين.

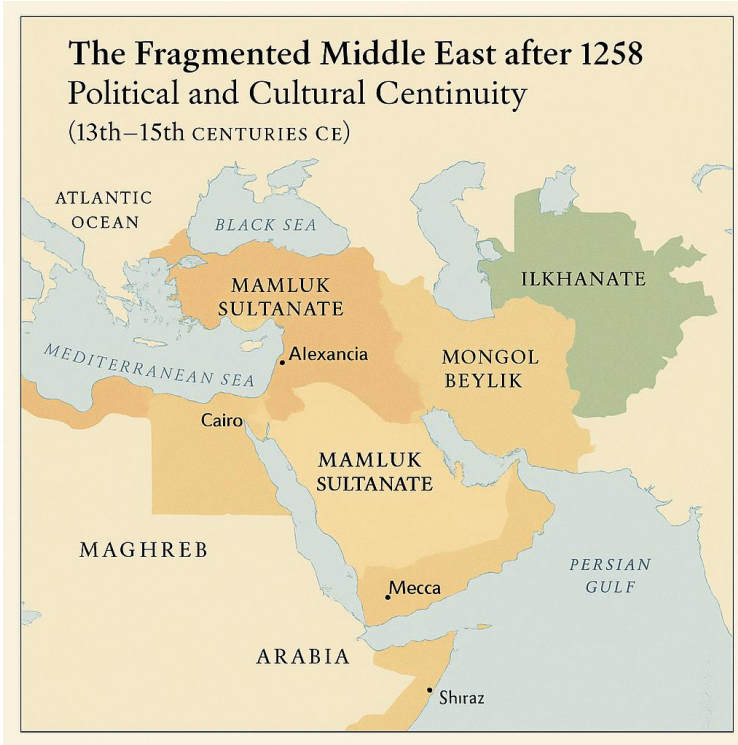
ومع مرور الوقت، اعتنقت النخبة المغولية الإسلام، فتحوّلت من الهدم إلى البناء. وفي عهد غازان خان (ت. ١٣٠٤م) وأولجايتو (ت. ١٣١٦م)، دخلت فارس مرحلة تعافٍ اقتصاديٍّ وازدهارٍ فني. شهد مرصد مراغة الذي أنشأه نصير الدين الطوسي تقدماً في علم الفلك الرياضيات، في حين أعادت رعاية الإلخانيين الحياة إلى العمارة وفن تذهيب المخطوطات.

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، واصلت الدولة التيمورية هذا الإرث من آسيا الوسطى، فأصبحت هرات وسمرقند وتبريز مراكز إشعاعٍ للعلم والفن.

جمع تيمور (تيمورلنك) بين طموح المغول وثقافة الفرس، فرعى العمارة الضخمة وفن المنمنمات الدقيقة.

وفي عهد شاه رخ وأولوغ بيك، احتضنت البلاطات التيمورية الفلك والخط والتاريخ، وكان مرصد أولوغ بيك في سمرقند أرقى مرصد العالم الإسلامي.

أثبت القرنان المغولي والتيموري مرونة الحضارة الإسلامية وقدرتها على التجدد. فحتى بعد الكوارث العسكرية، أعادت المنطقة إنتاج نفسها فكرياً، مستوعبةً مؤثراتٍ جديدة، ومجددةً العلوم القديمة، ومنتجةً فناً يجمع بين الدقة الرياضية والجمال الروحي، سيكون أساساً للحضارات العثمانية والصفوية والمغولية اللاحقة. (Hodgson, 1974; Blair & Bloom, 2003; Subtelny, 2007; Soucek, 2000.)



## صعود القوى الإقليمية

بحلول القرن الرابع عشر، تحوّل المشهد السياسي في الشرق الأوسط إلى فسيفساء من الدول الإقليمية، ورثت كلّ منها شذرات من إرثي العباسيين والمغول، وسلكت طريقها الخاص نحو التجدد.

- **الأناضول:** أدى تراجع سلطة السلاجقة إلى ظهور العديد من الإمارات التركية الصغيرة (*البيليك*). (ومن بين هذه الإمارات برزت الدولة العثمانية —كيان حدودي تركز في بادئ الأمر حول بورصة— لتتصعد تدريجيًا حتى تبسط هيمنتها على المنطقة وتؤسس نظامًا إمبراطوريًا جديدًا).
- **إيران وآسيا الوسطى:** خلفت الدولة الإلخانية دولة التيموريين، التي أعادت في عهد تيمورلنك المجد الثقافي لآسيا الوسطى. ومن سمرقند وهرات، رعى التيموريون العمارة والعلم والفنون على نطاق أعاد صياغة جماليات العالم الفارسي.
- **مصر والشام:** حافظ المماليك على نظامٍ مستقر ومزدهر قائم على التجارة والانضباط العسكري والشرعية الدينية. وضُمَّنت سيطرتهم على شرق البحر المتوسط الأمن والاستمرارية في قلب العالم الإسلامي.
- **الجزيرة العربية وبلاد الشام:** في شبه الجزيرة العربية والشام، حكم أمراء محليون وزعماء قبائل وأسر تجارية بشكلٍ شبه مستقل، لكنهم ظلوا مترابطين عبر طرق الحج وقوافل التجارة وشبكات العلماء.

خلق هذا التوزع في مراكز القوة مشهدًا سياسيًا أكثر تعديديةً من إمبراطوريات العصور الكلاسيكية.

ورغم أن أحدًا لم يدّع سلطةً عالمية موحدة، ظلّ العالم الإسلامي متماسكًا بفضل مؤسساتٍ راسخة: الشريعة الإسلامية، واللغة العربية، وثقافة العلم والمعرفة المتداولة عبر المدارس الدينية والزوايا الصوفية والمراسلات الأدبية.

(Hodgson, 1974; Kennedy, 2004; Lambton, 1981.)

## التجارة والعلم والكونية المتجددة

رغم الحروب وتبدّل الحدود، بقي الشرق الأوسط في تلك الحقبة ملتقىً للتجارة والأفكار والحياة الروحية.

وأصل طريق الحرير ربط الصين والهند وآسيا الوسطى بالبحر المتوسط، ناقلًا البضائع والتقنيات والتيارات الفكرية.

وعبرت القوافل المحملة بالحريير والتوابل والمخطوطات مدن تبريز وحلب ودمشق والقاهرة، فأنعشتها تجارة وثقافة كوزموبوليتانية.

أحدث انتشار صناعة الورق وتقنيات الطباعة المبكرة ثورةً في تداول المعرفة. ومع ازدهار رعاية الأدب، برزت الفارسية والتركية إلى جانب العربية كلغاتٍ أدبية كبرى — في تعبيرٍ عن تعددٍ لغوي وحيوية ثقافية ميّزت العالم ما بعد العباسي.

وقّرت الحركات الصوفية رابطاً روحياً وأخلاقياً في زمن غابت فيه الوحدة السياسية. فقد انتشرت طرق مثل القادرية والنقشبندية والمولوية (دراويش المولوية الدوّارون) التي دعت إلى الإخلاص الداخلي، والمحبة، والتسامح، وأسست شبكاتٍ عبرت شمال إفريقيا والشرق الأوسط وآسيا الوسطى. تحولت زواياهم (الخانقاهات والزوايا) إلى مراكز للعبادة والتعليم والفن والرعاية الاجتماعية، مجسدةً قدرة الإسلام على التوحيد في عالمٍ متنوع ولا مركزي.

فقد بنى العلماء على إرث العصور السابقة مع مواجهة تحديات التغير. وفي القرن الرابع عشر، قدّم المؤرخ ابن خلدون في المقدمة تحليلاً بالغ العمق لصعود الحضارات وانهارها، سابقاً بعقله علم الاجتماع والسياسة الحديثة. عبّرت تأملاته عن روح العصر: وعيٌ بدورات التاريخ، وبأن كل حضارة تمرّ بمراحل نشوءٍ وانحدارٍ وتجدد.

(Rosenthal, 1958; Hodgson, 1974; Irwin, 1997.)

## بزوغ نظامٍ جديد

بحلول القرن الخامس عشر، كان الشرق الأوسط يقف على عتبة تحولٍ جديد. فقد بدأت الدول المتعددة التي ظهرت بعد المغول تتجمع ضمن توازنٍ ثلاثي للقوى شكّل معالم العالم الإسلامي الحديث المبكر:

- العثمانيون في الأناضول، consolidating سيطرتهم على البلقان وبلاد الشام.
- الصفويون في إيران، يمزجون الهوية الفارسية بالنهضة الشيعية.
- المماليك في مصر والشام، يحافظون على ريادتهم الاقتصادية والعلمية في العالم العربي.

ورغم أن سقوط بغداد عام 1258م أنهى العصر الكلاسيكي، فإنه لم يطفئ حيوية الحضارة الإسلامية. بل دشّن عملية إعادة تشكّل طويلة، أعادت توزيع القوة والمعرفة والإبداع على مراكز جديدة.

من التجزئة وُلدت التعددية، ومن الدمار بزغ التجدد.

لم يكن العصر التالي عصر انحطاط، بل استمرارية متخيلة تربط بين العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث.

وبحلول عام 1500م، كان الشرق الأوسط قد عاد إلى مركز المشهد العالمي — لا كإمبراطورية واحدة، بل كشبكة من الدول واللغات والثقافات المهيأة لصياغة الفصل التالي من تاريخ الإنسانية.

(Hodgson, 1974; Kennedy, 2007; Faroghi, 2017; Subtelny, 2007.)

## الفصل الخامس: العوالم العثمانية والصفوية والمملوكية (القرنان السادس عشر – الثامن عشر الميلاديان)

### عصر جديد من الإمبراطوريات

مع مطلع القرن السادس عشر، بدأ فصلٌ جديد في تاريخ الشرق الأوسط. فقد أفسح التثنتت السياسي، الذي أعقب سقوط بغداد سنة 1258م، المجال تدريجيًا لقيام نظام ثلاثي الإمبراطوريات — العثمانية، والصفوية، والمملوكية — حيث سعت كلٌّ منها إلى تأكيد استمراريته مع الماضي الإسلامي، بينما تبنّت رؤيتها الخاصة سياسيًا ودينيًا وثقافيًا.

وقف الشرق الأوسط من جديد في مركز الجغرافيا الروحية والسياسية للعالم القديم، رابطًا أوروبا وإفريقيا وآسيا بشبكاتٍ من التجارة والدبلوماسية والأفكار. ولم يشهد هذا العصر بعثًا للخلافة الوسيطة، بل ميلاد إمبراطورياتٍ حديثة مبركة — مركزية، بيروقراطية، ومتصلة بالعالم الخارجي.

وفي حين اتجهت أوروبا الغربية نحو الاستكشاف البحري والمغامرات الاستعمارية، قامت الإمبراطوريات الإسلامية العظمى بتوحيد قلب أوراسيا، مسيطرةً على طرق التجارة والموارد ومصادر المكانة الثقافية التي شكّلت أساس التبادل العالمي. لقد أصبح الشرق الأوسط، الذي طالما كان مفترق طرق الحضارات، محورًا لعالم مترابط يمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي. (Hodgson, 1974; Faroghi, 2017; Kennedy, 2007.)

### التوسع العثماني وتوحيد قلب العالم الإسلامي

من بين القوى الجديدة، كانت الدولة العثمانية الأسرع صعودًا والأطول بقاءً. نشأت أولاً كإمارةٍ صغيرة (بيليك) على أطراف الأراضي البيزنطية في الأناضول، وجمعت بين الانضباط العسكري والابتكار الإداري. توسّعت الدولة في عهد عثمان الأول وخلفائه بثبات عبر الأناضول وجنوب شرق أوروبا، حتى بلغت ذروتها في عهد محمد الثاني (الفاتح).

شكل فتح القسطنطينية سنة 1453م منعطفًا تاريخيًا. وأعيد تسميتها إسطنبول، لتصبح العاصمة السياسية والثقافية لنظامٍ إمبراطوري جديد

يمتد عبر ثلاث قارات، جامعًا بين الاستمرارية الإسلامية والنهضة الإدارية والمعمارية لعصرٍ جديد.

وفي القرن السادس عشر، وفي عهدي السلطان سليم الأول (1512–1520م) وسليمان القانوني (1520–1566م)،

بلغت الدولة العثمانية درجةً من التكامل الإقليمي والمؤسسي لم يشهدها العالم الإسلامي منذ العصر العباسي.

فقد أدى فتح الشام ومصر والحجاز إلى إخضاع المدينتين المقدستين مكة والمدينة للرعاية العثمانية،

مكرّسًا مكانة السلطان كحاكمٍ دنيوي وراعٍ للأراضي المقدسة.

وحَدّت الدولة العثمانية بين التقاليد العسكرية التركية، والنظم البيروقراطية الفارسية، والمبادئ القانونية الإسلامية في منظومة حكمٍ متماسكة.

أدبرت الأقاليم الممتدة من البلقان إلى العراق، ومن مصر إلى اليمن، عبر مزيجٍ من الأعيان المحليين والقضاة وضباط الإقطاع (أصحاب التيمار)، مما ضمن العدالة واستمرار الموارد.

أما نظام الملل، الذي منح الجماعات الدينية استقلالًا إداريًا تحت قيادتها الروحية الخاصة، فقد سمح للمسيحيين واليهود وغيرهم بالحفاظ على مؤسساتهم التعليمية والقضائية ضمن الإطار الإمبراطوري — نموذجٌ من التعدد العملي الذي أرسى الاستقرار عبر أراضٍ شاسعة.

أضحت مآذن إسطنبول وقبابها، التي شيدها المعمار سنان، رمزًا لجلال الإمبراطورية وروحها الروحية المتسامية، وصارت المدينة مركزًا للعلم والفقه والخط والموسيقى، تشعّ منها ثقافةٌ موحّدة جمعت لغاتٍ وشعوبًا وأعرافًا في منظومةٍ واحدة. (İnalçık, 1973; Faroqhi, 2017; Goodwin, 1997.)

## التحول الصفوي في إيران

بينما كانت الدولة العثمانية توحد قلب المشرق الإسلامي، برز في الشرق كيانٌ جديد ذو طابعٍ متميز: الدولة الصفوية.

أسسها الشاه إسماعيل الأول (1501–1524م) ووحد بها إيران تحت هويةٍ سياسية ودينية متقرّدة.



باعتمادها **المذهب الشيعي الاثني عشري** مذهباً رسمياً للدولة، أعادت الصفوية رسم الخريطة الدينية للشرق الأوسط على نحو دائم. وقد تحولت هذه الخطوة — التي كانت في بدايتها سياسية — إلى **ثورة لاهوتية** منحت إيران هويةً مغايرة لجيرانها السنة.

اتخذت الدولة الصفوية أولاً من تبريز ثم من **أصفهان** عاصمةً لها، وأصبحت مركزاً لنهضةٍ فنيةٍ وفكريةٍ مبهرة. وفي عهد **الشاه عباس الأول (1588-1629م)** بلغت الدولة أوجها؛ أمنت طرق القوافل، وتوسعت التجارة مع أوروبا، وتحولت **أصفهان** إلى عاصمةٍ رائعة — نصف جهان، أي نصف العالم — تزينها المساجد والجسور والقصور التي جسدت رهافة العمارة الفارسية.

مثلت الدولة الصفوية مزيجاً من العناصر التركية والفارسية والإسلامية، إذ جمعت بين الكاريزما الصوفية، والثقافة البلاطية الفارسية، والحكم الشرعي الإسلامي. وبتأسيسها للمذهب الشيعي كمؤسسة رسمية، أوجدت الصفوية توازناً مذهبياً في مواجهة السنية العثمانية، مما أنشأ محوراً دينياً مزدوجاً ما زال يرسم ملامح السياسة والهوية في الشرق الأوسط حتى اليوم. (Savory, 2007; Newman, 2006; Floor, 2008.)

### المماليك وتغير ميزان القوى في مصر

في مصر والشام، استمرت الدولة المملوكية حتى أوائل القرن السادس عشر كأحد أكثر الأنظمة الإسلامية نصجاً ورقياً. فعلى الرغم من أصولهم العسكرية، أقام المماليك حضارةً مدينية مزدهرة تمحورت حول القاهرة، التي ظلت مركزاً للتجارة والعلم والعمارة.

أشرف المماليك على طرق الحج إلى مكة والمدينة، وأداروا تجارة البحر الأحمر مع الهند وشرق إفريقيا، وحافظوا على المكانة العلمية لجامعة الأزهر، التي ظلت المرجع الأعلى للفقهاء والعقيدة الإسلامية.

لكن التحولات الاقتصادية العالمية بدأت تقلب موازين القوى. فقد أدى التوسع البرتغالي حول إفريقيا إلى تحويل طرق التجارة من البحر الأحمر إلى الأطلسي، مما أضعف الهيمنة التجارية لمصر، في حين غيرت قوة البحرية والمدفعية العثمانية موازين الحرب.

وفي عام 1517م، قام السلطان سليم الأول بضمّ مصر، منهيًا الدولة المملوكية. إلا أن الفتح لم يُلغ تأثيرها، بل أصبحت القاهرة ولايةً عثمانية محورية، احتفظت بمكانتها الاقتصادية والثقافية والدينية داخل الدولة. واستمر إرث المماليك في الفن والعلم والإدارة، مغنيًا النظام العثماني ومكرسًا دور مصر كقلبٍ فكري للعالم العربي.

(Amitai, 1995; Hathaway, 2003; Behrens-Abouseif, 2012.)

## تأمل تاريخي

مثل القرن السادس عشر إعادة توحيد للعالم الإسلامي ضمن توازنٍ ثلاثي — عثماني، صفوي، ومغولي (في الهند) — جسر بين القارات ووصل بين الحضارات.

ورغم ما كان من اختلافٍ في العقيدة والسلالة، ظل الشرق الأوسط متحدًا في الإيمان والتجارة والتبادل الفكري.

كان هذا العصر هو الذي دخل فيه الإسلام عالم الحداثة المبكرة؛ لم يعد وريثًا للحضارات القديمة فحسب، بل شريكًا فاعلاً في نظامٍ عالمي جديد قائم على الاستكشاف والتجارة والإمبراطورية. حافظ العثمانيون على المتوسط والبحر الأحمر، وأحكم الصفويون السيطرة على فارس وآسيا الوسطى، بينما امتدّ المغول في الهند ناشرين التراث الفارسي-الإسلامي في عمق جنوب آسيا.

معًا، جسدت هذه القوى استمرارية الحضارة الإسلامية، التي رغم تغيراتها احتفظت بجوهرها الروحي والعقلي، مؤكدةً أن قوة الشرق الأوسط لم تكن يومًا في الفتح فحسب، بل في القدرة على التكيف والإبداع والرؤية الأخلاقية.

(Hodgson, 1974; Faroqhi, 2017; Newman, 2006; ubrahmanyam, 2019.)

## The Early Modern Middle East Tri-Imperial Order: Ottoman–Safavid–Mamluk Spheres



### : الشرق الأوسط في النظام العالمي المتشابك

خلال الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، أصبح الشرق الأوسط جزءاً من نظام عالمي متزايد الترابط. فالإمبراطوريات الإسلامية الكبرى — العثمانية والصفوية ولاحقاً المغولية — لم تكن قوى معزولة، بل كانت أطرافاً فاعلة في عالمٍ يجمع بين التجارة والدبلوماسية والتبادل الفكري.

تنتقل الدبلوماسيون بين إسطنبول وأصفهان وبلاطات أوروبا، وحمل التجار البضائع عبر المحيط الهندي والبحر المتوسط وطريق الحرير، بينما جاب الحجاج والعلماء والحرفيون حدود الإمبراطوريات بحرية، ناسجين شبكةً من التفاعل الإنساني والثقافي امتدت عبر إفريقيا وآسيا وأوروبا.

استمرت التيارات العلمية والفلسفية الموروثة من العصور الوسطى في التطور؛ فقد عمقت المدارس الدينية النقاشات حول القانون والأخلاق والحكم، بينما حافظت الطرق الصوفية على البعد الروحي والأخلاقي في الحياة الدينية.

ورغم أن الطباعة وصلت إلى المنطقة متأخرةً عن أوروبا، فإن اعتمادها التدريجي في القرن السابع عشر بدأ يُحوّل المشهد الفكري، موسّع نطاق التعليم ومسرّعًا تداول الأفكار.

ورغم الحروب الدورية، ظلّ العالمان العثماني والصفوي مرتبطين بحوارٍ حضاريٍّ مستمرٍّ؛ إذ خففت القيم الجمالية المشتركة من حدة التنافس السياسي بينهما. فالمنمنمات الصفوية في أصفهان، والخزف الإزنيقي، وشعر إسطنبول وشيراز، وعمارة المساجد والحدائق في أرجاء العالم الإسلامي، كلها عبّرت عن لغةٍ روحيةٍ واحدةٍ تسعى إلى الانسجام بين الجمال والإيمان، والشكل والمعنى. (Faroghi, 2017; Blair & Bloom, 2003; Subrahmanyam, 2019.)

### منطقة في قلب التاريخ العالمي

مع نهاية القرن الثامن عشر، أصبح الشرق الأوسط من جديد ساحةً حاسمةً في التاريخ العالمي — ليس فقط بوصفه قلب العالم الإسلامي، بل كجسرٍ استراتيجيٍّ يربط بين القارات والثقافات.

فرض النظامان العثماني والصفوي انتظامًا إداريًا ووحدةً ثقافيةً عبر مساحاتٍ شاسعة، واستمرّت التجارة والحج والعلوم في التدفق عبر الحدود، مغذيةً عالمًا ما زال متماسكًا بفضل الإيمان واللغة والمعرفة.

وقفت مدن مثل إسطنبول وأصفهان والقاهرة وحلب شاهدًا حيًا على هذه الحيوية الدائمة — كل واحدةٍ منها عالمٌ مصغّرٌ من الحضارة العالمية، تلتقي فيها القوافل بالسفن، والعلماء بالتجار، والمقدّس بالديوي.

غير أن تيارات التحول كانت تعمل تحت السطح بهدوء. فقد أدى صعود الإمبراطوريات البحرية الأوروبية، وانتشار تقنيات البارود والمدافع، وتحوّل طرق التجارة العالمية نحو المحيط الأطلسي إلى تآكل الدور التقليدي للشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي. وحين بزغ القرن التاسع عشر، كانت المنطقة على أعتاب مواجهةٍ عميقة بين التقليد والحدثة — بين الحكمة الموروثة وقوى الثورة الصناعية والعلمية والسياسية.

ومن رحم هذا اللقاء، سيعيد الشرق الأوسط تعريف موقعه في التاريخ العالمي: لم يعد المركز الأوحد للحضارة، بل أصبح بوتقةً تلتقي فيها العوالم القديمة الجديدة، تتنافس وتتصالح وتتشابك لتصوغ ملامح عصرٍ جديد.

(Hodgson, 1974; Kennedy, 2007; Faroghi, 2017.)

## الفصل السادس: الشرق الأوسط وبزوغ العالم الحديث (القرن التاسع عشر الميلادي)

### عالم متحوّل

شكّل القرن التاسع عشر نقطة تحوّل حاسمة في تاريخ الشرق الأوسط. فبعد قرونٍ من الاستقرار النسبي تحت الحكمين العثماني والفارسي، وجد الإقليم نفسه منجذباً إلى تيارات النظام العالمي الجديد المتسارعة. لقد غيّرت الثورة الصناعية الأوروبية، مع ما رافقها من تفوّق بحري وتحولات فكرية، ليس فقط الاقتصاد العالمي، بل أيضاً الخريطة السياسية للعالم الإسلامي.

ولم تكن هذه الحقبة مجرد زمنٍ للانحطاط أو الهيمنة الأجنبية كما زعمت بعض الروايات القديمة، بل كانت مرحلةً من التكيف المعقد والإصلاح الانتقائي. ففي أرجاء الدولة العثمانية وإيران الفاجارية ومصر، سعى الحكام والعلماء والمصلحون إلى التوفيق بين التراث الموروث ومتطلبات الدولة الحديثة، في مواجهة التحدي المزدوج: الحفاظ على الهوية الثقافية والروحية، وفي الوقت نفسه التعامل مع التوازن العالمي الجديد المتغير بسرعة. (Hodgson, 1974; Cleveland & Bunton, 2016; Hourani, 1983.)

### الإصلاح والتجديد في الدولة العثمانية

دخلت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر مرحلةً من التحول العميق. فبعد الهزائم العسكرية والأزمات المالية والإدارية، أطلق العثمانيون برنامجاً شاملاً من الإصلاح عُرف باسم التنظيمات (1839-1876م)، يهدف إلى تحديث الجيش، وتنظيم الجباية، وتقنين القوانين، وإنشاء مؤسسات جديدة للتعليم والإدارة.

مثّلت التنظيمات مزيجاً من الضرورة العملية والقناعة الأخلاقية. وقد رأى رجال الدولة مثل مصطفى رشيد باشا، وعلي باشا، وفؤاد باشا أن الحفاظ على الإمبراطورية يتطلب تبني عناصر من الحداثة الأوروبية، لكن في إطارٍ من الشرعية الإسلامية.

جاء خط شريف كُلهانة (1839م) ليعلن المساواة أمام القانون لجميع الرعايا، مسلمين وغير مسلمين، وهو مبدأ ثوري أعاد تعريف السيادة العثمانية على أسس مدنية لا دينية فقط.

وعلى الرغم من مقاومة التيارات المحافظة، أنتجت هذه الإصلاحات نخبة بيروقراطية جديدة ووسّعت ثقافة الطباعة وأوجدت فضاءً عامًا للنقاش الفكري. وظلت إسطنبول، العاصمة الكوزموبوليتية، بوتقةً للفكر والجدل حيث ناقش المفكرون الأتراك والعرب والفرس واليونان والأرمن قضايا التقدم والهوية والإيمان في عالمٍ متغير. (Davison, 1963; Findley, 1980; Quataert, 2000.)

### مصر تحت حكم محمد علي: مختبر التحديث

لم تتجلَّ التوترات بين الحداثة والتراث كما تجلت في مصر خلال حكم محمد علي (1805–1848م). فقد كان ضابطاً عثمانياً من أصلٍ ألباني، لكنه أسس سلالةً شبه مستقلة وحوّل مصر إلى أكثر مراكز الإصلاح طموحاً في العالم الإسلامي.

من خلال برامج عسكرية وزراعية وصناعية واسعة — بناء القنوات ومشاريع الري والمصانع، وتأسيس جيشٍ وبحريةٍ حديثين — سعى محمد علي إلى بناء دولة مركزية مكثفية ذاتياً. وأرسل بعثاتٍ علمية إلى فرنسا لدراسة العلوم والهندسة والإدارة، مطلقاً بذلك حركة ترجمةٍ أعادت اللغة العربية إلى مكانتها لغةً للعلم الحديث.

تحولت القاهرة إلى عاصمةٍ فكرية متجددة، التقت فيها التقاليد الإسلامية بالمعارف الأوروبية. لكن هذا النجاح استدعى تدخلاً أوروبياً متزايداً. فقد أدّى النفوذ البريطاني والفرنسي في الاقتصاد المصري، الذي تُوجّج ببناء قناة السويس (1869م)، إلى جعل البلاد رمزاً للتحديث من جهة وساحةً للتنافس الإمبراطوري من جهةٍ أخرى (Marsot, 1984; Fahmy, 1998; Cole, 2007.).

### إيران والبحث عن التوازن

في إيران، واجهت السلالة القاجارية (1789–1925م) ضغطاً مماثلة من روسيا وبريطانيا. وبين هاتين القوتين المتنافستين، سعى القاجاريون إلى إصلاحٍ حذر. فأنشئت مدارس ومطابع ومشاريع ترجمةٍ قدّمت العلوم والفكر السياسي الأوروبي، بينما حاول موظفون إصلاحيون تعزيز مؤسسات الدولة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، ظهر جيلٌ جديد من المفكرين الإيرانيين — منهم ميرزا ملكم خان وميرزا آقا خان الكرماني وجمال الدين الأفغاني — داعين إلى نظامٍ دستوري يجمع بين الأخلاق الإسلامية والعقلانية السياسية. تبلورت أفكارهم في الثورة الدستورية (1906م) التي سعت إلى تقييد سلطة الشاه وإرساء حكم برلماني — حدثٌ مفصلي في تطور المسؤولية السياسية في الشرق الأوسط. (Amanat, 1997; Keddie, 1981; Ansari, 2013.)

## التفاعل الفكري والثقافي

كان القرن التاسع عشر في الشرق الأوسط قرن التفاعل الفكري الكثيف. فقد أتاح انتشار الطباعة والصحافة منابر جديدة للنقاش حول العلم والدين والمجتمع. وسعى العلماء والمصلحون إلى إعادة تفسير الشريعة الإسلامية في ضوء الواقع الحديث، بينما بدأ الأدباء والشعراء يجربون الرواية الساخرة والمقالة الصحفية، مزاجين بين البلاغة التراثية والحسّ العصري.

أدت الابتكارات التكنولوجية — من البواخر إلى التلغراف والسكك الحديدية — إلى تسارع الاتصال وتقلص المسافات. ودخلت إلى الخطاب الإقليمي أيديولوجيات جديدة مثل القومية والعلمانية الاشتراكية والدستورية، غالبًا ما أعيدت صياغتها في إطارٍ إيماني وهويّاتي.

ومع كل ذلك، ظلت الاستمرارية الحضارية قوية. فاللغة العربية، والإطار الأخلاقي والقانوني الإسلامي، والذاكرة الحضارية العميقة بقيت ركائز راسخة في مواجهة التحول. لم يكن التغيير قطيعةً مع الماضي، بل إعادة تأويل له في سياقٍ عالمي، أي تفاوضٌ خلاق بين التراث والتجديد، بين الإيمان والعقل، بين التقليد والإصلاح. (Hourani, 1983; Kedourie, 1992; Cleveland & Bunton, 2016.)

## تأمل تاريخي

يقف القرن التاسع عشر جسرًا فاصلاً بين النظام الإسلامي الكلاسيكي والعالم الحديث. كان قرن التجريب والتكيف، حيث التقت المؤسسات القديمة بالأفكار الجديدة، وتحدّت الهويات الموروثة قوى التحول العالمي.

لم يسع المصلحون إلى هجر الماضي، بل إلى تجديده بروح جديدة. فعكست مدنية التنظيمات، وتحديث محمد علي، والنهضة الدستورية في إيران تطلُّعًا مشتركًا إلى مواعمة الإيمان مع التقدم، والنزاهة الأخلاقية مع الإصلاح السياسي.

ومع مطلع القرن العشرين، دخل الشرق الأوسط عالمًا جديدًا من الدول القومية والأسواق العالمية والتيارات الفكرية، لكن الأسئلة الأخلاقية التي وجَّهت تاريخه منذ القدم ظلت قائمة:

السعي إلى العدالة والمعرفة والتوازن — ذلك الحوار الأبدي بين الوحي والعقل، وقد انتقل الآن إلى المسرح الحديث.

(Hodgson, 1974; Hourani, 1983; Cleveland & Bunton, 2016; Tripp, 2006.)

## إرث الحرب وميلاد شرق أوسط جديد

مثَّلت السنوات الواقعة بين 1900 و1918م نهاية حقبةٍ وبداية أخرى. فالهياكل الإمبراطورية التي شكَّلت الشرق الأوسط قرابة ألف عام انهارت، وحلَّت محلها الدول القومية والانتدابات والتقسيمات الاستعمارية. تقاطعت أفكار الإصلاح والعدالة وحق تقرير المصير — التي صاغها مفكرو القرن التاسع عشر — مع واقع السيطرة الأجنبية والسيادة المجزأة.

ومع ذلك، فقد بقيت الطاقة الثقافية والروحية في المنطقة حيَّة ومقاومة. إذ لم يؤد سقوط الإمبراطوريات إلى محو الحضارة التي مثَّلتها، بل أعاد توجيهها نحو تعبيراتٍ جديدة — القومية، والدستورية، والإصلاح الديني — التي ستحدّد ملامح الشرق الأوسط الحديث.

(Hourani, 1983; Tripp, 2006; Rogan, 2009.)

## تأملٌ انتقالي

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، دخل الشرق الأوسط عصرًا من الغموض العميق. فالإمبراطوريات التي كانت تشكِّل ركيزة النظام الإقليمي زالت، وحلَّت محلها حدودٌ رُسمت في عواصم بعيدة، ووعودٌ صيغت بلغة القوة والمصلحة.

ومع ذلك، بقيت الركائز الروحية والثقافية للحضارة الشرق أوسطية صامدة — مرنة، مبدعة، وواعية لذاتها.

أما العقود التي تلت، فستشهد صراعًا متجددًا لاستعادة السيادة، وإعادة تعريف الهوية،



والمصالحة بين التراث والحداثة في عالم أعادت الإمبراطورية والمقاومة معًا  
تشكيله. (Hodgson, 1974; Cleveland & Bunton, 2016.)

## الفصل السابع – النزاعات والحروب الكبرى في مناطق الشرق الأوسط (من القرن السابع إلى الثامن عشر الميلادي)

### الصراعات الداخلية وتبدل ميزان القوى

لطالما شكّلت الحروب والصراعات جزءًا محوريًا في مسار تطوّر الشرق الأوسط. فمن القرون الإسلامية الأولى إلى صعود العثمانيين، كانت النزاعات حول السلطة والأرض والشرعية تحدّد إيقاع الحياة السياسية في المنطقة. (Kennedy, 2004; Lapidus, 2014.)

ورغم اتحاد شعوبها في الإيمان والذاكرة الحضارية، لم يكن الشرق الأوسط يومًا كتلةً واحدة. بل إن تنوّعه — العرقي واللغوي والمذهبي — أثرى ثقافته لكنه كان أيضًا مصدرًا للتوتر بين السلالات والطوائف والإمبراطوريات. فالطاقة التي غدّت الإبداع، هي ذاتها التي فجّرت أحيانًا الصراع، مؤديةً إلى تفاعل دائم بين الوحدة والانقسام عبر العصور (Hourani, 1991; Hodgson, 1974.)

### الانقسامات الإسلامية الأولى

ظهر أول انقسام كبير بعد وفاة النبي محمد ﷺ مباشرة. إذ أدّت قضايا الخلافة والقيادة إلى نشوب أولى الفتن الكبرى، ولا سيما معركة صفين (657م)، التي أفرزت لاحقًا الانقسام التاريخي بين السنة والشيعة. (Donner, 2010; Kennedy, 2004.)

لم يكن هذا الانقسام سياسيًا فقط، بل لاهوتيًا أيضًا، إذ مثّل رؤيتين متنافستين للسلطة الشرعية: الأولى تقوم على إجماع الأمة (الإجماع)، والثانية على الوراثة في بيت النبي (أهل البيت). ومع مرور الزمن، نشأت عن هذا الانقسام مؤسسات دينية ومدارس فقهية وهويات مذهبية تركت أثرًا عميقًا في التاريخ الإسلامي. (Hodgson, 1974; Lapidus, 2014.)

## الصراع العثماني-الصفوي

شهدت القرون الحديثة المبكرة (من السادس عشر إلى الثامن عشر الميلادي) واحدةً من أطول المنافسات في تاريخ الشرق الأوسط:

**الصراع بين الإمبراطورية العثمانية والدولة الصفوية.**

ورغم تصوّره في الغالب كصراع مذهبي بين السنة والشيعة، فقد كان في جوهره تنافساً إمبراطورياً بين رؤيتين متميزتين للعالم الإسلامي — إحداهما بحر-متوسطية كوزمبوليتية، والأخرى فارسية تعبدية (Matthee, 2021; Faroqi, 2004).

سعى العثمانيون إلى توسيع نفوذهم شرقاً، بينما أراد الصفويون ترسيخ دولة فارسية-إسلامية ذات هويةٍ شيعيةٍ مميزة.

وتناوب الطرفان السيطرة على بلاد الرافدين والقوقاز والأناضول الشرقية، مرسّخين حدوداً وهوياتٍ ما زالت آثارها قائمة حتى اليوم. (Lapidus, 2014; Savory, 1980.)

ورغم الخسائر، حفّز هذا التنافس تطوراتٍ في التنظيم العسكري والتحسينات والدبلوماسية، وحوّل الحرب إلى قوةٍ دافعةٍ للإصلاح الإداري والتقني. (Hodgson, 1974; Matthee, 2021.)

لقد مثّل الصراع العثماني-الصفوي أكثر من نزاعٍ إقليمي؛ كان تعبيراً عن رؤيتين حضاريتين تتنافسان على صياغة مفهوم السلطة والحكم في الإسلام. (Hourani, 1991; Kennedy, 2016.)

## الأنماط والنتائج

على الرغم من تكرار الحروب والاضطرابات السياسية، احتفظ الشرق الأوسط بدرجةٍ مدهشة من الاستمرارية الثقافية والاقتصادية والفكرية خلال العصور الوسطى والحديثة المبكرة. (Lapidus, 2014; Hourani, 1991.)

فقد عبر العلماء والتجار والمتصوفة الحدود السياسية باستمرار، مغذّين شبكةً حضاريةً تتجاوز الإمبراطوريات. وظلّت طرق التجارة من القاهرة إلى سمرقند، ومن البصرة إلى إسطنبول مزدهرةً حتى في أوقات الحرب (Kennedy, 2004; Hodgson, 1974).

وكانت الحروب أحياناً قوةً للتجديد؛ إذ دفعت الدول إلى التكيف عسكرياً واقتصادياً وفكرياً.

فنشأت الابتكارات البيروقراطية في العصر العباسي، وأنظمة التحصين في زمن المماليك، وإصلاحات الإدارة العثمانية — جميعها استجاباتٌ للتهديدات.

(Lewis, 1993; Faroqhi, 2004.)

وهكذا تشكّل إيقاعٌ تاريخي ديناميكي تداخلت فيه فترات الاضطراب مع لحظات الإبداع الفكري والتفاعل الثقافي. فحتى وسط الدمار، أنتج العالم الإسلامي إسهاماتٍ في العمارة واللاهوت والعلوم امتد أثرها إلى الشرق والغرب معاً.

(Hodgson, 1974; Hourani, 1991.)

## الشرق الأوسط وموارده: الجغرافيا والثروة وبذور التحول الحديث

استمدّ الشرق الأوسط عبر تاريخه الطويل قوته وضعفه معاً من جغرافيته.

فالبينة التي أنجبت الحضارات والديانات جعلته في الوقت ذاته ممراً دائماً

للإمبراطوريات والتبادل. (Hodgson, 1974; Hourani, 1991.)

وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، اكتسبت قيمته الاقتصادية والاستراتيجية بُعداً

جديداً — فلم تعد محصورة في طرق التجارة والزراعة، بل امتدت إلى الثروات

الكامنة في باطن الأرض والبحر. (Lewis, 1993; Kennedy, 2004.)

### إرث الأرض والماء

شكّلت البيئة الطبيعية قاعدة كل مراحل تطور الشرق الأوسط.

فكانت وادي الرافدين ووادي النيل القلب الزراعي الذي غذى الإمبراطوريات لآلاف

السنين. (Adams, 1981; Butzer, 1976.)

وفي الصحاري والسهوب، حدّد التحكم في الواحات وشبكات الري والمسارات

الموسمية أنماط الاستقرار والبقاء.

وعكست الهندسة المائية — من قنوات العباسيين في العراق إلى منشآت المماليك

في مصر — أهمية إدارة البيئة في ترسيخ السلطة.

(Hodgson, 1974; Lapidus, 2014.)

ومع بدايات العصر الحديث، دعمت تحسينات الزراعة والري نمو السكان وازدهار المدن. وظلت ثروات المنطقة الزراعية — القطن من مصر، والقمح من الشام والأناضول، والتمور من العراق — تزود أسواق البحر المتوسط والمحيط الهندي. (Hourani, 1991; Faroqhi, 2004.)

### ممرات التجارة والثروة البحرية

منحت الجغرافيا للشرق الأوسط ميزة تجارية دائمة. فقد ربط البحر الأحمر والخليج العربي بين البحر المتوسط والمحيط الهندي، ناقلاً التوابل والمنسوجات والمعرفة بين القارات. (Abu-Lughod, 1989; Chaudhuri, 1985.)

وازدهرت موانئ كعدن والبصرة والإسكندرية كمراكز عالمية للتبادل، جمعت العلماء والتجار من آسيا وإفريقيا وأوروبا.

ورغم التفاف القوى الأوروبية حول رأس الرجاء الصالح، ظلت المنطقة عنصرًا لا غنى عنه في التجارة العالمية. (Kennedy, 2004; Lapidus, 2014.)

واستفادت الإمبراطوريتان العثمانية والصفوية من الرسوم الجمركية وحركة القوافل، بينما ظلّ الشرق المتوسطي مركزًا نابضًا للترجمة والتبادل الثقافي. (Lewis, 1993; Faroqhi, 2004.)

### المعادن والطاقة وبوادر الثروة الحديثة

رغم أن اقتصادات الشرق الأوسط قبل العصر الحديث اعتمدت على الزراعة والتجارة، فقد شهدت تلك القرون بداية استغلال منظم للثروات المعدنية ومصادر الطاقة. (Kennedy, 2004; Lapidus, 2014.)

قدّمت مناطق الأناضول وفارس والجزيرة العربية النحاس والحديد والملح والقار، واستخدمت محليًا وتُجر بها خارجيًا. وكان البيثومين (القار)، المستخرج من ينابيع الرافدين، معروفًا منذ القدم ومستخدمًا في طلاء السفن والبناء وحتى الأدوية. (Adams, 1981; Hodgson, 1974.)

وبحلول القرن السابع عشر، سجّل الرحالة الأوروبيون والجغرافيون العرب مشاهداتٍ عن «الأرض المشتعلة» «و»الأحجار السوداء التي تشتعل بالنار—» وهي أولى الإشارات إلى النفط والغاز الطبيعي.  
(Matthee, 2021; Hourani, 1991.)

لم تكن قيمتها الاقتصادية واضحة بعد، لكنها بشرت بتحوّل هائل سيعيد تعريف الشرق الأوسط في القرن العشرين.  
وهكذا ظهرت بواذر الثروة الحديثة قبل العصر الصناعي بزمانٍ طويل، كامنة في جيولوجيا الأرض نفسها التي غدّت أقدم الحضارات.  
فالأرض التي أنبتت القمح والنخيل ستنبت لاحقاً النفط والغاز، مربوطةً بين دورها القديم كـ«مهد الحضارات» ودورها الحديث كمحور للطاقة والقوة العالمية.  
(Lewis, 1993; Kennedy, 2004.)

### الجغرافيا الاستراتيجية وعصر الإمبراطورية الحديثة

الجغرافيا التي أغنت الشرق الأوسط قرونًا جعلته أيضًا عرضةً للغزو الدائم.  
فعند ملتقى آسيا وإفريقيا وأوروبا، سيطر الإقليم على الطرق البرية إلى الهند والممرات البحرية في البحر الأحمر والخليج العربي.  
(Lewis, 1993; Kennedy, 2004.)

ولهذا، ظلّ جائزةً للإمبراطوريات، من الرومان إلى العثمانيين، ثم من الفرنسيين إلى البريطانيين.

وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، تحوّل ميزان القوى مع اتساع نفوذ أوروبا الصناعية.  
فصارت القيمة الجيوسياسية للشرق الأوسط — بقنواته ومضايقه ومسالك قوافله — تفوق ثرواته الزراعية التقليدية. (Hourani, 1991; Faroghi, 2004.)

وشكّلت حملة نابليون على مصر (1798–1801)، والتقدم الروسي في القوقاز، وتصاعد النفوذ البريطاني في الخليج العربي بداية عصرٍ جديد في السياسة العالمية.  
(Kennedy, 2004; Matthee, 2021.)

تحولت الممرات التي كانت تسلكها قوافل الحجاج والتجار إلى شرايين لوجستية للإمبراطوريات.

ثم تبعثها السكك الحديدية والقنوات والتلغراف، موصلة المنطقة إلى شبكة جديدة من الترابط العالمي. (Abu-Lughod, 1989; Hodgson, 1974.)

لقد أصبحت الجغرافيا قدرًا:

فلم يعد الشرق الأوسط مجرد جسر ثقافي بين الحضارات، بل محورًا للإمبراطوريات الحديثة وصراعاتها.

لاستمرارية في العصر الحديث

مع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته، كان الشرق الأوسط يقف على عتبة مرحلة تاريخية جديدة تمامًا. فقد ضمنت المركزية الجغرافية الدائمة للمنطقة — بوصفها صلة الوصل بين إفريقيا وآسيا وأوروبا — استمرار أهميتها، غير أنّ مصادر القوة فيها كانت تتحوّل. (Hourani 1991; Lapidus 2014) فالأنهار والصحارى والسواحل التي غدت مسيرة الأنبياء والخلفاء أصبحت الآن موضوع مسح من قبل رسامي الخرائط والملاحين ومهندسي الإمبراطوريات. (Kennedy 2004)

ولم يعد يُقاس ثراء الشرق الأوسط بالحبوب أو المنسوجات، بل بالجغرافيا الاستراتيجية والطاقة المطمورة تحت الأرض. فمع أنّ قلبه الزراعي — الرافدان ومصر والشام — ظلّ منتجًا، فإنّ قيمته الحقيقية باتت تكمن تحت السطح: في طبقات الفحم وال خام المعدني و ينابيع النفط التي لوحظت منذ زمن بعيد، ولكن نادرًا ما استُخرجت بصورة منهجية. (Matthee 2021; Adams 1981)

ثقافيًا، احتفظت المنطقة بقدرٍ لافتٍ من الاستمرارية. فمسارات القوافل التي حملت العلماء والتجار في العصور العباسية والعثمانية صارت تنقل المساحين والآثار بين الأوروبيين. (Abu-Lughod 1989). وعلى الرغم من التجزئة السياسية، بقي النسيج اللغوي والفكري والروحي المشترك للشرق الأوسط قائمًا. بل إنّ هذه الاستمرارية بين الوسيط والحديث تفسّر كيف استطاعت المنطقة امتصاص صدمات الإمبراطورية مع صون هويتها

— حضارة تتكيف دون أن تتلاشى. (Hodgson 1974; Lewis 1993)

الانهيار، والثورة، وعصر العولمة

مع بزوغ القرن التاسع عشر، غدت الجغرافيا التي كانت تغذي حيوية الشرق الأوسط مصدرًا لقابليته للتعرض. فأوروبا الصناعية، بدافع التقدم التقني والطموح التجاري والسيادة البحرية، اتجهت إلى المنطقة لا كشريك في التبادل، بل كملكبة استراتيجية. (Kennedy 2004; Hourani 1991).

وجسّد حفر قناة السويس (1869) هذا التحوّل؛ إذ ربطت القناة البحر المتوسط بالمحيط الهندي وجعلت التحكّم بالشرق الأوسط مرادفًا للتحكّم بالتجارة العالمية (Lewis 1993). وبعد ذلك بقليل، جاء اكتشاف النفط في فارس (1908) ثم في العراق (1927) ليُرسخ الدور الجديد للمنطقة بوصفها خزان طاقة العالم (Matthee 2021).

وقد مهّدت التمدّات الأوروبية — الحملات الفرنسية في مصر، والهيمنة البحرية البريطانية في الخليج، والتوغّلات الروسية في القوقاز — لقيام نظامٍ إمبراطوريٍّ جديدٍ قوامه التنافس على الموارد والممرات والنفوذ (Lapidus 2014; Faruqi 2004).

وهكذا، ما كان يوحد الشرق الأوسط بالإيمان والتبادل صار يستدعي التقسيم بفعل القوة والطموح. وقد جاءت الحرب العظمى (1914–1918) لتبلغ بهذه التوتّرات ذروتها، فهتّمت إمبراطورياتٍ قديمة وأعادت رسم الحدود. ومن بين الأنقاض وُلد الشرق الأوسط الحديث — عالمٌ وُلد من الإرث والاضطراب معًا، من الاستمرارية والانهياء.

وكما لاحظ ألبرت حوراني (1991)، فإنّ تاريخ المنطقة الحديث هو «حوارٌ بين الذاكرة والحادثة — يتشكّل قدرُها بقدر ما ترسمه موروثات الإيمان والحضارة، مثلما يُعيد صياغته منطق الإمبراطورية والصناعة».



## الفصل الثامن – الاهتمام الغربي بالشرق الأوسط: استمرارية تاريخية

### من الفضول القديم إلى الطموح الإمبراطوري

تكمن مركزية الشرق الأوسط في التاريخ العالمي، لا في حضاراته الأصلية فحسب، بل أيضًا في الافتتان الدائم الذي مارسه على العالم الغربي. فمنذ العصور القديمة وحتى الحداثة، ظهر الإقليم تارة بوصفه أرضًا مقدسة، وتارةً مخزنًا للحكمة، وتارةً أخرى جائزة استراتيجية. إن استمرارية التفاعل الغربي — الفكري والتجاري والإمبراطوري — تُبرز مدى عمق تأثير الشرق الأوسط في مخيلة الغرب ذاته. (Said 1978; Lewis 1993; Hourani 1991)

### اللقاءات القديمة والاستكشافات الأولى

تعود أولى الحملات الغربية في الشرق الأوسط إلى فتوحات الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد، الذي امتدت فتوحاته من مصر إلى فارس وآسيا الوسطى. ولم تكن حملاته غزوًا عسكريًا فحسب، بل بعثة علمية تسعى إلى رسم خرائط الأراضي الجديدة وجمع المعارف النباتية والجغرافية. (Briant 2002; Kennedy 2004)

أما الممالك الهلنستية اللاحقة — كالبطالمة في مصر والسلوقيين في الشام — فقد مزجت بين التراثين اليوناني والشرقي، مكونةً توليفة ثقافية صاغت هوية العالم المتوسطي الكلاسيكي. (Green 1990) ومنذ ذلك الحين، أصبح تعامل الغرب مع الشرق الأوسط يتأرجح بين الإعجاب والسيطرة، بين التعلم منه والهيمنة عليه.

واصلت الإمبراطورية الرومانية هذا الإرث، فحوّلت شرق البحر المتوسط إلى قلبها التجاري والثقافي، مُحكمة السيطرة على الممرات البحرية التي تربط أوروبا وإفريقيا وآسيا. حتى الحملة الرومانية القصيرة إلى اليمن في القرن الأول الميلادي — التي سعت للهيمنة على تجارة البخور والقضاء على الممالك والقبائل اليهودية التي كانت تتحكم في طرق القوافل — كشفت عن الدوافع الاستراتيجية والاقتصادية التي كانت تُحرّك التوسع الإمبراطوري. (Kennedy 2004; Lapidus 2014)

## عصر الإيمان والحروب الصليبية

مع صعود أوروبا المسيحية، اكتسب اهتمام الغرب بالشرق الأوسط بعداً روحياً وأخروياً.

فقد جمعت الحروب الصليبية (القرنان 11-13م) بين العبادة والطموح الجيوسياسي.

ورغم أنها رُوِّجت كـ«رحلات فداء»، فإنها كانت في الوقت ذاته حملات للسيطرة والأرباح والمجد. (Tyerman 2006; Riley-Smith 2005)

مثّلت الممالك الصليبية في القدس وأنطاكية وعكا تجارب مبكرة في الحكم الاستعماري.

لكن الحروب الصليبية كانت أيضاً قنواتٍ للتبادل الثقافي والعلمي، نقلت إلى أوروبا العلوم الشرقية والمعارف الطبية والسلع التجارية. (Hodgson 1974; Hourani 1991)

لقد غرس هذا الإرث المزدوج — الصراع والتبادل — الشرق الأوسط عميقاً في الوعي الغربي، فأصبح في آنٍ واحد «الأرض المقدسة» و«بوابة الشرق»،\*\* حيث يتقاطع التاريخ الإلهي مع السلطة الدنيوية. (Said 1978; Lewis 1993)

## عصر الاستكشاف والفضول العلمي

أعاد عصر النهضة والتنوير تشكيل علاقة الغرب بالشرق الأوسط. فمع تراجع النزعة الدينية وصعود العقلانية، حلّ الفضول العلمي محلّ الحماسة الصليبية.

وانطلق المبشّرون والرحالة والعلماء بحثاً عن «مهد الحضارة»، يجمعون بين التحقيق الإنساني والاستطلاع الإمبراطوري. (Farooqi 2004; Kennedy 2004)

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، شهدت المنطقة بعثاتٍ إلى مصر وبلاد الرافدين وفارس جمعت بين الآثار والخرائط واللاهوت. فقد أدّى فكّ رموز الكتابة المسمارية، ورسم مجرى النيل، والتلقيب عن المدن القديمة إلى إدماج الشرق الأوسط في الرؤية العلمية الناشئة لأوروبا. (Matthee 2021; Said 1978)

لكن حتى هذا الاهتمام العلمي كان مشوبًا بنزعة السيطرة. فقد أصبح العلم أداة للهيمنة، ورسم الخرائط مقدّمة للاحتلال، والمتاحف تمهيدًا للانتداب. وغدا الخط الفاصل بين الاستكشاف والإمبراطورية أرقّ من أي وقتٍ مضى. (Said 1978; Green 1990)

## التجارة والصناعة وعصر الإمبراطوريات

بحلول القرن السابع عشر، تحوّل خطاب الفضول إلى منطق التجارة. فالطرق القديمة التي كانت تنقل الحرير والتوابل بين آسيا والبحر المتوسط تحوّلت إلى شبكات استعمارية بحرية تدعمها الهيمنة الأوروبية. (Kennedy 2004)

أدّى صعود النظام التجاري الأوروبي إلى إدماج الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي المتنامي. فكان الوجود البريطاني المبكر في الخليج، والمشاريع الفرنسية في شمال إفريقيا، والمنافسة الهولندية في المحيط الهندي تعبيرًا عن نموذج جديد يقوم على السيطرة على الموارد والممرات باعتبارها أساس القوة. (Lapidus 2014; Hourani 1991)

وبحلول القرن التاسع عشر، ومع بزوغ الرأسمالية الصناعية، أصبح للشرق الأوسط أهمية استراتيجية بقدر ما هي اقتصادية. فقد مثّلت قناة السويس (1869) وسباق الامتيازات في فارس وبلاد الرافدين، واستغلال فكرة التحديث للتغلغل السياسي، تحوّل العلاقة من الاستكشاف إلى الهيمنة. (Lewis 1993; Matthee 2021)

## استمرارية الاهتمام الغربي

وعبر ألفي عام، تتجلى أنماط ثابتة. فقد جمعت علاقة الغرب بالشرق الأوسط دائمًا بين الاحترام والمنافسة، بين الإعجاب بآرائه القديم والرغبة في موارده وموقعه الاستراتيجي. (Said 1978; Hourani 1991)

فالفضول الذي قاد العلماء الإغريق إلى علم الفلك البابلي تحوّل إلى الطموح الإمبراطوري لأوروبا الحديثة. والجغرافيا المقدسة التي ألهمت الحجاج واللاهوتيين أفسحت المجال للجغرافيا العلمية والاقتصادية للإمبراطورية.

ومع فجر القرن العشرين، لم يعد النظر الغربي إلى الشرق الأوسط دينيًا أو أكاديميًا، بل جيوسياسيًا. لقد بلغ عصر المعرفة تمام نضجه ليصبح عصر السيطرة. (Kennedy 2004; Lapidus 2014)

## الخاتمة للجزء الثاني

### دروس التاريخ: الوحدة والتجزئة في الشرق الأوسط

عبر القرون التي تناولها هذا الجزء، يظهر الشرق الأوسط ليس مجرد جغرافيا، بل ساحة أخلاقية وحضارية. فإيقاعه التاريخي تحدده الجدلية بين الوحدة والانقسام — بين السعي نحو التماسك الجماعي، والواقع المتكرر للتجزئة. فكل حقبة من التوحيد ولدت الإبداع والقوة، وكل مرحلة من الفرقة فتحت الباب أمام الانحدار والتدخل الخارجي. (Hodgson 1974; Hourani 1991)

### قوة الوحدة

ترافقت فترات الوحدة في الشرق الأوسط دائمًا مع ازدهار ثقافي وفكري وسياسي. فقد مثّلت الجماعة النبوية في القرن السابع الميلادي النموذج الأعلى للتماسك الأخلاقي القائم على الإيمان المشترك، إذ حوّلت العربية القبلية إلى أمة ذات رسالة كونية وأخلاقية. (Kennedy 2004)

امتدت هذه الوحدة مع الخلافات الراشدة والعباسية إلى ميادين الحكم والعلم والفن، فانبثقت منها حضارة شملت القارات واللغات. وكذلك أعادت المنظومة العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر التوازن والنظام بعد قرونٍ من الغزو المغولي والتشرذم الإقليمي. (Lapidus 2014; Faroqhi 2004)

وفي كل هذه التجارب، كان الانسجام السياسي يقوم على توليفة فكرية وأخلاقية عميقة توحد الإيمان بالشرعية والحكم الرشيد. وحينما عملت هذه القوى معًا، أشرقت المنطقة بالاستقرار والتأثير، ونشرت أفكارها عبر حضارات إفريقيا وآسيا وأوروبا، من الأندلس إلى الهند. (Hodgson 1974; Lewis 1993)

## كلفة الانقسام

لكنّ تاريخ الشرق الأوسط تعرّف أيضاً على الثمن الباهظ للتفرّق. فكل شرخ كبير — من الفتن الأولى إلى الحروب العثمانية-الصفوية — أضعف قدرة المنطقة على تقرير مصيرها.

فقد فتحت المنافسات بين القاهرة وبغداد ودمشق الباب أمام التدخل الأجنبي: تقدّم الصليبيون وسط الانقسامات، واغتم المغول غياب التنسيق، واستغلّت القوى الأوروبية التمزّق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. (Kennedy 2004; Hourani 1991)

لم تُقوّض الفرقة السلطة السياسية فحسب، بل أضعفت أيضاً الشرعية الأخلاقية. إذ استخدمت السلالات المتنافسة الدين لتبرير طموحاتها الفئوية، مما فكّك الإجماع القيمي الذي كان أساس الحكم في العصور الزاهرة. وكما أشار ابن خلدون في القرن الرابع عشر، كانت العصبية — التضامن الاجتماعي الذي يجمع الجماعات — هي مصدر القوة، ولكنها أيضاً أول ضحايا الصراع الداخلي. (Ibn Khaldun 1377/1958)

## فلسفات وتحذيرات خالدة

يقدم التاريخ مبدأ دائماً: الوحدة ليست تطابقاً، والتجزئة ليست تنوعاً. فقد اعتمدت حيوية الحضارة الإسلامية-الشرق أوسطية دائماً على قدرتها في توفيق التعددية ضمن إطار أخلاقي يحفظ العدل والتماسك. (Hodgson 1974)

وحينما انسجم الإيمان والعقل والإدارة، كما في العصرين العباسي والعثماني المبكر، ازدهرت المنطقة.

أما حينما افترقوا — حين سعى الحكّام إلى الهيمنة بلا مقصد أخلاقي، أو اعتزل العلماء المسؤولية السياسية، — كان الانحدار النتيجة الحتمية. (Hourani 1991; Lapidus 2014)

إن الدرس ليس حنيناً إلى الماضي ولا وصفاً للمستقبل، بل هو قانون بنيوي: فقدرة الشرق الأوسط على البقاء مرهونة بقدرته على ترجمة الرؤية الأخلاقية إلى صيغة سياسية، تحافظ على التماسك دون إلغاء التنوع.

## إرث وانتقال

مع أواخر القرن الثامن عشر، واجهت المنطقة عتبةً تاريخيةً جديدةً. فالجغرافيا نفسها التي أنجبت الأنبياء والإمبراطوريات أصبحت تواجه ضغوط الحداثة الصناعية والتوسع الإمبراطوري.

فقد اصطدمت فلسفات الوحدة القديمة التي ألهمت الخلفاء والمصلحين بواقع الرأسمالية العالمية والقوة الأوروبية. (Lewis 1993; Matthee 2021)

ومع ذلك، بقيت الذاكرة الحضارية للوحدة الأخلاقية حيةً في أعماق المجتمع. فعلى الرغم من الانحدار السياسي، ظلَّ هناك تماسك ثقافي وأخلاقي متجذّر، يؤمن بأن العدالة أساس السيادة، وأنَّ التنوع لا يعني الانقسام.

ومع ختام الجزء الثاني، يقف الشرق الأوسط بين الذاكرة والتحول. فإيقاعه القديم — بين الوحدة والتجزئة — لا يزال يتردّد في العصر الحديث، مذكّرًا بأنَّ كل أزمةٍ جديدة تُعيد طرح السؤال القديم: هل تستطيع حضارةٌ بُنيت على الوحي والعقل أن تحافظ على تماسكها في وجه قوى الإمبراطورية والتغيير؟ (Hourani 1991; Kennedy 2004)

## ملاحظة ختامية للجزء الثاني

ومع انحسار العصر الحديث المبكر وبزوغ العالم الصناعي، ظلَّ الشرق الأوسط كما كان دائمًا — ملتقى المصائر.

فقد قامت إمبراطورياته وسقطت، وتبدّلت حدوده، لكن حوارهِ الأخلاقي بقي مستمرًا.

وفي القرون التالية، لم يُطلب من المنطقة أن تُقدّم أنبياءها أو حكماتها فحسب، بل نَفطها وممراتها المانية وموقعها الاستراتيجي.

ومع ذلك، يبيّن التاريخ أنَّ بقاءها لم يعتمد يومًا على ثروات أرضها، بل على وحدة مقصدها الأخلاقي.

إنَّ قصة الشرق الأوسط ليست حكاية انحدارٍ محتوم ولا انتصارٍ دائم، بل رحلة تجديدٍ مستمر — حضارةٌ تبحث في كل انقسامٍ عن توازنٍ جديد بين القوة والعدالة.

# الجزء الثالث — الشرق الأوسط من الحرب العالمية الأولى إلى الحاضر

## الانهيار، والثورة، وعصر العولمة

### مقدمة تمهيدية

لم يبدأ القرن العشرون ببداية جديدة، بل بانتهاء عهدٍ طويل. فقد انهار النظام الإمبراطوري الذي شكّل ملامح الشرق الأوسط لأكثر من ألف عام. كانت الإمبراطورية العثمانية، التي طالما مثّلت القلب السياسي والروحي للعالم الإسلامي، تنهار تحت وطأة الحروب العالمية، والأزمات الاقتصادية، والانقسامات الداخلية.

وفي مكانها نشأ نظامٌ جديد مفروض من الخارج ومُتحدّى من الداخل — عصر الانتدابات والثورات والدول القومية. أصبحت المنطقة، التي كانت يومًا ما تُعرّف بتفاعل الإيمان والجغرافيا والتجارة، مسرحًا لصراعات الرأسمالية الصناعية، والتقسيم الاستعماري، والصدامات الأيديولوجية.

استمرّت إرثا الوحدة والانقسام اللذان ميّزا التاريخين الكلاسيكي والحديث المبكر، لكنّهما تحوّلًا الآن عبر مرشحات الأيديولوجيات الحديثة: القومية، والعلمانية، والاشتراكية، والنهضة الدينية.

فمن انهيار الإمبراطوريات وإعادة رسم الحدود، إلى اكتشاف النفط وظهور حركات الاستقلال، أصبح الشرق الأوسط رمزًا ومسرحًا للحدث العالمية. كل قوةٍ خارجية سعت إلى تشكيله، وكل حركةٍ داخلية حاولت استعادته. كانت صراعاته أكثر من محلية — بل كانت انعكاسًا لصراع الإنسانية الحديثة نفسها: بين التراث والتقدم، السلطة والعدالة، الذاكرة والبقاء.

# الفصل الأول — الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط

## الحرب التي أنهت عصرًا

مثّلت الحرب العالمية الأولى (1914–1918) ليس فقط انقطاعًا في التاريخ الأوروبي، بل تحولًا جذريًا في النظام العالمي بأسره. أما في الشرق الأوسط، فكانت المنعطف الحاسم الذي انتهى فيه عصر الإمبراطوريات وبدأ عصر الأمم، فقد انهار الحكم العثماني، الذي استمر قرونًا، تحت وطأة الإنهاك الداخلي والغزو الخارجي. (Fromkin 1989; Rogan 2015)

ما بدأ في البلقان سرعان ما امتدّ إلى صحارى الشرق الأوسط ووديانه وموانئه، فتحوّلت الجغرافيا إلى جبهة كونية للصراع. ولئن كانت الحرب في أوروبا تدور حول الحدود والهيمنة، فقد أصبحت في الشرق الأوسط صراعًا من أجل البقاء والهوية والإرث. (McMeekin 2010) وحين صممت المدافع، كان العالم قد أُعيد رسمه — لا بأيدي أبنائه، بل بأقلام القوى الأجنبية، التي حلّت أقلامها محل الجيوش كأدوات للسيطرة. (Yapp 1987; Cleveland & Bunton 2016)

## الإمبراطورية العثمانية والطريق إلى الحرب

في مطلع القرن العشرين، كانت الإمبراطورية العثمانية لا تزال تمتد عبر ثلاث قارات — من البلقان إلى الجزيرة العربية، ومن شمال إفريقيا إلى الحدود الفارسية. لكن وراء هذا الامتداد، كانت البنية الداخلية قد ضعفت. فالهزائم العسكرية المتتالية في البلقان وشمال إفريقيا جردتها من أراضٍ واسعة، بينما أضعفت الانتفاضات القومية، والديون الأوروبية، والتغلغل الاقتصادي الأجنبي تماسكها الداخلي. (Zürcher 2017; Quataert 2000)

ومع ذلك، بقيت إسطنبول مقرّ الخلافة، الرمز الروحي والسياسي للعالم الإسلامي، تستدعي الولاء والخوف في آنٍ واحد بين مسلمي آسيا وإفريقيا (Karpat 2002).

في محاولةٍ لحماية السيادة وسط حصار القوى العظمى، تحالف القادة العثمانيون مع ألمانيا ضمن دول المحور عام 1914.



كان ثلاثي حزب الاتحاد والترقي —أنور باشا، وطلعت باشا، وجمال باشا— يعتقد أن قوة ألمانيا العسكرية والصناعية ستحفظ استقلال الدولة ضد الروس في القوقاز والبريطانيين في الخليج ومصر. (Rogan 2015; McMeekin 2010)

لكن هذا التحالف أدخل الدولة في حربٍ لم تكن قادرة على إدارتها ولا تحملها. فقد تفرقت القوات العثمانية على جبهاتٍ متعددة — القوقاز، وبلاد الرافدين، وفلسطين، والجزيرة، والدرديل — فتحوّلت الدولة، التي كانت تُوصف بـ\*\*«الرجل المريض في أوروبا»\*\* إلى مسرح رئيسي للحرب الحديثة. (Erickson 2001; Fromkin 1989)

## جبهات الحرب في الشرق الأوسط

### 1. جبهة القوقاز

كانت أولى الحملات العثمانية ضد روسيا في شتاء 1914–1915، وانتهت بكارثة في ساريقاميش، حيث هلك عشرات الآلاف من الجنود في البرد القارس نتيجة سوء الإمداد، وقسوة المناخ، وضعف القيادة. (Erickson 2001; McMeekin 2010)

أضعفت الهزيمة المعنويات، وكشفت خللاً في التنظيم والإمداد العسكري. وفي أعقابها جاءت واحدة من أكثر مآسي القرن العشرين قتامةً، حين أمرت القيادة العثمانية عام 1915 بترحيل السكان الأرمن من الأناضول بدعوى الخوف من تعاونهم مع العدو، ما أدى إلى معاناة وفقدان هائل للأرواح. (Akçam 2012; Rogan 2015)

أصبحت جبهة القوقاز رمزاً لانتهاء الإمبراطورية ومأساة الشعوب، حيث تهاوت أنظمة الحكم القديمة، وحلّت محلها منطقية البقاء العارية من الرحمة.

### 2. جبهة بلاد الرافدين

في الجنوب الشرقي، ركزت الاستراتيجية البريطانية على تأمين الخليج العربي وحماية النفط ومسار الهند. فاحتلت القوات البريطانية البصرة عام 1914، لكنها تقدمت أكثر مما ينبغي، وانتهى بها الأمر إلى حصار الكوت (1916) حيث استسلمت القوات البريطانية — في واحدة من أكثر هزائمها إذلالاً. (Rogan 2015; Fromkin 1989)

ثم أعادت بريطانيا تنظيم صفوفها بقيادة الجنرال فريدريك مود، فتمكنت من احتلال بغداد في مارس 1917، لتنتهي بذلك قرونٌ من الحكم العثماني لبلاد الرافدين ويبدأ العهد البريطاني الإمبراطوري. (Moberly 1923; Yapp 1987)

كشفت هذه الجبهة تحوّل ميزان القوى العالمية:  
فالعثمانيون قاتلوا من أجل البقاء، بينما قاتلت بريطانيا من أجل تأمين شرايين إمبراطوريتها وموارد الطاقة التي ستغذي العصر الصناعي الحديث.  
(Cleveland & Bunton 2016)

### 3. جبهتا سيناء وفلسطين

على الحدود الغربية للإمبراطورية، حاول العثمانيون تهديد قناة السويس، التي كانت شريان بريطانيا الحيوي إلى الهند.  
لكن هجومين في عامي 1915 و1916 فشلًا ذريعًا، ثم أطلقت بريطانيا هجومًا معاكسًا عبر فلسطين (Erickson 2001; Rogan 2015).

بحلول عام 1917، قاد الجنرال إدmond ألنبي قواته شمالًا عبر غزة وبنر السبع، حتى دخل القدس في ديسمبر 1917.  
وللمرة الأولى منذ أكثر من سبعة قرون، انتقلت المدينة المقدسة إلى السيطرة الغربية، في حدثٍ ذو رمزية دينية وسياسية عميقة.  
(Fromkin 1989; McMeekin 2010)

مهّد احتلال فلسطين لانتهاه الحكم العثماني ولإعادة تشكيل المشرق بعد الحرب، وخاصةً بعد تصريح بلفور (1917) الذي وعد بإقامة «وطن قومي لليهود» في فلسطين (Rogan 2015).

### 4. حملة جاليبولي (الدردينيل)

تُعد حملة الدردنيل (1915–1916) إحدى أبرز معارك الحرب العظمى.  
سعى الحلفاء إلى فتح المضائق، واحتلال إسطنبول، والاتصال بروسيا عبر البحر الأسود. لكن العملية انتهت بفشلٍ ذريعٍ بعد شهورٍ من الجمود والخسائر الفادحة.  
(Fromkin 1989; Erickson 2001)

ومن رحم هذه الكارثة وُلد بطلٌ عثماني جديد: مصطفى كمال (أتاتورك).  
فقد قاد دفاعاته بانضباطٍ وشجاعة، وحوّل الهزيمة إلى رمزٍ للصمود والفخر الوطني.

(Zürcher 2017)

لقد أنقذ الدفاع الناجح عن المضائق العاصمة العثمانية، ووضع الأساس النفسي لظهور القومية التركية، التي سُنشئ لاحقًا الجمهورية الحديثة.

(Kinross 1964; Mango 1999)

أصبحت جالبيولي مأساة إمبراطورية ومهداً للبعث الوطني، اللحظة التي وُلد فيها الشرق الأوسط الحديث من رماد الإمبراطورية المحتضرة.

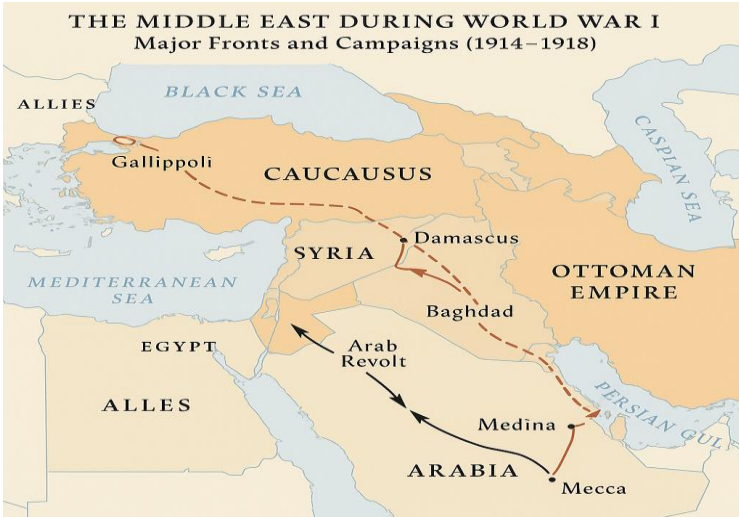
### الخاتمة: الحرب وميلاد نظام جديد

دمّرت الحرب العالمية الأولى الإمبراطورية العثمانية، لكنها أعادت أيضًا تشكيل مصير الشرق الأوسط.

تحوّلت الجغرافيا إلى أيديولوجيا، فحلّت الحدود محلّ التخوم، والانتدابات محلّ السيادة.

نشأت دولٌ جديدة حيث كانت الولايات القديمة، تقوم لا على إرادة شعوبها، بل على تصميم القوى الإمبراطورية. (Rogan 2015; Fromkin 1989)

لم تكن الحرب نهاية التاريخ لأهل المنطقة، بل ميلادًا مؤلمًا لتاريخ جديد — انتقالًا من الإمبراطورية إلى التجزئة، ومن وحدة العقيدة إلى صراع القوميات. ومن بين أنقاض الباب العالي انبثقت جغرافيا سياسية جديدة، ستظل أصداءها تهزّ القرن العشرين وما بعده. (Hourani 1991; Cleveland & Bunton 2016)



## 5. الثورة العربية

ربما كانت الثورة العربية (1916–1918) أكثر الحملات رمزيةً في الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الأولى.

فقد شجعتها بريطانيا ومولتها، حين أطلق الشريف حسين بن علي، شريف مكة، ومعه ابنه فيصل وعبد الله، انتفاضةً ضدَّ السلطة العثمانية، معلنين رؤيتهم لمملكةٍ عربيةٍ موحدة. (Rogan 2015; Fromkin 1989)

كان الضابط البريطاني ت. إ. لورنس —الذي خُلد في الذاكرة باسم "لورنس العرب"— صلة الوصل بين الجانبين، ودَوَّن أحداث الثورة بلغةٍ تمزج بين الرومانسية والتحليل السياسي، مصوِّراً الصراع كحربٍ من أجل التحرر، لا كأداةٍ لحساباتٍ إمبراطورية. (Lawrence 1926; Mack 1976)

### النتائج العسكرية والسياسية

حققت الثورة مكاسب عسكرية ملموسة. فقد تمكنت القوات العربية، بدعمٍ لوجستي بريطاني، من قطع خطوط السكك الحديدية الحجازية، والمساهمة في تحرير العقبة (1917) ثم عمَّان ودمشق (1918). (McMeekin 2010; Zürcher 2017)

لكنَّ معناها ظلَّ غامضاً وسط ازدواجية الدبلوماسية الحليفة. إذ قاتل العرب على أمل الاستقلال، بينما سعت بريطانيا وفرنسا في الخفاء إلى إعادة توزيع الأراضي العثمانية تحت أفتنةٍ جديدةٍ من الانتداب والسيطرة. (Cleveland & Bunton 2016; Hurewitz 1979)

### الكارثة الإنسانية والحضارية

أنقِطت الحرب كاهل شعوب الشرق الأوسط بكارثةٍ إنسانيةٍ مدمِّرة. فقد اجتاحت المجاعة بلاد الشام، وفاقمها الحصار البحري للحلفاء وسياسات المصادرة والإجبار العثمانية، فحصدت حياة مئات الآلاف. (Thomas 2011; Rogan 2015)

كما انتشرت الأوبئة والنزوح والانهيارات الاقتصادية، من الأناضول إلى العراق، تاركةً المدن الكبرى — حلب، الموصل، بغداد — خالية الموارد مثقلة البؤس.

انهارت البنى التحتية التي كانت تدعم حضارة استمرت قرونًا: طرق القوافل، والأسواق، والنقابات الحرفية، والصناعات المحلية، نداعت جميعها تحت وطأة الحرب الشاملة. (Quataert 2000)

فقدت الإمبراطورية نواة شرعيتها الأخلاقية — الخلافة — هيبتها، وفقد الناس أمنهم واستقرارهم.

ومع ذلك، من بين الانقراض، ظهرت تيارات جديدة من الفكر والنشاط. عاد الجنود والعلماء والمصلحون الذين شهدوا الحرب الآلية يتساءلون عن السيادة والهوية والإيمان في عصر أخذت القوى الصناعية الكبرى تهيمن فيه على العالم. (Rogan 2015; Hourani 1991)

### نهاية الحرب وتفكك الإمبراطورية

بحلول أواخر عام 1918، انهارت الجبهات العثمانية. دخلت القوات الحليفة سوريا وبلاد الرافدين والأناضول، وأنهى اتفاق مودروس (أكتوبر 1918) القتال، لكنه لم يجلب سلامًا حقيقيًا، بل مرحلة انتقال من الإمبراطورية إلى التقسيم. (Zürcher 2017; McMeekin 2010)

تم تفكيك الدولة العثمانية، وتقسيم ولاياتها بين القوى المنتصرة. فالديار التي كانت تربط قارات العالم القديم قُطعت إلى حدودٍ مصطنعةٍ رُسمت في لندن وباريس. (Fromkin 1989; Cleveland & Bunton 2016)

هكذا دخل الشرق الأوسط عصر الانتداب والدول الحديثة، عصرًا وُلد لا من إرادة الشعوب، بل من تصميم الإمبراطوريات. (Rogan 2015)

### الخاتمة — نهاية حقبة

لم تُدمر الحرب العالمية الأولى إمبراطوريةً فحسب، بل أنهت دورةً حضاريةً بأكملها. فقد كان الشرق الأوسط طوال ثلاثة عشر قرنًا يُحكم من داخله — على يد الخلفاء والسلاطين الذين استندت شرعيتهم، وإن بدرجات متفاوتة، إلى أسسٍ أخلاقيةٍ وروحيةٍ. (Hourani 1991; Karpas 2002)

بعد عام 1918، تلاشى هذا النظام. وحلَّ مكانه نظامٌ جديد صاغته القومية، والاستعمار، والرأسمالية العالمية — قوى ستحدد ملامح القرن العشرين بأسره. (Fromkin 1989; Rogan 2015)

لم تكن الحرب انهياراً سياسياً فقط، بل سقوطاً فلسفياً أيضاً:  
فقد استُبدلت فكرة الوحدة بمنطق التجزئة، ومبدأ العدالة بحسابات القوة.

ومع ذلك، حتى في الهزيمة، بقيت الأسئلة الخالدة التي حرّكت هذه المنطقة منذ  
العصور الأولى:

الإيمان، والسيادة، ومعنى الحضارة — أسئلة حيّة، تنتظر أن تجد تجدها في عالم  
متحوّل. (Hourani 1991)

## الفصل الثاني — الوعود المتحالفة والاتفاقات السرية

### دبلوماسية الخداع

بينما كانت الجيوش تخوض معاركها في الصحارى والجبال، كانت معركة أخرى — أكثر حسماً وأعمق أثراً — تُدار في مكاتب أوروبا الدبلوماسية.

فخلف شعارات التحرير والعدالة، كانت القوى المتحالفة تنتسج خيوط اتفاقات سرية ووعود متناقضة تكشف عن تصميم إمبراطوري محكم. (Hurewitz 1979; Fromkin 1989)

بين عامي 1915 و1917، صيغت ثلاث وثائق مفصلية رسمت حدود الشرق الأوسط بعد الحرب: مراسلات حسين-مكماهون، واتفاقية سايكس-بيكو، ووعده بلفور. (Rogan 2015; Cleveland & Bunton 2016)

كشفت هذه الوثائق عن المنطق المزدوج للسياسة المتحالفة: فمن جهة سعت إلى استمالة العرب واليهود لدعم الحرب، ومن جهة أخرى خططت لضمان أن تتول تركية الدولة العثمانية إلى هيمنة أوروبية جديدة. (Hurewitz 1979; Nevakivi 1969)

لم تكن النتيجة فجر حرية، بل تقسيم حضارة.

### مراسلات حسين-مكماهون (1915-1916): وعد الاستقلال العربي

مع اشتداد الحرب، سعت بريطانيا إلى تفكيك الدولة العثمانية من الداخل. فدخل المندوب السامي البريطاني في مصر، السير هنري مكماهون، في سلسلة رسائل سرية مع الشريف حسين بن علي، أمير مكة وحارس أقدس مدن الإسلام. (Hurewitz 1979)

رأى الشريف حسين، في الحرب فرصة لإحياء الوحدة العربية تحت قيادته. (Fromkin 1989; Rogan 2015)

طالب باعتراف بمملكة عربية واسعة تمتد من الجزيرة العربية إلى الشام والعراق وفلسطين، مقابل ثورته على الحكم العثماني. أما ردود مكماهون فجاءت غامضة ومُلتبسة، تُوهم بدعم الاستقلال العربي

مع التحقّظ على بعض مناطق الشام بدعوى الحاجة إلى «ترتيبات خاصة». وقد وُفّرت هذه العبارات لاحقاً المبرر لبريطانيا في إنكار التزاماتها بالسيادة العربية الكاملة (Hurewitz 1979; Cleveland & Bunton 2016).

وفي يونيو 1916، رفع الشريف حسين راية الثورة في مكة، معلناً جهاداً لا ضد الكفار، بل ضد الدولة العثمانية: قاد ولده فيصل وعبد الله الحملة التي حررت العقبة، وتقدّمت نحو دمشق. (Rogan 2015; McMeekin 2010)

لكن في الوقت نفسه، كانت لندن وباريس تُعدّان في الخفاء خطاً تتناقض كلياً مع الوعود المرسومة في تلك الرسائل. (Fromkin 1989)

### اتفاقية سايكس-بيكو (1916): تقسيم العالم العربي

في مايو 1916، أبرمت بريطانيا وفرنسا اتفاقاً سرياً يقضي بتقسيم المشرق العثماني إلى مناطق نفوذ تُطبّق بعد النصر. صاغها السير مارك سايكس وفرنسوا جورج بيكو، وأعاد رسم خريطة الشرق الأوسط من دون أي اعتبار لشعوبه أو لتاريخه. (Hurewitz 1979; Fromkin 1989)

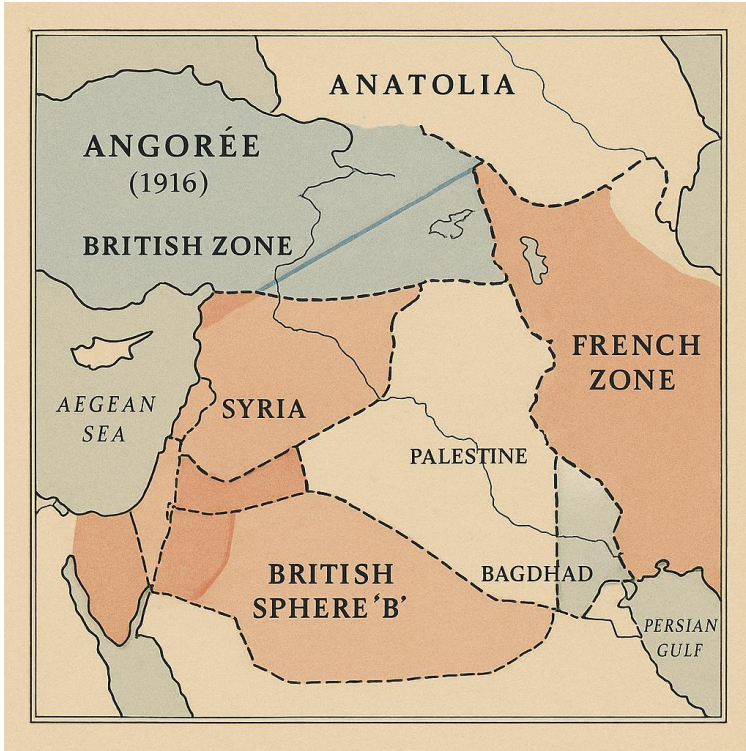
بموجب الاتفاق، كان لفرنسا أن تهيمن على سوريا ولبنان، بينما تسيطر بريطانيا على بلاد الرافدين وجنوب فلسطين. أما المناطق المتبقية — الأردن وأجزاء من الجزيرة — فكانت ستُمنح استقلالاً اسمياً تحت إشرافٍ أوروبي فعلي. (Nevakivi 1969; Rogan 2015)

ولما كانت فلسطين ذات مكانة دينية فريدة، تقرر أن توضع تحت إدارة دولية مشتركة. لم تجسّد الاتفاقية تحريراً، بل وراثَةً إمبراطورية — عودة ورثة روما وبيزنطة إلى مفترق طرق الإمبراطوريات. (Fromkin 1989)

وحين كشف البلاشفة عن نص الاتفاق عام 1917، عمّ الغضب في العالم العربي، وتبدّد الإيمان بالوعود الغربية. (Hurewitz 1979; Rogan 2015)

فقد استبدل حلم الوطن العربي المستقلّ بصفقة استعمارية مريحة لورثة القوى الأوروبية.





### وعد بلفور (1917): تعهّد وتبعاته

وسط هذا التشابك من الوعود المتضاربة التي صدرت أثناء الحرب، برز ثالثها — وربما أخطرها أثرًا — وهو وعد بلفور، الذي أصدرته الحكومة البريطانية في نوفمبر 1917. ففي رسالة وجهها وزير الخارجية آرثر جيمس بلفور إلى اللورد والتر روتشيلد، أحد زعماء الجالية اليهودية في بريطانيا، أعلنت الحكومة دعمها لـ:

“إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين” ،

مع إضافة فقرة تقول : “شريطة ألا يتخذ أي إجراء قد يمسّ الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة هناك”.

كانت هذه الرسالة القصيرة — سبعة وستين كلمة فقط — ذات تبعات هائلة.

إذ صدرت في وقتٍ لم تكن فيه بريطانيا تسيطر بعدُ على فلسطين، التي ظلت تحت الحكم العثماني حتى ديسمبر 1917. أما صياغتها، فكانت غامضة عمداً: إذ لم تُحدّد حدود الوطن القومي، ولا طبيعة سيادته السياسية. (Stein 1961; Schneer 2010)

جاء الوعد مزيجاً من البراغماتية الحربية والطموح الأيديولوجي. سعت بريطانيا إلى استمالة الرأي اليهودي العالمي، خصوصاً في الولايات المتحدة وروسيا، وفي الوقت نفسه أرادت ترسيخ نفوذها في منطقة استراتيجية تربط بين البحر المتوسط والمحيط الهندي. (Fromkin 1989; Rogan 2015)

كما عكس الوعد تأثير الزعماء الصهيونية الناشئين مثل حاييم وايزمان، الذي أسهم ضغطه السياسي في تشكيل السياسة البريطانية أثناء الحرب. (Renton 2007; Shlaim 2014)

أما في العالم العربي، فقد كان الوعد طعنةً قاسيةً للثقة. إذ جاء مناقضاً مباشرةً للالتزامات السابقة تجاه الشريف حسين. ففي لحظة واحدة، قدّمت لندن الأرض نفسها لشعبين مختلفين، وحوّلت فلسطين من أرضٍ تتعايش فيها الديانات إلى مركزٍ لصراعٍ قوميٍ مفتوح. (Cleveland & Bunton 2016; Rogan 2015) لقد كُتِب النص بلغةٍ أخلاقيةٍ رفيعة، لكنّه حمل بذرة أحد أطول الصراعات السياسية والأخلاقية في العصر الحديث.

### شبكة التناقضات

مع نهاية الحرب، أصبحت الوعود البريطانية الثلاثة الكبرى في تناقضٍ صارخ:

- للعرب، وعدت بالاستقلال.
- لفرنسا، وعدت بالتقسيم.

- وللحركة الصهيونية، وعدت بوطنٍ قوميٍّ في فلسطين.

وحين انهارت الدولة العثمانية عام 1918، اكتشف العرب أن مصير أراضيهم كان قد **حُسم مسبقاً**، قبل أن تُوقَّع هدنة الحرب. (Fromkin 1989; Nevakivi 1969)

ثم جاء نظام الانتداب التابع لعصبة الأمم (1920) ليحوِّل هذه التناقضات إلى **جغرافيا سياسية رسمية**. فلم تكن العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن نتاج تقرير المصير، بل ثمرة **حساباتٍ استراتيجية**. (Cleveland & Bunton 2016; Rogan 2015)

رُسمت الحدود بما يخدم الملاءمة الإمبراطورية لا الانسجام التاريخي أو الثقافي. واختبأ **الخطاب التحرري** وراء **هيمنةٍ استعمارية جديدة**. فالشرق الأوسط، الذي كان يوماً قلباً نابضاً للإمبراطوريات، أصبح هامشاً مُداراً، تُقاس حدوده بالمنفعة، ويُعامل أهله كرعايا لقوى النصر. (Hurewitz 1979; Thomas 2011)

هذا إعادة التشكيل للجغرافيا والسيادة، غيّر مفهوم الشرعية نفسه. فبعد أن كانت الشرعية تُستمد من الإيمان والمجتمع الحضاري المشترك، صارت تُمنح عبر تفويض القوى الأجنبية وبلغة الوصاية، التي كانت في حقيقتها **تسمية مهذبة للهيمنة**.

### تأمل فلسفي: عبء الوعود المنكوثة

كشفت الدبلوماسية السريّة للحرب العالمية الأولى عن واحدٍ من أعمق تناقضات التاريخ الحديث: **الصراع بين المثالية والسلطة**. فقد استُخدم خطاب العدالة لتبرير الاحتلال، وأصبحت فكرة الوحدة ذريعةً للتقسيم. (Rogan 2015; Fromkin 1989)

ادّعى الحلفاء أنهم يقاتلون من أجل «حقوق الأمم»، لكنهم أنكروا هذه الحقوق نفسها على الشعوب التي احتلوا أوطانها. خلقت مراسلات حسين-مكماهون توقعاً بالاستقلال، واتفاقية سايكس-بيكو شرّعت الحدود الاستعمارية، ووعدهم **بلفور** زرع بذور نزاعٍ سيتجاوز القرن. (Hurewitz 1979; Schneer 2010)

معًا، رسمت هذه الأفعال الخطوط الأخلاقية والسياسية الفاصلة التي ستحدد كل صراعٍ لاحقٍ حول العدالة والسيادة والانتماء. (Hourani)

لم تكن «الحرب التي تنهي كل الحروب» حربَ تحرر، بل إعادة تعريفٍ لأشكال الخضوع. ومع ذلك، في أعقاب الخيانة، انبثق وعيٌ سياسيٌ جديد — وعيٌ سعى، رغم عثراته، إلى التوفيق بين التراث والحداثة، وبين الذاكرة والمقاومة.

1916

### SYKES-PICOT AGREEMENT

In the **blue area** France, and in the red area Great Britain, shall be allowed to establish such direct or **indirect administration** or control as they desire.

### BALFOUR DECLARATION

1917

His Majesty's Government view with favour the establishment in **Palestine** of a **national home** for the Jewish people.

### PRESIDENT WILSON'S FOURTEEN POINTS

The **Turkish portions** of the present Ottoman Empire should be assured **a secure sovereignty**.

## الخاتمة — إرث الخداع

حين انتهت الحرب عام 1918، كان شعوب الشرق الأوسط ينتظرون بعثًا جديدًا، لكنهم وجدوا أنفسهم أمام إعادة احتلالٍ بوجوهٍ جديدة. فقد خرجت القوى الإمبراطورية من الحرب كأوصياء على مصير المنطقة، وقد حُدِّت سلطتهم بلسانٍ جديدٍ — القانون الدولي. «المنطقة التي كانت تتحد يومًا بالإيمان والثقافة تمزقت الآن بحدودٍ رسمتها الدبلوماسية والمصلحة.

لم تكن تلك الاتفاقات السرية مجرد خرائط جديدة، بل كانت إعادة تعريف لمفهوم السيادة ذاته. لقد دسّنت عصرًا تُستعمل فيه الوعود كأدوات للسياسة، والمعاهدات كآليات للهيمنة. ومع ذلك، كما في عصور سابقة، ستعتمد قدرة المنطقة على البقاء على قدرتها على تجاوز من قسّموها، وأن تستعيد — وسط الخيانة والانقسام — رؤية الوحدة التي كانت مصدر عظمتها الأولى.

**الجدول: الوعود المتحالفة مقابل النتائج الفعلية في الشرق الأوسط (1915-1920)**

النتائج الفعلية بعد 1918	الالتزامات المعلنة	الاتفاق / الوعد
أنكرت بريطانيا وفرنسا السيادة العربية الكاملة بعد الحرب. قُسمت الأراضي العربية بين الانتدابيين البريطاني والفرنسي. احتفظ الحجاز باستقلالٍ قصيرٍ قبل أن يضمه ابن سعود عام 1925.	وعدت بريطانيا الشريف حسين بالاعتراف بمملكة عربية مستقلة تشمل الجزيرة والشام والعراق وفلسطين مقابل الثورة على الحكم العثماني.	مراسلات حسين-مكماهون (1915-1916)
طُبّق الاتفاق عبر نظام الانتداب التابع لعصبة الأمم (1920). أخذت فرنسا سوريا ولبنان، وبريطانيا العراق وفلسطين وشرق الأردن. قُمت الحركات الوطنية المحلية.	اتفاقٌ سريٌّ بين بريطانيا وفرنسا لتقسيم المشرق العثماني: لفرنسا سوريا ولبنان، ولبريطانيا العراق وجنوب فلسطين، مع «استقلال» اسميٍّ في المناطق الوسطى تحت إشرافٍ أوروبي.	اتفاقية سايكس-بيكو (1916)
أنشئ الانتداب البريطاني على فلسطين عام 1922، فسَهّل الهجرة اليهودية. تصاعدت المعارضة العربية، مما أدى إلى اضطراباتٍ مستمرة وصراعٍ طويلٍ حول الأرض والسيادة.	أعربت بريطانيا عن دعمها لـ«إقامة وطنٍ قوميٍّ للشعب اليهودي في فلسطين» بشرط عدم الإضرار بحقوق الطوائف غير اليهودية.	إعلان بلفور (1917)
أهملت المبادئ في الشرق الأوسط. حافظت القوى الغربية على السيطرة من خلال الانتدابات. رُفضت مطالب العرب والأكراد	أعلن الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون حقّ الشعوب في «تقرير المصير» وإنهاء	مبادئ ويلسون الأربعة عشر (1918)

النتائج الفعلية بعد 1918	الالتزامات المعلنة	الاتفاق / الوعد
بالاستقلال في مؤتمر باريس للسلام.(1919-1920)	الاستعمار كأحد أهداف الحلفاء في الحرب.	
فُككت الإمبراطورية العثمانية رسمياً. تُبنت حدود الانتدابات. زُرعت بذور النزاعات الحديثة حول الحدود والهوية والسيادة.	وعدت بإقامة نظام بعد الحرب يقوم على العدالة وحقوق الأقليات والاستقرار الإقليمي.	مؤتمر باريس للسلام / معاهدة سيفر (1920)

### ملاحظة تحليلية

إن التسلسل الزمني بين 1915 و 1920 يكشف انقلاباً كاملاً في المبادئ التي رُفعت خلال الحرب.

فقد أنتجت الوعود بالحرية أنظمةً للهيمنة، وتحوّلت إعلانات العدالة إلى أدواتٍ للتوسع.

وهكذا، تحوّل الشرق الأوسط من قلبٍ نابضٍ للإمبراطوريات القديمة إلى ميدانٍ للسيادات المقيدة، نظامٍ جغرافيٍّ-سياسيٍّ متناقضٍ سيستمر في تشكيل ملامح القرن العشرين وبفسّر أزماته حتى يومنا هذا.

## الفصل الثالث — سقوط الدولة العثمانية ونظام الانتداب (1918–1920)

### من الإمبراطورية إلى التفكّت

حين سكتت مدافع الحرب الكبرى في نوفمبر 1918، كان الشرق الأوسط يقف على أعتاب نظامٍ جديدٍ كلياً.

فقد انهارت الإمبراطورية العثمانية — التي كانت يوماً رمزاً للوحدة والصمود والشرعية الإسلامية — وانهار معها التوازن التاريخي بين الإيمان والسيادة.

امتد سلطانها ذات يوم من البلقان إلى الخليج، أما الآن فكانت أراضيها تحت الاحتلال الأجنبي، وقد تقاسمتها القوى العظمى مسبقاً في اتفاقاتٍ سرّية. (Rogan 2015; Fromkin 1989)

ما نشأ بعد ذلك لم يكن الاستقلال المنشود، بل بنية استعمارية جديدة ارتدت قناع “الوصاية الدولية” — نظام الانتداب.

تحطم بذلك التوازن الذي استمر قروناً بين الوحدة والسيادة. فالمنطقة التي حكمت نفسها يوماً بالخلفاء والسلطين غدت تُدار عبر “أقاليم منتدبة”، تُقرّر مصائرها لا في دمشق أو بغداد، بل في لندن وباريس. (Cleveland & Bunton 2016; Hurewitz 1979)

فُدّمت انتدابات عصبة الأمم كأدوات “تقدّم وحضارة”، لكنها كانت في حقيقتها آليات للسيطرة والاستغلال.

فقد أعادت إنتاج التبعية تحت مبرراتٍ أخلاقيةٍ جديدة، سُمّيت بـ “الأمانة المقدّسة للحضارة”. (Thomas 2011; Nevakivi 1969)

وما كان يُحكم يوماً باسم الدين والتقاليد، أصبح يُدار باسم “التمدّن” و “القانون الدولي”.

هكذا دخل الشرق الأوسط بعد الحرب مرحلةً جديدة من الخضوع المنظم. فلم يعد قلب العالم القديم، بل حدوده الأمامية في نظامٍ عالميٍّ جديدٍ بُني على شعار تقرير المصير، لكنّه استمر بقوة الضرورة الإمبراطورية.

## نهاية إمبراطورية

لم يكن سقوط الدولة العثمانية حدثاً واحداً، بل عملية تفككٍ طويلة الأمد. أما هزيمة دول المحور عام 1918 فلم تكن سوى الضربة الأخيرة لإمبراطوريةٍ أنهكتها الخراب الاقتصادي والمجاعة والاضطرابات الداخلية وانهايار جهازها الإداري. (Zürcher 2017; McMeekin 2010)

جاء اتفاق الهدنة في مودروس (أكتوبر 1918) ليُكرّس الاستسلام العثماني. فقد نصّ على انسحاب القوات العثمانية من جميع الجبهات، وأتاح للحلفاء احتلال إسطنبول والمضائق والمناطق العربية. (Fromkin 1989)

وفي غضون أشهر، تفككت الجغرافيا الإمبراطورية الموحدة:

- سيطر الإنجليز على بلاد الرافدين وفلسطين وشرق الأردن؛
- واحتل الفرنسيون سوريا ولبنان؛
- وأنزلت القوات اليونانية والإيطالية جنودها على سواحل إيجة والأناضول.

جلس السلطان محمد السادس (وحيد الدين) عاجزاً في قصره، وقد تقلص سلطانه إلى مراسم شكلية ومؤامرات البلاط. لكن بين أنقاض الإمبراطورية كانت إرادة جديدة تتشكل.

ففي الأناضول، بدأ جيل من الضباط الوطنيين — من قدامى محاربي جاليبولي والجبهات العربية — بتنظيم حركة مقاومة ستتحول قريباً إلى الجمهورية التركية. (Zürcher 2017; Mango 1999)

وهكذا انتهى العالم العثماني، لكن ذاكرته — ذاكرة الوحدة والشرعية والحضارة — ظلت تطارد كل حدودٍ جديدة رُسمت بعده.

## مؤتمر باريس للسلام والنظام الاستعماري الجديد

في عام 1919، اجتمع الحلفاء المنتصرون في مؤتمر باريس للسلام لرسم معالم العالم ما بعد الحرب.

وبينما كان الخطاب العلني يتغنّى بالديمقراطية وتقرير المصير، تمحورت المناقشات الفعلية حول الشرق الأوسط على الإدارة والسيطرة وضمن المصالح. (Nevakivi 1969; Hurewitz 1979)



أنشأت عصبة الأمم، التي وُلدت لضمان السلام، نظامًا جديدًا هو نظام الانتداب، قدّم نفسه كـ“وصاية أخلاقية على الشعوب غير المتقدمة”. فقد نصّت المادة 22 من ميثاق العصبة على أن الأراضي العثمانية السابقة سُدّار من قِبل “الأمم المتقدمة” حتى تُصبح شعوبها “قادرة على حكم نفسها”. (Hurewitz 1979; Rogan 2015)

لكن التطبيق كشف عن تراتبية جديدة من التبعية:

- تولّت بريطانيا وفرنسا دور “أوصياء الحضارة”؛
  - واعتُبرت المجتمعات العربية “قُصراً سياسيين” في انتظار النضج؛
  - وأصبحت العصبة نفسها غطاءً قانونيًا للاحتلال المقّنع.
- (Cleveland & Bunton 2016)

تحوّل الشرق الأوسط بذلك إلى مختبرٍ للإمبريالية الحديثة — تُمارَس فيه السيطرة لا عبر السيف، بل عبر خطاب القانون والوصاية. كان الانتقال من الإمبراطورية إلى الانتداب تحولًا من الهيمنة العلنية إلى الخضوع المُدار، ومن الاحتلال بالسلاح إلى الحكم بالأيديولوجيا — أول تجربة عالمية في الحكم عبر الفكرة بدل القوة.

## TREATY OF SÈVRES

*August 10, 1920*

**ARTICLE 27** The frontiers of Turkey [...] are laid down as follows...

**ARTICLE 36** Turkey hereby recognizes Armenia as a free and independent State.

**ARTICLE 94** Syria is recognized as an independent State [and provisions for its administration]

**ARTICLE 132** His Britannic Majesty has undertaken to accept the charge of carrying into effect a scheme of safeguards for the Armenians

## تقسيم الأراضي العربية

بحلول عام 1920، كانت الاتفاقات السرية التي أبرمت خلال الحرب قد تحولت إلى جغرافيا سياسية جديدة. فقد أضفى نظام الانتداب التابع لعصبة الأمم الطابع الرسمي على تقسيم الأقاليم العربية التي كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، مكرّسًا بذلك الوعود والخيارات السابقة ضمن إطار دولي من السيطرة. (Fromkin 1989; Rogan 2015)

### توزيع الانتدابات وفق قرارات العصبة

- سوريا ولبنان:  
وُضعت تحت الانتداب الفرنسي، مستندين إلى ادعاء فرنسا امتلاك روابط تاريخية ودينية مع المشرق، وخاصة حمايتها للطائفة المارونية وطموحاتها الاستعمارية في شرق المتوسط. (Hurewitz 1979; Nevakivi 1969)
- العراق (بلاد الرافدين)، فلسطين، وشرق الأردن:  
أصبحت انتدابات بريطانية، مما منح بريطانيا سيطرة استراتيجية على الطريق الواصل بين المتوسط والخليج العربي — شريان مواصلاتها الإمبراطورية ومصدر أمنها النفطي المتزايد الأهمية. (Cleveland & Bunton 2016; Owen 1992)
- الجزيرة العربية:  
رغم كونها مستقلة شكليًا تحت حكم الأسر المحلية، فإنها ظلت مرتبطة بعمق بالدبلوماسية البريطانية وبنظام الإعانات السنوية، إذ كان بقاء حكّامها مرهونًا برعاية لندن واعترافها. (Rogan 2015; Kostiner 1993)

### مملكة الحجاز المؤقتة وصعود ابن سعود

برز الحجاز، بقيادة الشريف حسين بن علي، كمملكة عربية مستقلة — رمزًا لتحالفه مع بريطانيا أثناء الحرب. لكن غياب الوحدة والموارد سرعان ما أدى إلى سقوطها أمام عبد العزيز بن سعود، الذي وحد وسط الجزيرة وشرقها، لينشئ المملكة العربية السعودية عام 1932. (Vassiliev 2013; al-Rasheed 2010)

## حدود تفصل ولا تصل

كل خطٍ جديد رُسم على خريطة الشرق الأوسط كان تسويةً بين الجغرافيا والأيديولوجيا — خطوطاً صُممت للتقسيم لا للربط، ولإدارة لا للتكامل.

(Fromkin 1989; Hourani 1991)

فما كان يوماً نسيجاً متصلًا من الحضارة الإسلامية تحوّل إلى دولٍ تابعةٍ ومحمياتٍ سياسية.

لم تعد السيادة ذاتية، بل مشروطة: تُمنح ضمن انتدابٍ، وتُقيد بالمعاهدات، وتُدار من خلال الدبلوماسية الأجنبية.

## خاتمة: ولادة الجغرافيا الإمبراطورية

أكمل تقسيم الأراضي العربية التحول الذي بدأت به الحرب: تحويل الشرق الأوسط من مجتمعٍ حضاريٍّ موحدٍ إلى بناءٍ جيوسياسيٍّ صاغته الإمبراطوريات.

فلم يعد الشرق مركزًا للحضارة، بل خريطةً للمصالح، تُدار بحدودٍ خُطت في العواصم الغربية وما زالت ترسم ملامح تاريخه حتى اليوم.



## معاهدة سيفر (1920): التفكيك القانوني للإمبراطورية

كانت الضربة القاضية للسيادة العثمانية هي معاهدة سيفر، التي وُقعت في 10 أغسطس 1920 بين حكومة الدولة العثمانية المنهزمة وقوى الحلفاء. فقد أنهت فعلياً الإمبراطورية التي وُحدت الشرق الأوسط قرونًا طويلة تحت نظامٍ سياسيٍّ وروحيٍّ واحد (Fromkin 1989; Rogan 2015).

بموجب المعاهدة، تقلّصت الدولة العثمانية إلى نواةٍ أناضوليةٍ ضيقة، بينما فُصلت عنها نهائياً ولاياتها العربية والبلقانية وشمال أفريقيا. كما نصّت المعاهدة على إنشاء دولةٍ أرمنيةٍ مستقلة، ومنح الأكراد حكمًا ذاتيًا، ووضع مضيقي البوسفور والدردنيل تحت إدارةٍ دولية. (Zürcher 2017; Hurewitz 1979)

حصلت اليونان على إزمير (سميرنا) وأجزاءٍ من تراقيا، بينما تقاسمت إيطاليا وفرنسا مناطق النفوذ في جنوب وجنوب شرق الأناضول. وللمرة الأولى منذ القرن الخامس عشر، لم يعد للخلافة العثمانية أي سلطةٍ حقيقيةٍ خارج عاصمتها (McMeekin 2010; Mango 1999).

أثارت إهانة سيفر ردّ فعلٍ وطنيٍّ عارمٍ تمثّل في حرب الاستقلال التركية (1919-1923) بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك).

وبفضل الانضباط العسكري والحنكة الدبلوماسية، تمكّنت الحركة الكمالية من رفض المعاهدة المفروضة واستبدالها بمعاهدة لوزان (1923)، التي ألغت السلطنة وأعلنت قيام الجمهورية التركية. (Zürcher 2017; Mango 1999)

ومع أن هذا النصر أنهى الخضوع في الأناضول، فإنه لم يمتد إلى البلاد العربية، التي ظلت مقسّمة تحت الانتدابين البريطاني والفرنسي. لقد أصبحت تلك التقسيمات بنيةً دائمةً في النظام الإقليمي الجديد، وأحد الملامح الثابتة للجغرافيا الإمبراطورية الحديثة في الشرق الأوسط. (Rogan 2015; Cleveland & Bunton 2016)

## الاستجابة العربية: ثورة وخيبة أمل

أشعلت خيانة الوعود الحربية وفرض نظام الانتداب موجاتٍ من المقاومة والسخط في العالم العربي، امتزج فيها التمرد بخيبة الأمل وبالوعي الوطني الجديد. (Fromkin 1989; Rogan 2015)

• **في سوريا:**

أعلن الوطنيون عام 1920 قيام المملكة العربية المستقلة تحت حكم الملك فيصل بن الحسين، على أمل تأسيس دولة عربية موحدة مستلهمة من مبادئ الثورة العربية.

لكن الحلم لم يدم طويلاً— إذ اجتاحت القوات الفرنسية البلاد بذريعة تنفيذ انتداب العصبة، وقضت على الدولة الوليدة في معركة ميسلون (يوليو 1920). نُفي فيصل، وتبددت آمال الوحدة العربية قبل أن تكتمل. (Gelvin 2011; Hurewitz 1979)

• **في العراق:**

اندلعت في العام نفسه ثورة كبرى ضد الحكم البريطاني المباشر. شاركت فيها القبائل ورجال الدين والمتقنون على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم، في تحالف غير مسبوق للمطالبة بالاستقلال. ورغم قمعها بشدة، أجبرت الثورة بريطانيا على تعديل سياستها، فأنشأت المملكة العراقية عام 1921 تحت حكم الملك فيصل الأول، بمظهر استقلالٍ شكلي، لكنه مرتبطٌ بمعاهداتٍ وقواعد عسكرية تحفظ النفوذ البريطاني. (Tripp 2007; Owen 1992)

• **في فلسطين:**

تصاعدت الاحتجاجات ضد وعد بلفور وسياسات الهجرة البريطانية، وبدأت تتشكل حركة وطنية عربية منظمة، ستصبح القوة السياسية الرئيسية خلال فترة ما بين الحربين. (Khalidi 1997; Cleveland & Bunton 2016)

عبر أنحاء المنطقة، تحوّلت المثل العليا للثورة العربية الكبرى — الوحدة والكرامة وتقرير المصير— إلى صراعٍ ضد النظام الاستعماري الجديد. انتهت الحرب من أجل الاستقلال، لكن المعركة الطويلة من أجل السيادة كانت قد بدأت للتو. (Hourani)



Allied leaders at the Paris Peace Conference, 1919



Nationalist demonstrations in Damascus and Baghdad

### تأمل فلسفي: نهاية العصر الإمبراطوري

لم يكن سقوط الدولة العثمانية مجرد انهيار سلالَةٍ حاكمة، بل كان تفكُّكاً لرؤيةٍ كاملةٍ للعالم. فقد مثَّلت الإمبراطورية، على مدى أكثر من ستة قرون، نظاماً سياسياً وأخلاقياً متكاملًا، ربط — وإن بغير كمال — الحكم بالإيمان، والقانون بالثقافة. (Hourani 1991; Rogan 2015)

كانت **الخلافة**، رغم طابعها الرمزي المتزايد في أواخر القرن التاسع عشر، تجسّد وحدةً معنويةً تتجاوز الجغرافيا. وقد شكّل إلغاؤها نهايةً أفقٍ أخلاقيٍّ مشتركٍ، وانقطاعاً في استمرارية الحضارة الإسلامية والشرقية. (Zürcher 2017; Cleveland & Bunton 2016)

النظام الذي نشأ بعد عام 1918 استند إلى مفاهيم غربية للدولة والسيادة الوطنية وتقرير المصير، مفاهيم تضع الحدود فوق الانتماء، والإدارة فوق الجماعة. (Fromkin 1989; Owen 1992)

كانت تلك الحدود المرسومة في العواصم الأوروبية تتجاهل تواصل اللغة والثقافة والتجارة الذي كان — عبر القرون — ينسج وحدة الشرق الأوسط الطبيعية.

أما **نظام الانتداب**، الذي قُدّم بصفته وصايةً تقدّمية، فقد استبدل نموذج الترابط الحضاري بنموذج جيوسياسيٍّ للهيمنة. (Hurewitz 1979; Thomas 2011)

لم يعد الشرق الأوسط فاعلاً في قدره، بل موضوعاً للإدارة في تراتبية عالمية جديدة من القوة.

هذا التحوّل أعاد صياغة كل النقاشات اللاحقة حول الهوية والشرعية والحدثة. لم تعد المسألة: “من يحكم؟” بل “بأي حقٍ يُحكم؟” لم تعد السيادة مستمدة من النظام الإلهي أو الإجماع المجتمعي، بل من الاعتراف الدولي. لقد بدأ بذلك أفقٌ أخلاقيٌّ جديد: عالمٌ تُحكم فيه المجتمعات بالقانون دون عدالة، وتُدار فيه الحدثة من دون حرية ذاتية. (Hourani 1991; Rogan 2015)

### الخاتمة — عالم أُعيد تشكيله

بحلول عام 1920، كان الشرق الأوسط قد أُعيد صوغه بالكامل — لا بأيدي أبنائه، بل بأقلام المنتصرين في حربٍ بعيدة. سقطت الإمبراطوريات الكبرى، لكن الإمبريالية نفسها بقيت، في أشكالٍ أكثر بيروقراطيةً وأقلّ صحباً. (Fromkin 1989; Rogan 2015)

إن الوحدة التي أُنعت الحضارة الإسلامية قرونًا طويلة تحوّلت إلى نظامٍ مُحكم من التجزئة، مُقنّن عبر الدبلوماسية والقانون الدولي.

أما الإرث العثماني، رغم عيوبه، فقد حافظ على قدرٍ من التماسك الحضاري —  
لغةً أخلاقيةً مشتركةً وشعورًا بالاستمرارية التاريخية.  
(Hourani 1991; McMeekin 2010)

لكن نظام الانتداب حطّم هذا التماسك، واستبدله بسياداتٍ مصطنعةٍ ومؤسساتٍ  
مفروضةٍ من الخارج.  
ومنذ تلك اللحظة، أصبحت تاريخ المنطقة محكومًا بتناقضٍ جوهري:  
بين ذاكرة الوحدة وواقع الانقسام،  
بين العوالم الأخلاقية الموروثة والبُنى السياسية المستوردة.  
(Cleveland & Bunton 2016; Rogan 2015)

لقد انتهى عصر الإمبراطوريات، لكن الحالة الإمبراطورية لم تنتهِ؛  
فهي لم تعد تكمن في الجيوش والخلفاء، بل في الحدود والمعاهدات،  
وفي السعي المستمر نحو سيادةٍ لم تُكتمل بعد.



## الفصل الرابع: الجبهات الموازية والمناطق الطرفية — الشرق الأوسط الأوسع أثناء الحرب العظمى وبعدها

### الملخص

يستعرض هذا الفصل التحولات التي شهدتها المناطق الخارجية من الشرق الأوسط — الجزيرة العربية، اليمن، فارس، القوقاز، وشمال إفريقيا — خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة (1914–1925) مؤكداً أن انهيار الإمبراطوريات لم يُنتج حرية، بل أعاد تشكيل السيطرة الإمبراطورية عبر آلياتٍ جديدة، مثل نظام الانتداب التابع لعصبة الأمم والتبعية الاقتصادية. فما وراء قلب الدولة العثمانية، تحولت هذه “الأطراف” إلى مختبراتٍ للسيادة الحديثة: أعاد اليمن تأكيد استقلاله الزيدي، وأعادت فارس بناء نفسها من خلال القومية العسكرية بقيادة رضا خان، بينما شهد شمال إفريقيا البدايات الأولى للحركات المناهضة للاستعمار.

يعيد هذا الفصل النظر في هذه المناطق بوصفها مراكز إبداعٍ سياسيٍ وحضاريٍّ في مرحلة ما بعد الإمبراطورية، حيث تفاعلت النماذج التقليدية والوطنية والدينية للشرعية في وقتٍ واحد.

وبذلك، يُظهر أن النظام السياسي الحديث في الشرق الأوسط تشكّل على هوامشه بقدر ما تشكّل في عواصمه الإمبراطورية، وأن الحرب العظمى كانت نقطة التحول الحقيقية بين عالم الإمبراطوريات وبزوغ الحداثة.

### 1. المقدمة: من الانهيار الإمبراطوري إلى التفكك الإقليمي

لم يجلب انتهاء الحرب العظمى في نوفمبر 1918 السلام إلى الشرق الأوسط، بل أطلق مرحلة جديدة من التحول العميق، إذ أدى انهيار الإمبراطورية العثمانية واستنزاف القوى الأوروبية إلى تفكك المشهد السياسي وانكشاف المنطقة أمام النفوذ الخارجي.

فما حدث بين عامي 1918 وبداية العشرينيات لم يكن استعداداً للاستقرار، بل كان إعادة ترتيبٍ للإمبراطورية — حيث استُبدلت الأطر القديمة بأشكالٍ جديدة من السيطرة الاستعمارية والوطنية. (Rogan 2015, 2–5; Fromkin 1989, 41)

لقد وقّر الحكم العثماني، على مدى أربعة قرون، نظامًا إداريًا مرئيًا ربط الأقاليم العربية بشبكة موحدة من اللغة والقانون والدين. أما تفككه فقد خلق فراغًا هائلًا في السلطة يمتد من البلقان إلى اليمن وسارعت القوى المنتصرة في الحرب — ولا سيما بريطانيا وفرنسا — إلى ملء هذا الفراغ، وقدمت غزوها بوصفه “تحريرًا” وإشرافًا حضاريًا تحت مظلة نظام الانتداب الذي أقرته عصبة الأمم. (Fromkin 1989, 243; Owen 2012, 25)

ومع ذلك، فقد كانت هناك مناطق خارج الحدود الرسمية للإمبراطورية العثمانية تُشكل مسارات مختلفة أثّرت في تطور الشرق الأوسط الأوسع. ففي الجزيرة العربية واليمن وفارس، لم يؤدِ انهيار الإمبراطوريات إلى انتداب أجنبي، بل إلى تجارب جديدة في السيادة والاستقلال. وفي القوقاز، خلق تفكك السلطتين الروسية والعثمانية جبهة متقلبة بين الثورة البلشفية والقومية التركية.

أما في شمال إفريقيا، فقد تعمق الوجود الأوروبي تحت شعار التحديث، مما أثار بواكير المقاومة الوطنية.

وقد شكّلت هذه الساحات الجانبية ما أطلق عليه المؤرخ يوجين روغن “الجبهات الأخرى” للحرب العظمى حيث اختُبر فيها مدى امتداد الإمبراطورية وتراجعها. (Rogan 2015, 212)

وهكذا لم تُنتج الحرب عالمًا “ما بعد عثماني” موحدًا، بل عالمًا مجزأً. فالأقاليم التي كانت متصلة عبر التجارة والحج والمؤسسات المشتركة أصبحت الآن مسرحًا لتصاميم استعمارية متنافسة ومطالب وطنية ناشئة. وقد برزت اليمن وفارس كحالتين مميزتين: فقد نجتا من الاحتلال الأوروبي المباشر، لكنهما واجهتا تحديات داخلية كبرى في سعيهما إلى صياغة الاستقلال في عالم لا يزال تحكمه قوى الإمبراطورية. (Dresch 2000, 38; Abrahamian 2008, 56)

تُظهر دراسة هذه المناطق الطرفية — الجزيرة العربية، واليمن، وفارس، والقوقاز، وشمال إفريقيا أن تاريخ الشرق الأوسط الحديث لم يُصنع فقط في دمشق أو بغداد أو القاهرة، بل أيضًا في جبال اليمن، وصحارى الجزيرة، وممرات النهضة الدستورية في فارس.

فعلى هوامش الإمبراطورية تشكّلت الأفكار الأولى عن الشرعية والسيادة والإصلاح، وكانت تلك الأطراف مسرح ولادة العالم الحديث الذي ورث الإمبراطوريات.



Illustration 4.11 The Wider Middle East, 1914–1925 : From Empire to Fragmentation

*Showing post-Ottoman zones of occupation, British and French mandates, and independent regions such as Yemen and Persia.]*

## 2. الجبهات الطرفية في الحرب العظمى

رغم أن الحرب العالمية الأولى تُصوّر غالبًا كصراعٍ أوروبي، فإن الشرق الأوسط كان أحد أكثر ميادينها ديناميكيةً وحسماً.

فالحملات العثمانية في جاليبولي، وبلاد الرافدين، وفلسطين لم تكن سوى جزءٍ من شبكةٍ أوسع من المعارك امتدت إلى الجزيرة العربية، واليمن، وفارس، والقوقاز. وقد كانت هذه الجبهات الموصوفة بـ “الطرفية” عوامل حاسمةً في تحديد نتائج الحرب في الشرق،

كما أسهمت في رسم الجغرافيا السياسية الجديدة التي تبلورت بعدها.

(Rogan 2015, 87–92; McMeekin 2015, 41)

دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا في أواخر عام 1914، فوجدت نفسها تواجه غزواتٍ متزامنةً من اتجاهاتٍ متعددة: قوات بريطانية تتقدم من مصر عبر سيناء وفلسطين، ووحدات أنجلو-هندية تتوغل عبر دجلة والفرات انطلاقاً من البصرة،

وجيوشٌ روسيةٌ تتحدر نحو الأناضول الشرقي والقوقاز. تحولت الحدود العثمانية الواسعة إلى مسرحٍ لتشابك الطموحات الإمبراطورية والانتفاضات المحلية.

لكن ما وراء هذه الجبهات التقليدية، اندلعت صراعاتٌ أقل ظهورًا عبر الأطراف الجنوبية والشرقية للإمبراطورية.

ففي الجزيرة العربية، دعم العملاء البريطانيون التمرد بين القبائل الساخطة والزعماء الهاشميين، ما أدى إلى الثورة العربية الكبرى عام 1916، التي اكتسبت شهرةً كبيرة لكنها حققت مكاسب محدودة.

وفي اليمن، خاضت الحاميات العثمانية حرب استنزافٍ طويلة ضد قوات الإمام يحيى حميد الدين الزيدية.

أما على الحدود الفارسية، فقد احتلت القوات البريطانية والروسية أجزاءً واسعة من البلاد رغم حيادها الرسمي، فيما سعت القيادة الألمانية إلى تأجيج انتفاضاتٍ معادية للحلفاء بين القبائل والإصلاحيين المحليين.

(Fromkin 1989, 122–25; Abrahamian 2008, 54–56)

لم تكن جبهات الحرب الطرفية هامشيةً في الاستراتيجية الإمبراطورية، بل كانت مختبراتٍ للتحول السياسي.

استغلّ الفاعلون المحليون انهيار السلطة الإمبراطورية لتنفيذ رؤاهم الخاصة للنظام والشرعية.

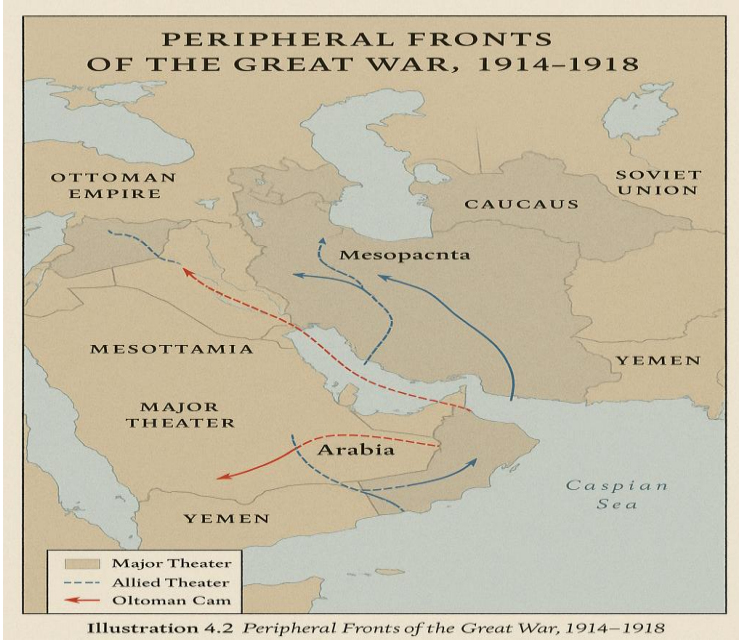
في فارس، جمعت حركة الجنجاليين في جيلان بين الإصلاح الإسلامي والقومية المناهضة للاستعمار؛

وفي الجزيرة العربية، تنافس ابن سعود والشريف حسين على زعامة العالم العربي.

أما مرتفعات اليمن، التي قاومت التغلغل العثماني طيلة قرون، فأصبحت نواةً لإحياء الإمامة الزيدية.

وفي القوقاز، حيث تصارعت الجيوش العثمانية والروسية مرارًا، نجحت الحركات القومية في أرمينيا وجورجيا وأذربيجان لفترةٍ وجيزة في انتزاع السيطرة وسط فوضى الثورة. (Reynolds 2011, 213–17)

بحلول عام 1918، أصبح الشرق الأوسط فسيفساء من الحروب غير المنتهية. ترك الانسحاب العثماني وراءه فراغاتٍ سياسية ومناطق بلا إدارةٍ مركزية، تسابق إليها القوى الأوروبية والنخب المحلية لفرض نفوذها. لم يكن تفكك المنطقة نتيجةً لما بعد الحرب، بل كان نتاجًا مباشرًا للامتداد العالمي للحرب العظمى. وكما لاحظ المؤرخ شون مكميكن، فقد أصبح الشرق الأوسط، "جائزَةً وضحيةً في آنٍ واحدٍ للحرب الشاملة"، إذ جُنِّدت شعوبه لخدمة الأهداف الإمبراطورية، ثم أُجبرت بعد ذلك على إعادة تعريف مصيرها بجهودها الخاصة. (McMeekin 2015, 411)



*A map showing major and minor theaters: Mesopotamia, Arabia, Yemen, Persia, and the Caucasus, with routes of Allied and Ottoman campaigns.]*

### 3. الجزيرة العربية وساحل البحر الأحمر — بين الثورة وإعادة التشكيل

لم تكن شبه الجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى كيانًا سياسيًا موحدًا، بل كانت فسيفساء من الولاعات القبلية والمنافسات المحلية والتحالفات المتبدلة.

رأها الاستراتيجيون البريطانيون منطقةً للنفوذ والاختراق، وسبيلًا لإضعاف الدولة العثمانية وضمان السيطرة على البحر الأحمر والخليج العربي. أما العثمانيون، فقد اعتبروها جبهة الإيمان والشرعية، حيث يجب الدفاع عن سلطة الخلافة مهما كان الثمن.

وفي هذا المشهد المتنازع عليه، كانت الثورة العربية الكبرى (1916) رمزًا مزدوجًا —تحررًا قوميًا في الظاهر وأداةً إمبراطورية في المضمون. (Rogan 2015, 169–71; Fromkin 1989, 185–89)

### الثورة العربية والاستراتيجية البريطانية

عندما أعلن الشريف حسين بن علي، أمير مكة الهاشمي، الثورة ضد الحكم العثماني في يونيو 1916، سارعت بريطانيا إلى تصويرها كبداية لعصر الاستقلال العربي. لكن واقع الثورة كان محدودًا جغرافيًا، إذ اقتصر نشاطها العسكري في الغالب على منطقة الحجاز والساحل الغربي.

اعتمدت نجاحاتها اعتمادًا كبيرًا على التمويل والتسليح والاستخبارات البريطانية، إلى جانب الدور التنظيمي الذي لعبه ضابط الارتباط البريطاني توماس إدوارد لورنس، الذي مجّد الثورة لاحقًا في تقاريره ومذكراته، متجاوزًا حجمها العسكري الفعلي. (Lawrence 1935, 118–23; Kedourie 1956, 103–5)

كان الهدف الاستراتيجي للثورة مزدوجًا: تشتيت القوات العثمانية عن جبهة سيناء-فلسطين، وضمان سيطرة بريطانيا على ساحل البحر الأحمر. نجحت القوات الهاشمية في السيطرة على مكة وجدة والمناطق المحيطة بالمدينة المنورة، لكن محاولاتها التوسعية شمالاً واجهت مقاومةً عنيفة من القبائل المحلية والحاميات العثمانية.

أما الانتصار الرمزي في العقبة (1917)، فقد فتح طريقًا نحو القيادة البريطانية في القاهرة، لكنه لم يُنتج وحدة عربية شاملة. (Fromkin 1989, 212)

في الوقت نفسه، كانت الدبلوماسية البريطانية تنسج وعودًا متناقضة. فمن خلال مراسلات حسين-مكماهون (1916–1915)، غذّت لندن الآمال باستقلال عربي بعد الحرب، في حين كانت تفاوض سرًا على اتفاقية سايكس-بيكو (1916) لتقسيم المشرق بين بريطانيا وفرنسا.

وجاءت وعد بلفور (1917) ليضيف تناقضًا ثالثًا، إذ تعهد بدعم وطن قومي لليهود في فلسطين، مما عقد المشهد الدبلوماسي وأربك الموقف العربي. (Hurewitz 1956, 33–35)

انتهى الأمر بـ الهاشميين في عزلة سياسية. فقد أصبح الأخوان عبد الله وفيصل حليفين لبريطانيا في شرق الأردن والعراق، بينما فقدت الأسرة قاعدتها الأصلية في الحجاز، التي سقطت لاحقًا في يد خصمهم النجدي عبد العزيز بن سعود.

### ابن سعود وصعود الدولة المركزية في الجزيرة

بعيدًا عن سواحل البحر الأحمر، وفي قلب الجزيرة، كان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، أمير الرياض وقائد الحركة الوهابية الإصلاحية، يؤسس بهدوء نواة دولة جديدة. حافظ على الحياد خلال معظم سنوات الحرب، لكنه استغل فوضاها لتوسيع نفوذه. وبمساعدة قوات الإخوان، تمكن من السيطرة على الأحساء عام 1913، ثم واصل توحيد المناطق الوسطى والشرقية تحت حكمه. (Kostiner 1993, 47–52)

تعارضت طموحاته مع طموحات الهاشميين؛ فبينما استمد الشريف حسين شرعيته من نسب النبي ومن الرعاية البريطانية، بنى ابن سعود مشروع عيته على العقيدة الوهابية الإصلاحية، التي دعت إلى تجديد التوحيد وتنقية الممارسات الدينية. وبعد الحرب، ومع زوال العثمانيين وانشغال البريطانيين بانتداباتهم، أطلق ابن سعود حملاته ضد الإمارات المنافسة. وبحلول عام 1925، كانت قواته قد سيطرت على مكة والمدينة، منهية الحكم الهاشمي في الحجاز وموحدة معظم الجزيرة العربية تحت سلطته. (Teitelbaum 2001, 112–15)

لم يكن هذا الانتصار إقليميًّا فحسب، بل كان إيذانًا بولادة نمط جديد من الدولة العربية: مركزية، أيديولوجية، ومستقلة عن السيطرة الأوروبية. وقد سارعت بريطانيا إلى الاعتراف به رسميًا، فعدت معه سلسلة من الاتفاقيات نظمت مناطق النفوذ، مع الحفاظ على مصالحها في الخليج. (Fromkin 1989, 317)

## ساحل البحر الأحمر والمسار اليمني المستقل

شكّل الممرّ البحري للبحر الأحمر، الممتد من الحجاز إلى اليمن، أحد أهم المحاور في الاستراتيجية البريطانية خلال الحرب وبعدها. فقد كانت عدن قاعدةً بحريةً مركزية تحمي طريق الهند وقناة السويس، بينما راقب الوكلاء البريطانيون الحركات السياسية على طول الساحل العربي. لكن اليمن الجنوبي والشمالي سلكا مسارًا مغايرًا كليًا، تميز بـ الاستقلال المحلي وبعث الشرعية الدينية التقليدية.

مع انهيار الحكم العثماني عام 1918، استعاد الإمام يحيى حميد الدين سلطته على المرتفعات الزيدية، مؤسسًا المملكة المتوكلية اليمنية. (Dresch 2000, 42–43)

وكانت دولته من القلة القليلة في العالم العربي التي خرجت من الحرب بسيادة حقيقية. اعترفت بريطانيا ضمناً بسلطته، خشية الاضطرابات قرب عدن، فعقدت معه هدناً واتفاقات حدودية، أبرزها اتفاقية تعز-الحديدة (1918–1919)، التي حدّدت حدوداً غير رسمية بين شمال اليمن وجنوبه. (Al-Bahri 2001, 88)

وهكذا، بينما كانت بقية الجزيرة تُعاد رسمها وفق الترتيبات البريطانية، أعاد اليمن تأسيس نفسه عبر شرعية محلية أصيلة، متجذرة في التقاليد الزيدية التي امتدت قرونًا. وكان بقاؤه المستقل شاهداً على أن الثقافات السياسية المحلية قادرة على الصمود أمام ضغوط الإمبراطوريات، حتى في زمن كانت فيه الخرائط تُعاد رسمها على مستوى العالم.





*Map showing zones of Ottoman withdrawal, routes of the Arab Revolt, British-controlled areas, and the expansion of Ibn Sa'ūd's domain.]*

#### 4. اليمن في مرحلة ما بعد الحرب — الاستقلال عبر الشرعية الدينية والتاريخية

من بين جميع المناطق التي أعادت الحرب العظمى تشكيلها، برز اليمن كاستثناء لافت — بلد لم يظهر كـ انتداب أوروبي أو حدٍ منهار، بل ككيانٍ مستقلٍّ متجذّرٍ في شرعيته الدينية والتاريخية الخاصة.

ففي حين قُسم معظم العالم العربي إلى مناطق خاضعة للإشراف الأجنبي، أعاد اليمن تأكيد سلطته الإسلامية المحلية، التي صمدت في وجه التوغّلين العثماني والبريطاني. (Dresch 2000, 38–43; Al-Bahri 2001, 91–94)

## من الانسحاب العثماني إلى استعادة الإمامة الزيدية

كانت الهيمنة العثمانية في اليمن هشة منذ بداياتها. فعلى الرغم من الحملات العسكرية المتكررة منذ القرن السادس عشر، لم تتجاوز سلطة إسطنبول المدن الساحلية الكبرى مثل الحديدة وتعز. أما مرتفعات شمال اليمن الوعرة، فقد بقيت تحت سيطرة الإمامة الزيدية، وهي نظامٌ ديني-سياسي يقوده أشراف من نسل النبي ﷺ ويحكمون بالتشاور بين القبائل والعلماء.

وقد عقد الإمام يحيى حميد الدين، ابن الإمام المتوكل محمد، تسويةً مع الولاة العثمانيين قبل الحرب، اعترف فيها بالسيادة الاسمية للسلطان مقابل الاستقلال الذاتي المحلي. (Dresch 2000, 39)

وفي الأشهر الأخيرة من الحرب عام 1918، استغل الإمام يحيى انسحاب القوات العثمانية شمالاً ليفرض سيطرته الكاملة على صنعاء والمرتفعات. وبذلك أعاد فعلياً تأسيس الإمامة المتوكلية كدولة ذات سيادة. وخلافاً للممالك التي نشأت بدعمٍ خارجي، كانت دولة اليمن بعد الحرب محلية خالصة — قائمة على الشرعية الدينية، والقانون التقليدي، والولاء القبلي. (Al-Bahri 2001, 88–91)

## الإمامة والحدود البريطانية

شكّلت عودة اليمن المستقلة تحدياً استراتيجياً لبريطانيا ومعضلة دبلوماسية في آنٍ واحد.

فقد كانت عدن، الخاضعة للسيطرة البريطانية منذ عام 1839، تشكّل قاعدةً محورية للاتصالات البحرية والإدارة الإمبراطورية عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي.

لكن المناطق الداخلية المحيطة بعدن كانت مجزأة سياسياً، تحكمها شبكة من المعاهدات مع سلاطين ومشايخ محليين. وقد رأت بريطانيا في توحيد الإمام يحيى للشمال تهديداً لتوازنها الهش في الجنوب.

اختارت لندن تجنب المواجهة وسلكت سياسة الاعتراف الضمني. فقد أقر اتفاق تعز-الحديدة (1918-1919) بسلطة الإمام شمال خط النفوذ البريطاني، مع بقاء عدن ومحيطها تحت السيطرة البريطانية. بهذا التفاهم العملي، انقسم اليمن فعليًا إلى مملكتين: زيدية شمالية مستقلة، وجنوبية تحت الحماية البريطانية. (Fromkin 1989, 297; Lackner 2017, 13)

لم تُرسم الحدود رسميًا، لكنها أصبحت من أكثر حدود الجزيرة استمرارية في التاريخ الحديث. واتسمت علاقة الإمام يحيى بالبريطانيين بـ التحفظ المتبادل. فقد رفض عقد اتفاقيات مباشرة مع القوى الأجنبية، مؤكدًا السيادة المطلقة لليمن، بينما فضّلت بريطانيا جازًا شماليًا مستقرًا على عودة النفوذ العثماني أو تمدد الهاشميين من الحجاز. (Teitelbaum 2001, 115-17)

### الحكم، الانعزال، والشرعية الدينية

كانت دولة الإمام يحيى محافظةً في بنيتها، براغماتيةً في إدارتها. استند نظامها إلى مذهب الزيدية، وهو فرعٌ من التشيع يختلف عن الاثني عشريين ومتجذرٌ بعمقٍ في ثقافة المرتفعات اليمنية.

جمع الإمام بين السلطة الروحية والسياسية، واستند في حكمه إلى مجلس من العلماء والقضاة وشيوخ القبائل. وقر هذا النموذج تماسكًا داخليًا قويًا، لكنه حدّ من فرص التحديث والانفتاح الخارجي. (Dresch 2000, 56)

كان انعزال اليمن في الوقت نفسه مصدر قوته وضعفه. فقد حماه من الوقوع تحت النفوذ الاستعماري، لكنه أعاق التنمية الاقتصادية والتقنية. وظل اليمن من الدول القليلة في العالم التي لم تمتلك بعثات دبلوماسية في أوروبا حتى أواخر العشرينيات.

ومع ذلك، لم يكن الانعزال تامةً. فقد حافظ الإمام يحيى على اتصالات محدودة مع الحكام المسلمين، مثل ابن سعود في الشمال والملك فؤاد في مصر،

في تبادلٍ للرسائل التي أكدت التضامن الإسلامي والاعتراف المتبادل. كما رفض محاولات بريطانيا وإيطاليا لفتح الموانئ اليمنية للتجارة الدولية تحت إشرافٍ أجنبي.

وبذلك مثل حكمه تحديًا هادئًا لعصر الانتداب، وتأكيدًا على أن السيادة لا تستلزم محاكاة النماذج الغربية للدولة. (Owen 2012, 84)

### موقع اليمن في النظام ما بعد الحرب

بحلول أوائل العشرينيات، برز اليمن كأحد الكيانات العربية القليلة المستقلة فعليًا، إلى جانب مملكة نجد النashنة والجمهورية التركية الحديثة. وأبرزت تجربته مفارقة الشرق الأوسط بعد الحرب: أن المناطق الأقل اختراقًا بالحادثة الاستعمارية كانت الأكثر قدرةً على استعادة استقلالها بعد انهيار الإمبراطوريات.

ظلَّ اليمن الإمام يحيى حذرًا، منغلَقًا، بطيء التغيير، لكنه قدّم نموذجًا للاستمرارية المحلية، يذكر بأن الحكم الإسلامي التقليدي قادرٌ على التكيف مع العصر دون وصاية خارجية.

وفي شرق أوسط أعادت القوى العظمى ترسيم حدوده وفرض انتدابات، جسّد اليمن مسارًا تاريخيًا مغايرًا: مسار البقاء والصمود، لا إعادة التكوين.



## ٥. فارس بين الإمبراطوريات — الجبهة المنسية

بينما حظي انهيار الدولة العثمانية باهتمام عالمي واسع، كانت فارس (إيران الحديثة) تمرّ بمحنة أكثر هدوءًا ولكن لا تقلّ دمارًا. فمع أنّها أعلنت الحياد رسميًا خلال الحرب الكبرى، إلا أنها تحوّلت إلى ساحة صراع بين القوى المتنافسة، وتعرّضت سيادتها للانتهاك عبر الاحتلال الأجنبي والفوضى الداخلية. بين عامي 1914 و1921، شهدت فارس مجاعة وغزوًا وثورة — سلسلة أحداث حوّلتها من مملكة قاجارية متداعية إلى دولة تسعى للتحديث تحت الحكم العسكري (أبراهاميان 2008، ص. 58-62؛ كاتوزيان 2009، ص. 227-231).

### دولة حيادية بالاسم فقط

كانت سلالة القاجار، الضعيفة بفعل عقود من الفساد والاعتماد المالي، تحكم فارس وهي منقسمة فعليًا إلى مناطق نفوذ أجنبي متنافسة. فقد قسّم الاتفاق الأنجلو-روسي لعام 1907 البلاد إلى ثلاث مناطق: منطقة روسية في الشمال، وأخرى بريطانية في الجنوب، وممر صغير محايد بينهما. هذا التقسيم جعل الحياد الحقيقي مستحيلًا عند اندلاع الحرب. دخلت القوات الروسية تبريز ومقاطعات بحر قزوين في وقت مبكر من النزاع، بينما تقدّمت القوات البريطانية الهندية شمالًا من الخليج الفارسي لحماية حقول النفط وخطوط النقل (كرونين 1997، ص. 46-51).

استغلّ الجيش العثماني حالة الفوضى فدخل غرب فارس عام 1915، واشتبك مع القوات الروسية والفارسية على السواء. وفي الوقت ذاته، حاول عملاء ألمان إثارة المشاعر المعادية لبريطانيا بين القبائل والدستوريين، واعدن بدعم استقلال فارس (فرومك 1989، ص. 192-194؛ مكميكن 2015، ص. 245). ونتج عن ذلك فسيفساء من الاحتلالات المتداخلة، والتحالفات المتبدّلة، والانتفاضات المحلية. وبحلول عام 1916، لم يعد نفوذ القاجار يتجاوز طهران فعليًا.

كان أثر الحرب الإنساني كارثيًا. فبسبب فشل المحاصيل والمصادرات وتعطّل التجارة، تقشّت مجاعة أودت بحياة ما يُقدّر بخمس سكان فارس بين عامي 1917 و1919 (كاتوزيان 2009، ص. 230). وقد وصفت تقارير معاصرة قرى مهجورة وجثثًا متناثرة على الطرق. ومع ذلك، نالت هذه الكارثة الإنسانية اهتمامًا ضئيلاً في السرد الغربي، إذ طغى عليها انهيار الجبهات الأوروبية (أبراهاميان 2008، ص. 61).

## تيارات ثورية وحركة "الجنغلين"

على الرغم من الدمار، شهدت فارس أيضًا إحياءً للوعي السياسي مستمدًا من الثورة الدستورية السابقة (1905-1911)، التي أسست برلمانًا وطرحَت فكرة الملكية المقيدة. وأعاد اضطراب الحرب إشعال هذه الطموحات الإصلاحية.

في مقاطعة جيلان الشمالية على ساحل بحر قزوين، قاد ميرزا كوجك خان حركة الجنغلين التي جمعت بين الإصلاح الإسلامي والنزعة القومية والمقاومة ضد الاستعمار. تلقت الحركة دعمًا مؤقتًا من عملاء ألمان ثم من البلاشفة، وأقامت إدارة ذاتية بين عامي 1916 و1920، أعلنت هدفها "تطهير الأمة من الحكم الأجنبي والطغيان الداخلي" (كرونين 1997، ص. 122). ولفترة وجيزة بين 1920 و1921، أعلن الجنغلون، بدعم من الاتحاد السوفيتي الوليد، الجمهورية الاشتراكية الفارسية في جيلان — تجربة قصيرة الأمد عكست التفاعل بين الأفكار الثورية العالمية والتقاليد الإصلاحية المحلية (أبراهاميان 2008، ص. 65-67).

وعلى الرغم من سحق الانتفاضة لاحقًا على يد القوات الحكومية، فقد أظهرت حركة الجنغلين أن أطراف فارس قادرة على إنتاج أيديولوجيات وطنية حديثة تتحدى الهيمنة الإمبراطورية والانحطاط الأسري في آن واحد.

## صعود رضا خان وإعادة بناء الدولة

في فبراير 1921، قاد رضا خان، أحد قادة لواء القوزاق، انقلابًا عسكريًا أنهى فعليًا حكم القاجار. وبدعم بريطاني، ولكن بدوافع قومية مستقلة، استولى على طهران وتولى وزارة الحرب ثم رئاسة الوزراء. مثل صعوده نموذجا جديدا للقيادة بعد الإمبراطوريات في الشرق الأوسط: قيادة عسكرية مركزية تسعى إلى التحديث (أنصاري 2003، ص. 52-58).

تركزت إصلاحاته الأولى على توحيد الجيش، واستعادة السيطرة المالية، وتقليص استقلال القبائل. وسعى إلى استعادة السيادة الفارسية عبر إعادة التفاوض بشأن الاتفاقيات الأجنبية أو رفضها، بما في ذلك الاتفاق الانجلو-فارسي لعام 1919 الذي كان يهدف إلى ترسيخ النفوذ البريطاني في الإدارة الفارسية. وبحلول عام 1925، أُطيح رسميًا بسلالة القاجار، وتوج رضا خان ملكًا باسم رضا شاه بهلوي، مؤسس السلالة البهلوية (كرونين 1997، ص. 187-189).

تحت حكمه، شرعت فارس في برنامج طموح لبناء الدولة والتحديث — شمل إنشاء السكك الحديدية، وإصلاح التعليم، وعلمنة النظام القضائي. ومع ذلك، كان هذا التحديث مزدوج الوجه: فقد استعاد السيادة، لكنه اعتمد أيضاً أدوات الإدارة والخطاب الإمبراطوري ذاته.

سعى رضا شاه إلى إحياء أمجاد إيران القديمة، مقدّمًا الدولة بوصفها وريثة الحضارة ما قبل الإسلامية، لا تابعة للقوى الغربية (كاتوزيان 2009، ص. 252).

### بين الإمبراطورية والاستقلال

تشبه تجربة فارس خلال الحرب الكبرى وما بعدها تجربة اليمن في جانب جوهري واحد: سعي كلاهما إلى استعادة الاستقلال عبر شرعية محلية لا عبر رعاية أجنبية. لكن مساريهما اختلفا بوضوح: فالإمام يحيى في اليمن اختار الانعزال، محافظاً على الاستقلال عبر السلطة الدينية والانطواء، بينما اتجه رضا خان نحو الانفتاح، متبنياً التحديث كدرع ضد الهيمنة الأجنبية.

وفي المشهد الأوسع للشرق الأوسط، أظهرت نجاة فارس من التفكك أن انهيار الإمبراطوريات لا يعني بالضرورة التبعية، لكنها كشفت أيضاً ثمن الاستقلال: عسكرة الدولة، وتركيز السلطة، وقمع التعددية. وفي تعبير المؤرخ إيرفاند أبراهاميان:

"دخلت إيران العصر الحديث لا عبر الثورة، بل عبر حرب جيشها ذاته" (أبراهاميان 2008، ص. 67).



*Map showing the Anglo-Russian spheres of influence, main routes of foreign occupation, and key centers of the Jangali Movement.]*

## 6. انهيار الإمبراطوريتين العثمانية والروسية وآثاره في القوقاز

أدى انهيار كلٍّ من الإمبراطوريتين العثمانية والروسية أثناء الحرب الكبرى إلى سلسلة من التفاعلات المتسلسلة في منطقة القوقاز، مما جعلها واحدة من أكثر الجبهات اضطرابًا في مطلع القرن العشرين.

فبين عامي 1917 و1921، تحوّلت القوقاز إلى ملتقى أيديولوجيات متنافسة — القومية، والشيوعية، والبن-تركزم (الوحدة التركية) — وإلى ميدان اختبار للحدود الجديدة التي ستشكّل ملامح الشرق الأوسط وآسيا الوسطى بعد الحرب (رينولدز 2011، ص. 197-203؛ زورخر 2010، ص. 118-123).

## من انهيار الإمبراطورية إلى الجمهوريات العرقية

أنهت الثورة الروسية عام 1917 فجأة الإدارة القيصريّة في القوقاز، تاركة فراغًا سياسيًا في أرمينيا وجورجيا وأذربيجان. وفي عام 1918، شكّل القادة الإقليميون اتحاد ما وراء القوقاز، في محاولة طموحة لتوحيد الدول الثلاث تحت حكومة واحدة. غير أنّ الانقسامات العرقية والدينية والجيوسياسية سرعان ما مزّقته (سوني 1993، ص. 64-66).

وفي ربيع عام 1918، أعلنت كل مجموعة استقلالها:

- جمهورية جورجيا الديمقراطية اتجهت نحو أوروبا الغربية، متبينة إصلاحات ليبرالية وساعية إلى اعتراف بريطاني.
- جمهورية أذربيجان الديمقراطية، التي اتخذت من باكو عاصمة لها، أصبحت أول دولة مسلمة علمانية في التاريخ، أعلنت استقلالها في 28 مايو 1918، وأدخلت مبدأ الاقتراع العام ونظام الحكم البرلماني (سويتوخوسكي 1995، ص. 32-34).
- أما جمهورية أرمينيا، التي خرجت من أهوال الإبادة والحرب، فسعت إلى الأمان من خلال التحالف مع القوى الغربية وبقايا الجيش الروسي (هوفانيسيان 1971، ص. 27-29).



كانت هذه الجمهوريات الهشة رهينة صراعات القوى الكبرى. فالإمبراطورية العثمانية، رغم أنها كانت على وشك الانهيار، شنت في عام 1918 حملة متأخرة لاستعادة أجزاء من شرقي الأناضول وبسط نفوذها على القوقاز تحت شعار حماية الشعوب التركية والمسلمة.

قاد نوري باشا (شقيق أنور باشا) ما عُرف بـ "جيش الإسلام"، وتمكن من احتلال باكو في سبتمبر 1918 قبل انسحابه بعد هدنة مودروس (مكمين 2015، ص. 384-386).

### التدخلات البريطانية والسوفيتية

خلف الانسحاب العثماني فراغًا سارعت بريطانيا إلى ملئه. فبدافع الخوف من التمدد البلشفي والسيطرة على نفط بحر قزوين، احتلت قوات بريطانية بقيادة الجنرال ليونيل دانستر فيل باكو وأجزاء من ما وراء القوقاز بين أواخر 1918 و 1920. كانت مهمتهم، المعروفة باسم "قوة دانستر (Dunsterforce)"، تهدف إلى احتواء الحركات الثورية وتأمين منطقة عازلة تحمي فارس وبلاد الرافدين (فرومك 1989، ص. 312؛ رينولدز 2011، ص. 214).

في الوقت ذاته، سعى النظام السوفيتي الجديد إلى إعادة بسط النفوذ الروسي في المنطقة تحت شعار الأممية البروليتارية.

ففي أبريل 1920، غزا الجيش الأحمر أذربيجان، ثم أرمينيا في ديسمبر، وجورجيا في مطلع 1921.

وبموجب معاهدة قارص (1921)، رسم الاتحاد السوفيتي والجمهورية التركية الناشئة الحدود الجديدة: احتفظت تركيا بمقاطعتي قارص وأردهان، بينما رسّخ السوفييت سيطرتهم على ما وراء القوقاز (زورخر 2010، ص. 137-139).

أعادت هذه التحولات رسم الخريطة الجيوسياسية للشرق الأوسط بأسره. فأصبحت القوقاز منطقة عازلة بين روسيا الثورية والشرق الأدنى الاستعماري — جبهة استقرت لا بالسلام، بل بالإرهاق المتبادل.

## تركيا الكمالية والتحالف السوفيتي

كان لاضطراب القوقاز أثر مباشر في نشوء تركيا الحديثة. فمعاهدة سيفر (1920)، التي سعت إلى تفكيك الدولة العثمانية، أثارت ثورة وطنية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك.

رفض كمال خضوع السلطان لشروط الحلفاء، وأقام حكومة مؤقتة في أنقرة، وحرّك مقاومة شاملة ضد الاحتلال الغربي والانفصال الداخلي (لويس 2002، ص. 226-229).

وإزاء العزلة الدولية، سعى كمال إلى الاعتراف الدبلوماسي من الاتحاد السوفيتي. فوجد النظامان الثوريان — تركيا الكمالية وروسيا البلشفية — قضية مشتركة في رفض الإمبريالية.

وقد أبرمت معاهدة موسكو (1921)، تلتها معاهدة قارص، لتؤسسا تحالفًا براغماتيًا: اعترف السوفييت بسلامة الأراضي التركية، بينما تخلّت تركيا عن مطالبها في القوقاز. أمّنت هذه الشراكة لأنقرة إمدادات عسكرية حيوية وحدودًا شرقية مستقرة، مما مكّن كمال من التركيز على هزيمة القوات اليونانية والحليفة في غربي الأناضول (زورخر 2010، ص. 140؛ مكين 2015، ص. 402-405).

### القوقاز: جبهة وحدود ومفترق طرق

بحلول عام 1922، كانت القوقاز قد تحوّلت من ساحة صراع بين الإمبراطوريات إلى منطقة حدودية للأيديولوجيات.

فقد اندمجت جمهوريات أرمينيا وأذربيجان وجورجيا السوفيتية في جمهورية ما وراء القوقاز الاشتراكية الاتحادية، بينما ظهرت تركيا كدولة علمانية قومية. أما النسيج العرقي والديني المعقّد للمنطقة — من الأرمن والأكراد والأذربيين والجورجيين والشركس — فقد أعيد تشكيله ضمن أطر قومية جديدة رسمتها موسكو وأنقرة.

وكان لهذه التحولات انعكاسات عميقة على فارس، إذ فرض وجود الجيش الأحمر قرب حدودها حذرًا مضاعفًا على سياستها الخارجية، ودفع رضا خان إلى الموازنة بين مشروعه التحديثي وبين الريبة السوفيتية والتوقعات البريطانية (أنصاري 2003، ص. 59). أما في السياق الأوسع للشرق الأوسط، فقد مثّل استقرار القوقاز نهاية

الحدود الإمبراطورية القديمة وبداية نظام جيوسياسي جديد سيستمر حتى الحرب الباردة.

وقد لخص المؤرخ مايكل رينولدز المشهد بقوله:

"كانت القوقاز بعد الحرب جسراً حطمتها الإمبراطورية وأعاد بناؤه الثوار" (رينولدز 2011، ص. 221).

إن إعادة بناء ذلك الجسر كانت رمزاً لاستمرار المصالح الاستراتيجية من جهة، ولتحول المشهد الأيديولوجي الذي ربط أوروبا بآسيا والشرق الأوسط من جهة أخرى.



Illustration 4.6 The Caucasus and Eastern Anatolia, 1917–1923  
*Map depicting the collapse of Ottoman and Russian authority, the Transcaucasian republics, Soviet reoccupation routes, and the boundaries defined by the Treaties of Moscow and Kars.].*

## 7. شمال أفريقيا والشرق العربي

بينما كانت ميادين الحرب الكبرى الرئيسية في أوروبا والشرق الأدنى، شكّلت شمال أفريقيا الجناح الغربي للتحوّل الواسع الذي اجتاحت الشرق الأوسط. لم يكن دور المنطقة في الحرب محدّدًا بساحات المعارك، بل بمساهماتها في اللوجستيات الإمبراطورية، وتوفير الجنود والعمال، واندلاع حركات المقاومة. شهدت مصر وليبيا والمغرب العربي الحرب كتجربة مزدوجة: تشديد للهيمنة الاستعمارية من جهة، وبقظة للوعي السياسي من جهة أخرى، وهي البقطة التي ستنتج لاحقًا لتصبح قومية منظمة (أوين 2012، ص. 121-125؛ مرسوت 1985، ص. 73-76).

### مصر: ثورة 1919 ونهاية وهم الحماية البريطانية

حين أعلنت بريطانيا مصر محمية بريطانية عام 1914، كانت تسعى إلى قطع ارتباطها الرمزي بالدولة العثمانية، وفي الوقت ذاته إلى ترسيخ سيطرتها على قناة السويس — الشريان الحيوي للإمبراطورية نحو الهند. أطاحت بلقب الخديوي عباس حلمي الثاني وعيّنت السلطان حسين كامل، لتصبح مصر تابعة رسمية لبريطانيا في لحظة عسكرية غير مسبقة.

خلال الحرب، تحوّلت مصر إلى القاعدة الأساسية لعمليات بريطانيا في الشرق الأدنى.

مرّ عبر موانئها ومعسكراتها أكثر من مليون جندي من قوات الحلفاء، وصودرت محاصيلها الزراعية لدعم المجهود الحربي، وجُنّد عشرات الآلاف في فيلق العمال المصريين الذين أرسلوا لحفر الخنادق وبناء الطرق من غاليبولي إلى فلسطين (مرسوت 1985، ص. 77؛ روغن 2015، ص. 278). أدى الغلاء ونقص الغذاء والرقابة الصارمة إلى تفاقم الغضب الشعبي.

وبعد الهدنة، رفضت بريطانيا السماح لوفد مصري بقيادة سعد زغلول وحزب الوفد بالمشاركة في مؤتمر الصلح بباريس، فاشتعلت ثورة 1919 التي جمعت بين الطلبة والعمال ومُلاك الأراضي، وأصابته البلاد بالشلل لأشهر. كانت تلك أول انتفاضة قومية جماهيرية في العالم العربي الحديث (جرشوني وجانكوفسكي 1987، ص. 43-47).

رغم قمع بريطانيا الوحشي للثورة، وقتل المئات ونفي زغلول، اضطرت إلى تقديم تنازلات سياسية: ففي عام 1922 أعلنت استقلال مصر شكليًا كـ "مملكة مستقلة".

لكن الاستقلال كان اسمياً فقط، إذ احتفظت لندن بالسيطرة على الدفاع والسياسة الخارجية ومنطقة القناة (فرومكن 1989، ص. 323). غير أن الثورة غيرت وجه الحياة السياسية المصرية، إذ جعلت القومية ركيزة دائمة للوعي العام والتنظيم السياسي.

### ليبيا: المقاومة السنوسية

في الغرب، خاضت ليبيا كفاحها الطويل ضد الاستعمار. فقد كانت ولاية عثمانية حتى غزوها من قبل إيطاليا في الحرب الإيطالية العثمانية (1911-1912)، لكن السيطرة الإيطالية لم تتجاوز المدن الساحلية. أما الداخل فظلّ تحت نفوذ الطريقة السنوسية، وهي حركة صوفية ذات شبكات قبلية ودينية واسعة تمتد عبر برقة والصحراء الكبرى (فانديقال 2012، ص. 14-18).

مع اندلاع الحرب الكبرى، لبّت السنوسية نداء الجهاد العثماني وشنت هجمات ضد المواقع البريطانية والإيطالية بين عامي 1915 و1916، بقيادة السيد أحمد الشريف السنوسي الذي نظم غارات على الحدود المصرية وهدد مواقع بريطانية قرب سلوم. ورغم قمع الانتفاضة بحلول 1917، استمرت المقاومة السنوسية، ثم أعيد تنظيمها بقيادة عمر المختار الذي سيقود حرب العصابات الأسطورية ضد إيطاليا الفاشية في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين (أندرسون 1986، ص. 97-101).

كانت ليبيا بالنسبة لإيطاليا رمزاً لطموحها الإمبراطوري، لكنها في الواقع كانت مستنقع مقاومة مستمرة.

أوقفت الحرب عملية استعمارها، ثم جاءت حملات إعادة الغزو الفاشية (1922-1931) لتخلف عشرات الآلاف من الضحايا المدنيين. غير أنّ المقاومة الصحراوية الليبية تحوّلت إلى رمز دائم للنضال ضد الاستعمار، رابطاً بين الجهاد المحلي والحركات الإسلامية والعربية القومية التي بدأت تبرز بين الحربيين (فانديقال 2012، ص. 24).

### المغرب العربي: ترسيخ الاستعمار وبواكير القومية

في تونس والجزائر والمغرب، عمّقت الحرب الكبرى قبضة فرنسا الاستعمارية، لكنها زرعت أيضاً بذور الوعي السياسي.

فقد جُنِّد عشرات الآلاف من المغاربة والجزائريين والتونسيين في الجيش الفرنسي، وقاتلوا في خنادق أوروبا من فردان إلى المارن (بنيل 2000، ص. 148-150). عاد كثيرون منهم بخيبة أمل مريرة بعد أن قدّموا التضحيات من أجل إمبراطورية رفضت منحهم المواطنة والمساواة.

في الجزائر، حيث كان المستوطنون الفرنسيون يهيمنون على الأرض والإدارة، أدّى التجنيد القسري والمشقة الاقتصادية إلى اضطرابات. وفي الوقت نفسه، اطلع جيل جديد من الجزائريين على الأفكار السياسية الأوروبية. سألهم تلك التجارب لاحقاً رموزاً قوميين مثل عبد القادر الحاج ومصالي الحاج، اللذين استندا في حركتهما في ثلاثينيات القرن إلى ذاكرة المشاركة في الحرب وخيانة الوعود (ستورا 2001، ص. 37-39).

أما في المغرب، فقد كانت المقاومة أشدّ وأقرب. قاد عبد الكريم الخطابي قبائل الريف في حرب عصابات طويلة ضد الإسبان والفرنسيين ابتداءً من عام 1921.

وشكّل ما عُرف بجمهورية الريف (1923-1926) نموذجاً مؤقتاً للسيادة الوطنية، منظمًا وفق أسس حديثة تضمّ وزارات وجيشًا واتصالات دبلوماسية مع العالم الإسلامي (بنيل 2000، ص. 161-165).

وقد كشف القضاء على هذه الجمهورية على يد تحالف فرنسي-إسباني عن استمرار القوة الاستعمارية، لكنه أكد أيضًا صلابة النزعة القومية المغربية.

### تيارات مشتركة على طول الطرف الغربي

في جميع أنحاء شمال أفريقيا، أظهرت فترة ما بعد الحرب مفارقة مشابهة لما حدث في الجزيرة العربية وفارس:

فالانتصار الأوروبي في الحرب لم يجلب التحرر، بل عمّق السيطرة الاستعمارية. كان نظام الانتداب في المشرق وتوطيد الاستعمار في المغرب وجهين لاستراتيجية إمبريالية واحدة — أحدهما قانوني الشكل، والآخر قسري التطبيق (أوين 2012، ص. 132). ومع ذلك، نشأ من تحت هذه الأنظمة وعي مشترك بالمقاومة. فالثورة المصرية، والحركة السنوسية، وجمهورية الريف، رغم اختلافها في الشكل، عبّرت جميعها عن رفض الوصاية الأوروبية وعن توق إلى السيادة الأصيلة. كانت هذه الحركات مرآة غربية للتحوّلات الشرقية التي شهدتها اليمن وفارس وتركيا.

لقد كانت الأطراف البعيدة من العالم الإسلامي تتعلم لغة الاستقلال قبل أن تعترف بها المراكز الإمبراطورية نفسها.



Illustration 4.7 North Africa during and after the Great War  
*Map showing British protectorates in Egypt, Italian occupation zones in Libya, French territories in Algeria and Tunisia, and the Rif Republic in northern Morocco (1923–1926).]*

## 8. ما بعد الحرب — الانتدابات والحمايات والجغرافيا السياسية الجديدة

بحلول عام 1920، دخل الشرق الأوسط ما وصفه المعاصرون بأنه "سلام بلا سلام". فقد صممت مدافع أوروبا، لكن في أرجاء العالم العربي والإسلامي بدأ طور جديد من الهيمنة الإمبراطورية.

لم تُستبدل الدولة العثمانية بالاستقلال، بل بنظام جديد من السيطرة، أُعيدت تسميته وتجميله تحت مظلة عصبة الأمم، وصيغ بلغة التمدين والوصاية (فرومك 1989، ص. 299–301؛ روغن 2015، ص. 312–316).

## عصبة الأمم وإعادة صياغة الإمبراطورية

في مؤتمر باريس للسلام (1919)، شرع البريطانيون والفرنسيون في إضفاء الشرعية على مخططاتهم الحربية عبر ما سُمّي بنظام الانتداب، الذي ادّعى أنه يهدف إلى "تهيئة" أراضي الإمبراطوريتين العثمانية والألمانية السابقة للحكم الذاتي. لكن في الواقع، كانت الانتدابات مستعمرات تحت غطاء قانوني دولي. وتمّ تثبيت تقسيم الشرق الأوسط من خلال تنفيذ اتفاقية سايكس-بيكو (1916) و وعد بلفور — (1917) وهما اتفاقان سريان رسماً الجغرافيا السياسية للقرن اللاحق (هوروفيتز 1956، ص. 49-52؛ كيدوري 1956، ص. 97-100).

بموجب هذا الترتيب الجديد، تولّت بريطانيا السيطرة على العراق وفلسطين، فيما استحوذت فرنسا على سوريا ولبنان.

وُصّفت هذه الانتدابات ضمن فئة "أ"، أي أن شعوبها "قريبة من الاستعداد للحكم الذاتي". لكن الواقع كان عكس ذلك: فقد خضعت هذه الدول لرقابة أوروبية صارمة على المستويات المالية والعسكرية والإدارية.

أما حديث عصبة الأمم عن "الأمانة المقدّسة"، فكان في جوهره استمراراً للإمبراطورية بلباس جديد (فرومك 1989، ص. 321).

### المشرق العربي الممزّق

في العراق، واجه البريطانيون مقاومة فورية. فقامت ثورة 1920 بقيادة شيوخ القبائل والعلماء، في لحظة نادرة من التضامن الوطني بين السنّة والشيعية ضد الحكم الأجنبي. وردّت بريطانيا بوحشية، مستخدمة القصف الجوي والعقوبات الجماعية. ولتهدئة الأوضاع، نصّبت لندن الملك فيصل بن الحسين —الذي كان الفرنسيون قد طردوه من سوريا — ملكاً على مملكة عراقية جديدة تحت الوصاية البريطانية (تريب 2000، ص. 21-23).

كان ذلك نموذجاً تكرّر في أنحاء المنطقة: سيادة شكلية تحت الوصاية الإمبراطورية.

وفي سوريا، سحق الفرنسيون المملكة العربية في دمشق بعد هزيمة جيش فيصل في معركة ميسلون (1920).



ثم قسم الانتداب الفرنسي البلاد إلى وحدات إدارية متعددة — دمشق، حلب، لبنان، والدولتين العلوية والدرزية — بهدف تفتيت الوحدة الوطنية المحتملة (روغن 2015، ص. 327-329).

ورغم القمع، انتشرت الجمعيات القومية السرية التي وضعت الأساس لحركات الاستقلال اللاحقة.

أما في فلسطين، فقد نفّذت بريطانيا وعد بلفور عملياً، ففتحت الباب أمام الهجرة اليهودية المنظمة تحت إشراف "اللجنة الصهيونية"، بينما همّشت العرب سياسياً واقتصادياً.

وأدّى ذلك إلى الانتفاضات الفلسطينية الأولى في عشرينيات القرن العشرين، التي مهدت لعقود طويلة من الصراع (فرومك 1989، ص. 331-334).

### هوامش مستقلة: اليمن وفارس والجزيرة العربية

في ظل هذا المشهد من الانتدابات الأوروبية، تمكّنت بعض الدول في هوامش الشرق الأوسط من الحفاظ على قدر من الاستقلال.

- في اليمن، حافظ الإمام يحيى حميد الدين على مملكته الزيدية بعيداً عن السيطرة الأجنبية.

وقد ضمنت عزلته الجغرافية ودبلوماسيته الحذرة استقلاله. أما البريطانيون في عدن، ففضّلوا إبقاء منطقة عازلة بدلاً من مواجهة مباشرة.

وهكذا ظلّ اليمن من البلدان العربية القليلة خارج نظام الانتداب (دريش 2000، ص. 63؛ البحري 2001، ص. 94). وفي فارس، أعاد رضا خان تأكيد السيادة الوطنية عبر التحديث العسكري والإصلاح الإداري بعد انقلابه عام 1921.

ويرفضه الاتفاق الأنجلو-فارسي وتوحيده مؤسسات الدولة، استعاد ما فقدته البلاد من استقلال منذ القرن التاسع عشر. وتحولها إلى ملكية بهلوية عام 1925 كان رمزاً لانتصار القومية الحديثة على التبعية الإمبراطورية (كرونين 1997، ص. 185-187؛ أبراهاميان 2008، ص. 67).

- أما في الجزيرة العربية، فقد أتمّ عبد العزيز بن سعود توحيد شبه الجزيرة، فاستولى على مكة والمدينة عام 1925 منهيًا حكم الهاشميين في الحجاز. أسس بذلك دولة جديدة سُمّيت لاحقًا المملكة العربية السعودية (1932)، جمعت بين الإحياء الديني والسياسة البراغماتية، وحافظت على الحياد بين بريطانيا ومنافسيها مع توطيد السيطرة على المدينتين المقدستين كوّنت هذه الكيانات المستقلة — اليمن وفارس والسعودية — مثلثًا من السيادة المحلية وسط محيط من الانتداب، مؤكدة أن الأطراف البعيدة للإمبراطورية استطاعت الحفاظ على استقلالها لأنها كانت خارج نطاق تحديثها الاستعماري.

### استمرارية الاستراتيجية خلف النظام الجديد

كان خطاب "التحرير" يخفي في طياته استمرارية منطق الإمبراطورية. امتدت شبكة القواعد الجوية وخطوط التلغراف وامتيازات النفط البريطانية من مصر إلى الهند، مشكلة ما وصفه المؤرخ روجر أوين بـ"ممر إمبراطوري موحد تحت إدارة جديدة" (أوين 2012، ص. 97). وسارت فرنسا على النهج ذاته في المشرق والمغرب، مدمجة اقتصاداتها المحلية في منظومتها الاستعمارية.

حتى في الدول المستقلة اسمًا، استمر النفوذ الإمبراطوري عبر الاعتماد الاقتصادي والمعاهدات العسكرية.

فقد كان المستشارون البريطانيون يديرون وزارات العراق، والضباط الفرنسيون يديرون جيش لبنان، وامتيازات النفط تربط فارس والخليج بالرأسمال الغربي. هكذا دشّن عهد الانتداب إمبريالية حديثة — أقل ظهورًا من الحكم المباشر لكنها لا تقلّ تغلغلًا (فرومك 1989، ص. 340؛ أوين 2012، ص. 102).

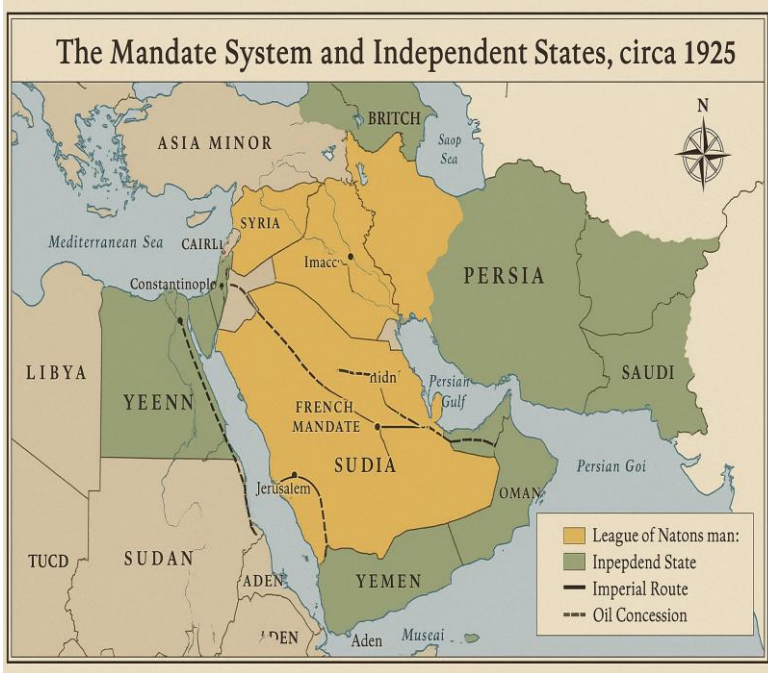
### مشهد متحوّل لكنه غير مستقر

في منتصف عشرينيات القرن العشرين، كانت خريطة الشرق الأوسط قد تغيّرت جذريًا. اختفت الخلافة العثمانية، وحلّت محلها ممالك وجمهريات وحمايات. وظهرت الدول الجديدة — سوريا والعراق وفلسطين وشرق الأردن واليمن وفارس وتركيا — لا كنتيجة ثورية واحدة، بل من خلال سلسلة مفاوضات متقطعة بين القوى الاستعمارية والنخب المحلية.

غير أن هذا النظام كان هشاً بطبيعته: حدوده اعتباطية، وشرعيته مشكوك فيها، واقتصاده تابع. لقد أنشأ نظام الانتداب دولاً بلا أمم، وحكومات بلا سيادة. وكما يقول فرومك:

"السلام الذي أنهى الحرب الكبرى في الشرق الأوسط كان سلاماً غير مكتمل — بُني على أوام السيطرة" (فرومك 1989، ص. 351).

ومع ذلك، وسط هذا التشرذم، كانت بذور وعي إقليمي جديد تتكون. فالفكر السياسي في عشرينيات القرن — سواء أكان قومياً أم إسلامياً أم اشتراكياً — وُلد من رحم تناقضات هذا النظام ما بعد الحربي. بل إن مفهوم "الشرق الأوسط" ذاته كمنطقة تاريخية واحدة — مترابطة رغم انقسامها — كان في جوهره نتاجاً للنظام الإمبراطوري الذي حاول تنظيمها والسيطرة عليها.



*Map showing League of Nations mandates (British and French), newly independent states (Yemen, Persia, Turkey, Saudi Arabia), and key imperial routes and oil concessions.]*

## ما بعد الحرب — الانتدابات والحمايات والجغرافيا السياسية الجديدة

بحلول عام 1920، دخل الشرق الأوسط ما وصفه المعاصرون بأنه "سلام بلا سلام". فقد صممت مدافع أوروبا، لكن في أرجاء العالم العربي والإسلامي بدأ طور جديد من الهيمنة الإمبراطورية.

لم تُستبدل الدولة العثمانية بالاستقلال، بل بنظام جديد من السيطرة، أُعيدت تسميته وتجميله تحت مظلة عصبة الأمم، وصيغ بلغة التمدين والوصاية (فرومك 1989، ص. 299-301؛ روغن 2015، ص. 312-316).

### عصبة الأمم وإعادة صياغة الإمبراطورية

في مؤتمر باريس للسلام (1919)، شرع البريطانيون والفرنسيون في إضفاء الشرعية على مخططاتهم الحربية عبر ما سُمي بنظام الانتداب، الذي ادّعى أنه يهدف إلى "تهيئة" أراضي الإمبراطوريتين العثمانية والألمانية السابقة للحكم الذاتي. لكن في الواقع، كانت الانتدابات مستعمرات تحت غطاء قانوني دولي. وتمّ تثبيت تقسيم الشرق الأوسط من خلال تنفيذ اتفاقية سايكس-بيكو (1916) ووعد بلفور — (1917) وهما اتفاقان سريان رسماً الجغرافيا السياسية للقرن اللاحق (هوروفيتز 1956، ص. 49-52؛ كيدوري 1956، ص. 97-100).

بموجب هذا الترتيب الجديد، تولّت بريطانيا السيطرة على العراق وفلسطين، فيما استحوذت فرنسا على سوريا ولبنان. وصنّفت هذه الانتدابات ضمن فئة "أ"، أي أن شعوبها "قريبة من الاستعداد للحكم الذاتي".

لكن الواقع كان عكس ذلك: فقد خضعت هذه الدول لرقابة أوروبية صارمة على المستويات المالية والعسكرية والإدارية. أما حديث عصبة الأمم عن "الأمانة المقدسة"، فكان في جوهره استمراراً للإمبراطورية بلباس جديد (فرومك 1989، ص. 321).

## المشرق العربي الممزّق

في العراق، واجه البريطانيون مقاومة فورية. فقامت ثورة 1920 بقيادة شيوخ القبائل والعلماء، في لحظة نادرة من التضامن الوطني

بين السنة والشعبة ضد الحكم الأجنبي.  
وردّت بريطانيا بوحشية، مستخدمة القصف الجوي والعقوبات الجماعية.  
ولتهدة الأوضاع، نصّبت لندن الملك فيصل بن الحسين —الذي كان الفرنسيون قد  
طرده من سوريا — ملكًا على مملكة عراقية جديدة تحت الوصاية البريطانية (تريب  
2000، ص. 21-23).  
كان ذلك نموذجًا تكرر في أنحاء المنطقة: سيادة شكلية تحت الوصاية الإمبراطورية.

وفي سوريا، سحق الفرنسيون المملكة العربية في دمشق بعد هزيمة جيش فيصل في  
معركة ميسلون (1920).  
ثم قسّم الانتداب الفرنسي البلاد إلى وحدات إدارية متعددة — دمشق، حلب، لبنان،  
والدولتين العلوية والدرزية — بهدف تفتيت الوحدة الوطنية المحتملة (روغن  
2015، ص. 327-329).  
ورغم القمع، انتشرت الجمعيات القومية السرية التي وضعت الأساس لحركات  
الاستقلال اللاحقة.

أما في فلسطين، فقد نفّذت بريطانيا وعد بلفور عمليًا، ففتحت الباب أمام الهجرة  
اليهودية المنظمة تحت إشراف "اللجنة الصهيونية"، بينما همّشت العرب سياسيًا  
واققتصاديًا.  
وأدّى ذلك إلى الانتفاضات الفلسطينية الأولى في عشرينيات القرن العشرين، التي  
مهّدت لعقود طويلة من الصراع (فرومك 1989، ص. 331-334).

## هوامش مستقلة: اليمن وفارس والجزيرة العربية

في ظل هذا المشهد من الانتدابات الأوروبية، تمكّنت بعض الدول في هوامش الشرق  
الأوسط من الحفاظ على قدر من الاستقلال.

- في اليمن، حافظ الإمام يحيى حميد الدين على مملكته الزيدية بعيدًا عن  
السيطرة الأجنبية.  
وقد ضمنت عزلته الجغرافية ودبلوماسيته الحذرة استقلاله.  
أما البريطانيون في عدن، ففضّلوا إبقاء منطقة عازلة بدلاً من مواجهة  
مباشرة.  
وهكذا ظلّ اليمن من البلدان العربية القليلة خارج نظام الانتداب (دريش  
2000، ص. 63؛ البحري 2001، ص. 94).

- وفي فارس، أعاد رضا خان تأكيد السيادة الوطنية عبر التحديث العسكري والإصلاح الإداري بعد انقلابه عام 1921. وبرفضه الاتفاق الأنجلو-فارسي وتوحيده مؤسسات الدولة، استعاد ما فقدته البلاد من استقلال منذ القرن التاسع عشر. وتحولها إلى ملكية بهلوية عام 1925 كان رمزًا لانتصار القومية الحديثة على التبعية الإمبراطورية (كرونين 1997، ص. 185-187؛ أبراهاميان 2008، ص. 67).
- أما في الجزيرة العربية، فقد أتم عبد العزيز بن سعود توحيد شبه الجزيرة، فاستولى على مكة والمدينة عام 1925 منهياً حكم الهاشميين في الحجاز. أسس بذلك دولة جديدة سُميت لاحقاً المملكة العربية السعودية (1932)، جمعت بين الإحياء الديني والسياسة البراغماتية، وحافظت على الحياد بين بريطانيا ومنافسيها مع توطيد السيطرة على المدينتين المقدستين (كروستينر 1993، ص. 79-84؛ تيتلباوم 2001، ص. 118-120).

كوّنت هذه الكيانات المستقلة — اليمن وفارس والسعودية — مثلثاً من السيادة المحلية وسط محيط من الانتدابات، مؤكدة أن الأطراف البعيدة للإمبراطورية استطاعت الحفاظ على استقلالها لأنها كانت خارج نطاق تحديثها الاستعماري.

### استمرارية الاستراتيجية خلف النظام الجديد

كان خطاب "التحرير" يخفي في طياته استمرارية منطق الإمبراطورية. امتدت شبكة القواعد الجوية وخطوط التلغراف وامتيازات النفط البريطانية من مصر إلى الهند، مشكلة ما وصفه المؤرخ روجر أوين بـ"ممر إمبراطوري موحد تحت إدارة جديدة" (أوين 2012، ص. 97). وسارت فرنسا على النهج ذاته في المشرق والمغرب، مدمجة اقتصاداتها المحلية في منظومتها الاستعمارية.

حتى في الدول المستقلة اسمًا، استمر النفوذ الإمبراطوري عبر الاعتماد الاقتصادي والمعاهدات. فقد كان المستشارون البريطانيون يديرون وزارات العراق، والضباط الفرنسيون يديرون جيش لبنان، وامتيازات النفط تربط فارس والخليج بالرأسمال الغربي. هكذا دشّن عهد الانتداب إمبريالية حديثة — أقل ظهورًا من الحكم المباشر لكنها لا تقلّ تغلغلًا (فرومك 1989، ص. 340؛ أوين 2012، ص. 102).

## مشهد متحوّل لكنه غير مستقر

في منتصف عشرينيات القرن العشرين، كانت خريطة الشرق الأوسط قد تغيّرت جذريًا.

اختفت الخلافة العثمانية، وحلّت محلها ممالك وجمهوريات وحمايات. وظهرت الدول الجديدة — سوريا والعراق وفلسطين وشرق الأردن واليمن وفارس وتركيا — لا كنتيجة ثورية واحدة، بل من خلال سلسلة تفاوضات متقطعة بين القوى الاستعمارية والنخب المحلية.

غير أن هذا النظام كان هشًا بطبيعته: حدوده اعتباطية، وشرعيته مشكوك فيها، واقتصاده تابع. لقد أنشأ نظام الانتداب دولًا بلا أمم، وحكومات بلا سيادة. وكما يقول فرومكن:

"السلام الذي أنهى الحرب الكبرى في الشرق الأوسط كان سلامًا غير مكتمل — بُني على أوهام السيطرة" (فرومكن 1989، ص. 351).

ومع ذلك، وسط هذا التشرذم، كانت بذور وعي إقليمي جديد تتكوّن. فالفكر السياسي في عشرينيات القرن — سواء أكان قوميًا أم إسلاميًا أم اشتراكيًا — وُلد من رحم تناقضات هذا النظام ما بعد الحربي. بل إن مفهوم "الشرق الأوسط" ذاته كمنطقة تاريخية واحدة — مترابطة رغم انقسامها — كان في جوهره نتاجًا للنظام الإمبراطوري الذي حاول تنظيمها والسيطرة عليها.

## ٨. ما بعد الحرب — الانتدابات والحمايات والجغرافيا السياسية الجديدة

بحلول عام 1920، دخل الشرق الأوسط مرحلة ما وصفها المعاصرون بـ «سلام بلا سلام». «فقد توقفت مدافع أوروبا عن القصف، لكن نهاية الحرب دشنت طورًا جديدًا من الهيمنة الإمبراطورية في العالمين العربي والإسلامي. لم يخلف النظام العثماني استقلالًا حقيقيًا، بل حل محله نظام جديد من السيطرة أُعيدت صياغته تحت رعاية عصبة الأمم، وجرى تبريره بلغة التمددين والوصاية» (فرومكن 1989، ص. 299–301؛ روغن 2015، ص. 312–316).

## عصبة الأمم وإعادة تسمية الإمبراطورية

في مؤتمر باريس للسلام (1919) ، كرّست بريطانيا وفرنسا طموحاتهما الحربية من خلال نظام الانتداب، الذي ادعى أنه يهيئ الشعوب للحكم الذاتي. في الواقع، كانت هذه الانتدابات مستعمرات مقنّعة، تدار تحت غطاء دولي. وقد تُنبت تقسيم الشرق الأوسط عبر تطبيق اتفاق سايكس-بيكو (1916) ووعد بلفور (1917) ، وهما اتفاقان سريان شكلاً الجغرافيا السياسية للقرن العشرين (هوروفيتز 1956، ص. 49-52؛ كيدوري 1956، ص. 97-100).

تسلّمت بريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين، فيما نالت فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان. وصنّفت هذه الانتدابات كـ«فئة أ»، بمعنى أن شعوبها «قريبة من الاستعداد للحكم الذاتي». غير أن السيطرة الأوروبية استمرت عبر أدوات المال والجيش والإدارة، بينما أخفيت استثمارية الإمبراطورية خلف خطاب «الأمانة المقدسة» (فرومك 1989، ص. 321).

---

### المشرق العربي الممزق

في العراق، واجه البريطانيون مقاومة شرسة. اندلعت ثورة 1920 بقيادة شيوخ القبائل ورجال الدين، ووحدت السنّة والشيعية في لحظة نادرة من التضامن ضد الاحتلال. وردّت بريطانيا بقصف جوي وعقوبات جماعية. ولإخماد التمرد، نصّبت الملك فيصل بن الحسين —الذي أبعد عن سوريا— على عرش مملكة عراقية خاضعة للصاوية البريطانية (تريب 2000، ص. 21-23).

في سوريا، قضت القوات الفرنسية على المملكة العربية في دمشق بعد هزيمة جيش فيصل في ميسلون (1920) ، ثم جرّأت البلاد إلى وحدات إدارية منفصلة — دمشق، حلب، لبنان، والدولتين العلوية والدرزية — لتفتت أي مشروع وحدوي (روغن 2015، ص. 327-329). ورغم ذلك، نشأت جمعيات وطنية سرية مهّدت لحركات الاستقلال اللاحقة.

أما فلسطين، فكانت ساحة تنفيذ وعد بلفور، إذ أشرفت اللجنة الصهيونية على الهجرة اليهودية المنظمة، فيما تعرّض الفلسطينيون للتهمة السياسية والاقتصادي. وأسفرت التوترات عن الانتفاضات الفلسطينية الأولى في عشرينيات القرن العشرين، فاتحةً فصلاً طويلاً من الصراع (فرومك 1989، ص. 331-334).



## هوامش مستقلة: اليمن وفارس والجزيرة العربية

على أطراف المنطقة، احتفظت بعض الدول بقدر من السيادة الذاتية.

- في اليمن، حافظ الإمام يحيى حميد الدين على استقلال مملكته الزيدية، مستفيداً من عزلتها الجغرافية ودبلوماسيته المتزنة. أما البريطانيون في عدن فآثروا الإبقاء على منطقة عازلة بدلاً من المواجهة. وهكذا ظلّ اليمن خارج نظام الانتداب (دريش 2000، ص. 63؛ البحري 2001، ص. 94).
- في فارس، أعاد رضا خان منذ عام 1921 بناء الدولة عبر التحديث العسكري والإصلاح الإداري، ورفض الاتفاق الأنجلو-فارسي، مركزاً السلطة في طهران. ومع تأسيس الملكية البهلوية عام 1925، تجسد انتصار القومية الحديثة على التبعية (كرونيين 1997، ص. 185-187؛ أبراهاميان 2008، ص. 67).
- أما في الجزيرة العربية، فأكمل عبد العزيز بن سعود توحيدها، فاستولى على مكة والمدينة عام 1925 منهيّاً حكم الهاشميين، وأسس الدولة التي ستحمل لاحقاً اسم المملكة العربية السعودية (1932)، جامعةً بين الدعوة الدينية والسياسة الواقعية (كوستينر 1993، ص. 79-84؛ تيتلباوم 2001، ص. 118-120).

تكوّن من هذه الكيانات الثلاثة — اليمن وفارس والسعودية — مثلث من السيادة المحلية وسط فضاء من الانتدابات، ما أثبت أن الأطراف البعيدة استطاعت الحفاظ على استقلالها لأنها بقيت خارج دائرة التحديث الاستعماري.

### استمرارية الإمبراطورية خلف النظام الجديد

وراء خطابات التحرر ظلّ منطق الإمبراطورية قائماً. فقد امتدت شبكة القواعد الجوية وخطوط التلغراف وامتيازات النفط البريطانية من مصر إلى الهند، مشكلة ما سماه المؤرخ روجر أوين «ممرًا إمبراطوريًا واحدًا بإدارة جديدة» (أوين 2012، ص. 97). وسعت فرنسا إلى هدف مشابه بدمج اقتصادات المشرق والمغرب ضمن منظومتها الاستعمارية.

حتى في الدول «المستقلة» استمر النفوذ عبر الاعتماد الاقتصادي والمعاهدات العسكرية. فالمستشارون البريطانيون أداروا وزارات العراق، والضباط الفرنسيون دربوا جيش لبنان، وامتيازات النفط ربطت فارس والخليج بالرأسمالية الغربية. هكذا

دشن عهد الانتداب إمبريالية حديثة — أقل وضوحًا من الحكم المباشر لكنها لا تقل تغلغلًا (فرومك 1989، ص. 340؛ أوين 2012، ص. 102).

### مشهد متحول وغير مستقر

بحلول منتصف عشرينيات القرن العشرين، تغيّرت خريطة الشرق الأوسط كليًا. اختفت الخلافة العثمانية، وظهرت ممالك وجمهوريات وحمايات جديدة. تكوّنت دول مثل سوريا والعراق وفلسطين وشرق الأردن واليمن وفارس وتركيا ليس من ثورة واحدة، بل من تفاهمات مجزأة بين القوى الاستعمارية والنخب المحلية.

غير أن هذا النظام ظل هشًا في جوهره: حدوده مصنّعة، شرعيته موضع شك، واقتصاده تابع. لقد أوجد نظام الانتداب دولًا بلا أمم، وحكومات بلا سيادة. وكما قال فرومك: «السلام الذي أنهى الحرب الكبرى في الشرق الأوسط كان سلامًا غير مكتمل — بُني على أوهام السيطرة» (فرومك 1989، ص. 351).

ومع ذلك، كانت بذور الوعي الإقليمي الجديد تنمو. فالأفكار السياسية في عشرينيات القرن — سواء كانت قومية أو إسلامية أو اشتراكية — وُلدت من تناقضات هذا النظام ما بعد الحرب. بل إن فكرة «الشرق الأوسط» كوحدة تاريخية مترابطة كانت ذاتها نتاجًا للنظام الإمبراطوري الذي حاول إدارته والسيطرة عليه.

# Illustration 4.9 THE POLITICAL RECONFIGURATION OF THE MIDDLE EAST, 1918–1925



*Timeline and composite map showing imperial dissolution, creation of mandates, independent states, and major revolts across the region.]*

## الخاتمة — إعادة التفكير في الإمبراطورية والهامش والحدثة

لم تغيّر تبعات الحرب الكبرى جغرافيا الشرق الأوسط فحسب، بل أعادت تشكيل البنية الفكرية للإمبراطورية ذاتها. فالإمبراطوريات التي هيمنت على المنطقة قرونًا — العثمانية والروسية والأوروبية — لم تختفِ؛ بل تحولت. تبدّلت أشكال سلطتها من الحكم الترابي إلى النفوذ المؤسسي، ومن الاحتلال إلى الإدارة، ومن الإكراه إلى ما سُمّي بـ\*\*«التحديث»\*\*. دخل الشرق الأوسط عصر إمبراطورية بلا جيوش — عصر السيادة المُدارة، حيث يصبح الاستقلال مشروطًا، والتنمية تُعرّف وفق معايير خارجية (أوين 2012، ص. 115–118؛ فرومك 1989، ص. 349).

### 1. جغرافيا مقلوبة للقوة

طالما تعاملت الكتابات التقليدية مع الجزيرة العربية واليمن وفارس وشمال أفريقيا بوصفها هوامش لحكاية الحرب الكبرى. لكن هذه المناطق لم تكن هوامش الإمبراطورية؛ بل ميادين اختبارها. ففيها اصطدمت السلطة الإمبراطورية بحدودها، ومن أنقاضها نشأت أنماط جديدة من التنظيم السياسي. في جبال اليمن، أثبت الإمام يحيى حميد الدين أن الشرعية الدينية قادرة على استدامة دولة دون اعتراف أوروبي (دريش 2000، ص. 42). وفي فارس، حوّل رضا خان المثاليات الدستورية إلى حداثة عسكرية، معرّفًا القومية مشروعًا دفاعيًا وإداريًا معًا (كرونين 1997، ص. 189). وفي شمال أفريقيا، صاغت حركات مثل المقاومة السنوسية وجمهورية الريف استقلالًا سياسيًا عبر خطاب ديني وتضامن جماعي (فانديقال 2012، ص. 26؛ بنيل 2000، ص. 161). وما جمع هذه الحالات هو قدرتها على قلب جغرافيا القوة: بينما ادّعت المراكز الإمبراطورية النصر، كانت الأطراف تصوغ أولى التعبيرات الأصيلة للسيادة بعد الإمبراطورية.

### 2. استمراريات خلف القطيعة

على الرغم من أن 1918 رمزٌ لنهاية الإمبراطوريات، فإنه مثل أيضًا استمرار منطقها بآليات جديدة. أعاد نظام الانتداب تشكيل الاستعمار بوصفه رعاية؛ وحلّ «الوصية» محل الفتح في المعجم الأخلاقي للهيمنة (كيدوري 1956، ص. 103). وضمنت التبعية الاقتصادية والاتفاقيات والمعاهدات والقواعد العسكرية أن يظل استقلال الشرق الأوسط محدودًا بالمصالح الأوروبية.

وحتى داخل الدول المستقلة، غالبًا ما نسخت الحداثة هرمية الإمبراطورية: سكك الحديد والمدارس والجيش والوزارات — رموز التقدم — تحولت كذلك إلى أدوات ضبط. وكما يلاحظ علي أنصاري، فإن إيران رضا شاه «سعت إلى الاستقلال عبر المحاكاة»، متبينة البنى البيروقراطية ذاتها التي سهّلت التدخل الأجنبي (أنصاري 2003، ص. 56). وهكذا جسّد الشرق الأوسط بعد الحرب ما سمّاه بـ«ندكت أندرسون» (2006)، ص. 178 (مفارقة القومية الحديثة: تحرّر يتحقق بقواعد لغة المستعمر السابق).

### 3. ولادة القوميات الحديثة

من هذه المفارقة خرجت القومية التي ستطبع القرن العشرين: في أنقرة، أعادت القومية العلمانية تعريف الهوية بصيغة مدنية لا دينية. وفي طهران، سعت القومية الدولتية إلى وصل الحاضر بماضٍ فارسي ما قبل إسلامي. وفي القاهرة، امتزج الخطاب العربي لحق تقرير المصير بشرعية أخلاقية إسلامية. وفي صنعاء، ارتكزت الشرعية على السلطة الدينية والاستمرارية التاريخية. وبرغم اختلافها، تشترك هذه الحركات في إرث واحد: كلها ولدت ردًا على الاضطراب الإمبراطوري، وكلها ادّعت استعادة نظام أصيل قوّضه التدخل الأجنبي. لقد شكّلت انعطافًا من الخضوع للإمبراطورية إلى وعي ذاتي فكري — إدراكًا بأن الحداثة تُستملك لا تُفرض فحسب (غيلفن 2021، ص. 98–100).

### 4. نحو وعي تاريخي جديد

أعادت الحرب الكبرى أيضًا تشكيل تصوّر المجتمعات لتاريخها. فلم يعد الماضي يُرى حصراً عبر سلاسل أسرية أو تقويمات دينية؛ بل صار جزءاً من سياق تاريخ عالمي. وبدأ مفكرون من القاهرة إلى طهران يضعون نضالاتهم الوطنية ضمن سرديّة أوسع — التحرر من الاستعمار وتبادل الحضارات.

عبّرت مجلات مثل المنار في مصر وكاويان في فارس عن رؤية إصلاحية إسلامية منسجمة مع العقلانية الحديثة، تتحدى الصور الاستعمارية النمطية والجمود التقليدي معاً. ولم تكن سجلات الودويين الإسلاميين والعلمانيين والإصلاحيين تفكّكاً بقدر ما كانت بحثاً مشتركاً عن توازن بين الإيمان والحداثة (حوراني 1991، ص. 298–301).

لقد كان هذا الوعي الناشئ — تاريخياً وعالمياً وتأملياً — من أبقى موارث الحرب. بدأ الشرق الأوسط يرى نفسه فاعلاً في التاريخ العالمي، قادراً على صياغة مصيره الفكري والأخلاقي.

## 5. الحرب الكبرى كـ«مِفْصَل حضاري»

لم تكن الحرب الكبرى مجرد صراع عسكري، بل مِفْصَل حضاري. أنهت عصر التوسع الإمبراطوري وافتتحت عصر الدولة الحديثة. فرضت تسويات 1919-1920 حدودًا مصطنعة، لكنها أرغمت شعوب المنطقة على ابتكار صور جديدة للانتماء والحكم. مثّلت عزلة اليمن وقومية فارس وعلمانية تركيا وشعبوية مصر تجارب متميزة لترجمة الحداثة إلى لهجات محلية.

وكما يذكر يوجين روغن (2015، ص. 333): «لم يكن مآل الحرب نصرًا ولا هزيمة لشعوب الشرق الأوسط — بل كان تحوّلًا». أطلق انهيار الإمبراطورية قوى لم يستطع النظام الجديد احتواءها: السياسة الجماهيرية، والإصلاح الأيديولوجي، واندفاع الاستقلال. كانت ثورات القرن العشرين وانقلاباته ومقاوماته — إلى حدٍ بعيد — استكمالًا لأعمال 1918 غير المنتهية.

## 6. من ما وراء الهامش إلى المركز

في المحصلة، خرجت «هوامش» الحرب الكبرى — الجزيرة العربية واليمن وفارس والقوقاز وشمال أفريقيا — بوصفها النواة الأخلاقية والسياسية للشرق الأوسط الجديد. ففي هذه الحدود المتنازع عليها، أنتج التلاقي بين الإمبراطورية والإيمان، والتقليد والحداثة، لغات سياسية باقية. وقد أعادت تلك التجارب تعريف السيادة والشرعية والاستقلال للقرن التالي.

وكما لاحظ المؤرخ ألبرت حوراني لاحقًا: «بدأ البحث عن النظام في الشرق الأوسط لا في مراكز القوة، بل في هوامشها» (حوراني 1991، ص. 315). ومن هذه الهوامش خرجت الأطر الفكرية والسياسية التي ستصوغ الهويات العربية والإيرانية والتركية — جذورها في الذاكرة، واتجاهها نحو الحداثة.

## 7. إرث سلام غير مكتمل

بحلول عشرينيات القرن، كان الشرق الأوسط قد أُعيد تشكيله دون أن يُحسم. دمّرت الحرب إمبراطوريات، لكنها أبقت جغرافيتها الذهنية — افتراضات الهرمية، ولغة «التقدم»، وأنماط السيطرة. حملت الدول الجديدة هذا الإرث في داخلها. ومع ذلك، فإن محاولاتھا للتكيف والمقاومة وإعادة التعريف أرسّت أسس التاريخ الحديث للمنطقة. خرجت منطقة مفككة لكنها واعية بذاتها، جريحة لكنها نابضة فكريًا. لم تعد الهوامش صامتة. من محاكم الجبال في اليمن إلى وزارات طهران، ومن صحافة القاهرة إلى

مساجد فاس، بدأ حوار تاريخي جديد — لا يزال متصلًا إلى اليوم: — تفاوضٌ مستمر بين تَرَكَات الإمبراطورية وتطلعات الحرية.

## الفصل: المنعطف الحضاري 1918-1920

تمثل السنوات بين 1918 و1920 منعطفًا حاسمًا في تاريخ الشرق الأوسط — فترة التقت فيها انهيارات الإمبراطوريات بـ الصحة الحضارية. ما انبثق خلال هذا الفاصل القصير، لكنه مصيري، لم يكن مجرد جغرافيا سياسية جديدة، بل تحوُّلاً في المعايير الأخلاقية والفكرية التي تُدرك بها المجتمعات مفاهيم السلطة والشرعية والتقدّم.

لقد مثّل العالمان العثماني والقاجاري طويلاً مزيجًا من الإيمان والتراتبية والإدارة البراغمية؛ أما انهيارهما فكان إيذانًا بنهاية الإمبراطورية وبداية وعي تاريخي جديد بالذات (روغن 2015، ص. 331؛ فرومك 1989، ص. 351).

### 1. نهاية الإمبراطورية كأزمة حضارية

لعدة قرون، كانت الأنظمة الإمبراطورية في الشرق الأوسط توقّر إطارًا موحدًا — ليس للحكم فحسب، بل للمعنى أيضًا.

لقد أحدث سقوطها ما وصفه ألبرت حوراني بـ «فراغ في السلطة واليقين» (حوراني 1991، ص. 298).

وكانت نهاية الخلافة العثمانية خصوصًا رمزًا لتفتت العالم الأخلاقي: فقدان مؤسسة جمعت بين الدين والسياسة، وبين الشريعة والعدل، على تنوّع الشعوب.

غير أن هذا الفقد نفسه حمل بذور التجديد. فالنظم الجديدة — من يمن الإمام يحيى الزيدي إلى فارس رضا خان القومية — لم تكن مجرد وريثة للإمبراطوريات، بل تجارب في هوية ما بعد الإمبراطورية.

بعضها استمد شرعيته من الاستمرارية الدينية، وبعضها من الحداثة العلمانية. انتهى عصر الإمبراطوريات، لكن فكرة الحضارة كمشروع ذاتي التوجيه كانت قد بدأت لتوّها (أوين 2012، ص. 108).

## 2. التحديث بلا إمبراطورية

كسرت الحرب الكبرى الهياكل القديمة للقوة، لكنها في الوقت نفسه عجّلت بانتشار التقنيات والأفكار التي كانت حكرًا على المراكز الإمبراطورية. تحوّلت السكك الحديدية والتلغراف والصحف والجيش المجنّدة — رموز الحداثة الإمبراطورية — إلى أدوات لبناء الدول وصياغة الوعي.

في فارس وتركيا، أصبح التحديث لغة السيادة. فقد جسّد كل من إصلاحات رضا خان العسكرية وثورة أتاتورك القومية قناعةً بأن الاستقلال لا يتحقق إلا عبر امتلاك أدوات القوة الحديثة (كرونين 1997، ص. 187؛ زورخر 2010، ص. 139).

أما في اليمن والجزيرة العربية، فقد استندت الشرعية إلى الإيمان والنسب لا إلى التقدّم، لتذكّر بأن العالم الحديث لن يمحو النماذج الحضارية القديمة، بل سيدفعها إلى التفاوض والتفاعل فيما بينها.

## 3. إعادة ترتيب المعرفة

مثّلت بدايات العشرينيات كذلك تحوّلًا فكريًا عميقًا. فالمراكز العلمية التي كانت تنظر إلى إسطنبول والقاهرة وطهران بدأت تتفاعل مع تيارات فكرية عالمية جديدة — من الدستورية الأوروبية إلى الثورة البلشفية. وأعيد تعريف فكرة الحضارة من الداخل: لم تعد تعني محاكاة الغرب، بل إعادة تفسير التراث الإسلامي والعربي عبر مفاهيم حديثة عن القانون والتعليم والتقدّم (حوراني 1991، ص. 301).

انتشرت في المنطقة الصحف والمجلات الإصلاحية — مثل المنار في القاهرة، وكاويان في طهران، والقبلة في مكة — تناقش مستقبل المجتمع من خلال العلم والعدل والإصلاح الأخلاقي.

عبّرت تلك الحوارات عن تحوّل من ردّ الفعل السياسي إلى التأمل الحضاري: إدراك أن التحرر لا يكتمل دون ثورة في الفكر.

## 4. بذور نظام جديد

بحلول عام 1920، كانت ثلاثة نماذج للسيادة قد تبلورت:



- الديني التقليدي: (اليمن، الحجاز، ليبيا السنوسية)
  - العلماني التحديثي: (تركيا، فارس)
  - الهجين الاستعماري: (دول الانتداب مثل العراق وسوريا وفلسطين) كانت جميعها استجابات مختلفة للانهايار الإمبراطوري وتحدي الحداثة، لكنها استمدت شرعيتها من تراث ثقافي وعقائدي متباين. معاً كوّنت طيفاً من التكيف سيحدد مسار الشرق الأوسط طوال القرن العشرين.
- لقد تبدّل التوازن الحضاري: لم يعد متمركزاً في العواصم الإمبراطورية، بل توزّع بين دول ناشئة، تسعى كلها للإجابة على سؤال مزدوج: كيف نواكب العصر دون أن نفقد الهوية؟ وكيف نطالب بالحرية في عالم ما زال تحكمه القوة؟

## 5. بداية عصر جديد

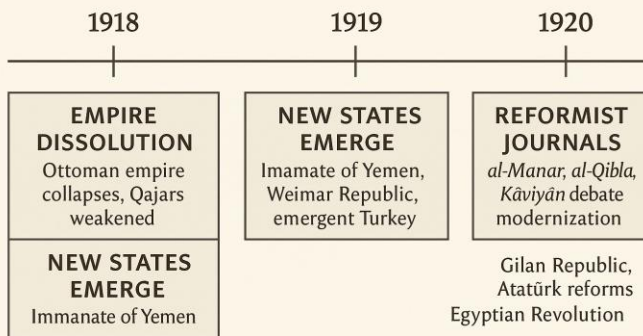
في المنظور التاريخي، كانت الفترة بين 1918 و1920 مفصلاً بين عالمين. فقد دمّرت الحرب الإمبراطوريات، لكنها أطلقت طاقات جديدة — قومية ودينية وفكرية — أعادت صياغة المنطقة بأكملها.

لم يكن ما تلا ذلك عصر ترميم، بل عصر إعادة بناء: مجتمعات تعيد تعريف معنى أن تكون متحضراً وحديثاً وذا سيادة.

وكما قال روجر أوين (2012، ص. 120): "لم تأتِ الحداثة إلى الشرق الأوسط كهدية، بل كتحدٍ".

ذلك التحدي — التفاوض بين الاستقلال والتكيف — أصبح القوة الدافعة لعقود ما بين الحربين، وبداية قصة الشرق الأوسط الحديث.

## 1918–1920: THE CIVILIZATIONAL SHIFT



## النظام الاستعماري وعصر اليقظة (1920 – 1950)

### الفصل الأول: من الانتداب إلى الثورة — النظام الاستعماري وسياسات المقاومة

#### القسم الأول: سلام استعماري لم يكن سلاماً (1920 – 1930)

كان العقد الذي أعقب الحرب الكبرى يُحتفى به رسمياً بوصفه عقد السلام، لكنه بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط كان استمراراً للحرب بأساليب إدارية. لم تُحرر مؤتمرات باريس للسلام وانتدابات عصبة الأمم العالم العربي، بل أعادت تغليف الغزو باسم “الوصاية”.

فخلف خطاب “التمدين وحق تقرير المصير” نشأ نظام جديد من السيطرة، تُشرف عليه الأسراب الجوية البريطانية، والضباط الفرنسيون، والمستشارون الإمبراطوريون الذين حلّوا محلّ الولاة العثمانيين الذين طالما نددوا بهم. ويصف المؤرخ يوجين روغن النظام الذي تلا عام 1918 بأنه “سلام بلا نصر للعرب — وبلا حرية” (روغن 2015، ص. 341).

#### نظام الانتداب: إمبراطورية باسم جديد

في قلب هذا النظام الجديد وقف نظام الانتداب التابع لعصبة الأمم، الذي أقرّ بين عامي 1920 و1922.

حصلت بريطانيا على الانتداب من الفئة (أ) على العراق وفلسطين وشرق الأردن، بينما نالت فرنسا انتدابها على سوريا ولبنان. وصفت كل منطقة بأنها “مستقلة مؤقتاً” ولكن “تُوجّه” من الدولة المنتدبة — وهي صيغة شرّعت الاحتلال تحت وعدٍ بمستقبله الزائل (فرومك 1989، ص. 320 – 324؛ أوين 2012، ص. 130).

لكن الواقع كشف أن الانتداب لم يكن إلا تراتبية جديدة من التبعية. فرض الإداريون البريطانيون في بغداد والقدس اتفاقيات مالية ودفاعية ربطت الحكومات الجديدة بالإستراتيجية الإمبراطورية.

أما الفرنسيون، فقاموا بتقسيم سوريا إلى كيانات طائفية ومناطقية — دمشق، حلب، الدولة العلوية، الدولة الدرزية، ولبنان الكبير — لضمان ألا تتشكل حركة قومية موحدة قادرة على تهديد نفوذهم (خوري 1987، ص. 61-64).

وساد الوهم نفسه في أماكن أخرى: فـ “استقلال مصر” عام 1922 أبقى لبريطانيا السيطرة على قناة السويس والدفاع؛ أما شبه الجزيرة العربية فبقيت خارج بنية العصبة لكنها داخل النطاق غير الرسمي للنفوذ البريطاني عبر معاهدات مع شيوخ الخليج.

لقد بدا الأمر وكأنه تحرر من الاستعمار، لكنه في الحقيقة كان بيروقراطية جديدة للإمبراطورية.

### الثورة كلغة للسياسة

انفجرت التناقضات بين الوعود الإمبراطورية والواقع الاستعماري بسرعة. فبين عامي 1919 و1926 شهدت المنطقة سلسلة من الانتفاضات أثبتت كيف يمكن لـ “سلام الانتداب” أن يتحول بسرعة إلى تمرد شامل.

- في العراق (1920)، توحد الزعماء القبليين والمدنيون عبر الانقسام المذهبي رفضاً للحكم الأجنبي.

سحق البريطانيون الثورة بالقصف الجوي والعقوبات الجماعية، لكن الانتفاضة أجبرت لندن على تنصيب فيصل بن الحسين ملكاً — ملكاً عميلاً جسد الطموح القومي ضمن حدود السيطرة الإمبراطورية (تريب 2000، ص. 21-26).

- في سوريا (1921-1920)، سقطت المملكة العربية في دمشق عند ميسلون تحت نيران الفرنسيين، واستمرت المقاومة في حماة وحلب وجبل الدروز. ثم تحولت الثورة السورية الكبرى (1925-1927) بقيادة سلطان الأطرش إلى حركة وحدة وطنية (بروفنس 2005، ص. 33-37).
- أما في مصر، فقد فجر حزب الوفد بقيادة سعد زغلول ثورة 1919، التي أرست نموذجاً جديداً للسياسة الجماهيرية — إضرابات، ومسيرات نسائية، ومقاومة مدنية شاملة.

أجبرت الحركة البريطانية على إعادة تعريف الحماية، وألهمت الناشطين المناهضين للاستعمار في مختلف أنحاء المنطقة (مرسوت 1985، ص. 79-82). ومن خلال هذه الثورات جميعاً برزت رسالة واحدة: لم يعد الاستقلال مطلباً دبلوماسياً، بل أصبح حقاً اجتماعياً.

### الإدارة الاستعمارية وأسطورة الحداثة

أدخل نظام الانتداب مفارقة ستظل تطارد مسار التحديث في الشرق الأوسط: فكرة أن التقدم لا يتحقق إلا تحت الإشراف الأجنبي.

يَرر المسؤولون البريطانيون والفرنسيون وجودهم بمشاريع التعليم والإصلاح القانوني والتنمية العمرانية — السكك الحديدية، الري، الأشغال العامة — التي حسّنت ماديًا حياة السكان لكنها عمّقت التبعية في الوقت ذاته.

في العراق، صاغ السير برسي كوكس وغير تروود بيل دستوراً بإشراف بريطاني، بينما ضمنت قواعد سلاح الجو الملكي في الحبانية خضوع الحكومة المحلية. وفي سوريا ولبنان، أسست فرنسا مدارس علمانية وقوانين مدنية على النمط النابليوني، لكنها في الوقت نفسه راقبت الصحافة ونفت المعارضين (خوري 1987، ص. 73). أصبحت لغة التحديث بذلك لغة السيطرة.

لكن لهذه السياسات نتائج غير مقصودة: إذ أنشأت نخبةً بيروقراطية جديدة درست في مؤسسات غربية لكنها ازدادت قومية في وعيها. فالمدارس التي غرست الطاعة خرّجت أيضاً الإداريين والضباط الذين سيقودون الثورات اللاحقة.

### يقظة الوعي السياسي

كانت عشرينيات القرن أيضاً عقد التحول الفكري. فخبية الأمل في نتائج الحرب — ولا سيما خيانة الثورة العربية — أثارت نقاشاً واسعاً حول معنى الحرية والدين والحضارة. تناولت الصحف في القاهرة ودمشق وبغداد موضوعات الدستور وحقوق المرأة وأخلاق الحكم.

كتب محمد حسين هيكل وعبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا رؤى متباينة لـ الحداثة الإسلامية:

هل يجب أن يكون التقدّم محاكاةً لأوروبا، أم إعادة تفسير للنظام الأخلاقي القرآني؟ لقد مثّلت هذه التساؤلات لحظة حضارية فارقة — الانتقال من المقاومة في الميدان إلى الإصلاح في الفكر (حوراني 1991، ص. 304–307).

### الخاتمة: السلام الاستعماري كمقدمة

بحلول عام 1930، كانت خريطة الشرق الأوسط قد أُعيد رسمها وإدارتها وإخضاعها — ولكنها لم تُصالح مع ذاتها.

تحت السكون المفروض كانت تتفاعل تناقضات عميقة: بين خطاب الاستقلال وواقع التبعية، وبين المؤسسات الحديثة والشرعية التقليدية.

لم يكن هذا السلام الاستعماري نهاية عصر، بل مقدمة لصحوة أعمق. فقد أثبتت ثورات العشرينيات أن السيطرة الإمبراطورية لم تعد قادرة على الاعتماد على القوة وحدها، بل باتت تحتاج إلى الإقناع والتعليم والتعاون. وفي سعيها لتوظيف هذه الأدوات، زرعت القوى الاستعمارية — من غير قصد — النخب السياسية والفكرية التي ستقود لاحقاً إلى نهايتها.

وكما قال ألبرت حوراني (1991)، ص. 310: “بدأ العصر الجديد تحت راية التناقض — تُحكمه قوى أجنبية، لكنه قد أدرك بالفعل قدرته على أن يحكم نفسه”.

**[رسم توضيحي 1.1: انتدابات الشرق الأوسط، 1920–1930]**  
خريطة توضّح الانتدابات البريطانية (العراق، فلسطين، شرق الأردن)، والفرنسية (سوريا، لبنان)، ومناطق الثورات (العراق 1920، سوريا 1925، مصر 1919)، ونطاق النفوذ البريطاني في الجزيرة العربية. ملونة بحسب السيطرة الإدارية، وتُميز الثورات بعلامات لهب حمراء.

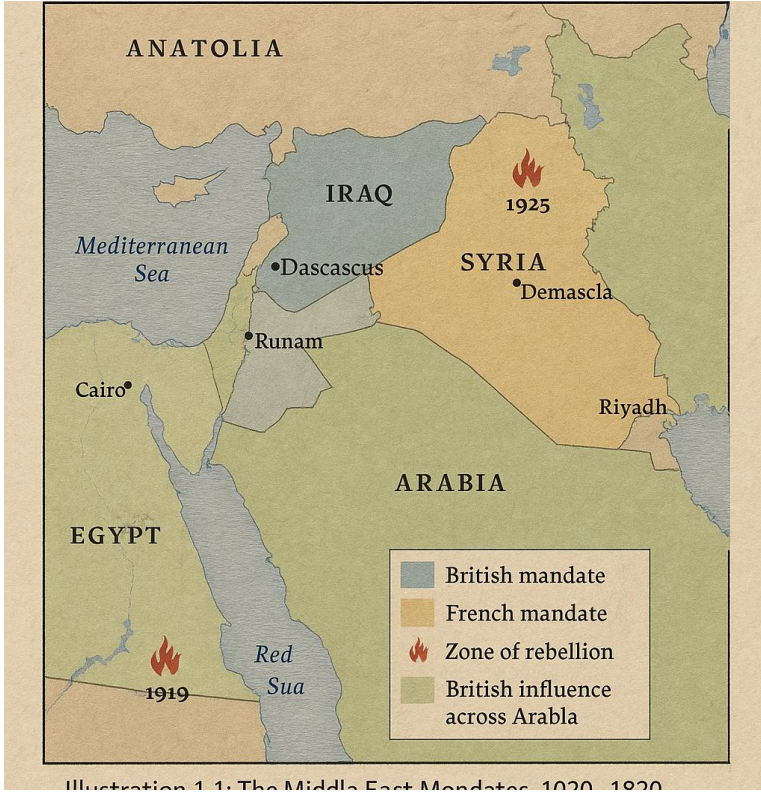


Illustration 1.1: The Middle East Mandates, 1920-1930

## القسم الثاني: الثورات وإعادة الاصطفاف — صراع الشعوب من أجل الحكم الذاتي (1920 – 1930)

كانت الجغرافيا السياسية لعقد العشرينيات لا تتحدد بإنشاء دول جديدة، بل بمن يحكمها وكيف.

فالانتفاضات التي هزت العراق وسوريا ومصر لم تكن ومضات غضب عابرة، بل مثلت أول رفض منسق للحدث الاستعمارية ذاتها.

وفي المشرق العربي وما بعده، تعلّمت المجتمعات أن تعبّر عن معارضتها بوسائل جديدة — إضرابات، مؤتمرات، عرائض، وثورات — لتخلق لغة سياسية مشتركة ستستمر لأجيال (روغن 2015، ص. 343-346؛ أوين 2012، ص. 132).

## أولاً: العراق — مملكة وُلدت من رحم الثورة

كانت ثورة العراق عام 1920 أهم انتفاضة مناهضة للاستعمار في الشرق الأوسط بين الحربين.

جمعت بين العلماء السنّة والشيعية، وزعماء القبائل والنخب المدنية ضد الاحتلال البريطاني وفرض الإدارة الأجنبية.

ما بدأ كمقاومة قبلية في الفرات الأوسط سرعان ما تطور إلى حركة وطنية شاملة هزّت بغداد وأفلقت لندن (تريب 2000، ص. 21-28).

جاء الرد البريطاني سريعاً ووحشياً: قصف جوي واسع، وتدمير قرى، وغرامات جماعية أودت بحياة الآلاف.

لكن كلفة القمع كشفت للنّدى أن الحكم المباشر غير قابل للاستمرار. ومن رحم هذه الأزمة وُلدت معادلة سياسية جديدة: ملكية تحت الانتداب. ففي عام 1921، نصب السير برسي كوكس الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على العراق، رابطاً الشرعية الهاشمية بالمصالح الاستراتيجية البريطانية.

أضفى معاهدة 1922 البريطانية — العراقية طابعاً مؤسسياً على هذا النظام الهجين: دولة ذات حكومة “سيادية” شكلياً، لكنها مرتبطة بالمستشارين البريطانيين واتفاقيات الدفاع والرقابة الاقتصادية. ويصف المؤرخ تريب هذه الصيغة بأنها “استقلال على الصورة الإمبراطورية” (تريب 2000، ص. 30).

ومع ذلك، فقد أنجبت الثورة وعياً وطنياً جديداً، وأثبتت أن العراقيين — على اختلاف طوائفهم — قادرون على الوحدة في وجه السيطرة الأجنبية ولو لفترة وجيزة.

## ثانياً: سوريا ولبنان — إمبراطورية فرنسا الممزقة

على عكس البراغماتية البريطانية، سعت فرنسا في المشرق إلى إعادة تشكيل المجتمع عبر السيطرة المباشرة.

فبعد سقوط مملكة فيصل العربية القصيرة في ميسلون (1920)، قسّم المفوض السامي الفرنسي سوريا إلى أربع مناطق ذات حكم ذاتي: دمشق، حلب، الدولة العلوية، وجبل الدروز، كما فصل لبنان ككيان مستقل (خوري 1987، ص. 65-68).



أثار هذا سياسة التفتيت عقدًا من المقاومة بلغ ذروته في الثورة السورية الكبرى (1925-1927)، بقيادة القائد الدرزي سلطان الأطرش. امتدت الثورة من ريف حوران إلى دمشق وحلب والساحل. ورغم الرد العسكري الفرنسي الساحق — بما في ذلك قصف دمشق بالطائرات — أجبرت الثورة باريس على إعادة النظر في نظامها الاستعماري. وبحلول عام 1930، بدأت فرنسا في عملية دستورية تدريجية مهدت لاحقًا لاستقلال سوريا.

أما في لبنان، فقد دعمت فرنسا النخب المارونية لبناء هوية سياسية موالية لها. وشكّل إنشاء لبنان الكبير (1920) توسيعًا لمتصرفية جبل لبنان السابقة ليشمل المدن الساحلية السنية وسهل البقاع، مما أرسى التوازن الطائفي كأساس للحياة السياسية (صليبي 1988، ص. 34-38).

وبينما كانت سوريا تشتعل بالمقاومة، صُمم لبنان ليكون واجهة ثقافية فرنسية — مستقرة ظاهريًا، غربية التوجه، لكنها منقسمة سياسيًا بطبيعتها.

### ثالثًا: مصر — مفارقة الاستقلال الشكلي

بدأ إعلان بريطانيا استقلال مصر عام 1922 وكأنه وفاء لمطالب ثورة 1919، لكنه كان استقلالًا بالاسم فقط.

احتفظت بريطانيا بالسيطرة على الدفاع والاتصالات وقناة السويس، وأبقت على قوات عسكرية كبيرة في البلاد.

تحوّل حزب الوفد بقيادة سعد زغلول ثم مصطفى النحاس إلى حامل القومية الشعبية، مهيمًا على البرلمان الجديد لكنه دائم الصدام مع الملكية المدعومة بريطانيًا (مرسوت 1985، ص. 88-91). أدخل دستور 1923 نظام الملكية الدستورية، لكن المفوض السامي البريطاني كان قادرًا على تجاوز البرلمان كلما مست المصالح الإمبراطورية. ومع ذلك، حوّلت الطبقات الوسطى في القاهرة السياسة إلى حركة جماهيرية عبر الاتحادات النسائية والنقابات العمالية، لتصبح مصر مختبرًا للدستورية العربية الحديثة. وكما قال المؤرخ فاتيكويتس: “كانت مصر حرّة ومقيّدة في آن واحد — ملكة الشعارات في ظل الإمبراطورية.” (فاتيكويتس 1991، ص. 112).

## رابعاً: فلسطين — انتداب التناقضات

من بين جميع الانتدابات، لم يجسد أي منها تناقض النظام الاستعماري مثل فلسطين. فقد التزمت بريطانيا في وعد بلفور (1917) بإنشاء "وطن قومي لليهود" مع "حماية حقوق السكان العرب"، وهما وعدان متناقضان جوهرياً (فرومك 1989، ص. 331-333).

في عشرينيات القرن، تصاعدت الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية بدعم اللجنة الصهيونية والوكالة اليهودية، بينما واجه الفلاحون العرب نزع ملكياتهم وتهميشهم سياسياً. كشفت احتجاجات يافا (1921) واضطرابات البراق (1929) عن الانقسام المتزايد داخل المجتمع الانتدابي.

تأرجحت الإدارة البريطانية بين القمع والمصالحة، لكن التناقض البنيوي ظل قائماً: التزام مزدوج جعل السلام نفسه مستحيلاً (خالد 1997، ص. 43-48).

## خامساً: شمال أفريقيا والهوامش العربية

خارج نطاق الانتدابات الرسمية، استمر الكفاح ضد الاستعمار على أطراف العالم العربي.

- في ليبيا، أعادت الطريقة السنوسية تنظيم صفوفها تحت قيادة عمر المختار، وخاضت حرب عصابات ضد إعادة الغزو الإيطالي حتى إعدامه عام 1931 (أندرسون 1986، ص. 102-105).
- وفي المغرب، أسس عبد الكريم الخطابي جمهورية الريف (1926-1923)، وهزم القوات الإسبانية والفرنسية حتى أخضعته القوة الجوية الساحقة (بنيل 2000، ص. 163-166).

ربطت هذه النضالات المغرب العربي باليقظة العربية الكبرى، وحوّلت الجهادات المحلية إلى رموز للحدث المناهضة للاستعمار.

وفي الجزيرة العربية، وسّع عبد العزيز بن سعود سلطته على الحجاز (1924-1925) ثم على نجد، موحداً شبه الجزيرة عبر تحالفات قبلية وشرعية دينية. كانت مملكته الجديدة — التي لم تحظَ بعد باعتراف أوروبي — نموذجاً سيادياً محلياً فريداً، قائماً على الإيمان والدبلوماسية الواقعية (تيتلباوم 2001، ص. 118-121).

## سادساً: معنى الثورة

بنهاية العشرينيات، أصبحت الثورة لغة السياسة العربية. من القاهرة إلى دمشق، غدت الاحتجاجات سلاحاً ومدرسةً في آن واحد — تُعلّم الناس فن التنظيم والدعاية والتفاوض.

أثبتت ثورات العقد أن الإمبريالية تستطيع قمع التمرد المسلح، لكنها لا تستطيع قمع الخيال السياسي.

أنجبت هذه الحركات جيلاً جديداً من القادة القوميين: الملك فيصل الأول وسعد زغلول سياسياً، وشكيب أرسلان فكرياً، وسليمان الأطرش وعبد الكريم الخطابي ميدانياً.

جسد كلٌ منهم توليفة مختلفة من الدين والقومية والحدثة، وكانوا رواد الأيديولوجيات السياسية التي ستهيمن على منتصف القرن.

## سابعاً: نحو سيادة بالتفاوض

أجبرت انتفاضات العشرينيات كلاً من بريطانيا وفرنسا على تبديل أدوات السيطرة: من القمع إلى المعاهدات والساتير والحكم الذاتي المُدار. فقد تمخضت معاهدة 1930 البريطانية-العراقية، والاتفاقيات الفرنسية-السورية اللاحقة، والتسويات الدستورية المصرية عن هذا الانسحاب البراغماتي التدريجي.

أدركت القوى الاستعمارية أن الطريق إلى السيطرة لم يعد يمر بالغزو، بل عبر “سياسة التنازل — أي تحويل الرعايا إلى عملاء، والعملاء إلى مواطنين.

كانت هذه مفارقة الشرق الأوسط بين الحربين: فالمقاومة ولدت الإصلاح، والإصلاح أجل الحرية الحقيقية. وانتهى عصر التمرد المفتوح ليبدأ عصر التفاوض الحذر — توازن هشّ سرعان ما سينهار مجدداً في الأربعينيات، حين تعيد الحرب العالمية الثانية إشعال سؤال الاستقلال من جديد.

*Map showing major uprisings (Iraq 1920, Syria 1925, Egypt 1919, Palestine 1929, Rif 1923–1926), the boundaries of British and French mandates, and zones of Italian reconquest in Libya. Color-coded legend distinguishes direct colonial rule, client monarchies, and independent territories.]*



## القسم الثالث: التحديث والدولة الاستعمارية — بناء أدوات السيطرة (1930-1940)

بحلول أوائل الثلاثينيات كانت الثورات التي هزّت مناطق الانتداب قد قُضت إلى حدٍ كبير. وحلّ محلها عصر الإصلاح الاستعماري وإعادة البناء المؤسسي. تعلّمت القوى الأوروبية أن الإكراه المباشر لم يَعدّ يضمن الاستقرار؛ فالشرعية ينبغي أن تُصنع عبر التعليم والإدارة والتحديث الانتقائي. وفي المقابل، سعى الوجهاء العرب والنزعماء القوميون إلى استملاك الأدوات نفسها لخدمة رؤاهم للسيادة.

كانت المحصلة عقدًا من التحوّل المزدوج: إمبراطورية تزداد بيروقراطيةً، وقومية تزداد تقنيةً. حلّ معجم البرلمانات والداستير والوزارات والخطط محلّ قاموس التمرد (أوين 2012، ص. 141-143). وتحت واجهة «الطبيعة الاستعمارية» كانت المنطقة تُعاد صياغتها بهدوء إلى منظومة الدولة الحديثة التي ما تزال ترسم ملامحها اليوم.

### أولاً: «أجندة الإصلاح» الاستعماري

دخلت انتدابات الشرق الأوسط وحماياته في الثلاثينيات وهي ترفع خطاب التقدّم. أعلنت الدوائر الاستعمارية في لندن وباريس مهمة جديدة: تهيئة الأقاليم للحكم الذاتي «في الوقت المناسب». وترجم ذلك عملياً إلى مركزة مؤسسية وترشيد اقتصادي أكثر منه إلى استقلال فعلي (فيلدهاوس 2006، ص. 92-95).

في العراق، وعدت معاهدة 1930 البريطانية-العراقية بالاستقلال التام عام 1932 عند انتهاء الانتداب وانضمام البلاد إلى عصبة الأمم، لكنها أبقت القواعد الجوية والسياسة الخارجية تحت السيطرة البريطانية. وجدّت الملكية الجديدة بقيادة الملك فيصل الأول ثم غازي نفسها توازن بين تطلعات قومية وواقع الاعتماد؛ فالمستشارون البريطانيون ظلوا متركزين في كل وزارة، وصيغت البيروقراطية على صورة ويستمنستر لا بغداد (تريب 2000، ص. 37-41).

في سوريا ولبنان، دشنت فرنسا «تجربة دستورية». «فمع حلول 1930 حصل الكيانان على دساتير وبرلمانات وأعلام، لكن حق النقض في التشريع والسياسة الخارجية بقي في يد باريس. مثّلت المعاهدة الفرنسية-السورية (1936) التي تفاوض عليها هاشم الاتاسي ذروة الدبلوماسية القومية، وإن تأخر إقرارها حتى عشية الحرب العالمية الثانية (خوري 1987، ص. 94-99).

في مصر، شرّعت معاهدة 1936 البريطانية-المصرية الوجود العسكري البريطاني مع الاعتراف بحق مصر في الانضمام إلى عصبة الأمم. وقد أخفى هذا «الإنجاز» استمرارية أعمق: بقيت القوات البريطانية في منطقة القناة، وتناوبت السلطة بين الملك وحزب الوفد وخصوم القصر. وصارت الملكية المصرية، كما وصفها روجر أوين، «واجهة سيادة مشيئة على أساس بريطاني» (أوين 2012، ص. 149).

### ثانيًا: التحديث بوصفه استراتيجية سياسية

شهدت الثلاثينيات تقاربًا بين الإدارة الاستعمارية والنخب المحلية في الترويج للتحديث بوصفه بديلاً عن الاستقلال. صارت الطرق والسكك والري والمدارس رموز الشرعية. وكل حكومة — استعمارية كانت أم قومية — سعت إلى استعراض الكفاءة عبر التنمية.

في العراق، جسّد إنشاء خط أنابيب خانقين (1934) وتوسّع المدارس الحكومية الدخول إلى العالم الحديث. وفي مصر، أعادت إصلاحات طه حسين في التعليم تعريف المدرسة باعتبارها حقًا وطنيًا لا امتيازًا نخبويًا. وفي فارس، أطلق رضا شاه بهلوي برنامجًا واسعًا من العلمانية والتوسّع العسكري والبنى الصناعية، فحوّل إيران إلى دولة مركزية على نموذج الكفاءة البيروقراطية الأوروبية (كروني 1997، ص. 191-193؛ أبراهاميان 2008، ص. 84-87).

حتى في شمال أفريقيا الفرنسي، صار التحديث الاستعماري سلاحًا ذا حدين: فالتوسع الحضري والتعليم العام أفرزا جيلاً من المتعلمين المسلمين المستبعبين من السلطة — وهو نفسه الجيل الذي سيقود حركات الاستقلال لاحقًا. وقد لاحظ عالم الاجتماع جاك بيرك أن «الحداثة الاستعمارية صنعت نقيضها» (بيرك 1958، ص. 212).

### ثالثًا: ولادة الدولة البيروقراطية

شهدت المنطقة بين الحربين نشوء ما يسميه سامي زبيدة «الدولة العقلانية في عالم غير عقلاني» (زبيدة 1990، ص. 57). تكاثرت وزارات التعليم والأشغال والدفاع؛ وأعيدت صياغة المدونات القانونية على النمط الأوروبي؛ ووُحّدت التعدادات والمسح العقاري وأنظمة الضرائب.

لكن هذه الثورة البيروقراطية عمّقت أيضًا اللامساواة الاجتماعية. ظلّت الأرياف خارج المؤسسات الجديدة، فيما احتكرت نخب المدن الوظائف والقراءة والنفوذ السياسي. وفي العراق وسوريا غدا سلك الضباط الناشئ — المتخرج من الأكاديميات

العسكرية — السلم الأساسي للحراك الاجتماعي، مهبطاً لأنظمة العسكر في العقود التالية.

أضحى التعليم أداة استنارة ووسيلة ضبط في آن. وحدثت الحكومات الاستعمارية المناهج لتأكيد الولاء والنظام، فيما أعاد المربون القوميون تأويل النصوص نفسها لإلهام الاعتزاز والمقاومة. صارت المدرسة — التي كانت هامشية سياسياً — مسرحاً مصغراً للصراع الأيديولوجي.

### رابعاً: إعادة الهيكلة الاقتصادية والتحول الاجتماعي

بدلت سنوات ما بين الحربين أيضاً القاعدة المادية للمنطقة. فقد نقل اكتشاف النفط واستثماره بؤرة الاهتمام الإمبراطوري إلى الخليج وجنوب العراق. ربطت شركة النفط الأنجلو-فارسية (لاحقاً «بي بي») وشركة نفط العراق اقتصادات الشرق الأوسط برأس المال البريطاني والفرنسي، مُنشئةً نظاماً بترولياً سياسياً مبكراً (أوين 2012، ص. 158-161).

كشفت الكساد الكبير (1929-1933) هشاشة هذه الاقتصادات: انهارت الصادرات الزراعية، وارتفعت البطالة، وتعاضم فقر المدن. وردت الحكومات القومية بتبني الاستقلال الاقتصادي بوصفه واجباً أخلاقياً: انتشرت الإصلاحات الجمركية والاحتكارات الحكومية والحركات التعاونية. وفي تركيا سعى الاتاتورية (الاتييزم/الدولتية) إلى التوفيق بين التحكم الوطني والتقدم الصناعي؛ وفي إيران أرسى رأسمالية الدولة لدى رضا شاه قاعدة التصنيع اللاحق. وعلى امتداد العالم العربي، غذى الكساد نقداً مبكراً لعدم المساواة العالمية سينضج بعد الحرب في القومية الاقتصادية.

### خامساً: المنعطف الثقافي — الهوية والضبط

تحت هذه التحولات الإدارية والاقتصادية، كان يجري تحول أدق: تحديث ثقافي للحكم. أدركت القوى الاستعمارية أن الحكم لا يمكن أن يعتمد على القسر وحده؛ فهو يحتاج إلى الاستيعاب الثقافي والرقابة والإقناع. صارت الإذاعة والكتب المدرسية والصحافة العربية المتوسعة أدوات تعليم كما تلقين.

في دمشق روجت المعاهد الثقافية الفرنسية لمثل العلمانية و«الحضارة الفرنسية». وفي القاهرة بدأت البي بي سي عربي وإذاعة القاهرة بصياغة وعي جماهيري يحول الخبر إلى تجربة مشتركة. وفي بغداد أعاد شعراء قوميون مثل معروف الرصافي

ومحمد مهدي الجواهري تعريف الكرامة والانتماء عبر الأدب. الأدوات الإعلامية التي استخدمها المستعمرون لبسط السلطة تحولت تدريجيًا إلى وسائل نزع شرعيتها.

### سادسًا: تناقضات الحكم الحديث

مع نهاية الثلاثينيات بدت الدول الاستعمارية في الشرق الأوسط أكثر استقرارًا من أي وقت مضى — لكن تناقضات الإمبراطورية كانت قد تضاعفت تحت السطح. عملت البيروقراطيات، واتسعت الجيوش، وازدهرت المدارس — لكن ضمن أنظمة صُممت لحفظ التبعية. وبدأت النخب الجديدة — التي خرّجتها وشغلتها الأنظمة الاستعمارية — تسائل أدوارها.

أظهرت إيران رضا شاه وتركيا أتاتورك أن التحديث يمكن أن يخدم الاستقلال الوطني . وكشفت تجارب العراق ومصر وسوريا أن التحديث بلا سيادة يؤدي سخريةً وتمردًا . كانت مفارقة الثلاثينيات الحضارية أن الآليات نفسها التي منحت الإمبراطورية قدرتها على البقاء — الإصلاح والعقلنة والتعليم — هي التي علّمت المجتمعات كيف تفككها.

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية، كانت هذه التناقضات ماضيةً إلى الانفجار في حركات وأيديولوجيات وتحالفات جديدة، إيمانًا بالأزمة الأخيرة للنظام الاستعماري.

### القسم الرابع: أيديولوجيات اليقظة — الإسلام والعروبة والفكر الاجتماعي في الثلاثينيات

بحلول منتصف الثلاثينيات، دخل الشرق الأوسط مرحلة غليان فكري غير مسبوق. فقد أثبتت ثورات العقد السابق أن النظام الإمبراطوري القديم يمكن مقاومته، لكنه لم يُستبدل بعد.

برز بدلًا من ذلك بحثٌ جماعي عن معنى جديد — محاولة لإعادة التوفيق بين وعود الحداثة والقيم الروحية والأخلاقية للحضارة الإسلامية. في فصول القاهرة، ومقاهي دمشق، وصالونات بغداد الأدبية، تناقش جيل جديد من المفكرين الأسئلة ذاتها التي حيرت القرن: كيف يمكن للمجتمعات أن تتقدم دون أن تفقد روحها؟ هل الإسلام متوافق مع العلم والديمقراطية؟ وما معنى أن يكون الإنسان عربيًا في زمن الإمبراطورية والتجزئة؟ كانت هذه عقدة إعادة التعريف التي بدأ فيها الشرق الأوسط صياغة لغاته الخاصة للوهية والجماعة والعدالة (حوراني 1991، ص. 312-318؛ كير 1966، ص. 41-46).



## أولاً: الإسلام والبحث عن التجديد

مثّلت الثلاثينيات بالنسبة لكثير من المفكرين ذروة مسارٍ بدأ مع نهضة القرن التاسع عشر.

كان التحدي المركزي هو إعادة تفسير الإسلام كنظام أخلاقي ديناميكي — ليس عقبة في طريق التقدم، بل أساسه الأخلاقي.

فقد بنى مفكرون مثل حسن البنا (مؤسس جماعة الإخوان المسلمين عام 1928) على تراث محمد عبده ورشيد رضا، معتبرين أن أزمة العالم الإسلامي ليست لاهوتية بل حضارية: أزمة فقدان الهدف الأخلاقي تحت الهيمنة الغربية (مينشل 1969، ص. 15-17).

رفضت كتابات الإخوان الأولى فكرة أن الحداثة تعني العلمانية المطلقة. واقترحت بدلاً من ذلك حداثة إسلامية تقوم على التعليم، والرعاية الاجتماعية، والانضباط الأخلاقي.

ومن خلال المدارس والجمعيات الخيرية والنقابات، بنت الجماعة شبكة اجتماعية تجسّد مبادئها — شكلاً مبكراً من الفاعلية الإسلامية السياسية.

في إيران وتركيا، اتخذت التيارات المماثلة مسارات مختلفة. ففي إيران، انتقد علي أكبر دهخدا والسيد حسن مدرس علمانية رضا شاه الاستبدادية، محذرين من أن التحديث دون أخلاق يعيد إنتاج الاستبداد. وفي تركيا، حاولت مجموعة كادرو من المتقنين القوميين تعريف العلمانية كمبدأ ثقافي لا إلحادي، سعياً لجعل الهوية التركية حديثة ومتجذرة في أن واحد (زورخر 2010، ص. 146-149).

وهكذا لم يكن الفكر الإسلامي في الثلاثينيات رجعيًا ولا حنينًا للماضي، بل مسعى لاستعادة الكونية — لتقديم الإسلام لا كمعارضة للحضارة الحديثة، بل كبديلها الأخلاقي.

## ثانيًا: العروبة وفكرة الأمة

بموازاة التجديد الإسلامي، برز إحياء القومية العربية — هوية لا تقوم على الإمبراطورية أو الدين، بل على اللغة والثقافة والذاكرة المشتركة.

استمد هذا الاتجاه طاقته من خيبة الأمل من الوصاية الأوروبية والحدود المصطنعة لنظام الانتداب (داويشا 2003، ص. 22-27).

صاغ المفكر السوري ساطع الحصري، الذي خدم في الإدارة العثمانية ثم في العراق، أول نظرية منهجية في القومية العربية. رأى الحصري أن اللغة العربية هي وعاء الوعي الجماعي الذي يتجاوز التجزئة السياسية، مؤكداً أن: «كل من يتكلم العربية فهو عربي» بغض النظر عن دينه أو موطنه (الحصري 1943، ص. 9).

من خلال إصلاحاته التعليمية في العراق وسوريا، استخدم الحصري المناهج المدرسية لغرس الاعتزاز بالتاريخ والوحدة العربية، مقدّماً الأمة بوصفها الوريث الأخلاقي للأمة الإسلامية.

وفي الوقت نفسه، جعل شعراء وكتّاب مثل عبد الرحمن الشهبندر وعمر أبو ريشة وأحمد شوقي من القومية جمالاً ثقافياً يحتفي بالماضي العربي كمنبع كرامة في وجه الإذلال الحديث.

وبحلول أواخر الثلاثينيات، نضجت العروبة من عاطفة إلى أيديولوجيا. دعت مؤتمرات الطلاب في القاهرة وبغداد إلى وحدة سياسية عربية، واضعة الأسس الفكرية لما سيصبح لاحقاً جامعة الدول العربية (1945). كانت لغة العروبة الأولى ثقافية، لكن طموحاتها سياسية — سعت إلى استبدال الخريطة الاستعمارية بجغرافيا أخلاقية للانتماء.

### ثالثاً: الفكر الاجتماعي وصعود النخب الجديدة

تحت الأيديولوجيات الدينية والقومية، ظهرت تيارات فكرية جديدة — نقد اجتماعي بنفَسٍ سوسيولوجي.

فقد كشف الكساد الكبير هشاشة الاقتصادات التابعة، وبدأ جيل من الشباب في التشكيك في بنية الطبقات لا في الاستعمار فقط.

في مصر، دعا كتّاب مثل سلامة موسى وطه حسين إلى التعليم والمساواة بين الجنسين والعقل العلمي كأدوات للتحرر.

وفي لبنان، طرح ميشال شيحا رؤيةً لتعددية مدنية تقوم على التجارة والتعايش، مهّدت لنقاشات ما بعد الاستقلال حول التوازن الطائفي (صليبي 1988، ص. 57-60). وفي العراق، أدخل مفكرون مثل عبد الفتاح إبراهيم الأفكار الماركسية إلى الخطاب العربي، وفسّروا الصراع الطبقي في إطار مناهض للاستعمار (بطاطو 1978، ص. 41-44).

لم ترفض هذه الأصوات الدين أو القومية، بل سعت إلى تداخلهما مع العدالة الاجتماعية —إلى غرس القيم الأخلاقية في الإصلاح المادي.

كانت الثلاثينيات بحق مهد الفكر الاجتماعي العربي، وحداثة أخلاقية تهتم ليس فقط بالحرية بل بالعدالة.

### رابعاً: المرأة والتعليم والفضاء العام

شهدت فترة ما بين الحربين أيضاً تحوُّلاً في قضايا المرأة والتعليم. ظهرت حركات نسائية ربطت تحرير المرأة بتجديد الأمة. في مصر، قادت هدى شعراوي (مؤسسة الاتحاد النسائي المصري 1923) ودرة شفيق في الثلاثينيات نضالاً ضد الأعراف الأبوية من خلال الصحف والمؤتمرات. وفي العراق، بدأت نزيهة الدليمي ومصلحات أخريات في الربط بين التعليم ومشاركة المرأة في العمل (بدران 1995، ص. 73-75).

أصبحت قضية المرأة معياراً لاختبار صدق مشاريع الإصلاح الحديثة. حتى القوميون المحافظون أدركوا أن تعليم النساء شرط لتقدم الأمة. انتشرت مدارس البنات والمجلات النسائية والجمعيات الخيرية بسرعة، حاملّة معها معاجم جديدة للمواطنة والذات.

وهكذا، بينما استخدم الاستعمار لغة التحديث لتبرير حكمه، استخدمت النساء العربيات والإيرانيات اللغة نفسها للمطالبة بالمساواة —محوّلات الحداثة من أداة إمبراطورية إلى تطلّع محليّ.

### خامساً: تلاقي الفكر والسياسة

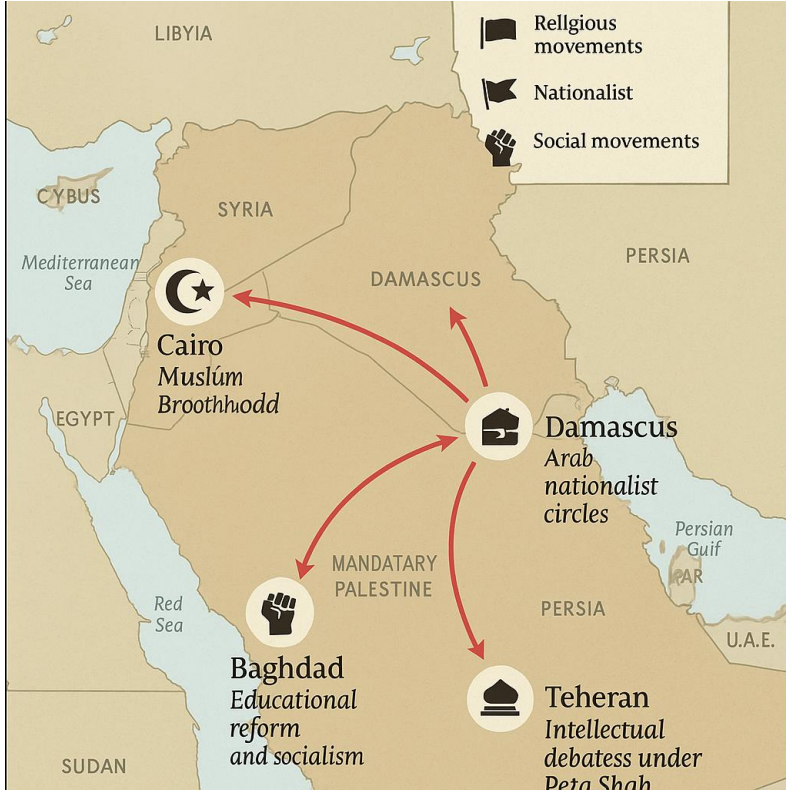
عشية الحرب العالمية الثانية، كان المشهد الأيديولوجي في الشرق الأوسط قد تبلور في ثلاث رؤى متداخلة:

1. **الحداثة الأخلاقية الإسلامية:** تسعى إلى التجديد من خلال الإيمان والإصلاح الاجتماعي.
2. **القومية العربية:** تدعو إلى الوحدة الثقافية والاستقلال السياسي.
3. **الإصلاح الاجتماعي:** يركّز على التعليم والمساواة والعدالة الاقتصادية.

لم تكن هذه التيارات تتنافس في عزلة، بل تفاعلت وتداخلت، وتشاطرت لغةً مشتركة من الأصالة والتحرر.

وسيشكّل هذا التلاقي القاعدة الفكرية لحركات الاستقلال بعد الحرب، والمختبر الأيديولوجي للشرق الأوسط الحديث.

وكما قال المؤرخ ألبرت حوراني «: لم تكن الثلاثينيات سنوات هدوء تحت الحكم الاستعماري، بل كانت السنوات التي أعدّت فيها العقول الأرضية للثورة القادمة» (حوراني 1991، ص. 319).



## القسم الخامس: الحرب والتحول — الحرب العالمية الثانية ونهاية النظام الاستعماري (1939–1950)

جلب اندلاع الحرب العالمية الثانية إلى الشرق الأوسط ما سمّته المؤرخة إليزابيث مونرو «الزلازل الثاني للإمبراطورية».

فالمناطق، التي كانت لا تزال تتعافى من إعادة تشكيل الحرب الكبرى، وجدت نفسها من جديد في قلب الصراع العالمي — لا بوصفها ساحة معركة للسيادة، بل خزاناً للموارد والمسالك والأيدي العاملة (أوين 2012، ص. 163–166). كان الأثر المباشر للحرب هو العسكرية؛ أما نتائجها الأعمق فكانت التحرر. وبحلول 1950، كان المشهد السياسي قد تبدّل على نحو لا رجعة فيه: انتهت الانتدابات، وظهرت أو سقطت المملّكيّات، وتنافست أيديولوجيات جديدة على تعريف معنى الاستقلال.

## أولاً: الشرق الأوسط مسرحاً استراتيجياً

حوّلت الحرب العالمية الثانية الشرق الأوسط إلى أحد أكثر الممرّات عسكريّة على وجه الأرض.

ورأت بريطانيا وحلفاؤها في قناة السويس والخليج الفارسي وبلاد الشام شرايين أساسية للإمبراطورية — شرايين للنفط واللوجستيات والاتصالات. ومنذ 1940، استضافت المنطقة ملايين من قوات الحلفاء، وقواعد جوية، وخطوط إمداد تمتدّ من مصر إلى إيران (لويس 1984، ص. 62-65).

بعد سقوط فرنسا (1940) سارعت بريطانيا إلى احتلال سوريا ولبنان لمنع سيطرة حكومة فيشي، ووضعتهما تحت إدارة فرنسا الحرة. وفي إيران، أدّى الغزو الأنغلو-سوفيتي عام 1941 إلى خلع رضا شاه — بعد أن أثارت ميوله المؤيِّدة لألمانيا قلقَ لندن وموسكو — وتنصيب ابنه محمد رضا بهلوي. وقد كشف هذا الاحتلال، وإن برّر بضرورات الحرب، هشاشة السيادة الاسمية (أنصاري 2003، ص. 94-96).

وفي العراق، قاد رشيد عالي الكيلاني انقلاباً مؤيِّداً للمحور عام 1941 أعلن القطيعة مع بريطانيا.

سُحِّقَت الانتفاضة خلال أسابيع على يد القوات البريطانية والهندية، لكنها كشفت كم كان قناع الشراكة رقيقاً؛ فحتى بعد استقلال العراق الرسمي (1932)، ظلّ مصيره مرتهناً بالحسابات الاستراتيجية للإمبراطورية (تريب 2000، ص. 59-62).

## ثانياً: اقتصاد الحرب والاضطراب الاجتماعي

أعادَت متطلبات الحرب الشاملة تشكيل اقتصادات المنطقة. فقد سبَّبت مصادرات الحلفاء للغذاء واليد العاملة ووسائل النقل اضطراباً في الأسواق، وأدَّت إلى التضخُّم ونقص السلع. وفي الوقت نفسه، خلق تدفُّق الإنفاق العسكري صناعاتٍ ووظائفٍ ونمواً حضرياً جديداً — خاصة في مصر وفلسطين وإيران. هكذا خلَّفت الحرب إرثاً مزدوجاً: معاناةً وتحديثاً في آنٍ واحد (أوين 2012، ص. 172-175).

في مصر، حوّل وجود أكثر من مليون جندي من الحلفاء القاهرة إلى مركز كوزموبوليتاني، لكنه جعلها أيضاً مسرحاً لاضطراب اجتماعي. تضاعفت إضرابات العمال وتظاهرات الطلبة والاحتجاجات المناهضة لبريطانيا بين

1942 و1946. فقد حزب الوفد صدقيته بسبب تسوياته مع بريطانيا، فيما اكتسبت جماعة الإخوان المسلمين دعمًا جماهيريًا بدمجها الرعاية الاجتماعية بالمانعة السياسية (ميتشل 1969، ص. 52-54).

وفي إيران، أثارت نواقص زمن الحرب وسيطرة الحلفاء على إنتاج النفط نفمةً واسعة، فبرز حزب توده (1941) بوصفه حركةً يسارية تطالب بالعدالة الاجتماعية ومناهضة الإمبريالية. وقد جعل التواجد البريطاني والسوفييتي المتزامن على الأرض الإيرانية من طهران مركزاً رمزياً لتوازن العالم بين الإمبراطورية والأيديولوجيا (أبراهاميان 2008، ص. 121-124).

### ثالثاً: سياسة الاستقلال

بحلول نهاية الحرب، كان الخرائط السياسية للشرق الأوسط تتبدل سريعاً. فقد فقد نظام الانتداب شرعيته تحت ثقل نفاق زمن الحرب، وبدأ يتفكك بفعل الضغط الدولي والمقاومة المحلية:

- نال لبنان استقلاله الكامل عام 1943 حين اعتقلت فرنسا بشارة الخوري ورياض الصلح، فاندلعت احتجاجات أجبرت باريس على التراجع (صليبي 1988، ص. 67-70).
- تبعته سوريا عام 1946 بعد ضغط دبلوماسي بريطاني أرغم فرنسا على الانسحاب.
- حصل الأردن في العام نفسه على الاستقلال الرسمي، واعترف بعبد الله بن الحسين ملكاً.
- أما العراق — المستقل منذ 1932 — فراح يعيد التفاوض على معاهداته تحت ضغط قومي متصاعد.
- واستعادت مصر جزءاً من سيادتها باتفاق الجلاء 1946، مع بقاء قوات بريطانية في منطقة القناة.

لقد عني تفكيك الانتدابات نهايةً الإمبراطورية الرسمية، لا نهاية نفوذها؛ إذ سعت بريطانيا وفرنسا إلى صون الهيمنة الاقتصادية والاستراتيجية عبر القواعد العسكرية وامتيازات النفط والمعونات المالية.

ومع ذلك كان التحول الرمزي لا رجعة فيه: فقد خسر خطاب الشرعية الاستعمارية سلطته الأخلاقية.

## رابعاً: فلسطين وأزمة الإرث الاستعماري

لم يتجلَّ تناقضُ فكِّ الاستعمار في مكان أوضح منه في فلسطين. خلال الحرب، تواصلت الهجرة اليهودية تحت مظلة الحماية البريطانية، وتفاقت بفعل الإبادة النازية في أوروبا.

وتعمَّق رفض العرب مع تسارع نزع الملكية، واتسع نطاق المقاومة المسلحة. كانت الثورة العربية (1936-1939) قد كشفت عمق السخط المناهض للاستعمار؛ وبحلول 1945 كانت سلطة بريطانيا تنهار تحت ضغط العمل الصهيوني المسلح والتمرد العربي (خالد 1997، ص. 59-62).

سعت خطة التقسيم الأممية (1947) إلى تقسيم البلاد بين اليهود والعرب. قبلتها المنظمات الصهيونية ورفضها القادة العرب، فاندلعت الحرب. وفي مايو 1948 أعلن قيام دولة إسرائيل؛ ودخلت الجيوش العربية؛ وكانت النتيجة النكبة: تهجير أكثر من 700 ألف فلسطيني (موريس 2004، ص. 82-86). لم تُنه هذه الواقعة الانتداب فحسب، بل افتتحت عصرًا إقليميًا جديدًا موسومًا بالاقتلاع والاستقطاب الأيديولوجي والأزمة الدائمة.

## خامساً: النظام الأيديولوجي الجديد

بدلت خبرة الحرب العالمية الثانية المشهدَ الفكري والسياسي في المنطقة. ومن مخاض ثلاثينيات القرن ووقائع الحرب تبلورت ثلاثة تيارات:

1. قومية ثورية — مثلها مبكرًا جمال عبد الناصر (ضابط شاب آنذاك) وشكري القوتلي في سوريا، تمزج الانضباط العسكري بالشعبوية الاجتماعية.
2. نشاط إسلامي — مجسّدًا في اتساع شبكات الإخوان المسلمين، يقدّم رؤية أخلاقية بديلة للبرالية الغربية والشيوعية معًا.
3. إصلاحية اشتراكية — تمزج الأفكار الماركسية والقومية، وتؤكد الاستقلال والتصنيع والعدالة الزراعية لم تكتفِ هذه الحركات بوراثنة الدولة الاستعمارية؛ بل سعت إلى تحويلها من الداخل. وقد زعمت كلّ منها أنها تمثل «الحداثة الحقة» — «أصيلة وعادلة ومحررة من الهيمنة الأجنبية».



## سادساً: المعنى الحضاري للاستقلال

مثلت سنوات ما بعد الحرب بداية صحوّة ثانية — حضارية بقدر ما هي سياسية. ولأول مرة منذ قرون، باتت مجتمعات الشرق الأوسط حرّةً — نظرياً — في تعريف آفاقها الأخلاقية والسياسية.

لكن عبء تلك الحرية كان هائلاً: كيف نوازن بين السيادة والعدالة الاجتماعية، وبين التقليد والحدّاث، وبين القومية والأخلاق الكونية؟ وكما لاحظ ألبرت حوراني: «لم يُحرّر تحريرُ الأوطان العقولَ فوراً؛ فأُسئِلت الحضارة والإصلاح بقيت، لكن هذه المرّة بصيغة لغة الاستقلال» («حوراني 1991، ص. 328).

وبحلول 1950 كان الشرق الأوسط قد دخل العصرَ ما بعد الاستعماري — لكنه عصرٌ ما زالت تطارده تركّاتُ الإمبراطورية. زالت البنية الاستعمارية؛ أمّا الصراع على المعنى فما كان قد بدأ إلا للتو.

### القسم السادس: المسارات الإقليمية (1920–1950) — طرقٌ إلى السيادة

لم تكن قصة الشرق الأوسط بين عامي 1920 و1950 مسيرة تحرّرٍ خطيّة بسيطة، بل كانت فسيفساء من التجارب المتوازية — شكّلتها استراتيجيات استعمارية متباينة، وذكريات تاريخية متراكمة، وبُنى اجتماعية متميزة. سلك كلّ إقليم طريقه الخاص نحو السيادة، لكن تحت اختلافاتهم جميعاً جرى تيارٌ مشترك: البحث عن حدّاثٍ شرعية، والسعي إلى بناء دولٍ ليست مجرد ما بعد إمبراطورية، بل ما بعد تبعية.

يتتبع هذا القسم تلك المسارات المتوازية، كاشفاً كيف أن النصف الأول من القرن العشرين وضع الأسس لكلّ من وحدة الشرق الأوسط الحديث وتفكّكه في آنٍ واحد.

### أولاً: المشرق العربي — بين الانتداب والأمة

تحمل قلبُ العالم العربي العثماني السابق — أي العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن — العبء الكامل لتجربة الانتداب. فبين عامي 1920 و1946 تحوّلت هذه الأقاليم من ولاياتٍ مُدارة إلى دولٍ مستقلة، لكن استقلالها صُفّي عبر وصايةٍ إمبراطورية متواصلة.

- **العراق:** أجبرت ثورة 1920 بريطانيا على اختراع شكلٍ جديدٍ من السيادة المقيدة — ملكية تحت الانتداب.

جاء الاستقلال (1932) بعضوية في عصبة الأمم، لكنه لم يجلب حريةً من القواعد الجوية البريطانية ولا من المعاهدات الملزمة (تريب 2000، ص. 36-40). سوريا: أدى قمع الفرنسيين للثورة الكبرى (1927-1925) إلى إضعاف الحركة الوطنية، لكنه في الوقت ذاته صاغ وعياً وحدوياً تجاوز الانقسامات الطائفية. مثل اتفاق 1936 الفرنسي-السوري والاستقلال النهائي عام 1946 انتصاراً لـ«الصبر على الانقسام» (خوري 1987، ص. 95-100).

- **لبنان:** سلك مساراً موازياً ولكن مختلفاً؛ صُمم كـ«جمهورية طائفية» تحت الإشراف الفرنسي ونال استقلاله عام 1943 عبر الميثاق الوطني — معادلة توازن بين الشراكة المسيحية-الإسلامية
- **شرق الأردن:** أنشئ أصلاً كـ«دولة حاجز» بريطانية، وتطوّر تدريجياً إلى المملكة الأردنية الهاشمية (1946)؛ ظل جيشها ممولاً ومدرباً بريطانياً، لكن سيادتها حظيت باعتراف رسمي.
- **فلسطين:** كانت الجرح المفتوح في النظام ما بعد الحرب. فبموجب وعد بلفور والانتداب البريطاني، تحولت من تعايش هش إلى حرب أهلية وتقسيم وانتهت بدون السيادة، بل بالنكبة وأزمة مستمرة دخل المشرق العربي مرحلة الاستقلال وهو مجزأً لكنه يقظ. فقد رسمت الخريطة الاستعمارية حدوداً مصطنعة، لكن تجربة الكفاح المشترك أنجبت فكرة الوحدة العربية، ممهدةً الطريق للقومية العربية وقيام جامعة الدول العربية. (1945)

MANDATES & REVOLTS	MODERNIZATION & CONTROL	IDEOLOGIES OF AWAKENING	INDEPENDENCE MOVEMENTS
Iraq 1920 Syria & Lebanon Egypt 1922 Palestine 1923	1930s	1930s	1930s Iraq 1932 Syria & Lebanon Egypt 1948

### REGIONAL TRANSITIONS, 1920–1950



### القسم الثاني: مصر وشمال أفريقيا — من الصحوة المبكرة إلى الكفاح الطويل

تباين مسار مصر والمغرب العربي بوضوح عن مسار بلاد الانتداب في المشرق. فقد نالت مصر استقلالاً شكلياً مبكراً (1922)، لكن استمرار النفوذ البريطاني عبر منطقة القناة والملكية جعل الحياة السياسية تفاوضاً دائماً بين الحرية والتبعية.

- أرست ثورة 1919 وحزب الوفد أسس الدستورية العربية الحديثة، وجعلتنا من مصر رائدة في السياسة البرلمانية. غير أن خيبة الجماهير من السياسة الحزبية وتلاعب البريطانيين أفرزت في أواخر الثلاثينيات قوى جديدة — كالإخوان المسلمين، والحركات العمالية، واتحادات الطلبة — أعادت تعريف الوطنية في أبعاد أخلاقية واجتماعية (مارسوط 1985، ص. 91–95)

- في ليبيا، بلغ كفاح السنوسيين ضد الاحتلال الإيطالي ذروته بإعدام عمر المختار (1931) وما رافقه من دمار. لم يتحقق الاستقلال إلا بعد الحرب العالمية الثانية (1951)، نتيجة توازنات دولية أكثر من مبادرة محلية (أندرسون 1986، ص. 118).
- في الجزائر وتونس والمغرب، استمر الحكم الفرنسي بسياسات الدمج القسري، ما عمّق الوعي الوطني بدلًا من إخماده. وبحلول الأربعينيات، برزت حركات قومية مثل الحزب الدستوري الجديد في تونس وحزب الاستقلال في المغرب، دمجت الخطاب الإصلاحي والإسلامي في مشروع التحرر الوطني (بّيل 2000، ص. 171-175).
- كانت معركة شمال أفريقيا الأطول زمنًا — أُلّجت بفعل الاستيطان الأوروبي، لكنها ازدادت قوةً وعنفًا بفضل وحشيته. ولم تبلغ تمامها إلا في الخمسينيات والستينيات، غير أن بذورها الأخلاقية والتنظيمية زُرعت خلال العقود الفاصلة بين الحربين.

### القسم الثالث: شبه الجزيرة العربية — السيادة المحلية والشرعية الدينية

خلق انهيار السيطرة العثمانية على الجزيرة فراغًا سياسيًا أفسح المجال لقيام أنظمة محلية جديدة. وهنا، بخلاف أقاليم الانتداب، تم بناء الدولة دون احتلالٍ أوروبي مباشر — وإن لم يخلُ من التأثير الخارجي.

- في نجد والحجاز، وحّد عبد العزيز بن سعود شبه الجزيرة عبر تحالفات قبلية وشرعية دينية وهابية ودبلوماسية حذرة مع بريطانيا. مثل تأسيس المملكة العربية السعودية (1932) انتصار نموذج السيادة العربية الأصيلة — المرتكز على الإسلام والقرابة والسيطرة الإقليمية أكثر من المؤسسات المستوردة (تيتل باوم 2001، ص. 120-123).
- في اليمن، طرد الإمام يحيى حميد الدين العثمانيين (1918) وأقام إمامة زيدية حافظت على الاستقلال بمزيج من العزلة ورفض النفوذ البريطاني في عدن.
- ظلّ اليمن ثيوقراطية محافظة، لكنه مثل رمزًا للاستمرارية ما قبل الاستعمارية (دريش 1989، ص. 72-76).
- أما إمارات الخليج (الكويت، البحرين، قطر، والإمارات المتصالحة)، فبقيت تحت الحماية البريطانية، وتدرّجت في الاندماج بالاقتصاد النفطي الذي بدأ يتحوّل جذري بعد عام 1938.

قدّمت الجزيرة العربية إذاً نموذجًا مغايرًا: استقلال بلا تحديث، واستقرار بلا مؤسسات، لكنه مع منتصف القرن صار محورًا للثقل العربي والإسلامي بفضل ثرواته النفطية الصاعدة.

#### القسم الرابع: إيران (فارس) — الإصلاح والاحتلال والمرونة

اختزلت تجربة إيران تناقضات التحديث في زمن ما بين الحربين. أسّس رضا شاه (1925) السلالة البهلوية، وانطلق في برنامج شامل للتحديث المركزي والتصنيع والعلمنة، قضى على الأرستقراطية القاجارية وقبّد سلطة رجال الدين.

كانت الطرق والسكك الحديدية والتعليم الإلزامي رموز دخول إيران عصر الحداثة (كرونين 1997، ص. 194-196؛ أبراهاميان 2008، ص. 86-88).

لكن الأساليب كانت استبدادية، واستمر النفوذ الأجنبي عبر امتيازات شركة النفط الأنغلو-إيرانية.

أدّى تقاربه مع ألمانيا إلى الغزو الأنغلو-سوفيتي (1941) وخلعه لصالح ابنه محمد رضا شاه.

غدت إيران في عهده دولةً تابعةً منخرطةً في مشروع التحديث العالمي — مفارقةً استطع سياستها حتى ثورة 1979.

اختلف المسار الإيراني عن العربي: حققت الحداثة بلا استعمارٍ مباشر، لكنها دون ديمقراطية. وترك ذلك إرثًا من الإصلاح الممركز حول الدولة، أثر بعمق في الملكيات المجاورة.

#### القسم الخامس: تركيا — ثورة من الداخل لا ضد الخارج

برزت تركيا بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية جمهوريةً ذات سيادة، لا دولةً منتدبة. قاد مصطفى كمال أتاتورك حرب الاستقلال (1919-1923) التي أطاحت بالاحتلالات الأجنبية وألغت السلطنة (1922) والخلافة (1924). أقرّ اتفاق لوزان (1923) الجمهورية التركية بوصفها الوريثة الشرعية الوحيدة للدولة العثمانية (زورخر 2010، ص. 153-156).

أعادت الكمالية صياغة العلاقة بين الإسلام والحداثة والحكم عبر مبادئها الستة: الجمهورية، القومية، العلمانية، الشعبوية، الدولة، والإصلاح.

وأصبحت العلمانية السريعة، وإصلاح اللغة، وتقنين القوانين المدنية نموذجًا  
لـ«الحداثة الذاتية المنشأ».

غير أن التجربة حملت توترات جديدة: اغتراب الهوية الدينية، وتهميش الأقليات،  
وصعود القومية البيروقراطية.

غدت تركيا مرآة للمنطقة — تُعجب وتُقلد وتُنتقد — لتُظهر أن التحديث يمكن أن  
يتحقق دون إمبراطورية، لكنه قد يعيد إنتاج منطقها السلطوي.

**القسم السادس: النتيجة الحضارية — من الإمبراطورية إلى تعريف الذات**

بحلول عام 1950، كان الشرق الأوسط قد اجتاز مُحَرقة التحوّل الحديث.  
سقطت الإمبراطوريات، وانتهت الانتدابات، لكن الصراع من أجل السيادة الأصلية لم  
يكن قد بدأ إلا لتوّه.

استوعبت كل منطقة دروس النصف قرن الماضي:

- أن الحداثة بلا عدالة هشة،
- وأن الإيمان بلا إصلاح راكد،
- وأن الاستقلال بلا وحدة ناقص.

ومن رحم هذه التناقضات وُلد المشهد السياسي لما بعد الحرب: ملكيات وجمهوريات  
وأنظمة قومية، كلٌّ منها يدّعي أنه يجسد اليقظة الحضارية لشعبه.

لقد انهار النظام الاستعماري، لكن الأسئلة التي خَلَفها — عن الهوية والشرعية  
والتقدّم ظلّت هي التي تُعرّف قدر الشرق الأوسط الحديث.

**القسم السابع: الصراعات والتشابكات الخارجية — الإرث غير المكتمل**

حوّلت العقود الثلاثة بين 1920 و1950 الشرق الأوسط من هامشٍ إمبراطوري إلى  
فسيّفاء من الدول القومية.

لكن الاستقلال لم يجلب الاستقرار. فخلف كلّ علمٍ جديدٍ اختبأت مجتمعاتٌ متصدّعة  
وحروبٌ لم تكتمل — صراعات داخلية وُلدت من حداثةٍ غير متوازنة ومن قوى

أجنبية لم تكن مستعدة للتخلي عن نفوذها. انتهى النظام الاستعماري بالاسم، لكنه بقي بالبنية والتحالفات والذاكرة.

### أولاً: الدولة المجزأة — خطوط الانقسام الموروثة

لم تكن الدول التي وُلدت بعد عام 1918 كياناتٍ طبيعية أو عضوية، بل كانت نتائج تسوياتٍ سياسية خضعت للمنطق الاستراتيجي أكثر من الانسجام الثقافي أو الاجتماعي.

وفي المشرق العربي، جعلت بريطانيا وفرنسا من الاختلاف أداةً للحكم:

- في لبنان، تحوّل التوازن الطائفي إلى مبدأ دستوري دائم للانقسام (صليبي 1988، ص. 70).

- في العراق، كرّست الإدارة الاستعمارية هيمنة النخب السنّة المدنية على حساب الأكثرية الشيعية والأطراف الكردية (تريب 2000، ص. 45-48).
- في سوريا، قادت سياسة التقسيم إلى ولاياتٍ علوية ودروزية وعربية إلى بذر الجهويات التي ستطارد البلاد لاحقاً (خوري 1987، ص. 103-105).

حتى حين تحقّق الاستقلال، ظلّت الخريطة السياسية تحمل اختلالات الحقبة الاستعمارية.

احتكرت النخب المدنية مؤسسات الدولة، فيما ظلّ الريف مهمّشاً. في مصر، فشل النظام الدستوري الوفدي في ردم الفجوة بين الطبقة المتعلّمة والفلاحين.

وفي إيران، أدّى تحديث رضا شاه إلى اغتراب القبائل ورجال الدين معاً. وفي تركيا، كشفت انتفاضة الشيخ سعيد (1925) عن التوتر بين المركزية الجمهورية والتعدّد الثقافي (زورخر 2010، ص. 164-167).

وهكذا كانت الدول الجديدة حديثة في الشكل، لكنها منقسمة في الجوهر: مركزية في السلطة، متشرذمة اجتماعياً؛ علمانية في القانون، طائفية في التكوين. فالصراع لم يكن طارئاً، بل موروثاً.

### ثانياً: ما بعد الإمبراطورية — استمرار النفوذ الخارجي

حتى مع انسحاب الإمبراطوريات رسمياً، ظلّت إمبراطوريات غير رسمية تتحكّم في المنطقة.

فقد احتفظت بريطانيا وفرنسا بالسيطرة على خطوط الطيران والقواعد العسكرية والامتيازات الاقتصادية، لتُعيد إنتاج التبعية داخل السيادة.

- في العراق، ضمن اتفاق 1930 لبريطانيا الهيمنة على الدفاع والنفط حتى الخمسينيات.
- في مصر، ظلت منطقة القناة حصناً بريطانياً، واستمرت الملكية بفضل الدعم المالي الخارجي (أوين 2012، ص. 179-182).
- في إيران، سيطرت شركة النفط الأنغلو-إيرانية على المصدر الرئيسي لعائدات الدولة، فصارت «دولة داخل الدولة» (أبراهاميان 2008، ص. 128).
- في لبنان وسوريا، تواصل الوجود الفرنسي عبر اللغة والتعليم والتجارة والمستشارين العسكريين طويلاً بعد الاستقلال.

وفي الوقت نفسه، برزت قوى جديدة:

دعمت الاتحاد السوفييتي الحركات المناهضة للاستعمار والاشتراكية في إيران وسوريا ولاحقاً مصر، معتبراً المنطقة جبهة جنوبية للثورة العالمية (أنصاري 2003، ص. 104-106).

أما الولايات المتحدة، التي كانت على الهامش قبل 1945، فقد بدأت تبرز كقوة حاسمة عبر مصالحها النفطية واعترافها المبكر بإسرائيل (1948).

هكذا وُلد ظلّ الحرب الباردة قبل أن يُعلن رسمياً — انتقالٌ من تنافس استعماري إلى صراع أيديولوجي.

لم تعد المنطقة تُحكم بامبراطورية، لكنها لم تتحرّر من الإملاءات الخارجية.

**ثالثاً: سلسلة الصراعات — من التمرد إلى الإقليمية**

أدّى التفاعل بين الضعف الداخلي والضغط الخارجي إلى ما يمكن تسميته سلسلة الصراعات في الشرق الأوسط الحديث.

كلّ انقسامٍ داخليّ جذب تدخلاً خارجياً، وكلّ تدخّلٍ عمّق الانقسام الداخلي.

ثلاثة خطوط تصدع استمرت عبر العقود:



1. الانقسام الطائفي — الذي رسّخته القوى الاستعمارية ثم استغلّه الأنظمة المحلية والرعاة والأجانب. أصبحت دول مثل لبنان والعراق والبحرين مختبراتٍ لـ«التعددية المُدارة» تتأرجح بين التعايش والأزمة.
2. الانقسام الأيديولوجي — بين القومية العلمانية والاشتراكية والإسلام السياسي، وُلد في الثلاثينيات وتفاقم في مرحلة ما بعد الحرب، إذ ادّعى كل تيار أنه يمثل «الطريق الحقيقي إلى العدالة والأصالة».
3. قضية فلسطين — نقطة التقاء الصراعات الإقليمية والعالمية. جعلت حرب 1948 من فلسطين ليست مأساة محلية فقط، بل جغرافيا أخلاقية للعالم العربي بأسره، الرمز الذي عرّف من خلاله كلّ نظام وأيديولوجيا شرعيته وهويته (خالد 1997، ص. 66-70).
4. وبحلول 1950، كانت المعادلة قد اكتملت: لن يكون الشرق الأوسط بعد الآن معزولاً عن السياسة العالمية، ولن يكون موحدًا داخليًا.

فقد اندمجت التنافسات الداخلية والاعتمادية الخارجية في دينامية واحدة — منطقة تتفاوض باستمرار على استقلالها وسط رؤى متصارعة للحضارة.

#### رابعاً: التوازن الحضاري

اختتمت مرحلة 1950-1920 بمزيج من الانتصار والتوتر. استُعِيدَت السيادة الشكلية في أنحاء المنطقة، لكن السلطة بقيت موضع نزاع — بين الدولة والمجتمع، والدين والعقل، والشرق والغرب. كما لحّص ألبرت حوراني:

«لم تكن النهضة العربية والإسلامية صحوةً واحدة، بل سلسلة من المواجهات — كلّ انتصارٍ منها يحمل في طيّاته تناقضاً جديداً» (حوراني 1991، ص. 332).

هذه التناقضات هي التي ستطبع العقود التالية: ثورات مصر، وانهيارات سوريا والعراق، واستقطاب إيران الأيديولوجي، والأزمة الدائمة لفلسطين.

لقد انتهى عصر الاستعمار؛ وبدأ عصر الصراع ما بعد الاستعماري.



## ملخص الفصل

من الانتداب إلى الثورة — النظام الاستعماري وسياسات المقاومة (1920-1950)

يتتبع هذا الفصل تحوّل الشرق الأوسط في أعقاب الحرب الكبرى — من تفكك الإمبراطوريات إلى نشوء دول قومية متنازع عليها تحت وصاية استعمارية. فمن خلال نظام الانتداب، أعادت القوى الأوروبية تشكيل الهيمنة الإمبراطورية في ثوبٍ جديد من الشرعية الدولية.

وفي بلدانٍ كالعراق وسوريا وفلسطين، أُعيد تعريف “الاستقلال” ليعني الإدارة الأجنبية، و“الحدّات” لتصبح أداة للسيطرة.

مثّلت الثورات المبكرة في عشرينيات القرن العشرين — في العراق وسوريا ومصر والمغرب العربي — ليست اضطراباتٍ معزولة، بل أولى تجليات الوعي السياسي الجماعي: إدراكًا بأن السيادة لا تُمنح بل تُنتزع.

ثم تناول الفصل كيف أدخلت الثلاثينيات نحو لغةٍ سياسيةٍ جديدة؛ إذ تبنّت الحكومات الاستعمارية والنخب الصاعدة خطاب التحديث لتثبيت سلطتها. تحوّلت المدارس والسكك الحديدية والدساتير إلى أدواتٍ للإصلاح ووسائلٍ لشرعنة الحكم.

لكن الحداثة دون تحرر عمّقت الفوارق الاجتماعية والاغتراب، فأنتجت ما وصفه ألبرت حوراني بـ “أزمة حضارة أكثر منها أزمة سياسة”.

شهدت البقطة الفكرية في الثلاثينيات بروز ثلاث تيارات كبرى — الإسلامية، والقومية العربية، والإصلاح الاجتماعي — أعادت صياغة الأسس الأخلاقية للتقدم. وقد منحت هذه التيارات تماسكاً فكرياً للوعي المناهض للاستعمار، ممهّدةً المجتمعات للتحوّلات الكبرى التي ستطلقها الحرب العالمية الثانية.

غيّرت الحرب طبيعة المنطقة، إذ جعلتها مسرحاً استراتيجياً للمواجهة العالمية، وسرّعت تفكك الإمبراطوريات، واستبدلت المنافسات الاستعمارية القديمة بصراعاتٍ أيديولوجيةٍ جديدة.

وبحلول عام 1950 كان النظام الاستعماري قد انهار، لكن تناقضات إرثه — الانقسام الطائفي، والتنافس الفكري، والتشابك الخارجي — ظلّت حيّة.

سلك كلّ إقليم طريقه الخاص نحو السيادة:

- المشرق العربي عبر الانتدابات والمعاهدات،
- مصر عبر استقلالٍ مُدار،
- الجزيرة العربية عبر توحيدٍ محليّ،
- إيران عبر الإصلاح السلالي،
- تركيا عبر التحديث الثوري.

معاً، جسّدوا مفارقة العصر: دولٌ حازت استقلالاً سياسياً، لكنها بقيت غير مكتملة فكرياً.

فقد تحوّل الصراع من تفاوض بين المستعمر والمستعمر إلى تنافسٍ داخلي بين التراث والتجديد، والعدالة والسلطة، والوحدة والبقاء.

لم يكن هذا نهاية التاريخ الإمبراطوري، بل بداية العصر ما بعد الاستعماري.

نحو الفصل الثاني: التحديث وبناء الدولة — تركيا، إيران، وبحث السيادة

ترك النصف الأول من القرن العشرين الشرق الأوسط متحولاً سياسياً لكنه مضطرب أخلاقياً.

ففي حين نالت معظم البلدان العربية والإسلامية استقلالها بالتمرد أو التفاوض، سلكت دولتان — تركيا وإيران — طريقاً أكثر جذرية: التحديث باعتباره وسيلة للسيادة.

على عكس دول الانتداب والحماية، واجهت تركيا وإيران الحداثة لا بالمقاومة، بل بالإصلاح من الداخل.

خرجت كلتاها من أنقاض الإمبراطورية مؤمنتين بأن البقاء يستلزم إعادة التكوين.

في تركيا، فكَّ مصطفى كمال أتاتورك قروناً من الموروث العثماني ليؤسس جمهورية علمانية قائمة على القومية والانضباط المدني. أما في إيران، فقد ركَّز رضا شاه بهلوي السلطة وفرض تحولاً صناعياً واجتماعياً جذرياً عبر تحديث سلطوي.

ادَّعت كلتاها تمثيل نموذج حضاري جديد — الدولة ما بعد الإمبراطورية كفاعلٍ في مسيرة التقدّم.

لكن تجاربهما كشفت أيضاً حدود التحول القسري: فالعلمانية والقومية والتصنيع وُعدت بالتححر لكنها أنجبت اغتراباً جديداً.

سيبحث الفصل التالي في هذه المشروعات الموازية لبناء الدولة، وكيف تنقَّلت تركيا وإيران بين السيادة والتقليد، والإصلاح والقمع — وكيف أعادت مساراتهما المتباينة تشكيل مفهوم الحضارة الحديثة في الشرق الأوسط.

## الفصل الثاني — التحديث وبناء الدولة: تركيا، إيران، وبحث السيادة

### 1. المقدمة المفاهيمية: المآزق ما بعد الإمبراطوري

أدى تفكك الإمبراطوريات في مطلع القرن العشرين إلى ترك فراغٍ سياسيٍّ وأخلاقيٍّ واسعٍ في أنحاء الشرق الأوسط، بلا أوصياء واضحين على الشرعية. فقد انهار النظام العثماني، وتقدّمت الهيمنة الأوروبية الاستعمارية، وتآكلت البنى السلالية القديمة، فتحوّلت المنطقة إلى مختبرٍ لتجارب الحداثة المتنافسة.

لم يعد السؤال المركزي كيف يُستعاد الاستقلال، بل ما معنى الاستقلال نفسه.

هل تُبنى السيادة على الإيمان أم على العقل؟

على التراث أم على الإصلاح؟

على الاستمرارية السلالية أم على التمثيل الشعبي؟

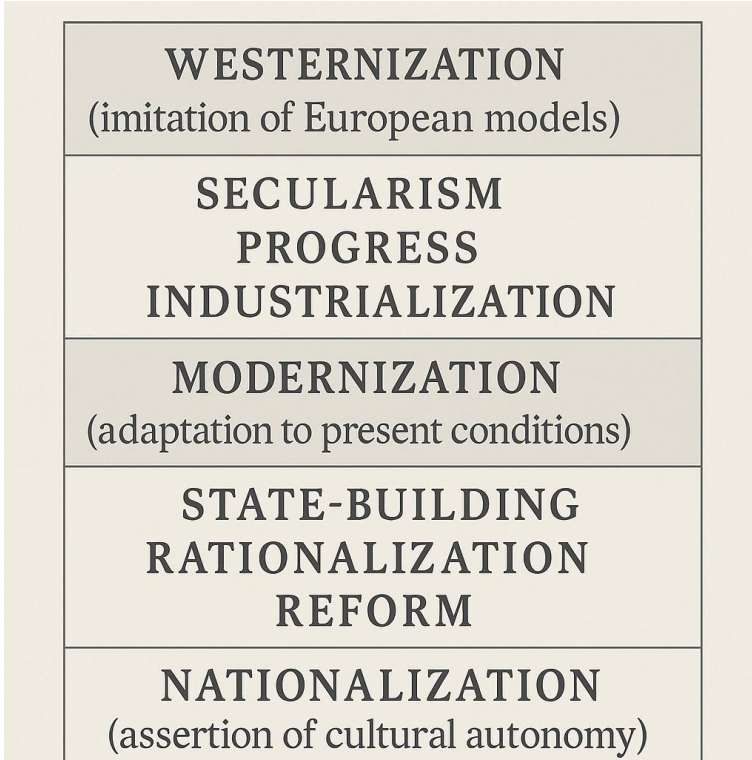
لقد واجه قادة العالم ما بعد الإمبراطوري مفارقة موروثه من القرن السابق: كيف يمكن التوفيق بين الأصالة الثقافية والدولة الحديثة في عصرٍ تحدده قوة الصناعة والقومية والإمبراطوريات العالمية.

وهكذا أصبحت العقود الأولى التي تلت الحرب العالمية الأولى مرحلة تجريبٍ وإعادة بناء.

في تركيا، نشأت جمهورية ثورية من أنقاض الإمبراطورية، وفي إيران، سعت سلالة جديدة إلى فرض التحديث من الأعلى، وفي العالم العربي، حاول المفكرون والمصلحون الموازنة بين النظام الأخلاقي الإسلامي الموروث ومتطلبات الحكم العصري.

لقد دخل الشرق الأوسط، الذي كان يومًا مركزًا للإمبراطوريات الكونية، مرحلة البحث عن حداثة ذات سيادة — مسعىً لإعادة بناء الحضارة لا عبر الإمبراطورية، بل عبر الدولة القومية.

(Figure 2.1: Conceptual chart of modernization paradigms, 1900–1950)



كان البحث عن السيادة مشروعًا مزدوج الاتجاه — داخليًا وخارجيًا في آن واحد: داخليًا، لأنه تطلب إعادة تعريف الهوية ونظام الحكم بعد قرونٍ من المركزية الإمبراطورية؛ وخارجيًا، لأنه ظلَّ مشروطًا بتفاعلات الرأسمالية العالمية والرقابة الاستعمارية والتنافس الأيديولوجي بين الليبرالية والاشتراكية والقومية. ولم يظهر هذا التوتر بوضوح كما ظهر في تركيا وإيران — دولتين غير عربيتين في قلب المنطقة، سعت كلُّ منهما إلى التحديث باندفاعٍ استثنائي، لكن على أسسٍ فلسفية متباينة جذريًا.

## 2. تركيا: التجربة الجمهورية

### 2.1 من أنقاض الإمبراطورية إلى الجمهورية الثورية

لم يكن انهيار الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى مجرد تفككٍ سياسي، بل كان أزمة معنى وهوية.

فالإمبراطورية التي جمعت شعوباً شتى تحت نظامٍ أخلاقي وإداري إمبراطوري واجهت انحلالها في مركزها ذاته.

وقد شكّل اتفاق سيفر (1920) ذروة هذا الانهيار، إذ هدد بتقسيم حتى الأناضول، محوِّلاً ما تبقى من السيادة التركية إلى إقليمٍ صغيرٍ خاضعٍ للرقابة الحليفة (زورخر، تركيا: تاريخ حديث).

في خضمّ هذا المشهد من الإذلال والضياع، برز مصطفى كمال (أتاتورك) بوصفه مهندس رؤية وطنية جديدة. فقد جمع الوفود القومية في سيواس (1919) وأنقرة (1920)، وأعاد تعريف النضال لا كمجرد حرب استقلال ضد الاحتلال الأجنبي، بل ك ثورة تجديدٍ حضاري —قطيعة مع ماضٍ إمبراطوري متآكل، وبناء جمهورية سيادية حديثة.

دارت حرب الاستقلال (1919–1923) على جبهاتٍ متعددة: ضد القوات اليونانية والفرنسية والبريطانية المحتلة، وضد بقايا التواطؤ العثماني وجمود المؤسسات القديمة. ومن الانتصار العسكري وُلد التحوّل السياسي.

ومع توقيع اتفاق لوزان (1923)، تكرّست أسس الدولة الجديدة التي رفضت في آنٍ واحد هرمية الماضي الإمبراطوري والتبعية الاستعمارية الحاضرة. ثم أُلغيت الخلافة العثمانية —رمز الوحدة الإسلامية عبر القرون— لتفسح المجال أمام رؤية جديدة للسيادة الوطنية، تتمحور حول أنقرة بدلاً من إسطنبول (كينروس، أتاتورك: ولادة أمة).

نشأت جمهورية تركيا (1923) كأول دولة ذات سيادة كاملة في الشرق الأوسط الحديث.

وكانت إصلاحات مصطفى كمال أتاتورك ذات طابعٍ ثوري شامل — إذ ألغى الخلافة (1924)، وعلمن التعليم والقانون، واستبدل الأبجدية العربية بالحروف اللاتينية (1928)، وروّج لـ القومية المدنية بدل الهوية الدينية. استندت الأيديولوجية الكمالية إلى مبدأ «العلمانية» (Laiklik) «»، الذي سعى إلى حصر الدين في الحياة الخاصة، في حين استخدم الدولة كمحركٍ للحدّثة

## 2.2 الدولة والمجتمع ومفارقة التحديث

ورغم أن المراقبين الغربيين احتفوا بما سموه “المعجزة التركية”، فإن هذا التحول حمل كلفة اجتماعية وثقافية باهظة.

فقد جرى قمع الثورات الكردية بالقوة (1925)، 1937، وتهميش المؤسسات الدينية، وترسيخ الطابع السلطوي لحزب الشعب الجمهوري (CHP)، وهو ما كشف عن مفارقة التحديث بالفسر (مانغو، أتاتورك).

أصبحت السيادة التركية شديدة المركزية، وتحول الجيش إلى حارس للهوية العلمانية للجمهورية — وهي ديناميكية ستبقى سمة مميزة للحياة السياسية التركية ل عقود لاحقة.

### الجدول الزمني لإصلاحات أتاتورك (1923–1938)

السنة	الإصلاح / الحدث	الوصف والأثر
1923	إعلان الجمهورية	إلغاء السلطنة العثمانية وتأسيس جمهورية تركيا واتخاذ أنقرة عاصمة لها. انتخاب أتاتورك أول رئيس للجمهورية.
1924	إلغاء الخلافة	الفصل الرسمي بين السلطين الدينية والدنيوية؛ إغلاق المدارس (المدارس الشرعية) والمحاكم الدينية.
1925	قانون القبعة وإصلاح الملابس	فرض أنماط الزي الغربي وتقييد الأزياء الدينية لرجال الدين فقط؛ رمز لرفض المحافظة العثمانية.
1926	تبني القانون المدني السويسري	استبدال الشريعة في قوانين الأسرة بقانون مدني علماني يضمن المساواة في الزواج والطلاق والميراث.
1927	إصلاح التعليم واللغة	إنشاء نظام موحد للتعليم العلماني قائم على العلم والعقلانية؛ تأسيس جمعيتي التاريخ واللغة التركيتين.
1928	إصلاح الأبجدية	استبدال الحروف العربية بالأبجدية اللاتينية؛ إطلاق حملات وطنية لمحو الأمية.
1930	حقوق المرأة والإصلاح السياسي	منح النساء حق التصويت المحلي؛ السماح مؤقتًا بتأسيس حزب ليبرالي لاختبار التعددية الحزبية.
1934	حق المرأة الكامل وقانون الألقاب	منح النساء حق الانتخاب والترشح للبرلمان؛ فرض قانون الألقاب العائلية (أتاتورك = "أبو الأتراك").



الوصف والأثر	الإصلاح / الحدث	السنة
اعتماد الأحد يوم عطلة رسمية بدل الجمعة؛ تبني التقويم الغربي وأنماط اللباس والمقاييس الأوروبية.	التغريب الثقافي	1935
إضافة العلمانية (Laiklik) إلى المبادئ الستة المؤسسة للجمهورية.	ترسيخ العلمانية في الدستور	1937
وفاة مصطفى كمال أتاتورك؛ ترسيخ إصلاحاته كأيديولوجيا رسمية “كالمالية” استمر تطبيقها في عهد عصمت إينونو.	وفاة أتاتورك	1938

شكّلت هذه الإصلاحات أعمق ثورة اجتماعية في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، إذ لم تقتصر على إعادة بناء مؤسسات الدولة فحسب، بل أعادت صياغة الهوية الثقافية للأمة التركية بين الإسلام والمواطنة، بين الشرق والغرب.

### 3. إيران: الإصلاح، الملكية، والثورة.

#### 3.1 تراجع القاجاريين وبوادر اليقظة الدستورية

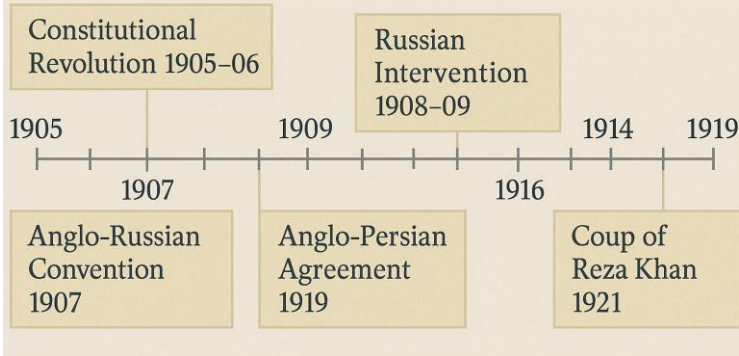
بدأت مسيرة التحديث في إيران في وقتٍ مبكرٍ نسبياً، لكنها تقدّمت بشكلٍ متعرجٍ ومتفاوت.

ففي ظلّ السلالة القاجارية (1789–1925)، كانت البلاد مفككة البنية، ينهشها النفوذ البريطاني والروسي، وتفتقر إلى إدارة مركزية فعّالة.

أدت الثورة الدستورية (1905–1911)، التي قادها التجّار والعلماء والمفكرون، إلى محاولة تقييد سلطة الشاه عبر إنشاء البرلمان (المجلس الوطني أو المجلس (وضع دستور مكتوب. لكنّ التدخّل الأجنبي، والانقسامات الداخلية بين المحافظين والإصلاحيين، حالت دون تحقيق إصلاح عميقٍ ومستدام (كدي، إيران الحديثة: الجذور والنتائج الثورية).

كانت تلك الثورة أول محاولة في الشرق الإسلامي لدمج الشرعية الدينية بالتمثيل الشعبي، وأرسّت الأساس لفكرة أن السيادة لا تُستمد من الشاه وحده، بل من الأمة أيضاً — فكرة ستعود بقوة في ثورات إيران اللاحقة.

## TIMELINE of IRANIAN CONSTITUTIONAL MOVEMENT and ANGLO-RUSSIAN INTERVENTIONS



### 3.2 رضا شاه والدولة الحديثة السلطوية

شكّل صعود رضا خان (الذي أصبح لاحقاً رضا شاه بهلوي) منعطفاً حاسماً في التاريخ الحديث لإيران. فمن خلال توطيد الجيش وإنشاء بيروقراطية مركزية قوية، سعى إلى محاكاة القومية العلمانية لأتاتورك، مع الحفاظ على التراتبية الملكية التقليدية.

في فترة حكمه (1925-1941)، جعل رضا شاه من البنية التحتية، والتصنيع، والتعليم أولوياتٍ مطلقة، وأطلق سياسة «تفريس» ثقافي تهدف إلى صياغة هوية قومية موحدة تتجاوز الانقسامات القبلية والطائفية (أمانت، إيران: تاريخ حديث).

لكنّ التحديث بقي نخبياً وقسرياً. فقد همّش المؤسسة الدينية وأضعف التحالفات القبلية التقليدية، مما أوجد توازناً هشاً انهار سريعاً مع الاحتلال الأنجلو-سوفييتي لإيران عام 1941، حين غزت القوات البريطانية والسوفييتية البلاد لتأمين خطوط الإمداد خلال الحرب العالمية الثانية

**الخريطة 2.4:** مناطق الاحتلال البريطاني والسوفييتي في إيران (1941-1946). تُظهر الخريطة تقسيم البلاد إلى منطقتين: شمالية تحت السيطرة السوفييتية وجنوبية خاضعة للنفوذ البريطاني — وهو احتلال جسّد هشاشة السيادة الإيرانية رغم مظاهر الحداثة الإدارية والعسكرية.



**3.3** لقد شكّل اكتشاف النفط نقطة تحوّل كبرى في تاريخ إيران الحديث، إذ حوّل البلاد إلى رقعة شطرنج جيوسياسية تقع عند تقاطع الإمبراطورية والحدّات. فقد أصبحت شركة النفط الأنجلو-إيرانية (AIOC) رمزاً مزدوجاً — رمزاً للتقدّم الصناعي من جهة، وأداةً للتبعية الاقتصادية من جهةٍ أخرى؛ إذ غدّت نمو الصناعة داخل إيران، لكنها حوّلت معظم الأرباح إلى الخارج.

ومع منتصف القرن العشرين، تداخلت المظالم الاقتصادية مع الطموحات القومية، لتتبلور في صعود محمد مصدق، ذلك الزعيم الذي جسّد إرادة الاستقلال الاقتصادي والسياسي.

وفي عام 1951، أقدم مصدق على خطوته الجريئة بتأميم النفط الإيراني، متحديًا الشركات الغربية ونظام الامتيازات الذي استنزف ثروات البلاد لعقود.

لكن هذا التحدي كان قصير العمر؛ إذ قادت بريطانيا والولايات المتحدة انقلابًا في عام 1953 بدعم من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية MI6 و (CIA) أطاح بحكومة مصدق وأعاد الشاه إلى العرش (كينزر، جميع رجال الشاه).

بذلك دخلت إيران مرحلة جديدة من تاريخها — مرحلة الوعي القومي الحديث الذي أدرك أن الحداثة بلا سيادة لا تثمر حرية، وأن التنمية دون عدالة تُعيد إنتاج التبعية.

(Figure 2.5: Network of foreign oil interests, 1908–1953)

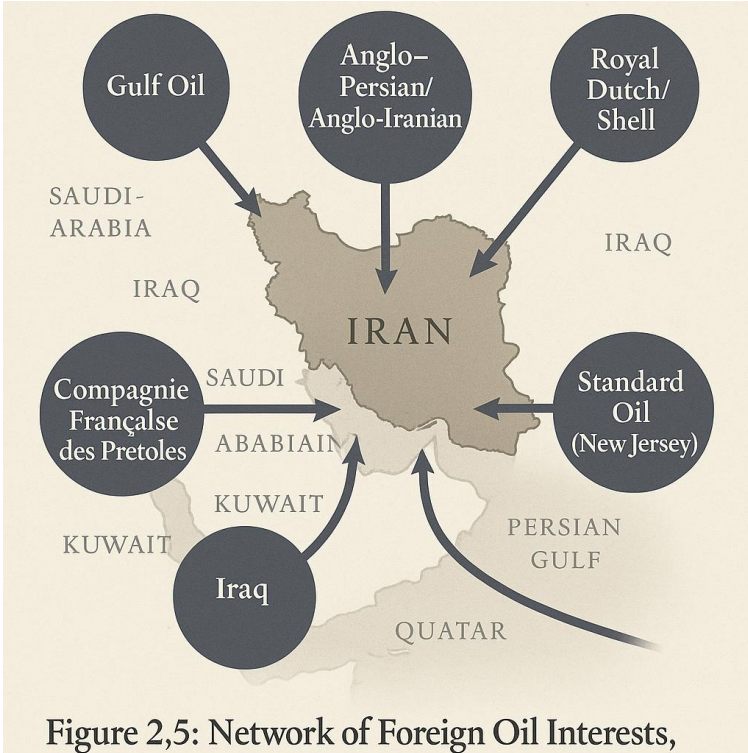


Figure 2,5: Network of Foreign Oil Interests,

#### 4. تأملات مقارنة: طريقان إلى الحداثة

على الرغم من اختلاف النظامين السياسيين — جمهوريٍّ في تركيا وملكِيٍّ في إيران — فإن كلا الدولتين تشابهتا في البنية الجهورية لمشروع التحديث. فقد اعتمدتا على السلطة المركزية القوية، والإصلاح الفوقي من الأعلى إلى الأسفل، وإعادة تشكيل العلاقة بين الدين والدولة بحيث يُحاصر الدين في المجال الخاص أو يُستوعب في النظام السياسي كأداة للشرعية. سعت كلُّ منهما إلى بناء وعي وطنيٍّ جديد منفصل عن الكوزموبوليتية الإمبراطورية القديمة، ومؤسس على أسطورة الدولة القومية الحديثة بوصفها المعبر الوحيد عن الهوية والسيادة.

إيران	تركيا	البُعد
مَلَكِيَّةٌ دستورية (1925)	جمهورية علمانية (1923)	النظام الحاكم
القومية والملكية	القومية والعلمانية ( <i>Laïcité</i> )	الركيزة الأيديولوجية
استيعاب الدين وإصلاحه لخدمة الدولة	فصلٌ وسيطرة الدولة على المؤسسة الدينية	العلاقة بين الدين والدولة
بنية تحتية قائمة على النفط والاعتماد الخارجي	تصنيع تقوده الدولة وبرامج تعليمية وطنية	التحديث الاقتصادي
صراعات متكررة انتهت بثورة 1979	مؤسسات علمانية مستقرة نسبيًا	الإرث التاريخي

مع حلول عام 1950، كانت كلُّ من تركيا وإيران قد حققت السيادة السياسية، لكنَّ كليهما بقي أسير تناقضات الحداثة: حداثةٌ مُمأسسةٌ بالسلطة لا بالمجتمع، واستقلالٌ مشروطٌ بعلاقاتٍ اقتصادية وجيوسياسية مع القوى الكبرى.

وهكذا، ومع نهاية النصف الأول من القرن العشرين، كان الشرق الأوسط يدخل مرحلة جديدة

—مرحلةٌ اندمجت فيها صراعات الشرعية والهوية والسيادة مع تنافس القوى العظمى في الحرب الباردة، لتتحول المنطقة إلى ساحةٍ فكريةٍ وجيوسياسية يلتقي فيها الإرث الإمبراطوري بمشاريع التحديث الوطني.



لقد أعيدت صياغة مفهوم الدولة العربية الحديثة داخل هذه التجربة المزروجة: «الاستقلال» بوصفه إدارةً، و«التحديث» بوصفه أداةً ضبطٍ واستمرارٍ للهيمنة.

بهذا، دخلت المنطقة مرحلة جديدة لم تعد فيها المسألة مجرد تحرر من الاستعمار، بل بحثاً عن معنى الدولة — كيف تُبنى، ولِمَن تمثل، وبأي قيم تُحكم.

## الحداثات العربية والتحويلات الاستعمارية (1919–1950)

### الحداثة العربية بين الاستعمار والفاعلية الثقافية

عبر هذه الأقاليم المختلفة، لم تنشأ الحداثة العربية بوصفها مجرد ردّ فعلٍ على الاستعمار، بل كانت محاولةً لإعادة تأكيد الفاعلية الثقافية والسياسية للعرب. ففي القاهرة ودمشق وبغداد، انشغل المفكرون العرب بقضية جوهريّة: كيف يمكن التوفيق بين الإسلام والقومية والعقلانية الحديثة؟ وكيف يمكن تحقيق التحديث دون فقدان الأصالة؟

### 5.2 مصر: بين الإصلاح والثورة

كانت مصر في طليعة النهضة السياسية العربية. ورغم إعلان استقلالها الشكلي عام 1922، بقيت القوات البريطانية تسيطر على قناة السويس، والسياسات الخارجية والدفاعية، مما جعل سيادتها منقوصة ومشروطة.

قاد سعد زغلول وحزب الوفد حركةً وطنيةً تعتمد الوسائل الدستورية، محاولين إقامة نظامٍ ليبراليٍّ يجمع بين البرلمانية والإصلاح الاجتماعي (مرسوط، تاريخ موجز لمصر الحديثة).

السنة	الحدث / التطور	الوصف والأهمية
1919	ثورة 1919	مظاهرات وطنية بقيادة سعد زغلول وحزب الوفد ضد الاحتلال البريطاني، مثّلت بداية الوعي القومي الحديث.
1922	إعلان الاستقلال الشكلي	بريطانيا تُنتهي حمايتها رسمياً وتقرّ بمملكة مصر تحت فؤاد الأول، لكنها تحتفظ بالتحكم في الدفاع والسياسة الخارجية والقناة.
1923	الدستور والنظام البرلماني	صدور دستور ليبرالي ينص على الملكية الدستورية وبداية الانتخابات البرلمانية.

الوصف والأهمية	الحدث / التطور	السنة
عودة النفوذ البريطاني بعد اغتيال رئيس الوزراء، وانكشاف حدود الاستقلال السياسي.	اغتيال سعد زغلول	1924
الملك فؤاد يُعطل الدستور ويصدر ميثاقاً استبدادياً، لتبدأ معركة جديدة لاستعادة الحياة النيابية.	إلغاء الدستور	1930
في عهد الملك فاروق، تُمنح مصر استقلالاً أوسع، مع بقاء القوات البريطانية في منطقة القناة.	المعاهدة البريطانية المصرية	1936
إنذار بريطاني يُجبر الملك على تعيين حكومة وفدية، كاشفاً عن استمرار التبعية.	حادث قصر عابدين	1942
مصر تؤكد زعامتها الإقليمية وتوازن بين هويتها التحررية ودبلوماسيتها الملكية.	تأسيس جامعة الدول العربية (القاهرة)	1945
هزيمة الجيش المصري تُضعف النظام الملكي وتُعزّي حركات المعارضة.	حرب فلسطين	1948
انقلاب بقيادة جمال عبد الناصر ومحمد نجيب يُسقط الملك فاروق ويُعلن الجمهورية.	ثورة الضباط الأحرار	1952

لكن التجربة الليبرالية المصرية تأكلت بسبب الهيمنة البريطانية والتفاوت الاجتماعي. فقد أظهرت اغتالات 1924 وتدخلات لندن المستمرة هشاشة النظام البرلماني.

وفي المقابل، نشأت حركات إصلاح إسلامي، أبرزها جماعة الإخوان المسلمين (1928) بقيادة حسن البنا، التي قدّمت نقداً أخلاقياً للنخب الغربية النزعة، ودعت إلى إحياء القيم الإسلامية في إطار اجتماعي حديث (مينشل، جماعة الإخوان المسلمين).

أصبحت مصر بذلك مرآة للتجربة العربية: بين الليبرالية الوطنية والإصلاح الإسلامي، بين محاكاة الغرب واستعادة الحداثة الأصلية.

### 5.3 العراق والتجربة الهاشمية

مثل تأسيس المملكة العراقية (1921) تحت حكم الملك فيصل الأول —وهو أمير هاشمي من الحجاز تسويةً بين الطموحات العربية القومية والهيمنة البريطانية. فقد اعتمد مشروع فيصل في بناء الدولة على نخبة سنية بيروقراطية،



الأمر الذي همّش الأغلبية الشيعية والعشائر الكردية، فنشأ نظامٌ يقوم على تحالف هَشٍّ بين الولاءات التقليدية والرقابة البريطانية (تريب، تاريخ العراق).

أضفى اتفاق 1930 البريطاني-العراقي طابعاً رسمياً على استقلالٍ شكلي، إذ احتفظت بريطانيا بقواعدها العسكرية وامتيازات النفط. واجهت الملكية سلسلة انقلاباتٍ عسكرية (1936) وانتفاضاتٍ شعبية، عكست تنامي السخط على التبعية ورفض «الاستقلال الموجه».

وهكذا أصبحت بغداد نموذجاً مبكراً لما سيُعرف لاحقاً بـ«الدولة ما بعد الاستعمارية» — دولةٌ تمتلك السيادة رسمياً لكنها مقيدةٌ بشبكات النفوذ الإمبراطوري، تُدار باسم التحديث، لكنها تحمل في داخلها بذور الاضطراب السياسي والاجتماعي.

(Figure 2.8: Political timeline of Iraq, 1921–1958)

Political Developments in Iraq, 1921–1958								
	1921	1925	1930	1939	1939	1941	1954	1958
Monarchy		Fayṣal I				Fayṣal II		
Political Events		1925 Constitution		Mriticr Military Coup		1941 British Occupation		1954 Replam-mentary Crisis
Anglo-Iraqi Treaty			1930 Treaty				1948 Portsmouth Treaty	
Revolts and Coups		1935–1936 Tribal Uprisings			1948 al-Wathbah Uprising			1958 14 July Revolution

#### 5.4 سوريا ولبنان: الانتداب الفرنسي وميلاد القومية العربية

في المشرق الخاضع للسيطرة الفرنسية، تحوّلت سوريا ولبنان إلى بورتين للحراك الفكري والسياسي العربي.

اتبعت الإدارة الفرنسية سياسة «فرّق تسد»، فقسّمت سوريا إلى مناطق طائفية: دمشق، حلب، دولة العلويين، وجبل الدروز، فيما منحت الطائفة المارونية في لبنان

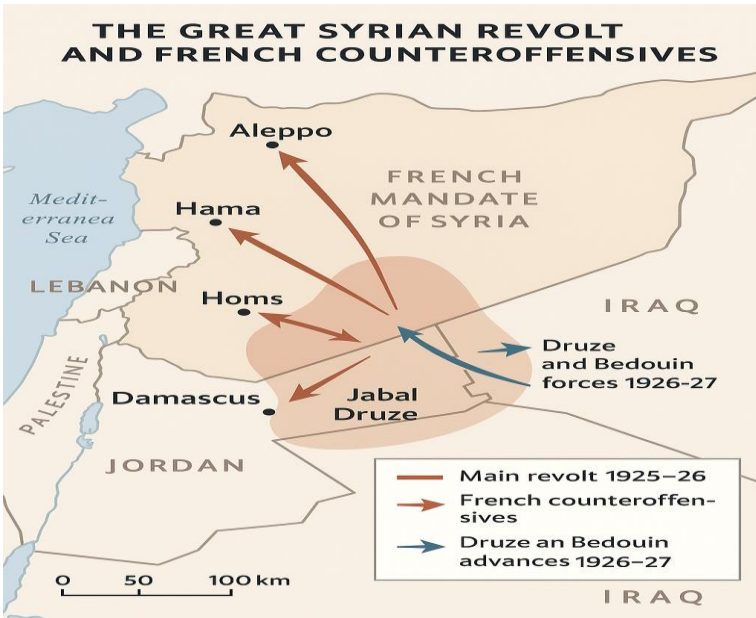
امتيازاتٍ خاصة، ممهّدةً لتأسيس كيانٍ لبناني منفصل ذي طابعٍ طائفي (خوري، سوريا والانتداب الفرنسي).

أدت هذه التجزئة المصطنعة إلى تأجيج المقاومة الوطنية، التي بلغت ذروتها في الثورة السورية الكبرى (1925–1927) بقيادة الزعيم سلطان الأطرش.

وقد اتحدت فيها قوى درزية وسُنّية ومسيحية تحت شعار التحرر الوطني، لتصبح أول ثورةٍ شاملةٍ في المشرق ضد الانتداب الأوروبي (كومينز، المعجم التاريخي لسوريا).

وعلى الرغم من القمع الوحشي الذي واجهته — من قصف دمشق بالطائرات إلى حملات الاعتقال والنفي فقد شكّلت هذه الثورة تحوُّلاً نوعياً في الوعي العربي: إذ انتقلت القومية العربية من كونها فكرةً أدبية نخبوية إلى أن تصبح حركةً جماهيرية تحمل معنى التحرر والوحدة.

لقد كان الانتداب الفرنسي، paradoxically، بمثابة الرحم الذي وُلدت فيه القومية العربية الحديثة: إذ سعت فرنسا إلى تفكيك المجتمع السوري، لكنها أيقظت فيه إحساساً بالهوية المشتركة، ليغدو النضال ضد الاستعمار بداية السعي نحو وحدةٍ عربيةٍ تتجاوز الحدود المصطنعة.



## 5.5 فلسطين: القومية، الانتداب، والاقتلاع

تميّزت فلسطين عن سائر أقاليم المشرق، سواءً من حيث مأساتها التاريخية أو تأثيرها الإقليمي العميق. فوعد بلفور (1917) وما تبعه من الانتداب البريطاني رسّخا تناقضًا جوهريًا في السياسة الدولية تجاه فلسطين: فقد ألزمت بريطانيا نفسها في آن واحد بدعم «الوطن القومي اليهودي» و«وصون حقوق السكان العرب»، لكن التنفيذ العملي انحاز بوضوح لمصلحة المشروع الصهيوني (خالدي، القفص الحديدي).

مع تسارع الهجرة اليهودية خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، بدأ المجتمع الفلسطيني ينقسم سياسيًا واجتماعيًا: بين نخبٍ مدنيّة متعلّمة وفلاحين مثقلين بنزع الأراضي وارتفاع الضرائب، وبين تياراتٍ تدعو إلى المقاومة المسلحة وأخرى تراهن على الوسائل الدبلوماسية.

جاءت الثورة العربية الكبرى (1936–1939) لتكون أطول وأشدّ الانتفاضات ضد الاستعمار في الشرق الأوسط بين الحربين. فقد توخّدها الفلاحون والعلماء والوجهاء في مواجهة السلطة البريطانية والاستيطان الصهيوني. إلا أن القمع العسكري البريطاني العنيف — من حملات الإعدام والنفي إلى تدمير القرى أدّى إلى تفكك القيادة الوطنية الفلسطينية التقليدية، ممهّدًا الطريق نحو نكبة 1948، التي شهدت اقتلاع أكثر من 700 ألف فلسطيني من أرضهم (سيغف، فلسطين واحدة كاملة).

كانت فلسطين، إذن، المرأة المأساوية للقرن العشرين العربي: أرضًا جرّدت من سيادتها باسم «الوصاية» و«التحضّر»، وقضيةً تجاوزت حدودها لتغدو الضمير الجمعي للعالم العربي بأسره — رمزًا للظلم الاستعماري وللصراع الأبدي بين التحرر والاقتلاع.

**(Figure 2.10: Palestinian Revolt and British counter-insurgency zones, 1936–1939)**

1936	April	General strike begins across Palestine
	Oct.	Peel Commission recommends partition
1937	July	Arrests of rebel leaders, committees disbanded
	Sept.–	Highlands under martial law
	Oct.	Special military zones established
1938	Oct.	British military reoccupies major cities
1939	May	British deploy 30,000 troops
	Dec.	London White Paper

**Figure 2.10: Palestinian Revolt and British counter-insurgency zones, 1936–1939**

## 5.6 شمال أفريقيا: من الإصلاح إلى المقاومة

على خلاف المشرق، خضعت شمال أفريقيا لهيمنة استعمارية مباشرة لا لنظام الانتداب.

فالجزائر كانت قد ضُمَّت رسميًا إلى فرنسا منذ عام 1830، وأصبحت مستعمرة استيطانية يسكنها مئات الآلاف من الأوروبيين الذين تمتعوا بحقوقٍ سياسية واقتصاديةٍ حُرِّم منها السكان الأصليون. أما تونس والمغرب فخضعتا لنظام الحماية (Protectorat)، الذي أبقى على بعض مظاهر السيادة المحلية بينما احتكر الفرنسيون القرار السياسي والاقتصادي (جوليان، تاريخ شمال أفريقيا).

في العقود الفاصلة بين الحربين العالميتين، برزت في المنطقة حركات إصلاحية وسياسية تطالب بالنهضة والكرامة، وتجمع بين الوعي الإسلامي والفكر القومي العربي:

- في تونس، ظهر حزب الدستور (دستور) ثم الحزب الجديد (نيو دستور) بقيادة الحبيب بورقيبة، داعيًا إلى إصلاح تدريجيٍّ ومشاركةٍ سياسيةٍ أوسع.
- في المغرب، تأسس حزب الاستقلال (الاستقلال) الذي دعا إلى التحرر الوطني في إطار العروبة والإسلام، مع الحفاظ على الشرعية الملكية كرمزٍ للوحدة.

- في الجزائر، نشأت دوائر إصلاحية حول فرحات عباس وجمعية العلماء المسلمين بقيادة عبد الحميد بن باديس، التي دعت إلى إحياء اللغة العربية والهوية الإسلامية في مواجهة سياسة الفرنسة والتدوين الثقافي.

لقد مثلت هذه الحركات الجيل الأول من الوعي الوطني المغاربي، إذ أدركت أن مواجهة الاستعمار لم تكن فقط معركة سياسية، بل صراعاً من أجل استعادة اللغة، والذاكرة، والروح الحضارية.

وبينما كانت أوروبا تغوص في أزمتها بين الحربين، كانت مدن تونس والجزائر وفاس تحتضن بذور الفكر الذي سيثمر لاحقاً حركات الاستقلال الكبرى في الخمسينيات، لتصبح شمال أفريقيا جزءاً فاعلاً من النهضة العربية الشاملة التي أعادت تعريف معنى الحرية والهوية في القرن العشرين.

## 5.7 تأملات مقارنة: الحداثة الاستعمارية وإرثها

جسّرت هذه الحركات بين المشرق والمغرب العربي فكرياً، إذ ربطت صحافتها ومنظماتها الطلابية في القاهرة وباريس القضية العربية بحركات التحرر الآسيوية والأفريقية، فمهّدت لما سيصبح موجة التحرر العالمية بعد الحرب العالمية الثانية.

عبر العالم العربي، تطورت الحداثة في ظل هيمنة الإمبراطورية. أدخلت الدولة الاستعمارية أنظمة المركزية الإدارية والتعليم والبنية التحتية، لكن ضمن إطار صُمم للسيطرة لا للتحرر. وقد أفرز هذا التناقض أشكالاً سياسية هجينة: ملكيات دستورية بلا سيادة كاملة، وجمهوريات بلا شرعية مستقرة، وقوميات منقطة بالانقسامات الطائفية.

الإرث	السمة الرئيسية	الشكل السياسي (1920-1950)	القوة الاستعمارية	الإقليم
صعود الإسلام الثوري	ليبرالية تابعة	مملكة شبه مستقلة	بريطانيا	مصر
عدم استقرار وانهيارات	عسكرة السياسة	انتداب → ملكية	بريطانيا	العراق
القومية كعامل توحيد	تقسيم طائفي	انتدابات جمهوريات →	فرنسا	سوريا / لبنان

الإقليم	القوة الاستعمارية	الشكل السياسي (1920-1950)	السمة الرئيسية	الإرث
فلسطين	بريطانيا	انتداب	مشروع وطني مزدوج	تهجير 1948
المغرب العربي	فرنسا	محميات / مستعمرة	سياسة الاستيعاب	راديكالية ما بعد الحرب

## الجدول 2.2: مسارات التحرر في العالم العربي (1920-1950)

وبحلول منتصف القرن العشرين، عكست مسيرة البحث العربي عن السيادة المشهد الإقليمي الأوسع: تحديثٌ مشروطٌ بالتبعية، وتحرُّرٌ يمر عبر التجزئة. فغروب الحقبة الاستعمارية لم يجلب بعدُ تقرير المصير، لكنه أيقظ جيلاً مصمماً على انتزاعه.

## 6. شبه الجزيرة العربية وسياسة التقليد (1900-1950)

### 6.1 مفارقة العزلة والمركزية

في مطلع القرن العشرين، بدت شبه الجزيرة العربية — للوهلة الأولى — وكأنها منعزلة عن التحولات الكبرى التي عصفت بالشرق. فرمالها الشاسعة، واتحاداتها القبلية، وإماراتها المتفرقة جعلتها تبدو بعيدة عن مشاريع التحديث التي كانت تشهدها القاهرة أو طهران أو أنقرة.

لكن الواقع كان مختلفاً؛ إذ ظلت الجزيرة العربية القلب الروحي والجغرافي للعالم الإسلامي،

تحتضن مكة والمدينة، وترمز إلى الشرعية الدينية والتاريخية التي لم تزل تشد أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

إن عزلتها النسبية حمتها من الاحتلال المباشر الذي عانت به بقية الأقاليم، لكنها أيضاً أبقتها خارج مسار التطور الإداري والتقني الحديث. ومع ذلك، فإن موقعها على مفترق طرق البحر الأحمر والخليج العربي، إضافة إلى اكتشاف النفط في المنطقة الشرقية (1938)، حوّلها تدريجياً إلى مركزٍ جديدٍ للنقل الاستراتيجي والديني في الشرق الأوسط.

وهكذا كانت مفارقة الجزيرة واضحة: عزلتها أنقذتها من الاستعمار، ومركزيتها الروحية والاقتصادية جعلتها محورًا للعالم العربي والإسلامي في النصف الثاني من القرن العشرين.

(Map 2.12: Political divisions of the Arabian Peninsula, c.1920)



هنا اتخذت الحداثة شكلاً مميزاً — لم يكن قائماً على القومية العلمانية أو الوصاية الغربية، بل على ترسيخ الممالك ذات الشرعية الدينية. فبينما كان المشرق العربي يُعاد تشكيله تحت نظام الانتداب الاستعماري، انبثقت التحولات السياسية في الجزيرة العربية من داخل نسيجها الثقافي الخاص، مشكّلةً من تفاعل السياسة القبلية، والإسلام الإصلاحي، والتحالفات الاستراتيجية مع القوى العالمية.

## 6.2 صعود المملكة العربية السعودية: الوحدة عبر العقيدة والفتح

كان توحيد شبه الجزيرة العربية أعظم إنجاز سياسي في تاريخها الحديث، وقد تحقق على يد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (ابن سعود)، الذي جمع بين الدبلوماسية القبلية والشرعية الدينية والقوة العسكرية لتأسيس دولة مركزية.

فمنذ استعادته للرياض عام 1902، بدأ ابن سعود مسيرةً منهجيةً لتوحيد الأقاليم المتفرقة: نجد، ثم الأحساء، وأخيرًا الحجاز (1925-1924)، منهيًا بذلك قرونًا من الحكم الهاشمي في الحجاز (العريفي، تاريخ المملكة العربية السعودية / Madawi al-Rasheed, A History of Saudi Arabia).

لقد مثل مشروع ابن سعود نموذجًا فريدًا للوحدة في العالم الإسلامي الحديث — وحدة جمعت بين القبيلة والعقيدة والدولة، ورست نموذجًا للحكم يستمد شرعيته من الإسلام والقيادة الشخصية أكثر من اعتماده على النماذج المؤسسية الغربية.

أعلن قيام المملكة العربية السعودية عام 1932، ليشكّل ذلك لحظة ولادة نموذجٍ سياسيٍّ جديد في العالم الإسلامي — ملكية دينية تستمد شرعيتها من التراث الإصلاحي الوهابي.

لقد استندت شرعية الملك عبد العزيز بن سعود إلى التحالف التاريخي بين آل سعود والعلماء في نجد، الذين منحوا الغطاء الشرعي لمشروع توحيد الجزيرة وبناء الدولة بوصفه وسيلةً لإعادة النظام الإسلامي إلى الحياة العامة.

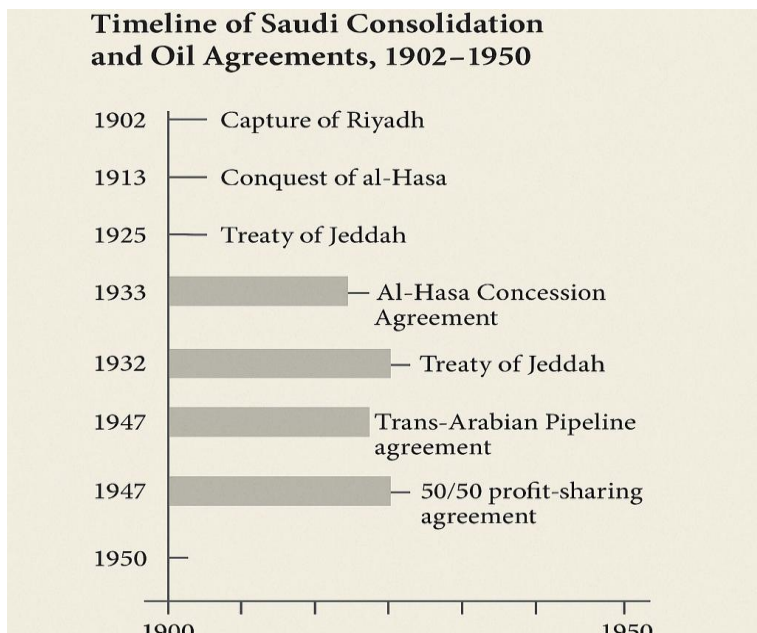
إلا أن التحديث في السعودية كان انتقائيًا وحذرًا؛ فبينما عمدت الدولة إلى مركزة السلطة وتنظيم شؤون الحج وبناء بنية تحتية محدودة، فقد قاومت الأيديولوجيات العلمانية التي كانت تهيمن على المشرق آنذاك. ورأت في الإصلاح الديني أساسًا كافيًا لبناء الدولة الحديثة دون الحاجة إلى تقليد النماذج الغربية.

أما اكتشاف النفط في الدمام عام 1938، وما تبعه من اتفاقيات مع الشركات الأمريكية (أرامكو)، فقد غيّر موقع المملكة جذريًا — إذ تحولت من صحراء هامشية إلى فاعلٍ اقتصادي عالمي،



ومن مجتمع قائم على البداوة والتشرف إلى دولة تمتلك أدوات التأثير في أسواق الطاقة والسياسة الدولية (فيتاليس، مملكة أمريكا / Robert Vitalis, America's Kingdom). وهكذا وُلد نموذج الدولة السعودية: تحديث مضبوط بالإيمان، واقتصاداً عالمي قائم على النفط، وسيادة دينية واجتماعية قاومت التغريب دون أن تعزل نفسها عن العالم.

(Chart 2.14: Timeline of Saudi consolidation and oil agreements, 1902–1950)



### 6.3 اليمن: بين الإمامة والإصلاح

على خلاف جارتها الشمالية، احتفظت اليمن بنظام تقليدي محافظ تحت حكم الإمامة الزيدية بقيادة الإمام يحيى حميد الدين (1904–1948) فمن مركزه في صنعاء، حكم الإمام من خلال مزيج من السلطة الدينية والتحالفات القبلية، رافضاً الإصلاحات العثمانية ومحاولات التغلغل البريطاني القادمة من محمية عدن.

لقد حافظت عزلة اليمن الجزئية على سيادتها لكنها أعاقَت عملية التحديث. فقد بقيت الطرق والمدارس والصناعة محدودة للغاية،

إذ رأى الإمام في الابتكارات الأجنبية تهديداً للدين وللإستقلال الوطني. أما اغتيال الإمام يحيى عام 1948 فقد أطلق شرارة ثورة دستورية قصيرة العمر — كانت أول إشارة إلى مواجهة اليمن القادمة مع الحداثة — لكن النظام المحافظ ما لبث أن استعاد قبضته تحت حكم الإمام أحمد (بوروز، القاموس التاريخي لليمن / Burrowes, Historical Dictionary of Yemen).

#### الازدواجية السياسية في اليمن — الشمال الزيدي مقابل عدن البريطانية

السمات الاجتماعية والاقتصادية	العلاقات الخارجية	الأساس الأيديولوجي	السلطة السياسية	الإقليم
تحديث محدود، اعتماد على الزراعة والجبليات القبلية. التعليم ديني، والبنية التحتية بدائية	سياسة انعزالية، رفضت التدخل العثماني ثم الغربي. اتصالات محدودة بإيطاليا ومصر للاعتراف الدبلوماسي	ملكية دينية قائمة على الزيدية، تركز على الشرعية الأخلاقية والوساطة القبلية	إمامة يحيى حميد الدين (1904-1948) ثم الإمام أحمد (1948-1962)	اليمن الشمالي (الإمامة الزيدية)
تحديث سريع في مرافق الميناء والتعليم والصحة في عدن، مع فجوة اقتصادية حادة بين المدينة والداخل	تحت السيطرة البريطانية، جزء من شبكة الدفاع الإمبراطوري بين السويس والهند	إدارة استعمارية علمانية تركز على التجارة والأمن البحري	مستعمرة عدن التاجية البريطانية (1937) مع محميات تابعة	اليمن الجنوبي (عدن والمحمية)

في المقابل، تطور الوجود البريطاني في عدن من محطة تموين بالفحم إلى مركز تجاري إقليمي، مما دمج المدينة في شبكات الملاحة العالمية. هذا التباين — بين ثيوقراطية شمالية منغلقة ومستعمرة جنوبية رأسمالية — مهّد لظهور الانقسام الطويل الأمد في اليمن خلال القرن العشرين.

## 6.4 مشيخات الخليج: محميات في مرحلة الانتقال

في المشيخات الخليجية الصغيرة — الكويت والبحرين وقطر والولايات المتصالحة (التي أصبحت لاحقاً الإمارات العربية المتحدة) — تطورت ملامح الدولة الحديثة تحت الحماية البريطانية. فابتداءً من معاهدات الصلح (1820-1892)، فرضت بريطانيا السلام البحري على الخليج مقابل احتكارها إدارة العلاقات الخارجية.

وبحلول أوائل القرن العشرين، أصبحت هذه الإمارات شبه محميات: تمارس استقلالاً داخلياً محدوداً في الشؤون المحلية، بينما تتولى لندن الدفاع والدبلوماسية نيابة عنها وهكذا شكل الخليج نموذجاً خاصاً للحدث التدريجية: تحديث إداري واقتصادي تحت المظلة البريطانية، لكنه أرسى الأساس لقيام دولٍ مستقلةٍ نفطية في النصف الثاني من القرن العشرين.

## 6.4 اكتشاف النفط والتحول الاقتصادي في الخليج

أدى اكتشاف النفط في البحرين عام 1932 ثم في الكويت عام 1938 إلى تحول جذري في البنية الاقتصادية والاجتماعية لمنطقة الخليج. فقد انهارت منظومة الغوص على اللؤلؤ والتجارة التقليدية لتحل محلها اقتصادات ريعية نفطية عززت ثراء الأسر الحاكمة ورسّخت في الوقت نفسه التفاوت الاجتماعي.

ومع ذلك، وعلى خلاف مناطق أخرى من الشرق الأوسط، تمكّنت الملكيات الخليجية من تجنب الاستعمار المباشر أو الثورات العنيفة، محافظةً على شرعيتها السلالية من خلال القدرة على التكيف البراغماتي مع المتغيرات الاقتصادية والسياسية.

وهكذا تبلور النموذج الخليجي الفريد: ملكية قبلية متحالفة مع الرأسمالية العالمية، نموذج سيصبح لاحقاً العلامة المميزة لحدث الخليج ما بعد الاستعمار.

## 6.5 الحجاز وتحول المشهد المقدس

شهد إقليم الحجاز — الذي يضم مكة والمدينة — أحد أعمق التحولات في تاريخ المنطقة الحديث.

ففي ظل الحكم العثماني، تمتّع الحجاز بنظام شريفٍ شبه مستقل، استند اقتصاده إلى عوائد الحج وازدهر بتبادل ثقافي وتجاري واسع.

غير أن الفتح السعودي في منتصف العشرينيات أعاد تشكيل هذا الفضاء المقدس جذريًا:

فقد جرى ضم الحجاز إلى الدولة السعودية المركزية، وفرضت السلطات الجديدة العقيدة الوهابية كأساس للنظام الديني، بينما شرعت تدريجيًا في تحديث البنية التحتية للحج (كومينز، الدعوة الوهابية والمملكة العربية السعودية / Commins, *The Wahhabi Mission and Saudi Arabia*).

تحوّل الحج السنوي — الذي كان في الماضي فضاءً للتفاعل الفكري والاجتماعي بين شعوب العالم الإسلامي إلى أداة من أدوات الشرعية السياسية ووسيلةٍ للدبلوماسية الدينية الدولية.

ومع تطور التنظيم الإداري، تم شق الطرق وبناء المساكن وتوسيع الخدمات وتنظيم الدخول والمواقيت، فأصبحت القداسة نفسها جزءًا من مشروع الدولة الحديثة.

وبهذا تجسّد في الحجاز جوهر معضلة الحداثة الشرق أوسطية: كيف يمكن توحيد الإرث الروحي مع السيادة البيروقراطية، أو بكلمات بيترز (الحج إلى مكة والأماكن المقدسة): “إن تحديث المقدس كان الوجه الآخر لتحديث الدولة”.

## 6.6 تأملات مقارنة: الملكية والحداثة والقدرة على البقاء

سلكت الجزيرة العربية بين عامي 1900 و1950 مسارًا سياسيًا مميزًا عن بقية الشرق الأوسط.

فبدلاً من الخضوع لإعادة الهيكلة الاستعمارية، حافظت مجتمعاتها على الاستمرارية السياسية من خلال مؤسساتها التقليدية الولاء القبلي، والشرعية الدينية، والاستقرار السلافي.

غير أن هذه التقاليد أثبتت قدرتها على التكيف، إذ تمكّن الحكام من الانخراط الانتقائي مع مظاهر الحداثة من تقنيات ودبلوماسية واقتصاد نفطي دون التفريط بأسس الشرعية الموروثة.

الإرث التاريخي	نمط التحديث	التأثير الخارجي	البنية السياسية	الإقليم
استبداد مستقر	مركزية داخلية	محدود (النفط) (الأميركي)	ملكية دينية	المملكة العربية السعودية
تحديث متأخر	تحديث مجزأ ومحافظ	مزدوج (عثماني/بريطاني)	إمامة ومحمية بريطانية	اليمن
استقرار ريعي	تحديث نفطي تكيفي	محميات بريطانية	ملكيات قبلية	مشيخات الخليج
مركزية إسلامية عالمية	تطوير بنية الحج	مركزية دينية	أقاليم مقدسة تحت الحكم السعودي	الحجاز

تمثل الجزيرة العربية إذاً نموذجاً مضاداً للحدث العثمانية: تجربة في الحفاظ على السيادة من خلال لغة الإيمان لا الثورة. وقد ضمن بقاؤها في الحقبة ما بعد الحرب أن يعتمد النظام الشرق أوسطي في القرن العشرين. ليس فقط على إرثي الإمبراطورية والقومية، بل أيضاً على استمرار بنية السلطة التقليدية بوصفها أحد أعمدة الشريعة السياسية.

## 7. التفاعلات الإقليمية وعتبة الحرب الباردة (1945-1950)

### 7.1 نهاية الإمبراطورية وإعادة تشكيل موازين القوة

أحدثت نهاية الحرب العالمية الثانية إعادة ترتيب عميقة في الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط، هي الأوسع منذ سقوط الدولة العثمانية. فقد استنزفت الحرب الإمبراطوريات الأوروبية، وحقرت الشعوب المستعمرة على المطالبة بالاستقلال، وكشفت المنطقة أمام التنافس الأيديولوجي العالمي.

خرجت بريطانيا وفرنسا منتصرتين عسكرياً لكن منهكتين مالياً، بينما برزت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كقوتين جديتين تنقسمان رسم النظام الدولي.

وفي هذا المشهد المتغيّر، اكتسبت السيادة في الشرق الأوسط بعدًا استراتيجيًا؛ إذ تداخلت النفط والجغرافيا والأيديولوجيا، لتجعل من المنطقة إحدى الواجهات الأولى للمواجهة بين المعسكرين — مقدمةً لبداية مرحلة الحرب الباردة التي ستعيد رسم خريطة النفوذ في العقود التالية.



بينما قدّم القادة القوميون الاستقلال باعتباره تحررًا أخلاقيًا وحضاريًا، أعادت القوى الغربية تعريف الشرق الأوسط بوصفه منطقة عازلة بين العالمين الرأسمالي والشيوعي.

هذا التوتر — بين التحرر الوطني والاصطفاف الأيديولوجي — سيُصبح السمة المميّزة لعقودٍ تالية من الصراع والدبلوماسية والإصلاح.

## 7.2 الانكماش الإمبراطوري البريطاني

ظلت بريطانيا القوة المهيمنة في الشرق الأوسط حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، لكنها سعت بعد الحرب إلى الحفاظ على نفوذها بوسائل غير استعمارية مباشرة: من خلال المعاهدات والقواعد العسكرية والملكيّات الحليفة بدل الاحتلال والإدارة المباشرة.

جسّدت معاهدة التحالف البريطاني-العراقي (1948)، والنزاعات المتواصلة مع مصر حول قناة السويس، والسيطرة المستمرة على عدن ومحميات الخليج، استراتيجية جديدة تُعرف بـ الانسحاب المنظم — أي الاحتفاظ بالحضور دون كلفة الإمبراطورية.

لكن هذا البراغمية الإمبراطورية لم تُثمر استقرارًا، بل زادت السخط الشعبي:

- في مصر، رأى القوميون في القواعد البريطانية انتهاكًا لسيادة البلاد؛
- وفي العراق، اعتبر الضباط الوطنيون تعديلات المعاهدات إهانةً للكرامة الوطنية؛
- أما في فلسطين، فقد اتُّهمت لندن بانتهاج سياسات مزدوجة سهّلت الهجرة الصهيونية وأدت إلى تشريد السكان العرب.

وبحلول عام 1950، تقلّصت الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط إلى شبكة هشّة من المحميات والتحالفات، تتآكلها حركات التمرد القومي التي سرعان ما ستقلب موازين النفوذ الإقليمي.

### 7.3 الحساب الاستعماري الفرنسي

في المقابل، واجهت فرنسا سلسلةً متصاعدة من الأزمات في سوريا ولبنان وشمال أفريقيا. فقد كشفت إعادة احتلال سوريا بالقوة عام 1945، وما تلاها من انتفاضات عنيفة في الجزائر وتونس، عن حدود القدرة الفرنسية على الحفاظ على إمبراطوريتها.

حاولت باريس التمسك بالسيطرة عبر القوة والتقسيم الإداري، لكن هذه السياسات لم تؤدِّ إلا إلى تعميق الروح القومية في المستعمرات. أما الانسحاب من سوريا ولبنان عام 1946، فقد مثّل نهاية نظام الانتداب والسقوط الرمزي للنظام الإمبراطوري القديم في المشرق العربي.

لقد فشلت فرنسا في التوفيق بين التحديث والاستقلال الذاتي، وهو الفشل الذي مهّد لصراعات التحرر المقبلة في شمال أفريقيا، حيث سيصبح عبء الإمبراطورية لا يُطاق (هورن، حرب سلام وحشية / Horne, A Savage War of Peace).

ورغم ذلك، تمسكت فرنسا في المغرب العربي بما سمّته مهمتها التمدينية، رافضة مطالب الاستقلال، وممهدةً لظهور المقاومات المسلحة التي ستفجر لاحقاً في الجزائر وتونس والمغرب.

وبحلول منتصف الأربعينيات، أصبحت قضية المغرب العربي جزءاً من النقاش الأوروبي الأوسع حول العرق والحدثة وإنهاء الاستعمار في مرحلة ما بعد الحرب.

#### 7.4 الصعود الأمريكي

دخلت الولايات المتحدة — التي كانت حتى ذلك الوقت هامشية في شؤون الشرق الأوسط — ميدان المنطقة باعتبارها قوةً عالمية حاسمة. كانت مصالحها اقتصاديةً وأيديولوجيةً في آنٍ واحد: تأمين النفط، خصوصاً في السعودية وإيران، ومنع التمدد السوفييتي في سياق الحرب الباردة الناشئة.

رمز إلى هذه الشراكة الجديدة اللقاء التاريخي بين الرئيس فرانكلين روزفلت والملك عبد العزيز آل سعود على متن البارجة الأمريكية يو إس إس كوينسي عام 1945، وهو لقاء أسس لعلاقة تقوم على الطاقة والاستقرار الاستراتيجي بدلاً من السيطرة الإمبراطورية المباشرة (Lenczowski, *American Presidents and the Middle East*).

أما مبدأ ترومان (1947)، الذي صُمم لاحتواء الشيوعية في اليونان وتركيا، فقد وسّع حدود الأمن الأمريكي لتشمل الشرق الأوسط بأسره. ساهمت المساعدات الأمريكية في تحديث القوات المسلحة التركية وفي تثبيت الحكومة الإيرانية بعد الحرب، خصوصاً خلال أزمة أنزبيجان (1946) حين احتلت قوات مدعومة من الاتحاد السوفييتي شمال إيران لفترة وجيزة (Kuniholm, *The Origins of the Cold War in the Near East*).

وهكذا بدأ التحول الحاسم في ميزان القوى: إذ تراجعت أوروبا الاستعمارية، وبرزت الولايات المتحدة ك الضامن الجديد للنفط والأمن، فاتحةً بذلك العصر الأمريكي في الشرق الأوسط.



وهكذا بدأت تحولات الشرق الأوسط من هامش استعماري إلى مفترق طرق في الحرب الباردة، حيث أصبحت المساعدات الخارجية والإصلاحات الداخلية أدوات لإعادة الاصطفاف الجيوسياسي.

## 7.5 التيار السوفييتي المضاد

قدّم الاتحاد السوفييتي نفسه بوصفه نصير الشعوب المقهورة، ورفع شعار التضامن المناهض للإمبريالية ضد الهيمنة الغربية. ورغم أن نفوذه المباشر في الشرق الأوسط ظل محدودًا، فقد شهدت المنطقة تصاعدًا في الحركات اليسارية والشيوعية، خصوصًا في العراق وسوريا ومصر، التي قدّمت بدائل فكرية بين الرأسمالية الغربية والملكية المحافظة.

اتسم الوجود السوفييتي في شمال إيران (1946–1945)، ودعمه للمطالب الكردية بالحكم الذاتي، واعترافه المبكر بـ إسرائيل عام 1948، بـ البراعماتية لا الأيديولوجية. فقد سعت موسكو إلى توسيع نفوذها الإقليمي عبر الأيديولوجيا العمالية والخطاب المناهض للاستعمار، وليس من خلال الاحتلال المباشر أو الغزو العسكري (1946–1941 / Hasanli, *At the Dawn of the Cold War*).

بهذا، لم تكن السياسة السوفييتية ثورة عالمية بقدر ما كانت موازنة استراتيجية ضد النفوذ الغربي، مستخدمةً الشعارات التحررية كوسيلة لكسب القلوب والعقول في العالم العربي والآسيوي.

## 7.6 فلسطين وصدمة عام 1948

لم يجسّد أي حدث تناقضات السيادة بعد الحرب بقدر ما فعل قيام دولة إسرائيل ووقوع النكبة الفلسطينية عام 1948. فقد شكّل تأسيس الدولة الجديدة — الذي أقرّته خطة التقسيم الأممية (1947) ودعمه الاعتراف الغربي السريع — تحولًا جذريًا في طبيعة القضية الفلسطينية، من نزاع استعماري محلي إلى أزمة عربية شاملة ذات بعد أخلاقي وسياسي.

أدّى الانتصار الإسرائيلي والهزيمة العربية في حرب 1948 إلى انهيار مصداقية الملكيات التقليدية وكشف عجز النظام العربي بعد الحرب عن تحقيق التحرير أو الوحدة.

كما تسبب النزاع في تشريد مئات الآلاف من الفلسطينيين عبر المشرق، ليتحول اللجوء إلى رمز للظلم التاريخي ومحور تعبئة للحركات القومية والثورية الصاعدة (خالدي، القفص الحديدي: قصة النضال الفلسطيني من أجل الدولة / Khalidi, The Iron Cage).

أصبحت النكبة لحظة الوعي الجمعي للعرب، ومنطلقاً لمرحلة جديدة من السياسة الثورية، إذ لم تعد القضية الفلسطينية مجرد مأساة وطنية، بل مرآة لهزيمة النظام العربي بأسره.

لقد أعاد هذا الحدث المفصلي تشكيل المخيلة السياسية العربية: فأصبحت السيادة لا تُفهم بوصفها مشروعاً وطنياً فحسب، بل واجباً إقليمياً أيضاً. ومن رحم هذه الصدمة التاريخية وُلدت الانقلابات والثورات والتحويلات الأيديولوجية التي ستغيّر وجه المنطقة خلال العقود التالية.

## 7.7 الدبلوماسية الإقليمية والرؤى القومية العربية

في أعقاب عام 1948، بدأت محاولات جديدة للتعاون العربي الإقليمي تتخذ أشكالاً مؤسسية. فقد أُسست جامعة الدول العربية في القاهرة عام 1945، بهدف تنسيق السياسات السياسية والثقافية والدفاعية بين الدول العربية المستقلة حديثاً. كانت الجامعة أول محاولة رسمية لتحويل فكرة الوحدة العربية إلى إطار دبلوماسي ملموس.

إلا أن الجامعة، منذ نشأتها، عكست التناقضات الداخلية للعالم العربي نفسه — بين الملكيات المحافظة والجمهوريات الثورية، وبين الأنظمة الساعية إلى الاستقرار والحركات المطالبة بالتغيير الجذري (داويشا، القومية العربية في القرن العشرين / Dawisha, Arab Nationalism in the Twentieth Century).

هذه الانقسامات ستشكل مسار العلاقات العربية-العربية لعقود لاحقة، محدّدة طبيعة التحالفات والانقسامات التي رسمت خريطة الشرق الأوسط الحديث.

وظلت الفكرة القومية العربية (الوحدة العربية) أقرب إلى طموح أيديولوجي منها إلى واقع مؤسسي، إذ أعاققتها المنافسات بين القاهرة ودمشق وبغداد والرياض. ومع ذلك، وفّرت الجامعة إطاراً لهوية عربية مشتركة، ومنصةً للتعبير عن الوجدان القومي الجمعي، ممهّدة الطريق لظهور منظمات إقليمية لاحقة ستحدد ملامح الدبلوماسية العربية في مرحلة ما بعد الاستعمار.

بحلول عام 1950، كان الشرق الأوسط يقف على مفترق طرقٍ تاريخي. فقد تراجع النظام الاستعماري شكلياً، لكن إرثه العميق ظل حاضراً — في الاعتماد الاقتصادي، والحدود المصطنعة، والوصاية العسكرية التي كُتلت سيادة الدول الحديثة. وفي المقابل، بدأت تحالفات جديدة تتشكل على أسس النفط والأيديولوجيا والدين، لتعيد رسم توازن القوى الإقليمي.

الإرث والنتائج	الهدف الاستراتيجي	آلية التأثير	الفاعل
إمبراطورية في أفول، واستياء شعبي دائم	الحفاظ على طرق التجارة والسيطرة على النفط	القواعد العسكرية والمحميات	بريطانيا
ثورات المغرب العربي، وخسارة المشرق	الاحتفاظ بالهبة ومقاومة الاستعمار	السياسة الثقافية والاستعمارية	فرنسا
هيمنة استراتيجية طويلة المدى	احتواء الشيوعية وضمان تدفق النفط	المساعدات الاقتصادية والأمنية	الولايات المتحدة
صعود الحركات اليسارية	تقويض الغريبة	الدعم الأيديولوجي والسياسي	الاتحاد السوفيتي
بروز القومية العربية وتفاقم التنافس الداخلي	تحقيق الاستقلال الإقليمي	الدبلوماسية الجماعية والقومية العربية	الدول العربية

#### الجدول 2.4: الفاعلون الجيوسياسيون واستراتيجياتهم (1945-1950)

مع بزوغ عصر الحرب الباردة، أصبح التحديث في الشرق الأوسط مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بـ الجغرافيا السياسية. فقد تداخلت حركات الإصلاح الداخلي مع ضغوط الاصطفاف الخارجي، وتصارعت الأنظمة القومية العلمانية مع الصحوات الدينية على تعريف مستقبل المنطقة.

وهكذا كان المسرح مهياً لعقودٍ مضطربةٍ من الثورات والانقلابات والاستقطابات الأيديولوجية التي ستشكل ملامح الشرق الأوسط في منتصف القرن العشرين — منطقة خرجت من عباءة الاستعمار، لكنها لم تبتأ بعد من آثاره.

# الفصل الثالث — عصر الانقلابات والأيدولوجيات (1950–1970)

## 1. المقدمة: من السيادة إلى الثورة

مع مطلع الخمسينيات، دخل الشرق الأوسط مرحلة جديدة من تحوُّله الحديث. فقد بدأ عصر الاستقلالات التفاوضية والملكيات الدستورية يتراجع، ليحلَّ محله عصر الانقلابات العسكرية، والثورات الشعبوية، والتحوُّلات الأيدولوجية.

تميزت هذه الحقبة — ما بين عامي 1950 و1970 — بمجموعة جديدة من الأسئلة الجوهرية:

- من الذي يمثل الشعب حقًا؟
- هل يمكن للتحديث أن يتعايش مع العدالة الاجتماعية؟
- وكيف يمكن للدول أن تتعامل مع ضغوط القومية من الداخل والحرب الباردة من الخارج؟

عبر المنطقة، تغيَّرت رموز الشرعية من سلطةٍ وراثيةٍ إلى كاريزما ثورية. فقد حُلَّت الجيوش محلَّ القصور الملكية كمحرِّكاتٍ للتحوُّل السياسي، وأصبحت الإذاعات — لا المساجد ولا البرلمانات — منابر الأيدولوجيا الجديدة. وغدا خطاب التحرر من الإمبريالية والرأسمالية والإقطاع الإطار الذي صيغت ضمنه لغة السياسة في العالمين العربي والإسلامي.

## 2. الثورة المصرية ولحظة الناصرية

### 2.1 من الملكية إلى الجمهورية

شكَّل انقلاب الضبَّاط الأحرار عام 1952 في مصر منعطفًا حاسمًا في التاريخ السياسي العربي.

قاد الحركة جمال عبد الناصر ومحمد نجيب، فأطاحا الملك فاروق وألغيا النظام الملكي، منهيين بذلك عقودًا من الحكم السلالي الخاضع للنفوذ البريطاني.

ما بدأ كحركةٍ عسكريةٍ وطنيةٍ سرعان ما تحوَّل إلى ثورةٍ اجتماعيةٍ شاملة. سعت القيادة الجديدة إلى تفكيك البنى الطبقية الراسخة في الملكية الزراعية

والامتيازات الأجنبية والليبرالية النخبوية، وأعدت تعريف النظام السياسي لمصر على أسس من العدالة الاجتماعية، والاستقلال الوطني، والقومية الجمهورية (قنديل، الجنود والجواسيس ورجال الدولة: طريق مصر إلى الثورة).

جسّد قانون الإصلاح الزراعي لعام 1952 — الذي حدّد ملكية الأراضي وأعاد توزيعها على الفلاحين — الرسالة الاجتماعية للثورة: تفكيك البنية الإقطاعية في الريف المصري، وترسيخ العدالة الاقتصادية كقاعدة للتجديد الوطني.

وبحلول عام 1956، كان جمال عبد الناصر قد أحكم سلطته، وأعلن قيام الجمهورية المصرية، ثم قرّر تأميم قناة السويس، في خطوة فجّرت أزمة دولية كبرى.

أدت أزمة السويس (1956) إلى مواجهة مباشرة بين مصر من جهة، وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل من جهة أخرى، حيث شنّت الدول الثلاث هجوماً عسكرياً مشتركاً لإعادة السيطرة على القناة وإسقاط النظام الجديد. ورغم التفوق العسكري للمعتدين، خرج ناصر منتصراً سياسياً، إذ أجبرت الضغوط الدولية — وخصوصاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي — قوات الغزو على الانسحاب. وبذلك تحوّل تحدي مصر إلى رمز للسيادة العربية والقيادة المناهضة للإمبريالية (كايل، السويس: نهاية الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط).

## 2.2 الناصرية كأيدولوجيا

أصبحت صيغة الناصرية — التي مزجت بين القومية العربية والاشتراكية ومناهضة الاستعمار — الأيدولوجيا السائدة في المنطقة. فقد جمعت بين الخطاب الشعبي والسلطة المركزية، وبين التعبئة الجماهيرية والبيروقراطية القومية.

تحوّلت إذاعة “صوت العرب” إلى الأداة الرئيسية لتنفيذ ناصر العابر للحدود، تنتشر رسالته عن الوحدة العربية والاشتراكية والتحرر في أنحاء المنطقة. وقد ألهم خطابه الحركات الثورية في سوريا والعراق واليمن وسواها، جاعلاً من القاهرة مركز الخيال السياسي العربي

ومع ذلك، جسّد حكم ناصر مفارقة الثورة الحديثة: فبينما رفع شعار التحرر من الهيمنة وسيادة الشعب، قام في الوقت ذاته بتأسيس دولة أمنية مركزية قمعت المعارضة وحدّت من التعددية السياسية. وهكذا، فإن الثورة التي وُعدت بالتحرير، أنجبت نموذجًا جديدًا من السلطوية — حديثًا، جماهيريًا، ومتجذرًا في لغة التحرر ذاتها.

### 3. سوريا والعراق

شهدت سوريا سلسلة من الانقلابات العسكرية عكست حالة التشظي في السياسة ما بعد الاستعمار. فبين عامي 1949 و1963، تعاقبت على الحكم أنظمة متعددة قادها كلٌّ من حسني الزعيم، وسامي الحناوي، وأديب الشيشكلي، ثم لاحقًا ضباط حزب البعث.

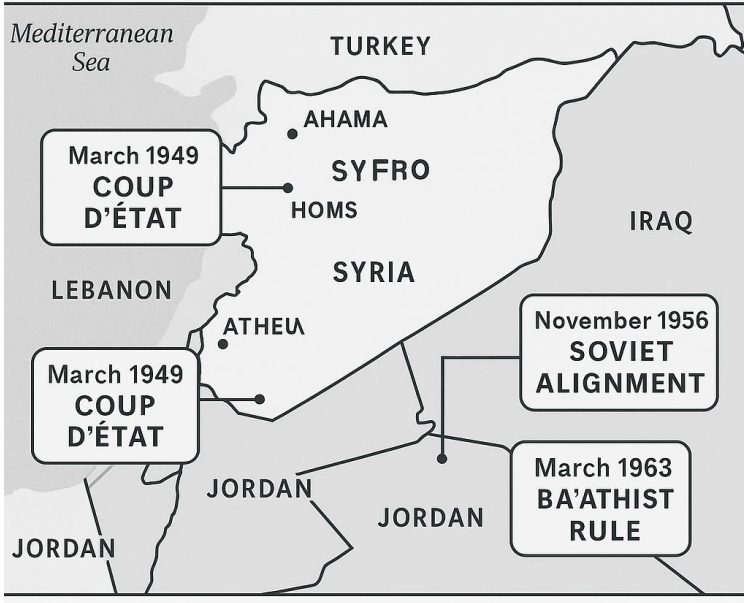
أسّس كلٌّ من ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي قدّم رؤية فكرية تمزج بين القومية العربية والاشتراكية، داعيًا إلى نهضة عربية جماعية (بعث) تستعيد الكرامة والحدّثة (دفلن، حزب البعث: تاريخ من النشأة إلى عام 1966).

جسّدت أيديولوجية البعث توليفةً بين الإحياء الثقافي والعدالة الاجتماعية، ساعيةً إلى تحرير الإنسان العربي من الهيمنة الأجنبية ومن الركود الداخلي في آنٍ واحد.

وجاء قيام الجمهورية العربية المتحدة — (1958–1961) — ليمثل الذروة الرمزية لهذا الحلم. غير أن قصر عمر الاتحاد كشف عن الهشاشة البنوية للوحدة العربية، إذ أدت المركزية الإدارية والريبة المتبادلة واختلال توازن القوى إلى تفككه سريعًا.

ظلّ حلم الأمة العربية الواحدة حيًّا في الخطاب السياسي، لكن تحقيقه العملي بقي بعيد المنال — رمزًا دائمًا للطموح الوحدوي الذي اصطدم بواقع الانقسامات المحلية والإقليمية.

## TIMELINE OF SYRIAN COUPS AND POLITICAL ALIGNMENTS, 1949-1963



### 3.2 ثورة العراق عام 1958

استلهم الضباط الأحرار في العراق ثورتهم من الناصرية والمد القومي العربي الواسع، ففي 14 يوليو 1958، قاد عبد الكريم قاسم انقلاباً أنهى حكم الملكية الهاشمية، ليضع حداً لعقود من النظام المتحالف مع بريطانيا (ترب، تاريخ العراق).

ألغت الثورة النظام الملكي، وانسحبت من حلف بغداد، وأعلنت قيام الجمهورية العراقية على أسس العدالة الاجتماعية، والاستقلال الوطني، والإصلاح الاقتصادي.

غير أن النظام الجديد سرعان ما انهار تحت وطأة الانقسامات الداخلية، إذ تنافست القوى الأيديولوجية — من الناصريين والشيوعيين والبعثيين — على النفوذ، فتحول وعد التحرير إلى صراع على السلطة. والثورة التي أرادت توحيد العراق كشفت في الواقع عن الشقوق العميقة في نسيجها السياسي والاجتماعي، ممهدة لعقود من الاضطراب المستقبلي. وبحلول الستينيات،

كان حزب البعث قد استولى على الحكم في كلٍّ من سوريا والعراق، محوِّلاً الاشتراكية العربية إلى أداةٍ لهيمنة الدولة الحزبية.

#### 4. إيران وتركيا: حادثان موجَّهتان

##### 4.1 إيران في عهد الشاه

أُقيمت انقلاب عام 1953 —الذي أطاح برئيس الوزراء محمد مصدق بتدبير بريطاني—أمريكي مرحلةً من السلطوية الصاعدة تحت حكم رضا شاه بهلوي عزم الشاه على التحديث دون ديمقراطية، فأطلق عام 1963 ما سُمِّي بـ الثورة البيضاء، وهي برنامج شامل للإصلاح الزراعي، ومنح المرأة حقَّ التصويت، وتوسيع التصنيع، وتحديث التعليم.

لكن تلك الإصلاحات، رغم طابعها الحداثي، عمَّقت الانقسامات الاجتماعية: فقد عارضتها النخب الريفية التي تضررت من إعادة توزيع الأراضي، وهاجمها رجال الدين بسبب طابعها العلماني، واستنكرها المثقفون لقمعها الحياة السياسية.

بذلك استبدل النظام التقدّم الاقتصادي بالمشاركة السياسية، ممهِّداً الطريق لتصاعد الاحتقان الشعبي — وهو التناقض الذي سيتحوّل لاحقاً إلى ثورةٍ عارمة. مولّت عائدات النفط طبقةً وسطى جديدة، لكن القمع السياسي والاعتماد على الغرب عمَّقا عزلة النظام عن المجتمع، وزرعا بذور الثورة القادمة تحت واجهة التحديث الظاهري.

##### 4.2 التجربة الديمقراطية في تركيا والصاوية العسكرية

في تركيا، شهدت مرحلة ما بعد أتاتورك انفتاحاً حذرًا نحو التعددية السياسية. فقد شكّل فوز عدنان مندريس وحزبه الديمقراطي عام 1950 أول انتقال سلمي للسلطة عبر انتخاباتٍ حرة —علامة فارقة في التاريخ السياسي للشرق الأوسط (زورخر، تاريخ تركيا الحديث).

عملت الحكومة الجديدة على توسيع الائتمان الريفي، وتخفيف القيود على الممارسات الدينية، واعتماد سياسات اقتصادية شعبية تهدف إلى ردم الفجوة بين المدينة والريف.



غير أن هذه التجربة كشفت هشاشة الأسس الديمقراطية للجمهورية؛ إذ أدّت الاختلالات الاقتصادية والاستقطاب السياسي والتوتر بين النخبة العلمانية والمحافظين الدينيين إلى إضعاف المؤسسات المدنية.

وفي عام 1960، تدخل الجيش التركي وأطاح بمندريس، مبرراً تدخله بأنه دفاع عن إرث أتاتورك والنظام الدستوري.

كرّس هذا الانقلاب دور الجيش بوصفه الوصي على الديمقراطية العلمانية، وأرسى نمطاً من التدخل الدوري الذي تكرر طوال الحرب الباردة—توازن هش بين الحداثة والانضباط السلطوي.

## 5. المغرب العربي وثورة الجزائر

### 5.1 الاستقلال بالقوة

تعدّ حرب الجزائر من أجل الاستقلال (1954–1962) واحدة من أكثر حركات التحرر الوطني عنفاً وتأثيراً في القرن العشرين. قاد جبهة التحرير الوطني (FLN) الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الممتد لأكثر من قرن (هورن، حرب وحشية من أجل السلام).

مزجت الثورة بين حرب العصابات والمقاومة الحضرية والتعبئة السياسية، وحملت رؤية تجمع بين القومية والاشتراكية والهوية الإسلامية، ساعية إلى تحرر سياسي واجتماعي في آن واحد.

واجهت فرنسا الثورة بقمع وحشي شمل الاعتقالات الجماعية والتعذيب وتدمير القرى، ما زاد من راديكالية الحركة ودولية الصراع. تحولت الحرب إلى معركة أخلاقية وأيديولوجية بين خطاب "التمدّن" الغربي وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها.

وعندما تحقق الاستقلال عام 1962، أصبحت الجزائر رمزاً عالمياً للتحرر عبر الكفاح، ومصدر إلهام لحركات التحرير في إفريقيا وآسيا، وتذكيراً دائماً بالثمن الإنساني الفادح لعملية إنهاء الاستعمار.

لقد كشفت حملة فرنسا الوحشية عن تناقضات الليبرالية الغربية، وأطلقت موجة من الصحوة الثورية العالمية.

أما انتصار جبهة التحرير الوطني فقد ألهم الحركات الراديكالية في العالمين العربي والإفريقي لسنواتٍ لاحقة.

## 5.2 تونس والمغرب

وعلى النقيض من التجربة الجزائرية، فقد نالت تونس بقيادة الحبيب بورقيبة والمغرب بقيادة الملك محمد الخامس استقلالهما عبر التفاوض السياسي لا عبر الثورة المسلحة. اتبع الزعيمان مسارًا إصلاحيًا هدفه التحديث الاجتماعي والاقتصادي، من خلال توسيع التعليم، وتمكين المرأة، وإطلاق برامج التنمية، لكن ضمن أطر ملكية أو شبه سلطوية حافظت على مركزية الدولة وهيبة الحاكم.

## 6. شبه الجزيرة العربية: بين التقليد والدولة الحديثة

شهدت الخليج العربي والمملكة العربية السعودية خلال العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية تحولًا غير مسبوق من حيث السرعة والحجم. فقد غير اكتشاف النفط واستثماره طبيعة المجتمعات الخليجية من كيانات قبلية محدودة الموارد إلى محاور استراتيجية للاقتصاد العالمي.

أدى إنشاء شركة أرامكو (ARAMCO)، وتأسيس البيروقراطيات الوطنية، ونشوء مدن حديثة مثل الرياض والكويت والدوحة، إلى إعادة تعريف مفهوم السلطة والسيادة مع الحفاظ على الشرعية الأسرية والدينية (فيتاليس، مملكة أمريكا).

أصبح النفط في آنٍ واحد أساس التحديث وضمان الاستمرارية؛ فقد تكاثرت الطرق والمدارس والمستشفيات، لكن المشاركة السياسية بقيت محدودة. رسّخت الملكيات الخليجية حكمها عبر شبكات الرعاية، والشرعية الدينية، والتحالف مع القوى الغربية، فوفّقت بين الحداثة التقنية والاستمرارية التقليدية.

ونشأ عن هذا المزيج نموذجٌ فريد: ثروة بلا ديمقراطية، وتنمية بلا علمنة — وهو النموذج الذي شكّل الاقتصاد السياسي لشبه الجزيرة العربية، ورسم ملامح الدولة الحديثة في الشرق الأوسط المتأخر.

في الوقت الذي اتجهت فيه مصر والعراق نحو الاشتراكية الثورية، رسّخت السعودية والدول الخليجية الصغيرة موقعها في المحافظة الدينية والتحالف مع الغرب. أصبح هذا التباين الأيديولوجي أحد السمات المميزة للسياسة الإقليمية خلال فترة الحرب الباردة وما بعدها.

7. شكّل الانتصار الإسرائيلي في حرب الأيام الستة عام 1967 نقطة تحوّل عميقة في تاريخ الشرق الأوسط الحديث. ففي ستة أيام فقط، استطاعت إسرائيل أن تحتلّ شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية والقدس الشرقية، مُغيّرة بذلك الخريطة السياسية والنفسية للمنطقة

حطّمت الهزيمة أسطورة التفوق العربي، ووجّهت ضربة قاصمة للهيمنة الأيديولوجية للناصرية.

فالمشروع الذي بدا يومًا ما رمزًا للوحدة العربية والاشتراكية والتحرر من الاستعمار انهار أمام واقعٍ جديدٍ من الانقسام والخذلان. وأصبح السؤال المطروح في كلّ بلدٍ عربي: كيف انهار حلم الوحدة والنهضة بهذه السرعة أمام تنظيمٍ وتقنيّةٍ وإرادةٍ أكثر فاعليّة؟

لقد دشّن ما بعد عام 1967 عصر التأمل الذاتي وإعادة التوجّه الأيديولوجي، ممهّدًا الطريق لظهور الإسلام السياسي، والراديكالية اليسارية، والبراغماتية الدبلوماسية.

تحوّل الخطاب من شعارات الثورة والوحدة إلى بحثٍ عن بدائلٍ للشرعية والنهضة.

وفي أعقاب الحرب، دخل العالم العربي مرحلةً من النقد الذاتي والانقسام الفكري، برزت خلالها حركات الإسلام السياسي كقوة تعبئة جديدة، إلى جانب اليسار الثوري والأنظمة الواقعية التي فضلت الإصلاح التدريجي على المواجهة.

كما أدّت الهزيمة إلى تصاعد حدة التنافس بين القوتين العظميين: إذ رسّخت الولايات المتحدة تحالفاتها في المنطقة، فيما عمّقت الاتحاد السوفييتي دعمه لمصر وسوريا، لتصبح الشرق الأوسط ساحة مركزية للحرب الباردة بعد أن كانت ميدانًا لحروب التحرر.

## تأمل — نهاية القرن الثوري

مع حلول عام 1970، كانت الدورة الثورية التي هرّت الشرق الأوسط منذ منتصف القرن العشرين قد استنفدت طاقتها. فجيل القادة الكاريزميين — جمال عبد الناصر،

وعبد الكريم قاسم، والحبيب بورقيبة، وأحمد حسن البكر —  
نجح في بناء دولٍ لا مجتمعات، وجيوشٍ لا مؤسسات.

لم يكن فشلهم سياسياً فحسب، بل معرفياً أيضاً؛ إذ حاولوا تحديث العالم دون أن يحدثوا  
ذواتهم. أرادوا أن يفرضوا التقدّم من فوق، دون أن يزرعوه في الوعي أو في الثقافة.

وقف الإقليم عند عتبةٍ تاريخية: منهكاً من الأيديولوجيات، ممزقاً بتوازنات الجغرافيا  
السياسية، ومطارداً بسؤالٍ وجوديٍّ سيهيمن على العقود التالية:

هل يمكن للسيادة أن تقوم بلا حرية؟ وهل يمكن للإيمان أن يتعايش مع الحداثة؟

سيصبح هذا السؤال المحرّك الفكري والسياسي لعصرٍ جديد — عصر النفط  
والحروب والعودة إلى الدين، الذي بدأ في سبعينيات القرن العشرين  
ولا يزال حتى اليوم يرسم ملامح الشرق الأوسط المعاصر.

## الفصل الرابع — النفط، الصراع، وإعادة الاصطفاف (1970–1990)

### 1. المقدمة: المشهد ما بعد الثورات

مع مطلع سبعينيات القرن العشرين، كان المشهد السياسي في الشرق الأوسط قد تغيّر جذريًا.

فقد انحسرت حرارة الثورات القومية التي اجتاحت الخمسينيات والستينيات — والتي جسدها عبد الناصر، وقاسم، وحزب البعث — بعدما استنفدت وعودها الأيديولوجية. خرج العالم العربي من تلك المرحلة مُحِبِّطًا لكنه غير مهزوم، متحوّلًا من خطابٍ شعبيٍّ تعبويٍّ إلى مرحلة ترسيخ الدولة، وبناء الاقتصاد الوطني، والدخول في مفاوضات مع القوى العالمية.

وفي هذا التحوّل، برزت قوتان جديدتان أعادت رسم ملامح المنطقة: النفط والجيوستراتيجية.

أصبح النفط أداةً للنفوذ الدولي بعد أن كان مجرد موردٍ اقتصادي، بينما حوّلت الحرب الباردة الصراعات الإقليمية إلى شقوقٍ في النظام العالمي، حيث بات الشرق الأوسط محورًا بين الشرق والغرب، وساحةً تُختبر فيها حدود القوة، والثروة، والعقيدة.

### (Illustration 4.1: Conceptual map of Middle Eastern realignment, 1970–1990)



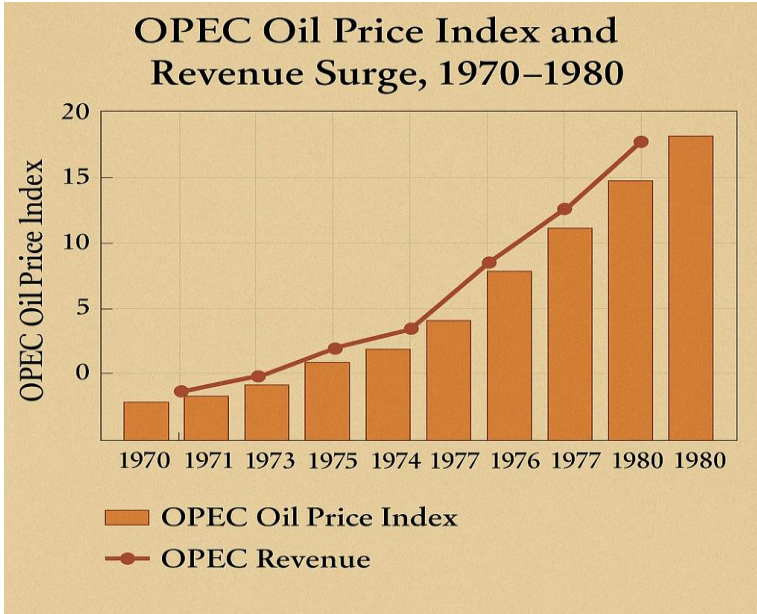
## 2. صعود قوة النفط

### 2.1 السلاح الاقتصادي

أعاد الازدهار النفطي في سبعينيات القرن العشرين تشكيل بنية السيادة ذاتها. فقد شكّل حظر النفط العربي-الأوئك عام 1973، الذي أعقب حرب أكتوبر، نقطة تحول تاريخية؛ إذ حوّل النفط من مورد اقتصادي تهيمن عليه الشركات الغربية إلى سلاح استراتيجي في ميدان الدبلوماسية والهوية (دانييل يرغن، الجائزة).

للمرة الأولى، استطاعت الدول العربية أن تملي شروطها على الاقتصاد العالمي. فقد أدى تضاعف أسعار النفط أربع مرات بين عامي 1973 و1974 إلى نقل ثروة غير مسبقة إلى دول الإنتاج مثل المملكة العربية السعودية، والكويت، والإمارات العربية المتحدة مما مكّنها من إطلاق برامج تحديث طموحة شملت البنية التحتية، والتعليم، والصحة، والعمران.

أصبح النفط بذلك رمز السيادة الحديثة في العالم العربي: ثروة تمنح القوة، لكنها في الوقت نفسه تربط الاقتصاد الوطني بعصب النظام العالمي، وتحوّل الدولة من طرف في السوق إلى فاعل سياسي على المسرح الدولي.



## 2.2 البترودولار والدولة الريعية

أنجبت الطفرة النفطية نموذجًا جديدًا من الحكم أطلق عليه الباحثون لاحقًا **الدولة الريعية** — أي الدولة التي تعتمد في دخلها على **عائدات خارجية** لا على الضرائب المحلية. في هذه الأنظمة، تحوّل المواطن من **شريك في القرار إلى مستفيد من الربح**، وأصبحت **الشرعية السياسية تُستَرى بالرفاه والتوظيف** لا بالمشاركة أو المحاسبة (ببلواي ولوتشيانى، الدولة الريعية).

أعاد النفط تعريف مفهوم الحكم ذاته:

- **المملكة العربية السعودية** برزت كالقوة المالية والدينية المركزية في العالم العربي.
- **الكويت والإمارات** أسستا شرعية حديثة تقوم على الرفاه الاجتماعي والدبلوماسية الهادئة.
- **العراق وإيران** سخرتا عائدات النفط لتسليح الدولة وتمويل مشاريع التحديث القسري.

خلق النفط **هرمية جديدة للقوة داخل العالم العربي**، حيث حَلَّت القدرة الاقتصادية محل الأيديولوجيا كمقياس للزعامة. لكن هذا الثراء عمّق أيضًا الفوارق بين الدول الغنية والفقيرة بالنفط، وبين المدن الحديثة والريف المهمّش، وبين خطاب التضامن وممارسات المصلحة الذاتية.

## 3. الحرب والدبلوماسية: حرب أكتوبر وتداعياتها

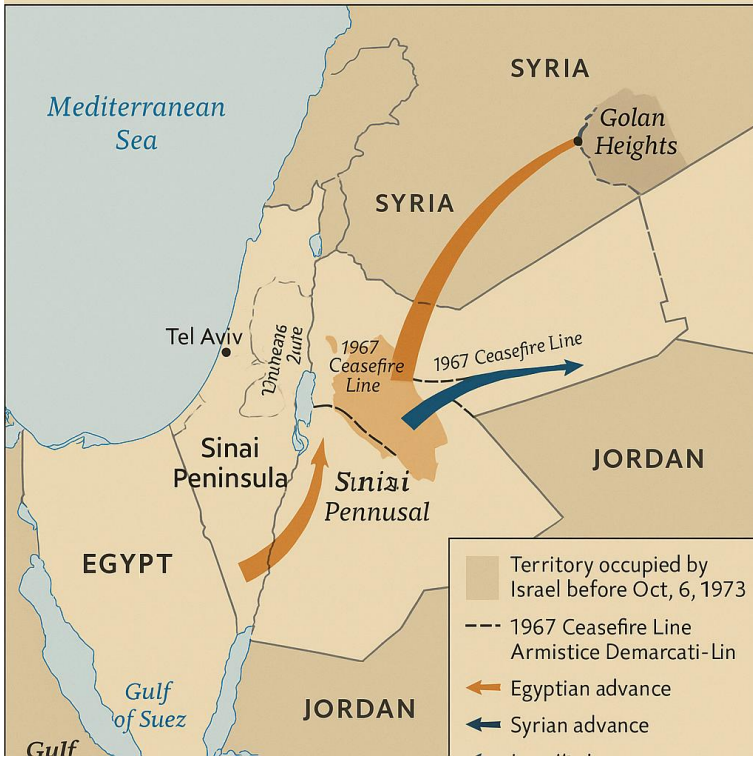
### 3.1 حرب أكتوبر (1973)

جاءت **حرب أكتوبر (حرب يوم الغفران)**، التي شنتها **مصر وسوريا** ضد إسرائيل، لتستعيد جزءًا من الثقة العسكرية العربية بعد صدمة 1967. لقد نجح الجيش المصري في عبور قناة السويس بقيادة أنور السادات، مما غيّر موازين القوى مؤقتًا وأجبر الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على التدخل لتفادي التصعيد (كيسنجر، سنوات الاضطراب).

كانت الحرب، في جوهرها، محاولة لإعادة تعريف الكرامة والسيادة في ظل عالم منقسم بين قوتين عظميين، ومثلت لحظة نادرة تلاقت فيها العقيدة الوطنية، والعسكرية،

والدبلوماسية النفطية في مشروع واحد أعاد إلى العرب موقعهم على الخريطة السياسية العالمية.

(Map 4.4: October War fronts — Sinai and Golan Heights, 1973)



رغم أن الحرب لم تحسم عسكرياً، إلا أن أثرها النفسي كان عميقاً.

أعادت شرعية الجيش المصري بعد هزيمة 1967، وأعادت تعريف الدبلوماسية العربية-الإسرائيلية، ومهدت لمرحلة جديدة من التفاوض بدل المواجهة.

### 3.2 من القاهرة إلى كامب ديفيد

شكل قرار أنور السادات توجيه دفعة مصر نحو الولايات المتحدة بعد عام 1973 بداية إعادة اصطاف إقليم عميقة. مثلت اتفاقيات كامب ديفيد (1978) ومعاهدة السلام



المصرية-الإسرائيلية (1979) اختراقاً دبلوماسياً ولكنه أيضاً شرخاً عربياً (كوانت، كامب ديفيد: صناعة السلام والسياسة).

استعادت مصر شبه جزيرة سيناء لكنها فقدت زعامتها للعالم العربي؛ إذ رمز انتقالها إلى التحالف الأميركي إلى استبدال الأيديولوجيا بالبراغماتية. جمّد الجامعة العربية عضوية مصر، بينما برزت الممالك النفطية كلاعبٍ سياسي رئيسي في الشؤون العربية.

#### 4. الثورة الإيرانية وإعادة تعريف الإسلام

قدّمت الثورة الإيرانية عام 1979 نموذجاً جديداً جذرياً — إذ جمعت بين الدين ومناهضة الاستعمار والشعبوية في أيديولوجيا إسلامية للحكم (نيكي كدي، إيران الحديثة: الجذور والنتائج). قادها آية الله روح الله الخميني، فأنتهت حكم سلالة بهلوي وأسقطت أحد أكثر حلفاء الولايات المتحدة موثوقية في المنطقة.

قدّمت الجمهورية الإسلامية نموذجاً لا يشبه الشيوعية ولا الرأسمالية الغربية، بل أعاد الإسلام كمصدرٍ للشرعية السياسية في العصر الحديث. ألهمت الثورة حركاتٍ في أرجاء العالم الإسلامي — من حزب الله في لبنان إلى سياسات الأسلمة في باكستان — وأقلقت في المقابل الأنظمة العلمانية والممالك الخليجية.

لقد نقلت الثورة مركز الثقل الأيديولوجي من الاشتراكية العربية إلى الصحوّة الإسلامية، وأعادت رسم الخطاب السياسي والديني في الشرق الأوسط لعقودٍ تالية.

#### 5. الحرب الإيرانية-العراقية (1980-1988): حدود القوة

تحوّل الصدام بين الجمهورية الإسلامية الثورية في إيران والنظام البعثي في العراق إلى أطول حرب تقليدية في القرن العشرين.

بدأت الحرب حين غزا صدام حسين إيران عام 1980، بدافع الخوف من تصدير الثورة وطمعاً في الأراضي المتنازع عليها، لكنها سرعان ما تحوّلت إلى حرب استنزافٍ دامية استمرت ثماني سنوات وحصدت ملايين الأرواح (دل هير، الحرب الأطول: الصراع العسكري الإيراني-العراقي).

كانت الحرب مأساةً مزدوجة: أضعفت كلا البلدين، استنزفت ثرواتهم النفطية، وغيّرت موازين القوى في الخليج، فاتحةً الطريق أمام الولايات المتحدة لتصبح اللاعب الأمني الأبرز في المنطقة.

## استمرار الحرب وأثرها الإقليمي

خاض الطرفان الحرب بوصفها صراعاً وجودياً — بين الثورة الإسلامية والقومية العربية — فيما قامت القوى الكبرى بتزويد الجانبين بالسلح على حدٍ سواء. أفلست العراق، وتصلّبت إيران الثورية، وتحول الخليج إلى منطقة عسكرية دائمة، ممهداً الطريق أمام التدخل الأميركي المستقبلي في شؤون المنطقة.

## 6. الممالك الخليجية وسياسة الاستقرار

وسط الفوضى الإقليمية، انتهجت دول الخليج العربية سياسة البقاء عبر الاستقرار. فقد شكّل تأسيس مجلس التعاون لدول الخليج العربية عام 1981 خطوةً مؤسسية لتوحيد الدفاع والتنسيق الاقتصادي بين

السعودية، والكويت، والبحرين، وقطر، والإمارات، وسلطنة عُمان.

تحوّلت هذه الدول إلى ركائز للنظام المحافظ في المنطقة، واستخدمت الثروة النفطية لموازنة التحديث الاجتماعي مع الجمود السياسي.

استندت استراتيجية بقائها إلى ثلاثة أعمدة رئيسية:

1. إعادة توزيع الثروة لضمان الشرعية والولاء الاجتماعي،
2. الاعتماد على الحماية الخارجية — خاصة من الولايات المتحدة — لضمان الأمن،
3. الهوية الدينية كعامل توحيدٍ ضد التيارات الثورية والقومية.

بهذا التوازن، أصبحت الممالك الخليجية نموذجاً فريداً: أنظمة حديثة في الإدارة والاقتصاد، تقليدية في البنية السياسية، تحكمها معادلة دقيقة بين الوفرة والولاء، والدين والدولة.

## 7. أزمة لبنان ومسرح الحروب بالوكالة

جسدت الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990) انهيار نظام الدولة ما بعد الاستعمارية.

فقد تحوّل لبنان إلى مرآة مصعّرة للصراعات الإقليمية: انقسامات طائفية، واحتلالات أجنبية، واستقطابٌ أيديولوجي جعل من أراضيه ساحةً لتقاطع القوى.

شاركت في النزاع الفصائل الفلسطينية، والقوات السورية، والاحتياحات الإسرائيلية (1978، 1982)، إلى جانب الميليشيات الطائفية التي مزّقت النسيج الاجتماعي والسياسي.

ومن رحم هذه الفوضى، برز حزب الله (1982-1985) بدعمٍ من إيران ما بعد الثورة، ليقدّم نموذجًا جديدًا في المنطقة: حركة مقاومة مسلحة ذات قاعدة دينية وتنظيم سياسي، تمزج بين الإيمان والمقاومة، وتعلن عن ولادة فاعلٍ غير دولتي قادر على تحدي إسرائيل والنظام الإقليمي معًا (نورتون، حزب الله: تاريخ موجز).

*(Lebanon Civil War zones and foreign interventions, 1975-1990)*



## تفكك لبنان وصياغة النظام الشرق أوسطى الجديد

أظهر تفكك لبنان خلال الحرب الأهلية ملامح النظام الشرق أوسطى الجديد: لم تعد المواجهة بين دول وإمبراطوريات، بل بين دولٍ تتفتت إلى كياناتٍ أيديولوجية وطائفية صغيرة. حلّ الانقسام الداخلي محلّ الاحتلال الخارجي، وأصبحت الهوية الدينية والسياسية — لا الحدود الوطنية — هي التي تحدّد خطوط الصراع.

### 8. القضية الفلسطينية بعد عام 1970

بعد هزيمة 1967، أعادت منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف) تشكيل نفسها من مظلةٍ فصائلية إلى كيانٍ شبه دولتي. تحت قيادة ياسر عرفات، تبنّت المنظمة استراتيجية مزدوجة تجمع بين الكفاح المسلح والدبلوماسية الدولية.

- مثّلت أحداث أيلول الأسود (1970) في الأردن لحظة حاسمة، إذ أنهت الوجود المسلح الفلسطيني هناك، ودّفعت المقاومة إلى الانتقال نحو لبنان، حيث واصلت نشاطها خلال الحرب الأهلية (1975-1982).
- ومع اندلاع الانتفاضة الأولى عام 1987، تغيّر المشهد مرة أخرى، فانتقلت المقاومة من الكفاح الخارجي إلى النضال الداخلي الشعبي، ما أعاد تعريف معنى المقاومة بوصفها حركة مجتمعية لا مجرد صراعٍ عسكري.

بهذا التحوّل، انتقلت منظمة التحرير الفلسطينية من منطق حرب العصابات إلى منطق الاعتراف السياسي والتمثيل الدولي، ساعيةً نحو الشرعية في المحافل العالمية دون التخلّي عن هويتها الثورية (يراجع: يزيد صايع، الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنية الفلسطينية 1949-1993).

# The Palestinian Movement, 1967–1987

1967	Six-Day War & Occupation
1969	Arafat Becomes PLO Chairman
1970	Black September in Jordan
1974	Recognition at UN
1982	Expulsion from Lebanon
1987	First Intifada

## في أواخر الثمانينيات: منظمة التحرير بين الشرعية والانقسام

مع نهاية عقد الثمانينيات، كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد بلغت ذروة الاعتراف الدولي — إذ اعتبرتها الأمم المتحدة الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني — لكنها كانت في الوقت نفسه منقسمة داخليًا بين تياراتٍ متباينة: تيارٍ براغماتي يؤمن بالدبلوماسية والتسوية، وآخر يرى في المنفى والمقاومة المستمرة مصدرًا للشرعية الأخلاقية.

أصبحت المنظمة إداةً معلقةً بين الواقعية السياسية ورمزية الكفاح الوطني، تتقدم في المحافل الدولية، لكنها تفقد تماسكها على الأرض الفلسطينية نفسها.

## 8. صعود الولايات المتحدة وتراجع الثنائية القطبية

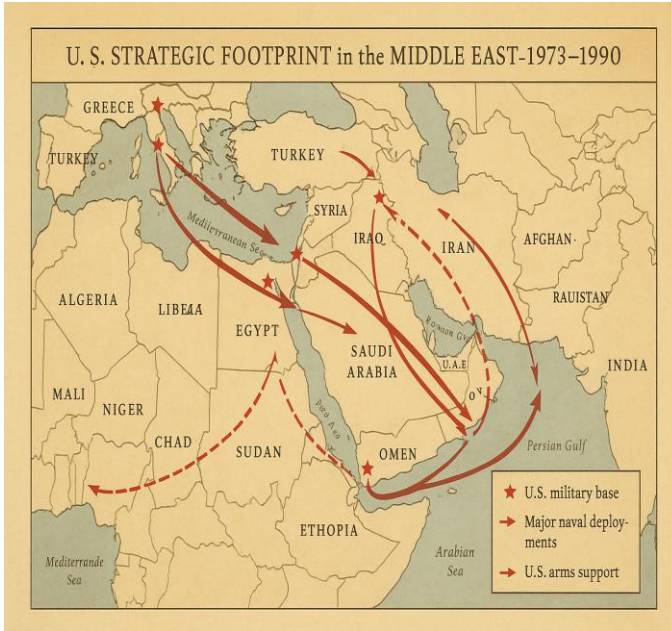
شهدت السنوات الأخيرة من الحرب الباردة ترسيخ الهيمنة الأميركية على الشرق الأوسط. فبعد عام 1973، تمكّنت واشنطن من أن تحلّ محلّ الإمبراطورية البريطانية، لكن لا كقوة استعمارية مباشرة، بل عبر شبكة من التحالفات الأمنية والاقتصادية تمتد من المغرب إلى عُمان (ف. غاوس، العلاقات الدولية في الخليج العربي).

تحوّلت الولايات المتحدة إلى:

- الوسيط الرئيسي في الصراع العربي-الإسرائيلي،
- المورد الأكبر للأسلحة إلى حلفائها الإقليميين،
- والضامن الأساسي لأمن النفط في الخليج.

من خلال هذا الدور الثلاثي — الوساطة، التسليح، والحماية — أعادت واشنطن صياغة موازين القوى الإقليمية، وأحكمت قبضتها على مفاصل القرار السياسي والاقتصادي في المنطقة، في وقتٍ كانت فيه الثنائية القطبية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي تتراجع نحو نهايتها.

*(U.S. strategic footprint in the Middle East, 1973–1990)*



### بحلول الثمانينيات: عقيدة كارتر وانحسار الثنائية القطبية

مع مطلع الثمانينيات، بلغت الهيمنة الأميركية على الخليج ذروتها عبر عقيدة كارتر (1980) التي أعلنت أن نفط الخليج الفارسي مصلحة حيوية للولايات المتحدة، ما شرّع التدخل العسكري المباشر لحماية تدفق الطاقة.

وفي عهد ريغان، شهدت المنطقة إعادة تسليح واسعة لحلفاء واشنطن في الخليج، في حين خسر الاتحاد السوفييتي نفوذه تدريجيًا بعد غزوه أفغانستان عام 1979، وهو الحدث الذي عمّق الفجوة بين العالم الإسلامي والغرب وأسس للانقسام الذي سيطلع صراعات ما بعد 1990.

## 10. تأملات: من الثورة إلى إعادة الاصطفاف

تمثل العقود الممتدة بين 1970 و1990 ثاني أعظم تحوّل في التاريخ الحديث للشرق الأوسط الانتقال من مواجهة أيديولوجية إلى توازن جيوسياسي راسخ.

المرحلة الاستراتيجية (1970-1990)	المرحلة الأيديولوجية (1950-1970)	العامل
الثروة، الاستقرار، والتحالف	الثورة والأيديولوجيا	الشرعية
نخب تكنوقراطية وملوك محافظون	زعماء كاريزميون شعبيون	القيادة
حروب بين الدول وبالوكالة	ثورات داخلية	طبيعة الصراع
انتقال إلى أحادية أميركية	الحرب الباردة الثنائية	السياق الدولي
تزاوج الإسلام والقومية	العروبة	الهوية

### (جدول مقارنة لإعادة اصطفاف الشرق الأوسط، 1950-1990)

مع نهاية الثمانينيات، كان عصر الثورات الأيديولوجية قد أُسدل ستاره. وفي مكانه نشأ نظامٌ جديد من الملكيات الحذرة، والجمهوريات المنهكة، والإحياء الديني المتصاعد — يمهّد لمرحلة العولمة، والغزو، وصعود الإسلام السياسي التي ستطبع العقود التالية.

## تأمل — النفط والإيمان وسراب الاستقرار (1970-1990)

### مفارقة الازدهار

بدأت سبعينيات القرن العشرين وكأنها بداية عصر ذهبيٍّ للشرق الأوسط: ثروات نفطية غير مسبوقة، مشروعات صناعية عملاقة، واعتراف دولي متزايد. غير أن هذه الوفرة الاقتصادية أخفت وراءها تناقضات بنيوية عميقة. لقد منحت عائدات النفط شكلاً من أشكال السيادة المادية، لكنها لم تخلق تحولاً اجتماعياً موازياً. في كثير من الدول، استُبدل الإصلاح بالثروة: اشتريت الحكومات الشرعية بالريع، ومولت البيروقراطيات الضخمة، وأرجأت تحديث مؤسسات الحكم (لوتشيانى، الدولة الريعية).

وهكذا حمل “العقد الذهبي” مفارقةً ازدهاره في داخله: فكلما ازدادت الدول ثراءً، ازدادت المجتمعات تبعية. تحققت الاستقلالية الاقتصادية عبر موردٍ يعمق في الوقت نفسه الاندماج في الرأسمالية العالمية ذلك النظام الذي طالما صُوّر في الماضي كأداةٍ للإمبريالية.

### العقد الريعى وتعليق السياسة

أعاد صعود الدولة الريعية صياغة العقد الاجتماعي للحكم. ففي النظرية السياسية الكلاسيكية، تؤدي الضرائب إلى التمثيل؛ إذ يطالب المواطن بالمشاركة ما دام يساهم في تمويل الدولة. أما في النموذج الريعى، فإن الدولة توزع الثروة بدلاً من تحصيلها، فتتحول العلاقة من مواطنةٍ إلى رعاية، ومن مشاركةٍ إلى زبانيةٍ سياسية.

أنتج هذا النمط وهمّ التوافق: حيث استُبدلت المشاركة السياسية بتوزيع الريع عبر الإعانات، والتوظيف العام، والتحديث الموجّه (ببلاوى ولوتشيانى، الدولة الريعية في العالم العربى).

وهكذا بدأ الاستقرار ازدهاراً من الخارج، لكنه في جوهره تعليقٌ للحياة السياسية استقراراً اشتريته الدولة على حساب الوعي والمواطنة.



## عودة الدين

رغم هيمنة الأنظمة العلمانية، شهدت السبعينيات والثمانينيات عودة الدين إلى المجال العام بقوة. كانت الثورة الإيرانية عام 1979 أبرز تجلياتها — حركة جمعت بين الإيمان، ومناهضة الإمبريالية، والشعبوية في مشروع للدولة الإسلامية (نيكي كدي، إيران الحديثة).

لم تكن هذه العودة إحياءً للتقليد القديم، بل إصلاحًا أيديولوجيًا حديثًا نابعًا من خيبة الأمل تجاه الحداثة العلمانية. أسهمت هزيمة 1967، وقمع الحركات الإسلامية في عهد ناصر، والأزمة العالمية لفكرة التقدم، في تغذية هذه الصحوة الروحية. عاد الدين كأداة نقد ومقاومة: للدولة المستبدة، وللهيمنة الغربية، وللانهايار الأخلاقي الحديث.

من ولاية الفقيه عند الخميني إلى حركات الصحوة السنية، صار الإيمان لغة جديدة للشرعية السياسية — إيمانٌ حديث في أدواته، تقليدي في خطابه، لكنه حاسم في تأثيره.

## سراب الاستقرار

بدا النظام السياسي الذي خرج من طفرة النفط وكأنه نموذجٌ للثبات، غير أن أساسه كان هشًا. فخلف واجهة الرفاه كانت الانفجارات الديموغرافية، واتساع الفجوة الطبقية، والتصدعات الهوياتية تتهدد التوازن. لقد أخفت واجهة الوحدة — سواء كانت عربية أو إسلامية أو ملكية — تعددًا في الولاءات وتنافسًا في مصادر الشرعية.

كشفت الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990)، وحرب إيران-العراق (1980-1988)، والجهاد الأفغاني (1979-1989) عن هشاشة هذا الاستقرار المزعوم، فلم تكن تلك الحروب استثناءات، بل أعراضًا لمرضٍ واحد: التناقض بين نظامٍ مستوردٍ في شكله وواقعٍ اجتماعيٍّ لم يستوعبه بعد.

## الفخ الجيوسياسي

خلال تلك العقود، تحوّل الشرق الأوسط إلى رقعة شطرنجٍ للحرب الباردة. فقد رفعت الولايات المتحدة شعار تقرير المصير لكنها دعمت الاستبداد،

بينما تبني الاتحاد السوفييتي خطاب مناهضة الإمبريالية وهو يجمع المعارضة في الداخل (هاليداي، الشرق الأوسط في العلاقات الدولية).

أسهم التنافس بين القوتين العظميين في ترسيخ الأنظمة السلطوية عبر عسكرة المنطقة وتحويلها إلى شبكة من الحلفاء الأمنيين. ومن أفغانستان إلى لبنان، سلّحت كل قوة حلفاءها باسم السلام العالمي، فأدامت بذلك التبعية والصراع بالوكالة.

وهكذا، مع اقتراب نهاية الحرب الباردة، كان الشرق الأوسط قد خرج من حقبة الأيديولوجيا ليدخل حقبة التوازن الهش بين النفط، والإيمان، والقوة — توازنٍ سيحكم ملامح العقود التالية من العولمة والعنف والانقسام.

### التحول الثقافي: من التحرر إلى الهوية

بحلول أواخر الثمانينيات، تبدّل خطاب التحرر إلى خطاب الهوية. حلّت صور المؤمن والأقلية والمنفي محل رموز الثورة القديمة — العامل، الجندي، والقومي.

كان هذا التحول انعكاسًا لإنهاك الأيديولوجيات الكونية مثل الاشتراكية، والقومية العربية، والليبرالية الوطنية. بدأ المفكرون والحركات يتجهون نحو الأصالة، والثقافة، والإيمان كأسس جديدة للانتماء. لم يكن ذلك عودة إلى الماضي بقدر ما كان بحثًا عن تماسك أخلاقي في زمنٍ من خيبة جيوسياسية.

### الاستمرارية تحت التغير

ورغم تبدّل الأيديولوجيات — من الثورة إلى النفط ثم الدين — بقي منطق التبعية البنيوي قائمًا:

فالسيدة ظلّت مشروطة بالحماية الخارجية،

والتنمية ظلت مرتبطة برأس المال العالمي،

والشرعية واصلت اعتمادها على الخطاب الأيديولوجي لا على المشاركة.

وبحلول عام 1990، أصبح الشرق الأوسط أكثر ثراءً، وتحضرًا، وترابطًا من أي وقت مضى، لكنه أيضًا أكثر انقسامًا.

فعود الحداثة أنجبت دولاً مركزية دون ديمقراطية، وسياسات هوية دون شمولية.

## التأمل الختامي: الإيمان بعد الأيديولوجيا

مع اقتراب نهاية القرن العشرين، خبت الحمى الثورية التي ميّزت العقود السابقة، وحلّ محلها زمن التأمل الذاتي. تحوّل حلم الحداثة العلمانية إلى عودة السلطة المقدسة، وتبخر وعد التحرر في استقرارٍ مُدارٍ ومحسوب.

لكن حتى هذا الاستقرار كان هشاً، يعتمد على عوائد النفط، والتحالفات الخارجية، وضبط الخطاب الأيديولوجي. لم تعد المسألة كيف نُحدث، بل كيف نُؤمن من جديد — دون أن نعيد إنتاج دوغماتيات الماضي.

عاد الإيمان إلى ساحة التاريخ لا بوصفه ردّة فعلٍ على الحداثة، بل إعادة تعريفٍ لها: أعطى الأمل للبعض، وأثار القلق لدى آخرين، وشكّل المعجم الأخلاقي والسياسي الذي ستبنى عليه العقود التالية.

لقد بدأ عصر الإيمان الجديد — لكن هذه المرة بلغة السلطة الحديثة.

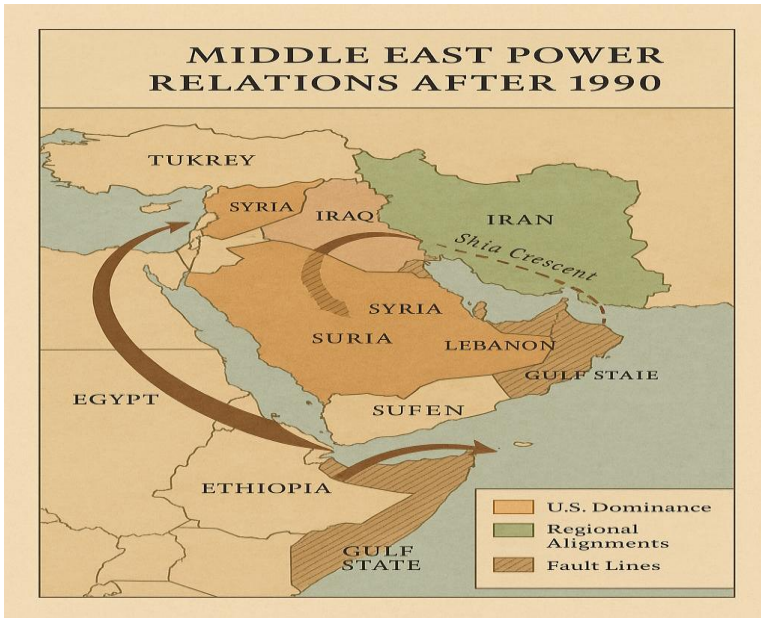
## الفصل الخامس — العولمة، الحرب، والنظام المتشظي (1990–2010)

### 1. المقدمة: نهاية اليقين

كان عام 1990 نقطة تحوّل رمزية في التاريخ العالمي. فقد أدى انهيار الاتحاد السوفيتي إلى إنهاء الحرب الباردة، لكن بدلاً من أن يفتح عهد سلام عالمي، أطلق العنان لـ جيوسياسية بلا قيود تحكمها قوة عظمى واحدة.

أما في الشرق الأوسط، فقد بدأ هذا النظام الجديد ليس بالدبلوماسية، بل بالحرب. فعندما اجتاحت صدام حسين دولة الكويت في أغسطس 1990، حطّم التوازن الهش الذي كان يقوم على ثروة النفط وتوازن القوى بين القطبين.

ردّت الولايات المتحدة بتشكيل تحالفٍ دوليٍّ غير مسبوق — أول تحالفٍ من نوعه في حقبة ما بعد الحرب الباردة — لإخراج القوات العراقية من الكويت، ولتأسيس بنية استراتيجية جديدة يكون فيها واشنطن هي من يحلّ محلّ لندن بوصفها المدير الإمبراطوري للنظام الإقليمي.



## 2. حرب الخليج والنظام الجديد

### 2.1 غزو الكويت

لم يكن غزو صدام حسين للكويت عام 1990 مجرد عملٍ عدوانيٍّ، بل كان أيضًا فعلًا يائسًا.

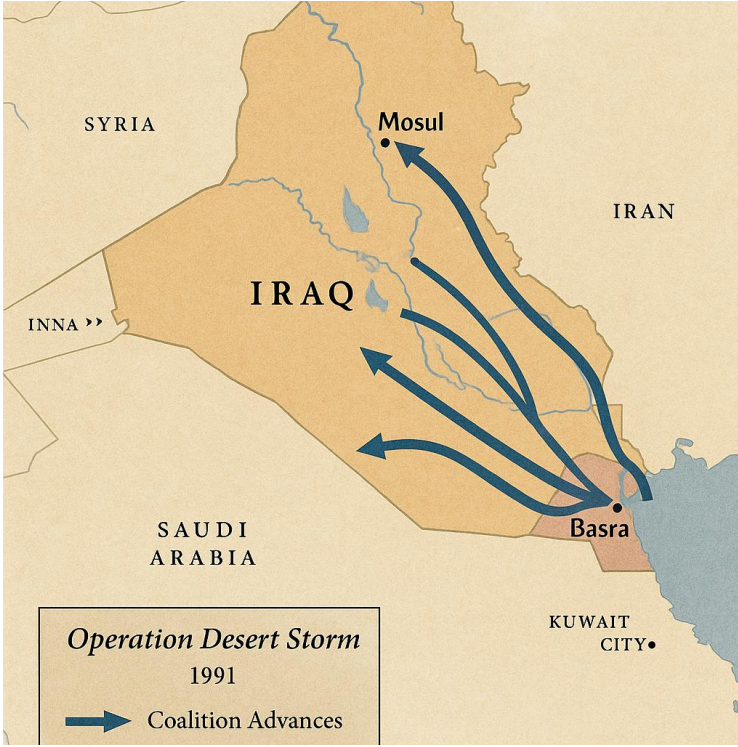
فالعراق الذي أنهكته التكاليف الباهظة لحربه الطويلة مع إيران (1988-1980)، وجد نفسه غارقًا في الديون ومُثَقَّلًا بالبطالة والتراجع الاقتصادي، بينما شعر النظام البعثي بأن صمته الغربي إزاء طموحاته الإقليمية منحه ضوءًا أخضر للتحرك ضد جارٍ صغيرٍ غنيٍّ بالنفط.

سعى صدام من خلال الغزو إلى فرض هيمنته داخل منظمة أوبك وإلغاء ديونه عبر السيطرة على موارد الكويت، معتقدًا أن العرب — وربما الغرب — سيتسامحون مع ذلك كما فعلوا في حروبه السابقة.

لكن هذه المغامرة انقلبت عليه تمامًا. فقد فجّر الغزو أزمةً دولية غير مسبوقة، كشفت هشاشة التضامن العربي من جهة، وأظهرت من جهة أخرى تفوق الولايات المتحدة التكنولوجي والعسكري واللوجستي الساحق (فريدمان وكارش، صراع الخليج 1990-1991).

وهكذا تحوّلت الكويت الصغيرة إلى نقطة الانعطاف الكبرى التي دشّنت نظام ما بعد الحرب الباردة — نظامًا تُدير فيه واشنطن شؤون الشرق الأوسط من موقع الحكم والقوة التنفيذية في آنٍ واحد.

*(Operation Desert Storm — coalition advances and Iraqi withdrawal routes, 1991)*



كانت اللقطات الدقيقة التي بثتها الشاشات التلفزيونية خلال حرب الخليج بمثابة إعلان عن عصر جديد من الحروب الاستعراضية — عصر تندمج فيه القدرة العسكرية مع السرد الإعلامي العالمي، حيث تتحول الحرب إلى عرض مباشر للقوة والتفوق التكنولوجي.

بالنسبة لكثيرين في العالم العربي، لم يكن سقوط العراق مجرد هزيمة عسكرية، بل انهياراً رمزياً لآخر جمهوريات الثورة — النموذج الأخير الذي كان يدّعي مقاومة النظام العالمي الجديد.

## “ 2.2 النظام العالمي الجديد ”

في خطابه عام 1991، أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب عن ولادة "نظام عالمي جديد" يقوم على سيادة القانون الدولي، واقتصاد السوق الحرة، والأمن الجماعي.

أما في الشرق الأوسط، فقد كان لهذا الشعار معنى آخر تمامًا: إنه تدشين للهيمنة الأمريكية المؤسَّسة — من خلال القواعد العسكرية في الخليج، وسياسات الاحتواء المزدوج ضد العراق وإيران، وعملية سلام عربية-إسرائيلية تُدار بروية أمريكية خالصة.

هكذا دخلت المنطقة مرحلةً جديدة من الوصاية المقتَّعة، حيث أصبحت واشنطن ليس فقط الحكم بين المتنازعين، بل المهندس الفعلي للنظام الإقليمي في عصر ما بعد الحرب الباردة.

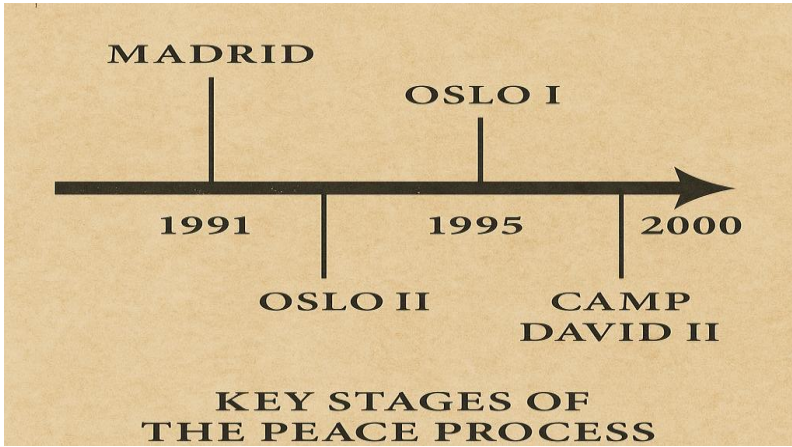
*(Map of U.S. military bases and alliances in the Middle East, 1991–2003)*



كان الشرق الأوسط الذي خرج من أزمة الخليج كيانًا متناقضًا في جوهره.  
فقد أصبح الإقليم في آنٍ واحدٍ مستقرًا وممزقًا  
إذ ازدهرت الملكيات المحافظة المتحالفة مع واشنطن تحت مظلة الضمانات الأمنية  
الأمريكية،

بينما وجدت الجمهوريات الثورية مثل العراق وسوريا نفسها معزولة ومحاصرة  
هاليدي، الشرق الأوسط في العلاقات (أو مُرغمة على الامتثال لإملاءات النظام الجديد  
الدولية).

### *(Key stages of the peace process — Madrid, Oslo I & II, Wye River, Camp David II)*



ومع ذلك، سرعان ما تبدّد تفاؤل أوسلو المبكر ليحلّ محله خيبة أملٍ عميقة.  
فقد أصبحت السلطة الفلسطينية التي أنشئت بموجب الاتفاق،  
دولةً بلا سيادة —تدير الشؤون المحلية بينما تبقى مقيدة بواقع الاحتلال العسكري  
الإسرائيلي المستمر.

وجاءت اغتيال رئيس الوزراء إسحاق رابين(1995) ، والتمدد المتسارع  
للمستوطنات الإسرائيلية، وانفجار الانتفاضة الفلسطينية الثانية(2005-2000) ،  
لتكشف جميعها عن الخلل البنيوي الكامن في عملية السلام  
وعن هشاشة أسسها السياسية (رشيد الخالدي، القفص الحديدي: قصة النضال  
الفلسطيني من أجل الدولة).

— لقد تحوّل “السلام” إلى أداة إدارةٍ أخرى للصراع  
مسرحٍ سياسيٍّ يُخفي وراء شعاراته استمرار عدم التكافؤ في القوة والسيادة.



## 4. إستراتيجية الاحتواء المزدوج

### 4.1 العقوبات والعزلة

في تسعينيات القرن العشرين، تمحورت السياسة الأمريكية حول ما عُرف بـ الاحتواء المزدوج لكلٍّ من العراق وإيران — أي إبقاء الدولتين ضعيفتين وتابعتين في آنٍ واحد.

فقد خضع العراق لعقوباتٍ قاسية فرضتها الأمم المتحدة، أدّت إلى انهيارٍ إنسانيٍ واقتصاديٍ شاملٍ وإلى غضبٍ عالميٍّ متزايدٍ بسبب أثارها الكارثية. أما إيران، التي كانت لا تزال تتعافى من حربها الطويلة مع العراق، فقد وجدت نفسها محاصرة دبلوماسيًا ومعزولة سياسيًا.

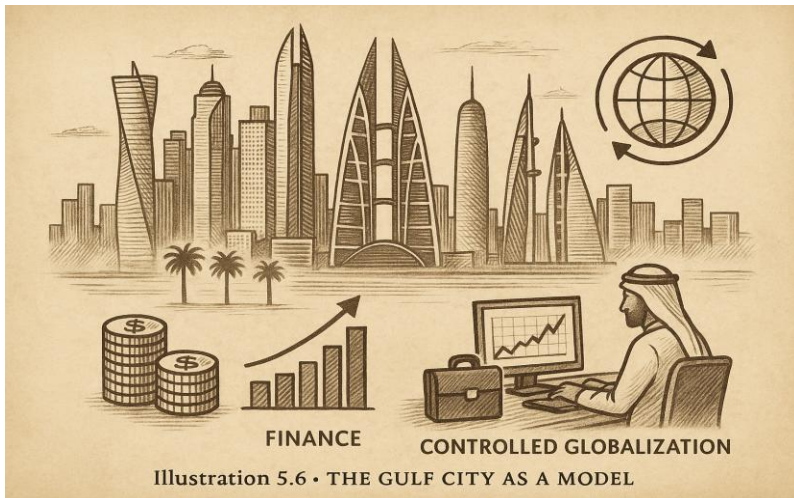
وكان الثمن الأخلاقي لهذه السياسة فادحًا: إذ تشير التقديرات إلى وفاة أكثر من نصف مليون طفلٍ عراقيٍ بسبب سوء التغذية ونقص الأدوية، فيما أدّت عزلة إيران إلى تصلّب مواقفها الداخلية وتصعيد خطابها الثوري الإقليمي.

### 4.2 صعود قوة الخليج

على النقيض من ذلك، خرجت الملكيات الخليجية من عقد التسعينيات أقوى من أي وقتٍ مضى. فقد عزّز تعاونها في تحالف 1991، واصطفافها مع الاستراتيجية الأمريكية، مكانتها كركائز للاستقرار — على الأقل في أعين الغرب.

وساهمت عوائد النفط وتدفّق الاستثمارات العالمية في إطلاق مشاريع عمرانية ضخمة في دبي والدوحة والرياض، محوِّلة الخليج إلى مختبرٍ للحدّثة المتأخرة: فضاءٍ ما بعد قومي، ما بعد أيديولوجي، ومشدّد الأمن، يُزّوج بين الثراء والعولمة وبين الاستقرار المراقب.

*(The Gulf city as a model — skyline, finance, and controlled globalization)*



## 5. أحداث 11 سبتمبر وأزمة العولمة

### 5.1 الإرهاب والإمبراطورية

هزّت هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 الـوهم القائل إن العولمة يمكن أن تتجاوز الجغرافيا السياسية.

فقد قام تسعة عشر خاطفًا — خمسة عشر منهم سعوديون — بكشف التناقض الصارخ في النظام العالمي الذي يُصدّر الحداثة، لكنه يعجز عن تصدير العدالة.

كان الردّ الأمريكي يتمثل في ما سُمّي بـ "الحرب على الإرهاب"، التي حوّلت الشرق الأوسط إلى ساحة حربٍ دائمة تحت لافتات الوقاية، والمراقبة، وإعادة تشكيل الوعي الأيديولوجي.

أصبحت أسواق العولمة المفتوحة تتعايش مع حدودٍ مغلقةٍ وأسوارٍ أمنية، بينما استُخدمت لغة الحرية لتبرير سياسات التدخل والهيمنة.

لقد دخل العالم بعد 2001 مرحلةً جديدةً من الإمبراطورية المعولمة — مرحلة يُدار فيها الأمن من الجو، والمجتمعات عبر الشاشات، والمعارك باسم “الحرية” تُخاض في أطراف العالم الإسلامي.

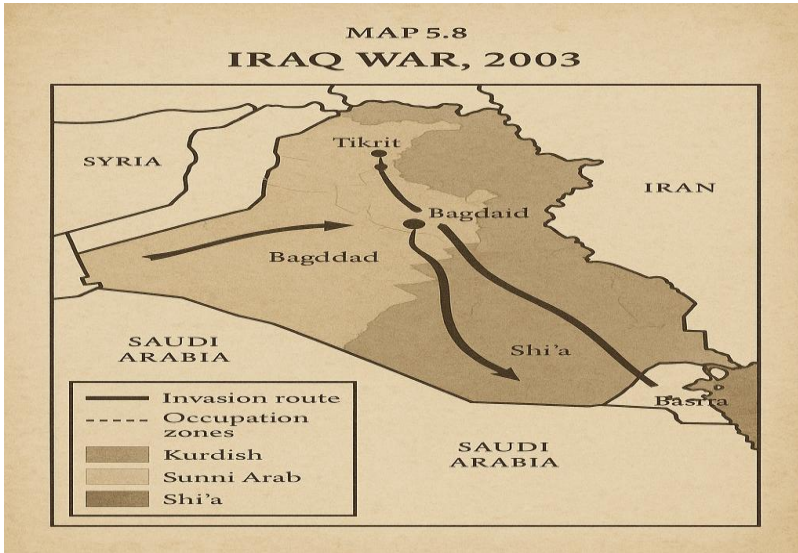
## 5.2 غزو العراق (2003)

شكّل الغزو الأمريكي للعراق عام 2003 ذروة الهيمنة الأحادية الأمريكية في الشرق الأوسط، وفي الوقت ذاته بداية انحدارها.

فقد بُرّر الغزو بذريعة زائفة — أسلحة الدمار الشامل — لكن نتائجه كانت تفكيك الدولة العراقية، وزعزعة التوازنات الإقليمية، وإطلاق موجة من الانقسام الطائفي والإثني التي ستعيد تشكيل الخريطة السياسية للمنطقة لعقودٍ تالية (ريكس، الفشل: المغامرة العسكرية الأمريكية في العراق).

تحت شعار “نشر الديمقراطية”، أُقيم نظامٌ هشٌّ يعتمد على المحاصصة، بينما انتشر الفساد والعنف الطائفي، ليتحول العراق من “نقطة ارتكاز” للهيمنة إلى رمزٍ لانتهيارها الأخلاقي.

*(Iraq War 2003 — invasion routes, occupation zones, and sectarian regions)*



لم يؤدِّ سقوط صدام حسين إلى قيام ديمقراطية كما وُعد، بل إلى فراغ في السلطة سرعان ما ملأته الميليشيات والمتمردون والقوى الإقليمية — وعلى رأسها إيران.

وللمرة الأولى منذ منتصف القرن العشرين، انهار النظام الجمهوري العربي القديم بالكامل، لتصبح الهوية والاحتلال هما لغتا السلطة والنفوذ.

## 6. عصر التفكّت

شهد عقد الألفين (2000s) ما يمكن وصفه بـ تفكك الفضاء السياسي العربي، حيث تراجعت الدولة الوطنية إلى مشاهد من الانقسام والاحتراق الداخلي:

- لبنان شلّت مؤسساته بفعل المحاصصة الطائفية وتعرّض لحرب مدمّرة مع إسرائيل عام 2006.
- فلسطين انقسمت بين فتح وحماس بعد عام 2007، ليتحوّل الانقسام السياسي إلى انقسام جغرافي ومجتمعي دائم.
- العراق انزلق إلى حرب أهلية طاحنة، حيث تداخل الاحتلال مع الطائفية والإرهاب.
- السودان والصومال واليمن واجهت حالات من تفكك الدولة وصراعات قبلية وإقليمية جعلتها نموذجاً للفشل البنيوي في الحكم.

لقد دخلت المنطقة في عقدٍ جديدٍ تُدار فيه الصراعات لا لتُحسم، بل لتُستدام — لتصبح الفوضى نفسها نظاماً، والانقسام وسيلةً للبقاء السياسي.

لم تكن هذه الانقسامات عشوائية، بل كانت نتيجة مباشرة لعقودٍ من الاستبداد، والتدخل الأجنبي، وتآكل مؤسسات الدولة المدنية. فقد انكشفت آثار “الحداثة المزعومة” التي بُنيت على القهر لا على المشاركة، وأصبحت السيادة نفسها مجزأة — دولّ بلا احتكارٍ للقوة، وحدود بلا معنى، وشعوب تبحث عن الكرامة في هوياتٍ عابرةٍ للأوطان.

## 7. صعود الفاعلين من غير الدول

أدى الفراغ الذي خلّفته الدول الفاشلة والأنظمة المتآكلة إلى بروز قوى غير دولية أصبحت اللاعبين الجدد في المشهد الإقليمي:

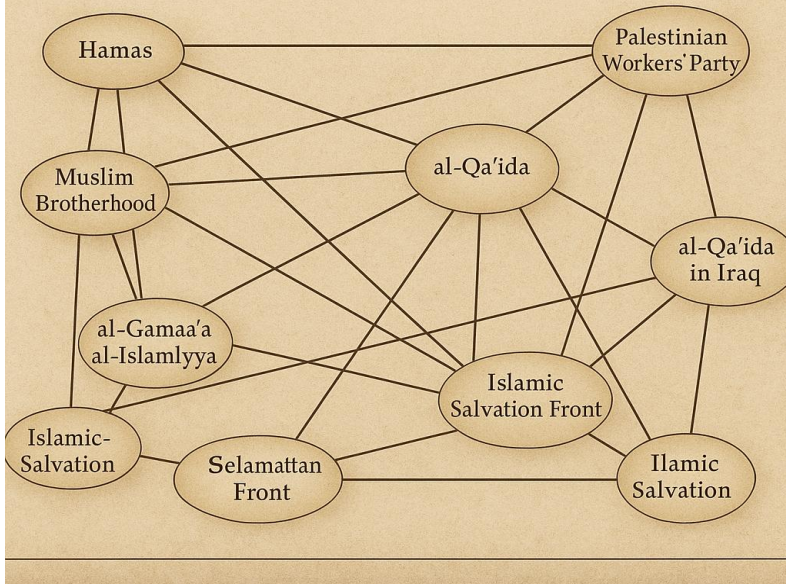
من حزب الله في لبنان، إلى حماس في فلسطين، وصولاً إلى تنظيم القاعدة وشبكاته العابرة للحدود.

تجاوزت هذه الحركات حدود الدولة القومية، وجمعت بين العمل الاجتماعي والخطاب الأيديولوجي والمقاومة المسلحة. فقد قدّمت الخدمات والتعليم والرعاية الصحية في غياب الدولة، وفي الوقت نفسه، خاضت حروباً بالوكالة ضد الاحتلال أو ضد الأنظمة القائمة.

بهذا المعنى، لم تكن هذه الحركات مجرد "متمردين"، بل بدائل عن الدولة في مجتمعاتٍ فقدت الثقة في مؤسساتها. لقد تحولت من قوى احتجاج إلى كياناتٍ منظمةٍ تمتلك شرعيةً دينيةً واجتماعية، تعيد تعريف مفهوم "السيادة" و"المقاومة" خارج أطر الدولة التقليدية.

*(Network map of non-state actors in the Middle East, 1990–2010)*

Figure 5.10 Network Map of Non-State Actors in the Middle East, 1990–2010



بينما نظر إليهم المراقبون الغربيون باعتبارهم تهديدات أمنية عابرة للحدود، كانوا في الواقع يمثلون شكلاً جديداً من الفاعلية السياسية — فاعلية منبثقة من المجتمعات لا من الدول، ومتجذرة في الإيمان والهوية الجماعية والمظلومية العابرة للأوطان، بدلاً من السيادة الإقليمية التقليدية.

## 8. الإعلام والعولمة والعقل العربي

أحدثت قنوات الأقمار الصناعية مثل الجزيرة (تأسست عام 1996)، إلى جانب انتشار الإنترنت، تحولاً جذرياً في المجال الثقافي والسياسي العربي.

فقد انتهى احتكار الأنظمة للمعلومة، وأصبحت المعرفة عابرة للحدود ومفتوحة للمشاركة الشعبية. للمرة الأولى منذ عقود، نشأ ما يمكن تسميته بـ الرأي العام العربي العابر للأقطار — رأيٌ ناقد، ساخر، ومتشبعٌ بوعيٍ جديدٍ بالتهميش والازدواجية التي يعيشها المواطن العربي بين خطاب الحداثة وواقع الإقصاء.

أصبح الإعلام الفضائي — ثم الرقمي لاحقاً — ساحةً للهوية والمساءلة، يتنافس فيها الخطاب الديني، والسياسي، والثقافي، ويُعاد من خلالها تشكيل الوعي الجمعي خارج قنوات الدولة الرسمية.

لقد مهّد هذا التحوّل لثورات التواصل والانفتاح في العقد التالي، حين تحوّل المواطن من متلقٍ سلبي إلى فاعلٍ رقميٍّ قادرٍ على التعبئة والاحتجاج.

ومع ذلك، لم تتحوّل هذه الصحوة الوعية الجديدة إلى إصلاحٍ سياسيٍ فعليٍّ. فقد أنقنت الأنظمة العربية فنّ "التعددية الموجهة"، تسمح بقدرٍ محسوبٍ من النقاش والإعلام الحرّ، لكنها تُفرّغه من مضمونه من خلال الرقابة، والدعاية، وثقافة الاستهلاك التي حوّلت المواطن إلى متفرّجٍ أكثر منه مشاركاً.

وهكذا أصبحت العولمة في العالم العربي مفارقةً لأذعة — رؤية بلا تمكين، وحضوراً بلا تأثير، حيث تُعرض الأصوات، لكن القرار يبقى محتكراً.

## 9. تأملات: تفكّك الدولة ما بعد الاستعمار

بحلول عام 2010، كان الشرق الأوسط يقف أمام مفترق طرقٍ حاسم. لقد وصلت الدولة ما بعد الاستعمار — التي وُلدت من رحم الثورات واستقرت بفضل النفط إلى مرحلة الانهيار البنيوي بفعل العولمة والحروب والبعث الديني.

المرحلة التاريخية	شكل السلطة	أساس الشرعية	التناقض السائد
1950-1970	الجمهوريات الثورية	الأيدولوجيا والوحدة	السلطوية مقابل التحرر
1970-1990	الملكيات الريعانية والنظام الأميركي	الثروة والاستقرار	الإيمان مقابل العلمنة
1990-2010	سيادات مجزأة	البقاء والهوية	العولمة مقابل السيادة

### (مسار تطور السلطة في الشرق الأوسط، 1950-2010)

ورغم تعاقب التحولات، بقي خيطٌ واحدٌ من الاستمرارية: هو الصراع على الشرعية الأخلاقية والسياسية في عالمٍ أصبحت فيه السيادة صفقة، والعدالة مؤجلة.

### ◆ تأمل: العولمة، والإيمان، وأزمة الدولة (1990-2010)

يُلخّص هذا التأمل التحولات العاصفة في الشرق الأوسط بعد الحرب الباردة — عصرٌ غلّقت فيه لغة العولمة هياكل هيمنة جديدة، وحلّ فيه الإيمان محل الأيدولوجيا كمرجع أخلاقي، وبدأت فيه الدولة نفسها تتفكك إلى شظايا من السلطة والهوية والبقاء.

#### 1. سراب العولمة

بحلول التسعينيات، غمر الخطاب العالمي موجةً من التفاؤل: أسواقٌ حرة، مجتمعاتٌ منفتحة، وسلامٌ عبر التكامل الاقتصادي. لكن في الشرق الأوسط، سرعان ما انكشف هذا الوعد الزائف. فقد جاءت العولمة امتدادًا للإمبراطورية لا أداةً للتحرّر.

أدّى انهيار الاتحاد السوفييتي إلى إنهاء المنافسة الأيدولوجية، لكنه أيضًا أزال ميزان القوى الجيوسياسي الذي كان يقيد الهيمنة الغربية. وما قُدِّم باسم “الاندماج العالمي” كان في جوهره إعادة تمركز السلطة — مالية، وعسكرية، وتكنولوجية — حول محورٍ عالميٍّ واحدٍ لا شريك له.

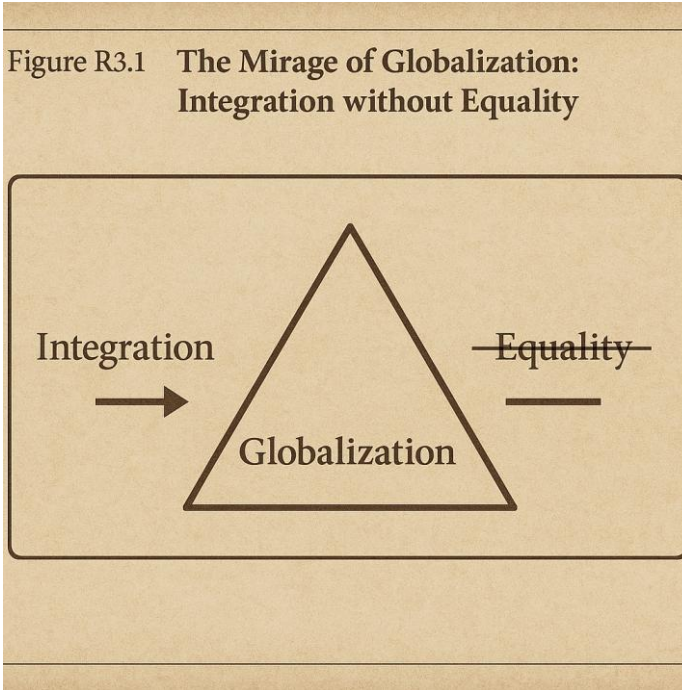
بالنسبة لمجتمعات الشرق الأوسط، أنتجت العولمة تبعيةً مغلفةً بلغةً جديدة. أصبحت الاقتصادات مرتبطة بصادرات النفط وتدفقات رأس المال الأجنبي، فتكوّنت أسواقٌ بلا سيادة.

أما الحدود السياسية، التي أضعفتها حركة المال والمعلومات، فتحوّلت إلى أسوارٍ بلا أمان.

أما الأنظمة الحاكمة، وقد فقدت شرعيتها الأيديولوجية، فلم يبقَ لها إلا رعاية الولاعات، والمراقبة الأمنية، وصناعة الخوف — أي سياسة بلا فكر.

نظريًا، وعدت العولمة بالاندماج؛ لكن عمليًا، أنشأت ترابطًا غير متكافئ — عالمًا أصبح فيه كل بلد متصلًا، لكن ليس كل شعبٍ ذا قيمةٍ في هذا الاتصال (أمين، الرأسمالية في عصر العولمة).

*(Conceptual diagram — “The Mirage of Globalization: Integration without Equality”)*





## 2. الفراغ الأخلاقي في الدولة

لقد كانت الثورات العربية في منتصف القرن العشرين تحمل خطابًا أخلاقيًا واضحًا — تتحدث عن العدالة، والوحدة، والتحرر كأسسٍ لشرعية السيادة. لكن مع مطلع القرن الحادي والعشرين، تلاشى ذلك الخطاب الأخلاقي، وتحوّلت الدولة، التي كانت تُرى مشروعًا أخلاقيًا وتحويليًا، إلى هيكلٍ بيروقراطيٍّ أجوف لا يستمد سلطته من الشرعية أو الإيمان بالفكرة، بل من إدارة الخوف والسيطرة الأمنية.

في معظم أرجاء المنطقة، نشأ عقدٌ سياسيٌّ جديدٌ: "الاستقرار مقابل الصمت". تضمن الأنظمة الأمن والنظام عبر القمع والولاء الزبائني، في حين يُتوقع من المواطنين الرضا مقابل الأمان والمعيشة. وكانت النتيجة ثقافةٌ من الشلل السياسي، حيث استبدلت المشاركة العامة بقدرة الناس على التحمل والصبر.

في ظل هذا الفراغ، تآكل المركز الأخلاقي للدولة. حلت البيروقراطية محل القناعة، والمراقبة محل الثقة، وأصبحت الدولة مجرد بنيةٍ إداريةٍ بلا روح أو غاية — ما وصفته حنة أرندت يومًا بـ "الاستقرار بلا سلطة" (أصول التوتاليتارية).

## 3. عودة الإيمان كلغةٍ سياسية

مع العقود الأخيرة من القرن العشرين، عاد الدين في الشرق الأوسط لا بوصفه عقيدةً شخصيةً، بل كـ لغةٍ عامةٍ للمعنى السياسي. لقد خلق الإخفاق المتكرر للأيديولوجيات العلمانية — القومية العربية، والاشتراكية، والليبرالية الحديثة — فراغًا أخلاقيًا ووجوديًا بدأ الفكر الديني يملؤه تدريجيًا.

تحوّل الإسلام السياسي من حركة احتجاجٍ إلى خطاب حكمٍ وشرعية. وفي سياقاتٍ مختلفة، اتخذ الدين أشكالًا متعددة:

- في إيران تجسّد في الجمهورية الإسلامية بعد 1979،
- في لبنان في سياسة حزب الله المقاومة،
- وفي تركيا في نموذج الإسلام المعتدل الذي مثله حزب العدالة والتنمية (AKP).

بهذا المعنى، لم تكن عودة الدين رفضاً للحادثة، بل كانت إعادة تملك لها من منظور أخلاقي جديد.

فقد استخدمت الحركات الإسلامية التكنولوجيا والإعلام والعولمة لتوسيع نفوذها، واستعانت بآليات السوق لتمويل مؤسساتها، وقدمت نفسها بوصفها بديلاً أخلاقياً عن الاغتراب الذي خلّفته الحداثة العلمانية.

وهكذا عاد الإيمان لا باعتباره حنيناً إلى الماضي، بل كلغة للكرامة والسيادة — وسيلة لاستعادة النظام الأخلاقي في مجتمعات أصبحت تُدار بالأسواق وبالدول الأمنية (روي، فشل الإسلام السياسي).

#### 4. الإمبراطورية في عصر الديمقراطية.

كشف مطلع القرن الحادي والعشرين عن مفارقة عميقة في قلب السياسة العالمية: فقد أصبحت الديمقراطية هي لغة الإمبراطورية.

ففي أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001، جرى توظيف خطاب الحرية وحقوق الإنسان والأمن لتبرير التدخلات العسكرية في الشرق الأوسط. وهكذا نشأ ما وصفه بعض الباحثين بـ «الإمبريالية الليبرالية» — «أي توسع النفوذ الغربي من خلال قاموس إنساني ديمقراطي ظاهرياً (تشومسكي، الهيمنة أم البقاء).

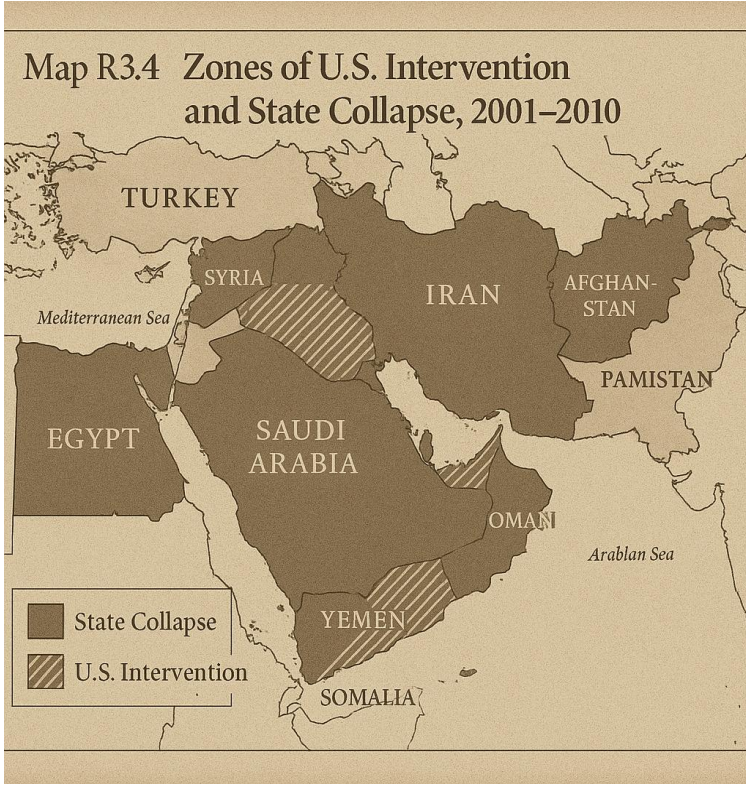
مثلّت الغزو الأميركي للعراق عام 2003 ذروة هذا التناقض.

فلم يكن خطأً استراتيجياً فحسب، بل فشلاً معرفياً — افتراضاً بأن الحرية يمكن استيرادها بالقوة، وأن المجتمعات يمكن إعادة تشكيلها عبر الاحتلال. تحت شعار "تغيير النظام"، تم تعليق السيادة، وتفكيك المؤسسات، وتطبيع العنف كأداة للحكم والسيطرة.

لقد أضفى هذا النظام الإمبراطوري الجديد على الإكراه غلاًفاً أخلاقياً. فأصبحت الديمقراطية مشروعاً تأديبياً أكثر منها عملية تشاركية — تُفرض من الأعلى، وتُدار من الخارج، وتُبرّر بخطابات "الاستقرار" و"الأمن".

وهكذا دخل الشرق الأوسط القرن الحادي والعشرين ليس بوصفه مستقيماً من مسار التحول الديمقراطي، بل بوصفه مختبراً لتناقضاته الكبرى — حيث تُمارس الهيمنة باسم التحرير، ويُعاد إنتاج القهر بلغة الحرية.

*(Zones of U.S. intervention and state collapse, 2001–2010)*



### قلب الديمقراطية وفقدان الثقة

أدت هذه المفارقة المعكوسة للديمقراطية — حين أصبحت شعارًا وسلاحًا في آنٍ واحد — إلى نشوء شعور عميق بالسخرية واللاجدوى في العالم العربي. فقد فقدت الديمقراطية قدسيتها الأخلاقية، وأصبحت في نظر كثيرين لغة للهيمنة لا للتحرير. وبذلك تزعمت شرعية الغرب نفسه، وتقوّضت معه مصداقية خطاب الإصلاح والتحديث الذي حمله لعقود طويلة.

### 5. صعود الهويات المتشظية

مع مطلع القرن الحادي والعشرين، بدأت الخريطة السياسية للشرق الأوسط تتشقق على خطوط طائفية وعرقية ومجتمعية دقيقة، كاشفة عن تآكل الإطار القومي الذي كان قد شكّل الدولة الحديثة.

إن فشل الأيديولوجيات ما بعد الاستعمار من القومية العربية إلى الاشتراكية والإصلاح الليبرالي — خلف فراغاً سياسياً وهوياتياً ملأته تدريجياً أشكالاً أصغر وأكثر خصوصية من الانتماء: القبيلة، والطائفة، والجماعة الدينية، والهوية الإثنية أو المذهبية.

لقد مثل هذا التحول أزمة وجودية في معنى الانتماء. فبعد أن كان الجيل السابق يجد هويته في مشاريع قومية جماعية، اتجه الأفراد والمجتمعات إلى الداخل، باحثين عن الأمان داخل حدود الدم والعقيدة. وقرت هذه الهويات ملأداً في زمن الانهيار السياسي، لكن بشمٍ باهظ: فقدان الشمول والتماسك المدني.

أنتج هذا الوضع ما وصفه الباحثون بـ «تعددية ما بعد قومية بلا تعددية» — واقعاً تتعايش فيه جماعات متجاورة، لكنها تفتقر إلى شرعية مشتركة أو نظام أخلاقي موحد (لوسيك، دول غير مستقرة وأراضٍ متنازع عليها).

تجسّد هذا التفتت في شلل لبنان الطائفي المزمن، والانقسام السني الشيعي في العراق، والانقسام الفلسطيني بين فتح وحماس، وصعود الشبكات الجهادية العابرة للحدود.

ما نشأ لم يكن تنوعاً بل تفككاً — عوالم من السیادات المتوازية حيث تستمر الدولة شكلاً، لكنها تختفي معنى وأخلاقاً.

## 6. أزمة المعنى

مع مطلع القرن الحادي والعشرين، لم تكن الأزمة في الشرق الأوسط سياسية فحسب، بل كانت أزمة في المعنى ذاته.

لقد انهارت المنظومات الفكرية التي منحت المجتمعات تفسيراً للعالم — من القومية إلى الاشتراكية إلى الإصلاحية العلمانية — فوجدت الشعوب نفسها معقّلة بين نظمٍ متنافسة، كلٌّ يدّعي الشرعية الأخلاقية، ولا أحد يقدم عالمية حقيقية أو خلاصاً مشتركاً.

فالعولمة، بدلاً من أن توحد، عمّقت هذا الفراغ المعرفي. إذ أنتجت تدفقاً هائلاً للمعلومات دون قدرة على التفسير، وفيضاً من البيانات يقابله ندرة في الحقيقة. انهارت النظم التقليدية للمعنى دون أن تنشأ بدائل جديدة.

ظهرت حركات الإحياء الديني كمصادر جديدة للثقة الأخلاقية، لكنها في كثير من الأحيان عرّفت نفسها من خلال الإقصاء، فحُصرَت عالمية رسالتها ضمن حدود المذهب أو الجماعة.

أما النخب العلمانية، فواصلت التحدث بلغة الحداثة والإصلاح، بينما مارست السلطة ضمن أنظمة محصنة ضد المساءلة. فنشأ مشهدٌ حافلٌ بالتناقضات: اقتصاداتٌ فائقة الحداثة بجانب هياكل سلطةٍ ما قبل حديثة، اتصالٌ عابر للحدود يقابله عزلةٌ محلية، ومجتمعاتٌ متديّنة ظاهريًا لكنها فاقدة للإيمان العميق.

لقد مثل هذا الاضطراب المعرفي — (Epistemic Dislocation) أي انهيار الأطر المشتركة للحقيقة والشرعية — أعمق انقسام عرفته المنطقة. فهو لا يعبّر عن فشل الحكم فقط، بل عن انهيار المعنى ذاته، حين عجز الإيمان والأيديولوجيا والحداثة عن تقديم سردية متماسكة للحياة الجماعية (باومان، الحداثة السائلة).

## 7. الاستمرارية وسط الانقراض.

على امتداد قرنٍ من الثورات والإمبراطوريات والتحوّلات العالمية، ظلّ الشرق الأوسط أسيرًا لمعضلة أخلاقية متكرّرة: كيف يمكن التوفيق بين السلطة والعدالة، وبين الحداثة والنزاهة الأخلاقية؟

فخلف اللغات المتغيّرة — من القومية إلى الاشتراكية إلى العولمة — تكمن استمرارية عميقة في التطلّع: سعيٌّ دائم نحو الكرامة والنظام الأخلاقي في الحياة السياسية. كل مرحلة تاريخية حملت وعدها الخاص، ومعه خيبتها الخاصة:

- ثورات الخمسينيات بشرت بالتحرّر، لكنها استبدلت الحرية بالسيطرة.
- ازدهار النفط في السبعينيات وفّر الرفاه المادي، لكنه استبدل العدالة بالاستهلاك.
- أما العولمة في التسعينيات والألفية الجديدة فقد وسّعت الاتصال، لكنها أفرغت المعنى، وحوّلت الغاية الجماعية إلى سعيٍّ نحو البقاء والمشهدية.

هذه الأنماط لا تكشف عن تدهورٍ دوريٍّ فحسب، بل عن تكرارٍ بنيويٍّ للعجز ذاته — عجز النماذج المتعاقبة عن دمج الشرعية بالحكم، أو توحيد الأخلاق بالسلطة.

إن استمرار الاستبداد، والارتهان، والتفكك الأخلاقي يشير إلى أن أعمق أزمت المنطقة ليست ماديةً ولا أيديولوجية، بل أزمة في الاتساق الأخلاقي ذاته.

وهكذا يواصل الشرق الأوسط العيش في المسافة بين الذاكرة والطموح — حيث تتجاوز أنقاض المشاريع الماضية مع أملٍ متجددٍ في النهوض. وما يبقى في كل تحولٍ هو السؤال الذي لم يُحسم قط: هل تستطيع حضارةٌ بُنيت على الإيمان والعدالة أن تستعيد سيادتها الأخلاقية في عالم تحكمه القوة؟

## 8. التأمل الختامي — المقدمة الطويلة للربيع العربي

بحلول عام 2010، بلغت تناقضات المنطقة ذروتها. فقد اجتمعت ثلاثة أزمتٍ في جسدٍ واحد:

ثروة بلا مساواة، وإيمانٌ بلا حرية، وحكمٌ بلا شرعية. تلك كانت الشرارات التي سنُشعل قريباً ثورات العالم العربي.

وما بدا مفاجئاً في عام 2011، كان في الحقيقة انفجاراً موجَّلاً لأسئلةٍ مكبوتة منذ عقود — عن العدالة والهوية والانتماء.

إن فشل الأيديولوجيا والعولمة معاً هو الذي مهد الأرض لحقبةٍ جديدةٍ غير متوقعة، تعود فيها صوت الشارع إلى التاريخ، وتتقدم فيها الذاكرة على الشعارات.

لم يكن الربيع العربي ميلاد ثورةٍ جديدة، بل كان عودة الذاكرة الثورية القديمة — صدى لقرنٍ كاملٍ من البحث عن الحرية، وسؤالٍ لا يزال مفتوحاً:

كيف تُبنى الكرامة في زمنٍ انهارت فيه كل المعاني؟

## الفصل السادس: الانتفاضات وإعادة التشكل — الشرق الأوسط في القرن الحادي والعشرين

### الملخص

الانتفاضات وإعادة التشكل: الشرق الأوسط في القرن الحادي والعشرين

يستعرض هذا الفصل التحولات السياسية والاجتماعية والجيوسياسية التي أعادت رسم ملامح الشرق الأوسط بين عامي 2010 و2025. يبدأ باستعراض الانتفاضات العربية ومساراتها المتباينة — من التجربة الديمقراطية في تونس والعودة العسكرية في مصر إلى الحروب الأهلية في سوريا واليمن وليبيا — متتبعاً كيف تحوّل الأمل الثوري إلى تفتتٍ وصراعاتٍ بالوكالة واستبدادٍ متجدّد.

ثم يناقش عودة الدولة كفاعلٍ مركزي، وتساعد التنافس الإقليمي بين إيران وتركيا وإسرائيل ودول الخليج، إلى جانب عودة القوى العالمية مثل روسيا والصين في ظل تراجع الهيمنة الأميركية.

كما يتناول الفصل اتفاقات أبراهام، وحركات المقاومة الرقمية، والنظام المتعدد الأقطاب الجديد الذي يتكوّن من خلال البراغمية الدبلوماسية والتحكّم التكنولوجي.

ومن خلال مصادر متعددة التخصصات ودراسات حالة إقليمية، يجادل الفصل بأن الربيع العربي فشل في تحقيق التحول الديمقراطي، لكنه نجح في إعادة تعريف الشرعية والوعي العام العربي، ممهداً لحقبةٍ من الصمود ما بعد الثورات، تتسم بـ النشاط الرقمي، والإرهاق الاجتماعي، وإعادة الاصطفاف الجيوسياسي.

### أولاً: من الجمود إلى الانفجار (2000–2010)

#### 1. استمرارية الاستبداد وجمود المجتمع

مع مطلع القرن الحادي والعشرين، كانت معظم الدول العربية محكومةً بأنظمةٍ راسخةٍ تستمد شرعيتها من مزيجٍ من الإرث التاريخي والأجهزة الأمنية والتحالفات الخارجية. برزت شخصيات مثل حسني مبارك في مصر، زين العابدين بن علي في تونس،

علي عبد الله صالح في اليمن، بشار الأسد في سوريا، ومعمر القذافي في ليبيا بوصفهم رموزًا لأنظمة تجمع بين الهياكل الجمهورية الشكلية والنزعة الوراثية الفعلية (أندرسون، 2011).

قدّمت هذه الأنظمة نفسها كـ ضمانٍ للاستقرار في منطقة متوترة، لكن هذا الاستقرار كان على حساب الجمود السياسي والقمع. فقد جرى التحكم بالمعارضة عبر قوانين الطوارئ، وأجهزة الأمن، وانتخابات مُدارة مسبقًا تضمن استمرارية النظام (براونلي وآخرون، 2015). أما منظمات المجتمع المدني، فكانت تُسمح بوجودها المحدود تحت الرقابة الصارمة من الوزارات الأمنية والسياسية.

نتج عن ذلك ثقافة سياسية قائمة على اللامبالاة والاستسلام والسخرية — ما سماه بعض الباحثين «العقد الاستبدادي»، حيث يستبدل المواطنون الحقوق السياسية بـ قدرٍ من الأمن الاقتصادي والنظام العام (كاميت وديوان، 2013).

لكن مع منتصف العقد الأول من الألفية، بدأ هذا العقد يتآكل ببطء. فقد أدّت فضائح الفساد والمحسوبية واتساع الفجوة الاجتماعية إلى تفويض الثقة العامة، في حين فشلت القيادات الهرمة في تجديد شرعيتها أو الاستجابة للضغط السكانية والاجتماعية المتصاعدة (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2009).

## 2. الضغط الديمغرافي واليقظة الرقمية

دخل العالم العربي القرن الحادي والعشرين وهو يمتلك واحدةً من أكثر الفئات السكانية شبابًا في العالم — حيث تجاوزت نسبة من هم دون سن الثلاثين 60% من مجموع السكان (تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2016).

وقد بدا هذا "الانفجار الشبابي" في بدايته فرصةً واعدة للنمو الاقتصادي، إذ اعتُبر الشباب الطاقة الكامنة للتنمية والإبداع والتجديد. لكن هذه الطاقة سرعان ما تحوّلت إلى مصدرٍ لعدم الاستقرار حين فشلت الاقتصادات الوطنية في خلق فرص عملٍ كافيةٍ تتناسب مع الزيادة السكانية.

فقد وصلت معدلات بطالة الشباب إلى ما بين 25 و30 في المئة في دولٍ مثل مصر والأردن وتونس، حتى بين خريجي الجامعات (البنك الدولي، 2011).



أصبح الشباب — الأكثر تعليمًا واتصالًا بالعالم — الأكثر تهميشًا سياسيًا واقتصاديًا، ما ولد شعورًا عميقًا بالغضب والإقصاء، ومهد الأرض لظهور جيل جديد من الوعي والمعارضة الرقمية الذي سيقود بعد سنوات قليلة انتفاضات الربيع العربي.

في الوقت نفسه، تسارعت وتيرة التحضر، حيث شهدت المنطقة العربية موجة متسارعة من التحضر، حيث انتقل عشرات الملايين من سكان الأرياف إلى المدن المكتظة التي كانت تقتصر إلى البنية التحتية الكافية والخدمات الأساسية.

ومع خيبة الأمل في الإعلام الرسمي الخاضع للرقابة، اتجه الجيل الشاب نحو الفضاء الإعلامي الجديد المتمثل في القنوات الفضائية ووسائل الاتصال الرقمية الناشئة. فقد كسرت قناة الجزيرة، التي تأسست عام 1996، الاحتكار الإعلامي الرسمي وفتحت المجال أمام الأصوات المعارضة، بينما منحت منصات التواصل الاجتماعي — مثل فيسبوك (2004) وتويتر (2006) — الأفراد وسائل جديدة للتعبير والتنظيم والتأثير (لينش، 2013).

وبحلول عام 2010، كانت قد تشكلت «ساحة رقمية عامة» تجاوزت حدود الدولة وأنظمتها الرقابية، حيث بدأ النشاط في القاهرة وتونس ودمشق بتبادل الأفكار والشعارات وأساليب الاحتجاج، مكونين وعياً عربياً جديداً مشتركاً يربط بين الهموم اليومية والطموحات الجماعية (لينش، 2022).

ما كان في السابق أفعالاً احتجاجية معزولة أو نقداً هامشياً تحول الآن إلى خطاب متصل ومؤثر عاطفي عابر للحدود.

### 3. التفاوت الاقتصادي والعوامل العالمية المحفزة

رغم أن الناتج المحلي الإجمالي في العديد من الدول العربية شهد نمواً معتدلاً خلال العقد الأول من الألفية، فإن معظم هذا النمو كان مدفوعاً بإيرادات النفط، والبناء، وتحويلات العاملين وهي قطاعات لم تسهم في الحد من عدم المساواة (صندوق النقد الدولي، 2010).

أما في الاقتصادات غير النفطية — مثل مصر وتونس والأردن — فقد أدت الإصلاحات النيوليبرالية التي شجّعها صندوق النقد والبنك الدولي إلى نتائج متباينة: تحقّق الاستقرار المالي الكلي، لكن بثمن الخصخصة، وإثراء النخب، وتراجع الأجور الحقيقية (كامب وديوان، 2013).

ويحلول أواخر العقد الأول من القرن، كانت ثمار النمو الاقتصادي محصورة في أيدي عائلات وشبكات اقتصادية مرتبطة مباشرة بالنخب الحاكمة، بينما واجهت الطبقات الفقيرة والوسطى ارتفاع تكاليف المعيشة وتراجع الفرص.

وفي الوقت ذاته، زادت الأزمات العالمية من الضغوط: أدت الأزمة المالية العالمية لعام 2008 إلى تراجع الاستثمار والسياحة وارتفاع البطالة، كما ارتفعت أسعار الغذاء العالمية إلى مستويات قياسية في 2009-2010، مما أصاب الأسر ذات الدخل المحدود بأضرارٍ بالغة (البنك الدولي، 2011).

هذا التلاقي بين الإحباط الداخلي والضغط الاقتصادي العالمي خلق ما وصفه المحللون لاحقاً بـ «العاصفة الكاملة للسخط الشعبي» (أندرسون، 2011).

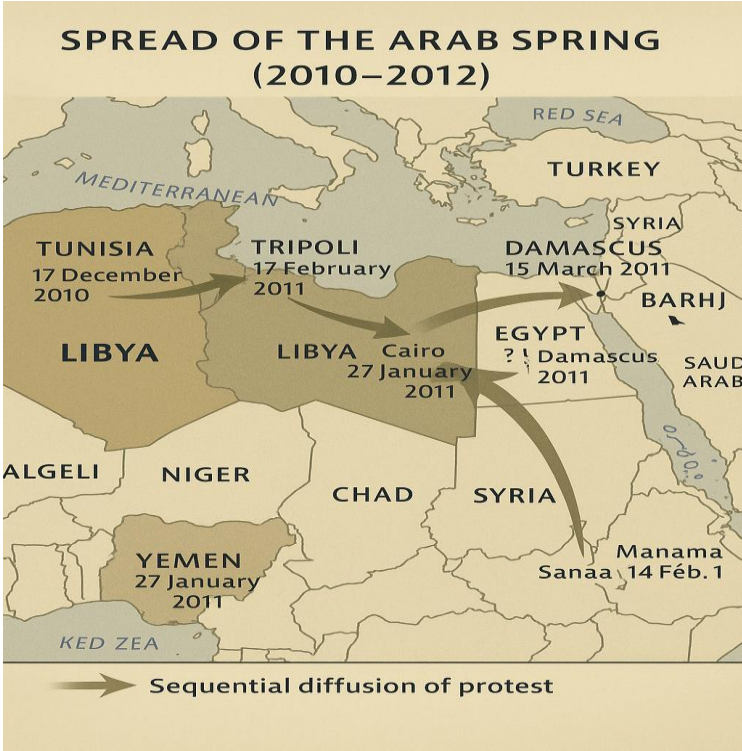
لقد بدأت شرعية الاستقرار الاستبدادي في الانهيار، حتى وإن لم تكن ملامح السقوط واضحة بعد. في المجتمعات العربية كافة، كان الصمت الطويل يتحول إلى غضب متصاعد — غضبٌ سيجد صوته قريباً في شوارع سيدي بوزيد والقاهرة وبنغازي وغيرها.

### ثانياً: الربيع العربي — الثورة والأمل (2010-2012)

شكل عام 2011 أحد أكثر المنعطفات الدرامية في التاريخ السياسي الحديث للشرق الأوسط.

فما بدأ كـ فعل احتجاجٍ فردي في تونس سرعان ما تحول إلى موجةٍ عابرةٍ للحدود العربية أطاحت بأنظمةٍ، وأشعلت حروباً أهلية، وأعادت تشكيل الوعي السياسي في المنطقة.

لقد كان ما سُمي بـ «الربيع العربي» أقرب إلى تفاعلٍ تسلسليٍّ للغضب المكبوت من كونه ثورةً منظمة — تراكبت فيه المظالم الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية لتتحول إلى صرخةٍ جماعيةٍ من أجل الكرامة والعدالة (لينش، 2022).



## 1. تونس — الشرارة الأولى

كان انتحار محمد البوعزيزي حرقاً لنفسه في ديسمبر 2010 بمدينة سيدي بوزيد الرمز الأبرز ليأس جيل كامل يواجه الفساد والإهانة والانسداد الاجتماعي (كاميت وديوان، 2013). فقد تحوّل موته إلى شرارة لاحتجاجات وطنية واسعة طالبت بـ إنهاء حكم الرئيس زين العابدين بن علي الذي استمر لأكثر من ثلاثة وعشرين عاماً.

وفي غضون أربعة أسابيع فقط، فرّ بن علي إلى المملكة العربية السعودية — في لحظة كسرت أسطورة استمرارية الأنظمة الاستبدادية العربية. تميّزت الانتفاضة التونسية عن غيرها بأنها كانت سريعة الانتشار لكنها أقلّ دموية من الثورات الأخرى. إذ امتنع الجيش عن استخدام العنف الواسع، بينما لعب المجتمع المدني — وخاصة الاتحاد العام التونسي للشغل (UGTT) والنقابات المهنية — دور الوسيط بين القوى الإسلامية والعلمانية.

وشاركت حركة النهضة، التي كانت قد قُمت طويلاً في عهد بن علي، في انتخابات المجلس التأسيسي عام 2011. ورغم استمرار التوترات السياسية، فقد وقفت تونس لفترةٍ وجيزة بوصفها النموذج العربي الوحيد للديمقراطية الناشئة (لينش، 2022).

PROTEST MOVEMENTS AND SLOGANS		
Tunisia		The people want the fall of the regime
Egypt		Leave!
Yemen		No to corruption
Syria		It will not pass!
Ash-sha'b yuríd isqâtt an-niẓâm.		

0

## 2.مصر — الثورة والانقلاب

استلهم المصريون من التجربة التونسية شرارتهم، فخرجوا في يناير 2011 إلى ميدان التحرير يهتفون: «عيش، حرية، عدالة اجتماعية.» وخلال ثمانية عشر يوماً من التظاهر الحاشد والعصيان المدني، أُجبر الرئيس حسني

مبارك — الذي حكم البلاد منذ عام 1981 — على التنحي عن السلطة (كوك، 2012).

كان سقوط مبارك، وهو أحد أركان السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، حدثًا زلزل المنطقة بأسرها، إذ أثبت أن الأنظمة الراسخة يمكن أن تهتز أمام قوة الشارع.

غير أنّ المرحلة التي تلت الثورة كشفت سريعًا عن صلابة “الدولة العميقة” في مصر. فقد تولى المجلس الأعلى للقوات المسلحة (SCAF) إدارة شؤون الدولة، مُقْبِياً على المؤسسة العسكرية باعتبارها الحكم الأخير في موازين السلطة (براونلي وآخرون، 2015).

وفي انتخابات 2012، فاز محمد مرسي، مرشح جماعة الإخوان المسلمين، ليبدأ تجربة قصيرة للحكم المدني المنتخب. لكن الانقسام الداخلي، والتدهور الاقتصادي، وسوء الإدارة مهّدت الطريق أمام الانقلاب الذي قاده الفريق عبد الفتاح السيسي عام 2013، لتعود الهيمنة العسكرية إلى واجهة المشهد السياسي.

وهكذا أصبحت مصر مثلاً حيّاً على أن الثورات الشعبية قد تُسْقِط الحُكَّام، لكنها نادراً ما تنجح في تفكيك البنى العميقة للسلطة.

### 3. ليبيا — التدخل الأطلسي وانهيار الدولة

في ليبيا، قوبلت الاحتجاجات السلمية في فبراير 2011 برّد دمويٍّ من نظام معمر القذافي. ومع تصاعد العنف، تدخل حلف الناتو بموجب القرار 1973 الصادر عن مجلس الأمن، مبرِّراً ذلك بـ مهمة إنسانية تهدف إلى منع مجزرة في بنغازي (أندرسون، 2016).

أدّى مقتل القذافي في أكتوبر 2011 إلى إنهاء اثنين وأربعين عاماً من الحكم الفردي، لكن غياب المؤسسات الفاعلة أدى إلى انهيار الدولة بالكامل. فبحلول عام 2012، كانت ليبيا منقسمة بين الميليشيات القبلية والأيدولوجية والمناطقية.

أما الحكومة المركزية في طرابلس فكانت منزوعة الصلاحيات، بينما تنافست الفصائل المسلحة على السيطرة على الثروة النفطية.

وهكذا تحوّلت ثورة الحرية إلى فراغٍ سلطويٍّ استغلّته القوى الإقليمية — خصوصاً الإمارات ومصر ولاحقاً تركيا — لتوسيع نفوذها (باك، 2021).

#### 4.اليمن — الخروج بالتفاوض والحرب الأهلية

في اليمن، اندلعت الاحتجاجات مطلع عام 2011 وجمعت بين الناشطين الشباب، والقبائل، والإسلاميين، والحراك الجنوبي. وافق الرئيس علي عبد الله صالح، الذي حكم منذ 1978، على التنحي بموجب اتفاقٍ رعته دول مجلس التعاون الخليجي مقابل منحه الحصانة من الملاحقة (جونو، 2018). وتولّى نائبه عبد ربه منصور هادي الرئاسة في عام 2012، لكن مرحلة الانتقال لم تدم طويلاً.

عادت إلى السطح الانقسامات البنيوية القديمة — القبليّة والمناطقية والطائفية. وتحول الحوثيون، الذين بدأوا ك حركةٍ متمردةٍ محلية في الشمال، إلى قوةٍ مسلحةٍ تسيطر على أجزاء واسعة من البلاد بعد عام 2014، لتتحدّر البلاد نحو حربٍ أهليّةٍ شاملة.

وهكذا انتقل اليمن من تسويةٍ هشّةٍ بالتفاوض إلى صراعٍ مدمرٍ، مُجسّداً فشل الانتقالات السياسية التي تُدار من الخارج في مجتمعاتٍ منقسمةٍ بعمق.

#### 5.سوريا — من الاحتجاج إلى الكارثة

في سوريا، انطلقت الاحتجاجات السلمية من مدينة درعا في مارس 2011، مطالبةً بالإصلاحات والإفراج عن المعتقلين السياسيين. لكن ردّ النظام العنيف — بالرصاص والاعتقالات الجماعية — حول المظاهرات إلى انتفاضةٍ وطنيةٍ شاملة.

وبحلول أواخر عام 2011، كان الصراع قد تسلّح، وتشكّلت قوات المعارضة تحت راية الجيش السوري الحر (فيليبس، 2016). وسرعان ما أصبحت سوريا بؤرة الصراع الإقليمي والدولي. فقد دعمت إيران وحزب الله نظام الأسد، بينما مؤّلت تركيا وقطر والسعودية فصائل المعارضة (غاوس، 2019). كما تدخّلت الولايات المتحدة ثم روسيا — حيث رجّحت الأخيرة كفة النظام بشكلٍ حاسم بعد عام 2015.

كانت الحصيلة كارثية: أكثر من نصف مليون قتل، وملايين النازحين، ومدنٌ مدمّرة بالكامل (ليستر، 2015).

تحوّلت سوريا إلى رمزٍ لمأساة الربيع العربي — حيث تحوّل حلم الحرية إلى كارثة إنسانية وجيوسياسية.

## 6. البحرين — الانتفاضة المُجهّضة

في البحرين، اندلعت الاحتجاجات في فبراير 2011 مطالبةً بإصلاح دستوريّ وإنهاء التمييز ضد الأغلبية الشيعية. لكن أسرة آل خليفة الحاكمة صوّرت الانتفاضة على أنها مؤامرة مدعومة من إيران، ودعت القوات السعودية والإماراتية ضمن درع الجزيرة لقمع المظاهرات (غاوس، 2014).

ورغم إخماد الاحتجاجات خلال أسابيع قليلة، إلا أن آثارها كانت طويلة الأمد: تصاعد الطائفية، وتوسّع المراقبة الأمنية، وتقييد الحريات المدنية. مثّلت البحرين نموذجًا لكيفية استخدام الأنظمة الخليجية لمزيج من القمع والرفاهية لتحديد المعارضة والحفاظ على النظام الإقليمي ضدّ “عدوى الثورة”.

## خلاصة

مع نهاية عام 2012، كانت العالم العربي قد شهد موجة غير مسبوقة من التعبئة السياسية، لكن النتائج اختلفت جذريًا: فتعددية تونس الهشّة، وانتكاسة مصر، وفوضى ليبيا، وانقسام اليمن، وكارثة سوريا، وقمع البحرين رسمت جميعها نمطًا واضحًا: أن الربيع العربي لم يكن ثورة واحدة، بل سلسلة من التحولات المترابطة، تشكّلت وفق الظروف المحلية، وردود فعل الأنظمة، والتدخلات الخارجية (لينش، 2022؛ براونلي وآخرون، 2015).

لقد تراجعت نشوة عام 2011 أمام واقع قاسٍ بحلول 2012، لكن الإرث المعنوي والسياسي لتلك الانتفاضات ظلّ حاضرًا — إذ أعاد إحياء الخيال السياسي العربي وأعاد تعريف حدود الممكن في الوعي الجمعي.

### ثالثاً: المسارات المتباينة والاستقطاب الإقليمي (2013-2016)

بحلول عام 2013، كانت نشوة الربيع العربي قد انحسرت، وحلّ محلّها التفكك، والقمع، والحروب الأهلية. لم تختفِ طاقة الثورة، بل أُعيد توجيهها — تكسّرت بين المظالم المحلية، والانقسامات الطائفية، والتدخلات الإقليمية والدولية المتنافسة.

اتخذت كل دولة مساراً مختلفاً، لم تحدده شعارات 2011 بقدر ما حددته قوة مؤسساتها، وولاءات جيوشها، وحسابات حلفائها الإقليميين (لينش، 2022).



### الشرق الأوسط في مرحلة ما بعد الربيع العربي: بين الاستعادة والانهياء وإعادة التشكيل

خلال هذه المرحلة، تحوّل الشرق الأوسط إلى فسيفساءٍ من الاستعادة والانهياء وإعادة التوازن.

فبينما عادت مصر إلى الحكم العسكري، كانت سوريا تحترق، واليمن وليبيا يتشظيان، في حين فرضت الملكيات الخليجية سيطرةً مضادة للثورات.



أما الأردن ولبنان والمغرب، فقد اجتازت العاصفة عبر التكتيف الحذر، بينما أعادت إيران وتركيا وإسرائيل صياغة استراتيجياتها وفقًا للوقائع الجديدة.

## 1. مصر وعودة السلطوية

انتهت التجربة الديمقراطية القصيرة للثورة المصرية بانقلاب 2013 الذي قاده الجنرال عبد الفتاح السيسي، فأطاح بالرئيس محمد مرسي وأعاد الحكم العسكري. جسّد النظام الجديد ما سمّاه الباحثون «الاستبداد المعاد تكوينه» — «أي إعادة بسط سيطرة الدولة عبر تقنيات جديدة من الرقابة القومية والإعلامية (براونلي وآخرون، 2015؛ قنديل، 2015).

تم سجن عشرات الآلاف من المعارضين، وتقييد المجتمع المدني، فيما روّجت وسائل الإعلام لخطابٍ يمجّد الاستقرار على حساب الحرية. أما ردود الفعل الغربية فكانت فاترة، نظرًا لمكانة مصر المحورية في مكافحة الإرهاب والدبلوماسية الإقليمية.

أظهرت تجربة القاهرة أن النظام القديم قادر على إعادة إنتاج نفسه، حتى بعد أن بدا وكأنه فقد شرعيته نهائيًا.

## 2. سوريا وصعود الحروب بالوكالة

تحوّلت الانتفاضة السورية إلى حربٍ متعددة الأطراف داخلية وخارجية. فبحلول عام 2013، صار بقاء النظام يعتمد كليًا على إيران وحزب الله وروسيا، بينما تشرذمت المعارضة تحت رعاية تركيا وقطر والسعودية (فيليبس، 2016).

وفي عام 2014، غيّر ظهور تنظيم الدولة (داعش) طبيعة الصراع، إذ أعلن “خلافة” عابرة للحدود في سوريا والعراق، واستقطب مقاتلين من أكثر من ثمانين دولة، مسيطرًا على حقول النفط ومستخدِمًا العنف المفرط كأداةٍ دعائية (فايس وحسن، 2015).

ردّ التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة بسلسلة من الضربات الجوية، بينما تولّت القوات الكردية والعراقية القتال على الأرض. كانت نتائج الحرب مدمّرة: أكثر من نصف السكان نُزحوا، ومدنٌ عريقة كحلب تحوّلت إلى أنقاض، وانهارت وحدة الأراضي السورية.

امتدت تداعيات الحرب إلى ما وراء الحدود، مؤثرة في الهجرة، والتطرف، وموازن القوى العالمية (فيليبس، 2016).

### 3. اليمن والحرب الباردة الإقليمية

انهيار الانتقال السياسي الهش في اليمن عندما سيطر الحوثيون على صنعاء عام 2014، ما دفع الرئيس عبد ربه منصور هادي إلى الفرار. وفي مارس 2015، قادت السعودية تحالفًا عسكريًا — بدعم من الإمارات ومصر ودول أخرى — بهدف إعادة الحكومة الشرعية ومواجهة النفوذ الإيراني (جنو، 2018). لكن الحرب تحولت إلى نزاع استنزافي ذا كارثة إنسانية هائلة. فقد دمّرت الغارات الجوية البنية التحتية، وفرضت الحصار قیودًا على المساعدات، وانتشرت الأوبئة كالقوليرا. ورغم الإنفاق العسكري الضخم، فشل التحالف في تحقيق نصرٍ حاسم.

بحلول عام 2016، أصبح اليمن الساحة الأبرز للصراع السعودي-الإيراني، ورمزًا لانحدار المنطقة إلى حروب الوكالة المدمرة (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2022).

### 4. ليبيا وانقسام الحكومتين

بعد مقتل القذافي، تفككت العملية الانتقالية الليبية. ففي انتخابات 2014 ظهرت حكومتان متنافستان: حكومة الوفاق الوطني (GNA) في طرابلس، والجيش الوطني الليبي (LNA) بقيادة خليفة حفتر في الشرق (باك، 2021).

تعمّق الانقسام بتدخّل القوى الخارجية: دعمت تركيا وقطر حكومة الوفاق، بينما أيدت مصر والإمارات وروسيا حفتر. لم يكن الصراع على الأرض فحسب، بل على الهوية السياسية — بين التيارات الإسلامية والقوى السلطوية العلمانية.

ومع غياب جيش وطني موحدٍ أو قضاءٍ فعال، تحولت ليبيا إلى دولة فاشلة ومركزٍ لتهرب السلاح والهجرة غير الشرعية نحو أوروبا (أندرسون، 2016).

## 5. المسألة الكردية

وسط الفوضى، وسّعت الحركات الكردية في العراق وسوريا نطاق استقلالها الذاتي. ففي العراق، عزّز إقليم كردستان (KRG) استقلاله السياسي والاقتصادي، بينما أسس أكراد سوريا، تحت قيادة حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD)، كائونات ذاتية الحكم في روج آفا. وصارت قواتهم، وحدات حماية الشعب (YPG)، حليفًا رئيسيًا في الحرب ضد داعش (شتاين، 2020).

لكن تركيا رأت في الصعود الكردي تهديدًا وجوديًا، فأطلقت منذ 2015 عدة عمليات عسكرية شمال سوريا لمنع قيام كيانٍ كرديٍّ متصلٍ على حدودها.

تعكس القضية الكردية مزيجًا من التمكين والقيود — فقد حقق الأكراد إدارة ذاتية دون دولة، لكنهم ظلوا رهائن الجغرافيا والسياسة الإقليمية.

## 6. إعادة الاصطفاف في الخليج

واجهت الملكيات الخليجية الربيع العربي بمزيجٍ من القمع وتوزيع الثروة والتدخل الخارجي.

دعمت الإمارات والسعودية سياساتٍ مضادة للثورات، فساندتا السيسي في مصر، وحفّرت في ليبيا، وتدخلتا عسكرياً في اليمن (أولريخسن، 2020).

برزت الخلافات داخل مجلس التعاون الخليجي حين اتخذت قطر مسارًا مستقلًا، داعمة الحركات الإسلامية ومستخدمة قناة الجزيرة كمنبرٍ للخطاب الثوري. وأدّى ذلك إلى الأزمة الدبلوماسية عام 2014، حين سحبت السعودية والإمارات والبحرين سفراءها من الدوحة.

في الوقت نفسه، مولّت الثروات النفطية مشاريع تحديث كبرى مثل رؤية 2030، واستُخدمت القوة الناعمة عبر الإعلام والاستثمار والمساعدات الإنسانية. بهذا، انتقلت دول الخليج من دور المتلقي إلى الفاعل الإقليمي البارز، ممهّدةً لتحولاتٍ أكبر في العقود التالية.

## 7. المشرق: الهشاشة والتكيف (لبنان، الأردن، فلسطين)

### لبنان

نجا لبنان من العاصفة المباشرة للربيع العربي، لكنه تأثر بتداعيات الحرب السورية التي جلبت أكثر من مليون لاجئ، مما زاد الضغط على البنية الاجتماعية والخدمات العامة (فواز، 2017).

كما أدى تدخل حزب الله في سوريا إلى استقطاب سياسي حاد، وجمّد عمل مؤسسات الدولة. ورغم غياب الحرب الأهلية، بات نموذج “الاستقرار عبر التعتيل” في لبنان هشاً ومتآكلاً.

### الأردن

شهد الأردن احتجاجات محدودة (2011-2012) تم احتواؤها عبر إصلاحات محسوبة وتنازلات اقتصادية.

أجرى الملك عبد الله الثاني تعديلات دستورية وأعاد تشكيل الحكومات مع الحفاظ على السلطة الملكية المطلقة (يوم، 2014).

أدت أزمة اللاجئين السوريين والاعتماد على المساعدات الأميركية والخليجية إلى ترسيخ صورة الأردن كـ “مملكة مستقرة ولكن مثقلة بالأعباء”.

### فلسطين

أحيا الربيع العربي آمال التجديد الفلسطيني، لكن الفوضى الإقليمية همّشت القضية. دمّرت حرب غزة 2014 القطاع، فيما استمرّ الانقسام بين فتح وحماس، ومع انشغال الدول العربية بشؤونها الداخلية، تعمّقت العزلة الفلسطينية بينما واصلت إسرائيل توسيع احتلالها في ظل الانشغال الدولي.

## 8. المغرب والجزائر

### المغرب

استبقت المملكة المغربية الاضطرابات عبر إصلاحات محدودة ومنضبطة.

أقرّ دستور 2011 بعض التعديلات الشكلية، لكن الملك محمد السادس احتفظ بسلطاته الجوهرية.

سمح لحزب العدالة والتنمية الإسلامي بتولي الحكومة ضمن حدود النظام الملكي (ويليس، 2014). نجح هذا “التعدد الملكي الموجه” في الحفاظ على صورة الاستقرار، رغم استمرار الفوارق الاجتماعية والتهميش الريفي.

## الجزائر

تجنّبت الجزائر الاضطرابات الواسعة بفعل ذاكرة الحرب الأهلية في التسعينيات. اعتمد نظام عبد العزيز بوتفليقة على عائدات النفط والغاز لتمويل الإعانات وشراء الولاءات (فولبي، 2013). حافظت البلاد على هدوء نسبي، لكن الفساد والبطالة وجمود السياسة ظلت تنخر الشرعية، ممهّدة لظهور حراك 2019 الشعبي.

## 9. القوى الإقليمية في طور التحول: تركيا، إيران، وإسرائيل

### تركيا

رحّبت تركيا في البداية بالربيع العربي وطرحت نفسها نموذجًا للديمقراطية الإسلامية. دعمت حكومة حزب العدالة والتنمية (AKP) حركات الإخوان المسلمين وسعت لقيادة نظام إقليمي جديد (أونيس وكوتلاي، 2020). لكن فشل الإخوان في مصر، والحرب السورية، ومحاولة الانقلاب عام 2016 دفعت أنقرة نحو الاستبداد الداخلي والتحالفات البراغماتية مع روسيا وإيران. وبحلول 2016، انتقلت السياسة الخارجية التركية من النشاط المثالي إلى الواقعية الأمنية الصارمة.

### إيران

وسّعت إيران نفوذها الإقليمي بدعمها لنظام الأسد، وحزب الله، والمليشيات الشيعية في العراق — ما شكّل ما سمّاه المحللون “الهلال الشيعي” (غاوس، 2019). أدّى توقيع الاتفاق النووي (JCPOA) عام 2015 إلى تخفيف العقوبات مؤقتًا وفتح قنوات دبلوماسية جديدة مع الغرب (بارسي، 2019). لكن طموحات طهران الإقليمية عمّقت العداء مع الرياض وتل أبيب، ممهّدة لصراعات لاحقة في العقد التالي.

### إسرائيل

في ظل الفوضى الإقليمية، عزّزت إسرائيل موقعها الاستراتيجي. فانشغال الدول المجاورة بالحروب الأهلية سمح لها بتوسيع المستوطنات وترسيخ التعاون الأمني مع مصر والأردن ودول الخليج (ميلر، 2021). وقد ساهمت المخاوف المشتركة من إيران في تراجع مركزية القضية الفلسطينية، ممهّدة الطريق أمام اتفاقات التطبيع (اتفاقات إبراهيم) في العقد التالي.

## 10. خلاصة — من الثورة إلى إعادة التشكيل

بين عامي 2013 و2016، انتقل الشرق الأوسط من الاضطراب الثوري إلى إعادة التكوين البنيوي.

لم يعد المشهد منقسمًا ببساطة بين “ديكتاتوريات” و “ثورات”، بل إلى ثلاثة أنماط جديدة:

1. الاستعادة: أنظمة مثل مصر والمغرب والأردن أعادت فرض السيطرة عبر إصلاحاتٍ مُدارة.
2. التفكك: دول مثل سوريا واليمن وليبيا انهارت في حروبٍ أهليةٍ وتدخلاتٍ خارجيةٍ.
3. إعادة الاصطفاف: قوى إقليمية مثل إيران وتركيا وإسرائيل ودول الخليج أعادت تموضعها وسط انهيار البنى القديمة.

لم يفشل الربيع العربي بقدر ما أعاد تعريف شرعية الحكم في العالم العربي. ف حلم الحرية لم يمت — بل بقي حاضرًا في النشاط المحلي، والمعارضة الرقمية، وذاكرة 2011 — حتى مع تكيف الأنظمة الاستبدادية وبقائها (لينش، 2022).

### القسم الرابع: الثورة المضادة وعودة القوى العظمى (2016–2020)

بحلول عام 2016، كانت الحمى الثورية التي اجتاحت العالم العربي قد خمدت تقريبًا. حلّ محلها إرهابٌ شامل — جسديّ، وسياسيّ، ونفسيّ. الأنظمة السلطوية، التي صمدت أو استعادت السيطرة، بدأت تسعى إلى ترسيخ شرعيتها عبر الخطاب القومي، والتحديث الاقتصادي، والرقابة الرقمية.

في الوقت ذاته، أدى تراجع الهيمنة الأميركية بعد إخفاقي العراق وسوريا إلى فصح المجال أمام عودة روسيا بقوة وتوسّع الصين الهادئ في النفوذ والاستثمار (ترينين، 2018؛ لينش، 2022).

وهكذا لم يعد الشرق الأوسط بعد 2016 ساحة صراع داخلي فحسب، بل أصبح مشهدًا تحكمه ثلاث قوى متداخلة: ترسيخ الثورة المضادة، وتدخل القوى الكبرى، وإعادة الاصطفاف الجيوسياسي.

## 1. هزيمة تنظيم الدولة وصعود اضطرابات جديدة

بين عامي 2016 و2019، فقد تنظيم داعش تقريباً جميع الأراضي التي سيطر عليها.

مثّلت سقوط الموصل (2017) والرقّة (2017) النهاية العسكرية لـ “الخلافة”، وذلك بفضل هجمات منسقة بين القوات العراقية والمليشيات الكردية والتحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة (ليستر، 2019).

لكن تدمير التنظيم ككيانٍ شبه دولتي لم يعالج الأسباب البنيوية التي أدت إلى ظهوره — مثل الفراغات الحكومية، والانقسام الطائفي، والفقر المزمن. فقد استمرّت الشبكات الأيديولوجية للتنظيم عبر الإنترنت، وتحوّلت إلى تمرداتٍ عابرةٍ للحدود في أفريقيا وجنوب آسيا (فايس وحسن، 2015).

وفي العراق، وحد الانتصار على داعش المجتمع مؤقتاً، لكن الفساد المستشري ونفوذ المليشيات أعادا إشعال الاحتجاجات الشعبية في عام 2019. أظهرت هذه المرحلة مفارقةً صارخة: نصرٌ عسكري دون إعادة بناءٍ سياسي.

### الجدول الزمني 6.4 — هزيمة تنظيم الدولة الإسلامية والتدخلات الإقليمية (2014–2020) أبرز المعارك، إنجازات التحالف، وتحولات السيطرة

الوصف أو النتيجة	الحدث العسكري أو السياسي	السنة / الشهر
بدء المواجهات الكبرى ضد تنظيم الدولة في شمال سوريا وانتصار القوات الكردية.	معركة كوباني	أيلول / سبتمبر 2014
إطلاق التحالف الدولي غارات جوية على مواقع التنظيم في العراق وسوريا.	بدء الحملة الجوية بقيادة الولايات المتحدة	تشرين الأول / أكتوبر 2014
استعادة مدينة سرت الليبية من تنظيم الدولة بعد معارك عنيفة.	معركة سرت	حزيران / يونيو 2016
أول انتصار استراتيجي كبير ضد التنظيم في العراق.	القوات العراقية تستعيد الفلوجة	كانون الأول / ديسمبر 2016

الوصف أو النتيجة	الحدث العسكري أو السياسي	السنة / الشهر
استعادة الموصل في العراق والرقعة في سوريا، منهية سيطرة التنظيم على أبرز معاقله.	معركة الموصل ومعركة الرقة	تموز / يوليو 2017
هزيمة التنظيم في معركة الرقة ونهاية “الخلافة” ككيان إقليمي.	داعش يفقد آخر جيوبه في شرق سوريا	تشرين الأول / أكتوبر 2017
سقوط آخر معقل داعش في سوريا بيد قوات سوريا الديمقراطية.	معركة الباغوز	آذار / مارس 2019
عملية عسكرية تركية ضد القوات الكردية في المناطق الحدودية.	التوغل التركي في شمال سوريا	تشرين الأول / أكتوبر 2019
ردّ إيراني على مقتل قاسم سليماني؛ أبرز مواجهة مباشرة بين طهران وواشنطن منذ سنوات.	الصواريخ الإيرانية تضرب قواعد أميركية في العراق	كانون الثاني / يناير 2020

يمثل هذا الجدول الزمني تسلسل انهيار “الخلافة” المزعومة لتنظيم الدولة الإسلامية بين 2014 و2020، ويظهر تداخل المعارك الإقليمية والتدخلات الدولية التي أعادت تشكيل خريطة السيطرة في العراق وسوريا.

## 2. الترسيخ الاستراتيجي لروسيا

جاءت اللحظة الحاسمة لعودة روسيا إلى الشرق الأوسط في أيلول/سبتمبر 2015، حين أطلقت موسكو غارات جوية لدعم نظام بشار الأسد. وبين عامي 2016 و2020، أصبحت روسيا فاعلاً لا يمكن تجاوزه في معادلات المنطقة.

أسست موسكو قواعد عسكرية دائمة في طرطوس وحمايم، وأبرمت عقود تسليح مع مصر والجزائر، وطوّرت علاقات دبلوماسية متوازنة مع كلّ من إيران وإسرائيل (ترينين، 2018).

على خلاف نمط المنافسة بين القوتين العظميين خلال الحرب الباردة، ارتكز الموقف الروسي الجديد على الانخراط المرن —التواصل مع جميع الأطراف، وفي الوقت ذاته تأكيد دورها كوسيط وحكم في الأزمات الإقليمية.



جسّد هذا التحوّل إعادة تشكيلٍ أوسع للنظام الدولي المتعدد الأقطاب: فالشرق الأوسط لم يعد محمية أميركية، بل أصبح سوقاً جيوسياسياً تتنافس فيه القوى العالمية والإقليمية على النفوذ (لينش، 2022).



### 3. السياسة الإقليمية الحازمة لتركيا

بعد محاولة الانقلاب الفاشلة في عام 2016، عزّز الرئيس رجب طيب أردوغان سلطته داخلياً، محوّلًا النظام السياسي التركي نحو الرئاسية السلطوية. وعلى صعيد السياسة الخارجية، انتهجت أنقرة مساراً تدخلياً ومستقلاً بشكل متزايد (أونيش وقطاي، 2020).

نفّذت تركيا عمليات عسكرية في شمال سوريا — عملية درع الفرات (2016) وغصن الزيتون — (2018) استهدفت القوات الكردية وسعت في الوقت نفسه إلى تأمين مناطق نفوذ استراتيجية.

وفي موازاة ذلك، عمّقت تدخلها في ليبيا بدعمها حكومة الوفاق الوطني في طرابلس ضد قوات حفتر، كما وسّعت وجودها العسكري في قطر والصومال.

وبحلول عام 2020، كانت تركيا قد تحولت من نموذج "الديمقراطية الإسلامية" إلى فاعل إقليمي تصحيحي (مراجع)، توازن بين حلف الناتو وروسيا، وتستخدم الأزمات الإقليمية أداة لإبراز قوتها الوطنية.

#### 4. توسّع النفوذ الإيراني وضغط العقوبات

خرجت إيران من الاتفاق النووي (JCPOA) عام 2015 برصيد دبلوماسي متجدد، لكن نزعتها الإقليمية المتزايدة أثارت مواجهة متصاعدة مع الولايات المتحدة ودول الخليج.

فقد امتدت الميليشيات المدعومة من طهران في العراق وسوريا ولبنان واليمن، لتتشكّل ما سمّاه المحللون "محور المقاومة" (غاوس، 2019).

إلا أن انسحاب الولايات المتحدة من الاتفاق عام 2018 في عهد الرئيس ترامب وإعادة فرض العقوبات أصابا الاقتصاد الإيراني بالشلل (بارسي، 2019). ومع ذلك، بدلاً من التراجع، ضاعفت طهران من حضورها الإقليمي. وقد مثّل اغتيال قاسم سليماني في كانون الثاني/يناير 2020 ذروة التصعيد في حرب الظل بين القوتين.

على الصعيد الداخلي، كشفت احتجاجات أواخر 2019 بسبب أسعار الوقود وسوء الإدارة عن استياء شعبي متزايد، ممهدة الطريق لاضطرابات السنوات التالية. دخلت إيران عقد العشرينيات وهي إقليمياً أكثر جرأة واقتصادياً أكثر تقييداً.

#### 5. تحولات مجلس التعاون الخليجي وإعادة التوجّه الاقتصادي

بينما وسّعت إيران وتركيا نفوذهما العسكري، اتبعت دول الخليج مساراً من إعادة التشكيل الاقتصادي والأيديولوجي.

أطلقت السعودية رؤية 2030، وهي خطة طموحة لتنويع الاقتصاد وتحديث المجتمع بقيادة ولي العهد محمد بن سلمان.

أما الإمارات فتوضعت كمركز عالمي للابتكار والنفوذ—من استكشاف الفضاء إلى الدبلوماسية الثقافية (أولريخسن، 2020).

إلا أن هذه المشاريع التحديثية رافقها تصاعد في القمع والنشاط الجيوسياسي. فقد كشف اغتيال الصحفي جمال خاشقجي عام 2018 وحصار قطر (2017-2021) عن الوجه الصارم لهذه التحولات.

اقتصادياً، سرّع انهيار أسعار النفط (2016-2014) من وتيرة الإصلاحات لكنه أيضاً كشف هشاشة البنية الاقتصادية.

تحوّلت الملكيات الخليجية من حراس ريعيين للاستقرار إلى دولٍ شديدة الطموح تستخدم الثروة كأداةٍ للنفوذ والسيطرة الأيديولوجية.

## 6. بلاد الشام: الأرض الهشة بين الأزمات

### لبنان:

أدّى الانهيار الاقتصادي وشلل النخبة الحاكمة إلى انتفاضة تشرين 2019 التي تجاوزت الانقسامات الطائفية وطالبت بتغيير جذري للنظام (فواز، 2020). لكن شبكات الزبانية الراسخة وانفجار مرفأ بيروت في 2020 قضت على معظم مكاسب الحراك الشعبي.

### الأردن:

واصل سياسة الإصلاح المتحكم به وسط اعتماد متزايد على المساعدات الخليجية والغربية. أصبحت شرعية النظام مستندة أكثر إلى الدعم الخارجي لا إلى المشاركة الداخلية (يوم، 2014).

### فلسطين:

فاقم “صفقة القرن” التي أعلنتها إدارة ترامب عام 2020 واعتراف واشنطن بـ القدس عاصمة لإسرائيل من تهमيش الدبلوماسية الفلسطينية. وفي الوقت ذاته، عمّقت إسرائيل سياسة التطبيع مع دولٍ عربية، ما أعاد رسم الخريطة الاستراتيجية (ثرال، 2022).

## 7. شمال أفريقيا: بين الإصلاح والانتكاس

شهدت أواخر العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين موجة ثانية من الانتفاضات العربية، بدأت في الجزائر (2019) والسودان (2019)، وطالبت بإنهاء عقود من الحكم العسكري. أثبتت هذه الانتفاضات استمرار تطلعات الشعوب التي عبّرت عنها ثورات 2011، رغم أن نتائجها بقيت غير محسومة (فولي، 2020).

في المقابل، عانت المغرب وتونس من ركود اقتصادي وخيبة أمل سياسية. أدّت الائتلافات الهشة في تونس إلى شلل حكومي، بينما استعادت الملكية في المغرب معظم السلطات التي تنازلت عنها بعد 2011 (ويليس، 2014).

وفي ليبيا، تصاعد الصراع إلى حرب بالوكالة شاملة، مع تدخل تركيا وروسيا لإعادة تشكيل ميزان القوى. وهكذا ظلت شمال أفريقيا مرآة مصغرة لتناقضات المنطقة الكبرى — مرونة بلا تحول حقيقي.

## 8. الولايات المتحدة وحدود الهيمنة

كان الانكفاء الاستراتيجي الأميركي أحد السمات الأبرز لهذه الحقبة. فبعد عقود من الهيمنة، أظهرت واشنطن تردداً متزايداً في تحمّل أعباء النظام الإقليمي.

اتسمت إدارة أوباما بـ الحذر في سوريا، فيما مثّلت دبلوماسية ترامب القائمة على الصفقات نهاية ما يُعرف بـ السلام الأميركي (Pax Americana) (لينش، 2022).

ومع ذلك، ظلت الولايات المتحدة منخرطة بعمق عبر صفقات السلاح، والقواعد العسكرية، والتحالفات. تركّزت استراتيجيتها على إسرائيل ودول الخليج مع تراجع واضح عن دعم مسارات الإصلاح الديمقراطي. وبحلول عام 2020، تحوّلت الولايات المتحدة من قوة مهيمنة إلى فاعلٍ شريكٍ بين آخرين، مفسحة المجال أمام روسيا والصين والقوى الإقليمية لتعزيز نفوذها.

## 9. الدور المتنامي للصين

رغم أن حضورها كان أقل ظهوراً من روسيا، فإن الصين وسّعت نفوذها الإقليمي من خلال الممرات الاقتصادية ومشروعات البنية التحتية المرتبطة بـ مبادرة الحزام والطريق (BRI).

شهدت الاستثمارات الصينية في موانئ الخليج والطاقة والبنية الرقمية نمواً سريعاً بعد عام 2017، مما أشار إلى تحوّل جيو-اقتصادي في دبلوماسية الشرق الأوسط (كينينمونت، 2024).

وعلى خلاف القوى الغربية، تجنّبت بكين الانخراط السياسي المباشر، مقدّمة نفسها بوصفها شريكًا اقتصاديًا محايدًا — وهي استراتيجية لاقت صدى واسعًا لدى الأنظمة الإقليمية التي تسعى إلى تنويع شراكاتها وتقليل تبعيتها.

## 10. التركيب العام: الثورة المضادة، الإرهاب، وتعدد الأقطاب

بين عامي 2016 و2020، دخل الشرق الأوسط مرحلة جديدة اتسمت بترسيخ الثورة المضادة وظهور نظامٍ متعدد الأقطاب.

- أعادت الأنظمة السلطوية تقديم نفسها عبر الحداثة القسرية والخطاب القومي.
- تنافست القوى الإقليمية — إيران، تركيا، إسرائيل، ودول الخليج — على النفوذ داخل الدول المنهكة والمجزأة.
- عادت القوى الكبرى إلى المنطقة، ليس بوصفها رعاة استعماريين، بل شركاء نفعيين في صفقاتٍ متبادلة.

ظلت قيم الربيع العربي — الحرية والكرامة — حيةً في أطراف المشهد: في النشاط المحلي، والحركات النسوية، والمقاومة الرقمية، لكنها، رغم انكسارها، فرضت إعادة تعريفٍ دائمة للمنطقة.

لم يعد الشرق الأوسط ما بعد استعمار أو ما بعد ثورة فحسب، بل أصبح ما بعد هيمنة — تتشكل ملامحه من تعدد مراكز القوة واستمرار التيارات الاجتماعية الكامنة (لينش، 2022؛ ترينين، 2018).

## القسم الخامس: التطبيع، الإرهاب، والمقاومة الرقمية—(2020-2025)

مع مطلع عقد العشرينيات، دخل الشرق الأوسط مرحلةً من الاستقرار الظاهري، لكنها أخفت وراءها تعبًا عميقًا وشعورًا جماعيًا بالإرهاب. فقد تراجعت حدة الحروب في سوريا وليبيا واليمن، وتمّ دحر تنظيم الدولة الإسلامية ككيانٍ إقليمي، بينما استعادت الأنظمة السلطوية قبضتها الكاملة على السلطة.

إلا أن هذا “السلام” لم يكن إلا سلام الجمود — حيث تعايش الركود السياسي والضغط الاقتصادي مع أشكال جديدة من المقاومة الصامتة (لينش، 2023).

وجاءت جائحة كوفيد-19 عام 2020 لتُفاقم أوجه اللامساواة القائمة، وتشل الاقتصادات الهشة، وتوسّع من قدرات الدولة على المراقبة والتحكم. وفي الوقت ذاته، شهدت المنطقة موجةً من التطبيع الدبلوماسي والناشطة الرقمية أعادت رسم السرديات الإقليمية، كاشفةً كيف انتقل النضال من الشارع إلى الفضاء الإلكتروني.

### 1. اتفاقات أبراهام وتحول الدبلوماسية

في عام 2020، وقّعت الإمارات العربية المتحدة والبحرين والسودان والمغرب اتفاقيات تطبيع مع إسرائيل، عُرفت مجتمعةً باسم اتفاقات أبراهام. تمّت هذه الاتفاقيات برعاية إدارة ترامب، وهي تتوج علاقاتٍ غير معلنة كانت تتطور منذ سنوات (ميلر، 2021).

جسّدت هذه الاتفاقات تحولاً استراتيجياً عميقاً: إذ أصبحت الحكومات العربية تُعلي من شأن التعاون الاقتصادي والأمني والتكنولوجي مع إسرائيل على حساب التضامن التقليدي مع فلسطين.

وبالنسبة إلى إسرائيل، مثّل التطبيع كسرًا لعقودٍ من العزلة الإقليمية، أما بالنسبة إلى قادة الخليج، فقد فتح الباب أمام وصولٍ أوثقٍ إلى التكنولوجيا الدفاعية الأميركية وشبكات الاستخبارات (ثرال، 2022).

لكن ردود الفعل الشعبية كانت متباينة: إذ رأت الوسائل الرسمية في التطبيع خطوةً براغماتية نحو التحديث، بينما ظل الرأي العام العربي بمعظمه رافضاً بشدة. فالقضية الفلسطينية، التي كانت رمزاً للهوية العربية، أُقصيت تدريجياً من الخطاب الرسمي للدولة، لكنها عادت إلى الحياة في الفضاء الرقمي — عبر الناشطين والمنافى والمنصات الإلكترونية (فينكلستين، 2023).

الجدول الزمني 6.5 — حروب غزة واتفاقات التطبيع (2014–2024)

مساران متوازيان: أحداث الصراع ومحطات التطبيع

التاريخ	اتفاقات التطبيع	التاريخ	أحداث الصراع في غزة
أغسطس 2020	اتفاق الإمارات - إسرائيل	يوليو - أغسطس 2014	عملية الجرف الصامد
سبتمبر 2020	اتفاق البحرين - إسرائيل	مايو 2018	تصعيد في غزة
ديسمبر 2020	اتفاق السودان - إسرائيل	مايو 2019	مواجهة جديدة في غزة
أغسطس 2022	اتفاق المغرب - إسرائيل	أغسطس 2022	اغتيال بهاء أبو العطا
مارس 2024	محادثات السعودية - إسرائيل	أغسطس 2022	تصعيد جديد في غزة
—	—	مايو 2024	هجوم حماس على إسرائيل
—	—	2024	جولة جديدة من الصراع في غزة

يوضح هذا الجدول التوازي بين جولات الصراع في قطاع غزة واتفاقات التطبيع الإقليمي خلال العقد الممتد من 2014 إلى 2024، حيث تزامنت الاشتباكات المسلحة مع تحولات دبلوماسية كبرى أعادت رسم خريطة التحالفات في الشرق الأوسط.

بين عامي 2021 و2024: غزة بين المأساة والصمود

خلال الفترة من 2021 إلى 2024، تحوّل قطاع غزة مجددًا إلى رمزٍ للمأساة والصمود في آنٍ واحد.

فقد اندلعت حرب مايو 2021 نتيجة التوترات في حي الشيخ جراح بالقدس، وأعدت تسليط أنظار العالم على الصراع من خلال مشاهد العنف المباشر المتدفقة عبر البث الحي والتعبئة الرقمية غير المسبوقة تحت وسم #أنفذوا\_الشيخ\_جراح (فينكستين، 2023).

تلتها جولات تصعيد لاحقة في 2023 و2024، زادت من المعاناة الإنسانية لكنها أظهرت في الوقت نفسه شكلاً جديداً من التضامن العابر للحدود. فقد عززت الشبكات الرقمية من حضور الصوت الفلسطيني، وأعدت تشكيل الرأي العام العالمي، وربطت نضال غزّة بحركاتٍ أوسع من العدالة والتحرر من الاستعمار.

ومع ذلك، ظلّت الظروف الميدانية مأساوية: فالحصار استمرّ، وإعادة الإعمار تعثّرت، والانقسام الداخلي بين فتح وحماس شلّ القدرة على الحكم.

وهكذا استمرت القضية الفلسطينية لا كعملية سياسية، بل كـ محورٍ أخلاقي ورمزي تدور حوله شرعية المنطقة وتوازنها.

### 3. لبنان، العراق، والسودان — متلازمة الدولة الفاشلة

#### لبنان

بحلول عام 2021، كان لبنان قد انزلق إلى انهيار مالي غير مسبوق، وصفه البنك الدولي بأنه من أسوأ الأزمات في التاريخ الحديث (البنك الدولي، 2023). جُمّدت الودائع في المصارف، وارتفعت معدلات الفقر إلى مستوياتٍ قياسية، وانحلت الخدمات العامة. أصبحت كارثة انفجار مرفأ بيروت عام 2020 رمزاً صارخاً لفساد النخبة وانهيار الدولة (فواز، 2020). ورغم استمرار النشاط الشعبي القاعدي، فإن النخب السياسية المدعومة بشبكات المحاصصة الطائفية قاومت أي إصلاح حقيقي.

#### العراق

بعد هزيمة تنظيم الدولة الإسلامية، عاش العراق ما بعد داعش فترة من الهدوء النسبي، لكنها ظلت أسيرة دوامة الفساد ونفوذ الميليشيات. كشفت احتجاجات 2019-2021 في بغداد ومحافظات الجنوب، التي قادها شباب يطالبون بالسيادة من دون وصاية أميركية أو إيرانية، عن وعي مدني جديد (غاوس، 2019). وقد قمعت هذه الحركات بعنف، لكنها شكّلت منعطفاً جيلياً حاسماً — حيث ظهرت نزعة وطنية عابرة للطوائف تستند إلى العدالة الاجتماعية.

#### السودان

بعد سقوط عمر البشير عام 2019، دخل السودان مرحلة انتقالية هشة انتهت بـ انقلاباتٍ عسكرية جديدة في 2021 واندلاع حربٍ شاملة في 2023. فشلت جهود الوساطة الإقليمية في وقف الانحدار إلى العنف، وأثبتت الحالة السودانية



النمط الدوري للثورة ثم الإصلاح ثم الانتكاس، وهو النمط الذي لاحق معظم دول العالم العربي منذ 2011.

#### 4. الاضطراب الداخلي في إيران والدبلوماسية الإقليمية

بين عامي 2022 و2023 واجهت إيران أكبر تحدٍ داخلي منذ عقود. أشعلت وفاة مهسا أميني، وهي شابة كردية اعتُقلت بسبب ما سُمّي بـ«سوء الحجاب»، احتجاجاتٍ واسعة تحت شعار «المرأة، الحياة، الحرية». تجاوزت هذه المظاهرات الحدود الطبقية والإثنية، معبرةً عن تراكم الغضب من السلطوية والأزمات الاقتصادية (منظمة العفو الدولية، 2023).

ورغم أن النظام نجح في قمع الاحتجاجات، فإن أثرها الاجتماعي كان عميقاً. وفي الوقت نفسه، خاضت طهران تحركات دبلوماسية بارزة، تمثلت في استعادة العلاقات مع السعودية بوساطة صينية عام 2023 (شازيزا، 2023). أدت هذه الانفراجة إلى خفض التوتر في اليمن، ورمزت إلى تحولٍ في ميزان الوساطة الدولية — حيث أصبحت بكين، لا واشنطن، هي الوسيط في النزاعات الإقليمية الكبرى.

#### 5. الفضاء الرقمي والمناصرة العابرة للحدود

شهدت مرحلة ما بعد 2020 بروز الناشطة الرقمية كحدودٍ جديدةٍ للتعبير السياسي العربي.

فمع تشديد القبضة الأمنية وتفكيك قوى المعارضة التقليدية، تحوّل الإنترنت إلى ميدانٍ للمواجهة وملاذٍ في آنٍ واحد.

حركات مثل #أنقذوا\_الشيخ\_جراح و##ثورة\_السودان\*\*

و##المرأة\_الحياة\_الحرية\*\*

أظهرت كيف يمكن للشبكات اللامركزية على الإنترنت أن تتجاوز الرقابة وتبني تضامناً عالمياً (لينش، 2023؛ فريدم هاوس، 2022).

وقد استخدمت الجاليات في المهجر، والصحفيون، والمؤثرون الشباب وسائل التواصل الاجتماعي لكشف الفساد والمطالبة بالعدالة وتنظيم حملات الإغاثة. لكن الأنظمة ردّت بوسائل قمع رقمية متطورة — من برامج المراقبة إلى حملات التضليل وسنّ قوانين سيبرانية تجرّم المعارضة.

النتيجة كانت فضاءً مزدوجاً: حيويًا ومقموعًا، بلا حدودٍ جغرافيةٍ لكنه خاضع للمراقبة — ساحةٌ تستمر فيها الخيال السياسي والمقاومة المدنية رغم القيود.

## 6. التحولات في التحالفات العالمية

رسّخ العقدان الأولان من القرن الحادي والعشرين ملامح شرق أوسط متعدد الأقطاب كان قيد التشكل منذ العقد السابق:

- الصين عمّقت شراكاتها مع الخليج عبر التجارة والتكنولوجيا والطاقة المتجددة (كينينمونت، 2024).
- روسيا، رغم انخراطها في حرب أوكرانيا (2022)، حافظت على نفوذها العسكري في سوريا ودبلوماسيتها التسليحية مع إيران ومصر (ترينين، 2024).
- الولايات المتحدة أعادت توازن وجودها الإقليمي، مركّزةً على أمن الملاحة ومكافحة الإرهاب ومسار التطبيع الذي توسّع عبر منتدى النقب (2022)– (2023).

وفي الوقت ذاته أصبحت التحالفات الإقليمية أكثر مرونة: تصالحت تركيا ودول الخليج بعد أعوامٍ من التوتر، واستأنفت السعودية حوارها مع إيران، فيما وسّعت إسرائيل تعاونها الاستخباراتي مع عددٍ من الدول العربية. انتقل المشهد من صراع أيديولوجي إلى براغماتية استراتيجية، حيث تحدد التحالفات المتغيرة المشهد أكثر من الكتل الثابتة.

## 7. الإرهاق الجيلي ومستقبل الربيع العربي

بحلول عام 2025، ظهر جيلٌ جديد لا يتذكر الربيع العربي إلا كذكرى باهتة. وفي ظل هذا النسيان الجزئي، تعايشَت اللامبالاة السياسية مع نهضة ثقافية مدنية: فقد ازدهرت وسائل الإعلام المستقلة، والفنون، والناشطة البينية، حتى تحت رقابة صارمة (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2022).

ورغم غياب الحركات الجماهيرية، بقيت قيم 2011 — الكرامة والمساءلة والعدالة الاجتماعية — حيةً في أشكالٍ مصغّرة، تتجسد في حركات النوع الاجتماعي، والمبادرات المدنية، والنقاش الرقمي (لينش، 2023).

لم يعد العالم العربي على وشك الانفجار، لكنه يعيش هدوءًا سطحيًا يخفي تصميمًا عميقًا على أن التاريخ لم ينتهِ بعد.

## 8. التركيب العام: المشهد ما بعد الثورات

يختلف الشرق الأوسط عام 2025 جذريًا عن نظيره في 2011. فقد خمدت الثورات، لكن الخيال السياسي الذي أطلقته لا يزال حيًا. المنطقة دخلت مرحلة ما بعد الثورة، تتسم بـ:

- دبلوماسية براغماتية — تطبيع وإعادة تموضع.
- سلطوية ما بعد أيديولوجية — شرعية تستند إلى القومية وخطاب الإصلاح.
- صراع رقمي متجدد — تتقاطع فيه الناشطية والذاكرة والهوية على الشبكة.

لقد أنتجت تداعيات الربيع العربي نضالًا أكثر هدوءًا، يُخاض ليس عبر الشعارات في الساحات، بل عبر البيانات والفنون والذاكرة الجماعية. وهكذا يقف الشرق الأوسط اليوم بين الصمود والتجدد، تحت وطأة الإرهاق، لكنه مفعّم بالأمل الدائم (لينش، 2023).

## التحوّلات السياسية في الشرق الأوسط (1918–2025)

المرحلة	المدة الزمنية	المضمون التاريخي
انهيار الإمبراطوريات	1918–1925	نهاية الحكم العثماني والاستعمار الأوروبي.
تشكل الدول	عشرينيات-خمسنيات القرن العشرين	نشوء الدول العربية الحديثة والحركات القومية.
الحرب الباردة	خمسنيات-تسعينيات القرن العشرين	تنافس الجمهوريات والملكيّات والقوى الأجنبية على النفوذ.
انتفاضات 2011	2011–2021	موجة من الاحتجاجات والصراعات وانهيار بعض الدول.
تعدد الأقطاب	2020–2025	صعود التنافس الإقليمي والدولي وتحول ميزان القوى العالمي.

"لم يشهد العالم العربي مجرد سلسلة من الثورات، بل دخل عصرًا من التفاوض الدائم بين السلطة والكرامة. إن قصة الربيع العربي ليست حكاية فشل، بل صحوة لم تكتمل بعد".

## الفصل السابع: حاضرٌ متشظٍ ومستقبلٌ غير متخيّل

يستعرض هذا الفصل الحالة الراهنة في الشرق الأوسط ويستكشف المسارات الممكنة نحو التكامل الإقليمي والتجديد الحضاري.

يبدأ بتحليل مظاهر التشظي السياسي والاقتصادي والمؤسسي التي تطبع المشهد الحالي، حيث تتجلى في صراعات داخلية، وتفاوتات تنموية، وغياب رؤية مشتركة للتقدّم الجماعي.

فعلى الرغم من الثروات الهائلة، والطاقة الديموغرافية الشابة، والموقع الجغرافي الاستراتيجي، يبقى الشرق الأوسط من أقل المناطق تكاملاً في العالم، إذ لا تتجاوز التجارة البينية الإقليمية 10% من مجموع الصادرات، في ظل استمرار الارتهاق للقوى الخارجية (البنك الدولي، تحديث الاقتصاد في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، 2023).

رداً على ذلك، يقترح الفصل إطاراً مستقبلياً للتعاون الإقليمي، يدعو إلى تشكيل تدريجي لـ"الجماعة الاقتصادية للشرق الأوسط (MEEC)"، على غرار التجارب التكاملية الوظيفية المبكرة في أوروبا وجنوب شرق آسيا (هاس، وحدة أوروبا، 1958؛ أنشأها، بناء جماعة أمنية في جنوب شرق آسيا، 2001).

ويعرض الفصل أركان التقدّم الأساسية نحو هذا الهدف:

- التكامل الاقتصادي والبنى التحتية المشتركة،
- تنسيق التحول الطاقوي،
- تبادل المعرفة ورأس المال البشري،
- التعاون البيئي،
- إرساء منظومة أمن إقليمي مشتركة (أليزينا وآخرون، مجلة النمو الاقتصادي، 2021).

ويخلص القسم الأخير إلى أن مستقبل المنطقة لن يُحسم بالموارد، بل بخيالها السياسي وثقتها المؤسسية. فالشرق الأوسط يمتلك القدرات المادية والبشرية ليصبح جسراً استراتيجياً يربط أوروبا وآسيا وإفريقيا، لكنه ما زال مكبلاً بالتجزئة والمنافسات قصيرة المدى.

إنّ التجديد الحقيقي، كما يستنتج الفصل، يعتمد على القدرة على تحويل الجغرافيا إلى مصير مشترك، والمنافسة إلى تعاون، والسلطة إلى شراكة في عالم متداخل المصالح (كامراف، الشرق الأوسط الحديث، 2023).

## I. الشرق الأوسط اليوم: تفكك بلا رؤية

بعد أكثر من عقدٍ على احتجاجات عام 2011 الكبرى، يجد الشرق الأوسط نفسه غارقاً في الانقسام — ليس جغرافياً فحسب، بل سياسياً واقتصادياً وفكرياً أيضاً. فعلى الرغم من موارده الضخمة وموقعه الحيوي ورأس ماله البشري الغني، يفتقر الإقليم إلى رؤية مشتركة موثوقة للتعاون والتكامل. لقد أصبح التشطي هو القاعدة: دولٌ منقسمة، تكتلاتٌ متنافسة، مؤسساتٌ متوقفة، وقدرةٌ جماعية على الفعل تضعف عاماً بعد عام (هينيبوش، السياسة الدولية في الشرق الأوسط، 2022).

أما الانتفاضات العربية التي رُجِبَ بها يوماً كبداية لتجديدٍ ديمقراطي، فقد أفرزت في الواقع فسيفساء من الاستبداد المتجدد، والتحويلات الفاشلة، والصراعات بالوكالة (لينش، الحروب العربية الجديدة، 2016). وغياب مؤسساتٍ إقليمية فاعلة — كتلك الموجودة في الآسيان أو الاتحاد الأوروبي — يكشف العجز النيوي للمنطقة في إدارة العمل الجماعي وتنسيق السياسات (فوسيت، العلاقات الدولية في الشرق الأوسط، 2023).

زاد التفاوت الاقتصادي من عمق الانقسام:

فبينما حققت دول الخليج الغنية بالطاقة فوائض مالية وتقدماً تكنولوجياً، تعيش الاقتصادات الممزقة بالصراعات — مثل سوريا واليمن ولبنان — في حالة انهيارٍ مزمن (صندوق النقد الدولي، التقرير الإقليمي الاقتصادي: الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، 2024). ولا تتجاوز التجارة البينية في المنطقة 10% من إجمالي الصادرات، مقارنةً بـ 70% داخل الاتحاد الأوروبي و 35% في شرق آسيا (الإسكوا، تقرير التكامل الإقليمي العربي، 2022).

والنتيجة: منطقة ذات أهمية عالمية ولكن بلا انسجام داخلي — منخرطة في الأسواق العالمية لكنها مفككة في داخلها. وهكذا فإن التحدي لا يقتصر على الاقتصاد أو المؤسسات، بل هو تحدٍ فكري وأخلاقي أيضاً: أن يُعاد تصور الإقليمية ليس كمشروعٍ للنخب، بل كضرورةٍ تنموية وإنسانية مشتركة.

## أ. التجزئة السياسية وتكتلات الصراع

في صميم الأزمة يكمن غياب الوحدة السياسية. لم تعد منطقة الشرق الأوسط محكومة بمحورٍ أيديولوجي أو استراتيجي واحد، بل تشهد انقساماتٍ متعددة ومتداخلة عبر خطوط صدعٍ سياسية وجغرافية ومذهبية (هينيبوش، السياسة الدولية في الشرق الأوسط، 2022).

### 1. الانقسام الخليجي والتنافس داخل مجلس التعاون

أظهر حصار قطر عام 2017 من قبل السعودية والإمارات والبحرين ومصر عمق الخلافات الاستراتيجية حول توجهات السياسة الخارجية، وموقف دول المجلس من الحركات الإسلامية والعلاقة مع إيران وتركيا (أولريخسن، قطر وأزمة الخليج، 2020).

ورغم المصالحة الرسمية عبر إعلان الغُلا عام 2021، ما زال الشك المتبادل قائماً، ولم يستعد مجلس التعاون الخليجي دوره كمؤسسة إقليمية فاعلة ذات رؤية موحدة

### 2. إيران في مواجهة التكتلات العربية تستمر الهيمنة الإقليمية الإيرانية من

خلال شبكاتٍ سياسية وأيديولوجية وعسكرية في العراق ولبنان (حزب الله) واليمن (الحوثيون)، مما يحدد ملامح الجغرافيا السياسية الإقليمية. وفي المقابل، تسعى دول الخليج إلى سياسة احتواءٍ عبر التحالفات الدفاعية والتطبيع مع إسرائيل، بينما تفضل الدول الأصغر اتباع سياسات الحياد أو التوازن (احتشامي، مجلة الشرق الأوسط، 2022).

### 3. النهج المستقل لتركيا

اتبعت أنقرة في عهد رجب طيب أردوغان سياسة خارجية أكثر استقلالية، توازن بين علاقاتها مع الناتو وروسيا، وتتدخل عسكرياً في سوريا وليبيا وجنوب القوقاز (أوزكان، الربع الثالث من العالم، 2021). وقد أضاف هذا النهج بعداً تعددياً جديداً إلى توازن القوى الإقليمي، بعد أن كان محصوراً تقليدياً في المنافسة العربية-الفارسية.

### 4. الدول المفككة

أدت الحروب الأهلية المستمرة في سوريا واليمن وليبيا، إضافةً إلى الشلل المزمّن في لبنان، إلى خلق مشهدٍ من السیادات المتنازع عليها،

حيث تعمل الميليشيات والجهات غير الحكومية والرعاة الأجانب كسلطات فعلية (لينش، الحروب العربية الجديدة، 2016؛ المجموعة الدولية للأزمات، تقارير الشرق الأوسط، 2023).

## 5. الفراغ المؤسسي

ما زالت جامعة الدول العربية، التي تأسست عام 1945، كياناً رمزياً أكثر منها فاعلاً. فعجزها عن تنسيق الأمن الجماعي أو التخطيط الاقتصادي يكشف غياب الحوكمة فوق الوطنية الفعالة المشابهة للاتحاد الأوروبي أو رابطة آسيان (فوسيت، العلاقات الدولية في الشرق الأوسط، 2023).

إنّ هذا التجزؤ السياسي يُبقي المنطقة أسيرة منطق الصفر، حيث تنظر الدول إلى جيرانها كمنافسين لا كشركاء. والنتيجة: تحالفات متداخلة واستراتيجيات مشلولة في مواجهة التحديات العابرة للحدود مثل تغير المناخ والهجرة والترابط في البنى التحتية (كامراف، في داخل الدولة العربية، 2018).

## ب. التفاوتات الاقتصادية والاختلالات الهيكلية

ينعكس التجزؤ السياسي على المجال الاقتصادي بوضوح. فالشرق الأوسط يجمع بين ثروة إجمالية ضخمة ولا مساواة بنيوية عميقة — مفارقة بين ناتج محلي مرتفع وتخلف تنموي واسع (البنك الدولي، تحديث اقتصاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، 2023).

### • الثروة مقابل الهشاشة:

تتمتع الملكيات النفطية في الخليج — الإمارات وقطر والسعودية والكويت — بأعلى معدلات الدخل الفردي في العالم، وتحافظ على فوائض مالية كبيرة من صادرات الطاقة.

وفي المقابل، تعاني الدول التي مرّقتها الحروب أو ضعفت مؤسساتها — مثل اليمن وسوريا وليبيا ولبنان والسودان — من الانكماش والتضخم والأزمات الإنسانية (صندوق النقد الدولي، التقرير الإقليمي الاقتصادي: الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، 2024).

## • حجم كلي دون تماسك:

يتجاوز الناتج المحلي الإجمالي الاسمي للمنطقة 4 تريليونات دولار، مع توقع نمو بنحو 2.8% في عام 2024 و 4.2% في عام 2025 لكن الثروة تبقى مركزة في أيدي فئات محدودة، فيما تُوزع المكاسب التنموية بشكل غير متوازن، مما يعمق التبعية ويحد من التنويع الاقتصادي (الإسكوا، تقرير التكامل الإقليمي العربي، 2022).

ورغم وفرة عوائد الطاقة ورأس المال البشري، تظل اقتصادات المنطقة مجزأة داخليًا ومعتمدة خارجيًا، ومقيدة بضعف التجارة البينية — أقل من 10% من إجمالي الصادرات — وبغياب أسواق متكاملة أو أطر مالية مشتركة (أليزينا وآخرون، مجلة النمو الاقتصادي، 2021).

## ضعف التجارة البينية الإقليمية:

بصورة عامة، لا تتجاوز نسبة تجارة أي دولة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا مع شركائها الإقليميين ربع إجمالي تجارتها الخارجية، وتظل حصة التجارة البينية من المجموع الكلي أقل من نحو 10% في معظم الإحصاءات، حتى في التقديرات الأكثر تفاؤلًا التي ترفعها إلى منتصف العشرات. وهي نسبة متدنية للغاية مقارنةً بالاتحاد الأوروبي حيث تتراوح التجارة البينية بين 50% و 60% من الإجمالي.

## الاعتماد على الهيدروكربونات وضيق سلاسل القيمة

لا تزال صادرات الشرق الأوسط تتركز بشكل كبير في قطاع النفط والغاز، إذ تشكل العائدات الهيدروكربونية الغالبية العظمى من إجمالي الصادرات في معظم دول المنطقة. أما الاندماج في سلاسل القيمة العالمية فيبقى محدودًا وغالبًا ما يكون خارج الإقليم، حيث تُصدّر المواد الخام وتُستورد السلع المصنعة والتقنيات المتقدمة، مما يعزز الاعتماد على الأسواق الخارجية ويضعف القيمة المضافة المحلية (صندوق النقد الدولي، التقرير الإقليمي الاقتصادي: الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، 2024).

## • العوائق اللوجستية والتنظيمية

تستمر العوائق غير الجمركية، وتأخيرات التخليص الجمركي، وتجزئة الأنظمة التنظيمية في رفع تكاليف التجارة وإعاقة تدفق الاستثمارات. كما أن غياب توحيد المعايير وضعف البنى التحتية للنقل



يضعف الترابط العابر للحدود مقارنةً بالمناطق الأكثر تكاملاً مثل شرق آسيا أو الاتحاد الأوروبي (الإسكوا، تقرير التكامل الإقليمي العربي، 2022؛ البنك الدولي، مؤشر التجارة عبر الحدود، 2023).

### • نمو غير متوازن وآثار الصراعات

تسببت النزاعات المتكررة وأضرار البنى التحتية والاضطرابات الأمنية على الممرات البحرية الحيوية— وخاصة البحر الأحمر، قناة السويس، ومضيق باب المندب — في تراجع الناتج الإقليمي وإضعاف مرونة التجارة (الأونكتاد، مراجعة النقل البحري، 2023).

كما أدت الحروب المستمرة في غزة واليمن، وضغوط اللاجئين في لبنان والأردن، إلى تآكل القدرات المالية وإعاقة فرص التعافي الاقتصادي

### ج. الضعف المؤسسي وغياب الرؤية

يتجاوز الانقسام السياسي والاقتصادي حدود الدولة ليكشف عن جمود مؤسسي مزمن. فالمنطقة تفتقر إلى آليات موثوقة لحل النزاعات أو تنسيق الاستثمارات أو التخطيط للبنى التحتية المشتركة. تحوّل الإقليميّة إلى أداة نخبوية لخدمة بقاء الأنظمة بدلاً من كونها وسيلة للتكامل الوظيفي والتعاون البناء. كما تتجه المشروعات الرأسمالية الكبرى — في النقل والطاقة والتقنية — إلى شراكات مع الغرب أو آسيا أكثر من تعاونها مع الاقتصادات المجاورة (كامراف، في داخل الدولة العربية، 2018).

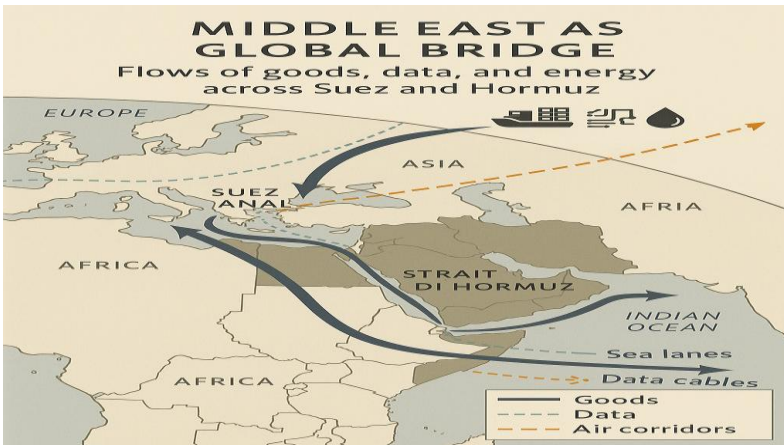
تبقى المبادرات العابرة للحدود — كالسكك الحديدية وشبكات الكهرباء والممرات التجارية — مجزأة وثنائية الطابع، مما يعكس غياب مؤسسات تخطيط فوق وطنية أما العقود الاجتماعية فأخذت في التآكل؛ إذ يزداد عزوف الشباب المتعلم عن المشاركة العامة أو هجرتهم بحثاً عن الفرص. وفي الوقت نفسه، تُهيم السرديات الطائفية والقومية على المجال العام، فتقوّض أي شعورٍ بهويةٍ مشتركة أو مصيرٍ إقليمي واحد، في حين أن الموازنة بين القوى الخارجية — الولايات المتحدة، الصين، وروسيا — تعمّق الريبة المتبادلة وتحدّ من إمكانيات تنسيق السياسات الإقليمية (هينيبوش، 2022).

### د. مفارقة الإمكانيات

رغم كل الانقسامات، فإن القدرات الكامنة للمنطقة هائلة:

- الموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي يربط أوروبا وآسيا وإفريقيا عبر ممراتٍ محورية مثل قناة السويس ومضيق هرمز وباب المندب يمنحها ميزة لوجستية فريدة (الأونكتاد، مراجعة النقل البحري، 2023).
- الثروات الطبيعية التي لا تزال تشكل النسبة الأكبر من احتياجات الطاقة العالمية، وتمنح المنطقة قدرة تفاوضية في التحول الطاقى القادم نحو الطاقة المتجددة والهيدروجين والمعادن الحيوية (الوكالة الدولية للطاقة، توقعات الطاقة العالمية، 2023).
- الحيوية الديموغرافية — إذ يشكل الشباب دون الثلاثين نحو ثلثي السكان — تمثل محركاً غير مستغلٍ للنمو في مجالات التقنية وريادة الأعمال والاقتصاد الخدمي (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية، 2022).
- الصناديق السيادية، التي تتجاوز أصولها مجتمعة 4 تريليونات دولار، تمتلك القدرة على تمويل المشاريع العملاقة عبر الإقليم في البنى التحتية واللوجستيات والطاقة الخضراء
- الشبكات الرقمية والشتات العربي التي تعبر الحدود وتُفعل روابط ثقافية وتجارية عابرة للدول بمعزلٍ عن البيروقراطيات الرسمية (معهد أكسفورد للإنترنت، تقرير الاقتصاد الرقمي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، 2023).

ورغم هذه الإمكانيات، فإن غياب التنسيق السياسي والثقة المؤسسية يجعل هذه الموارد غير مُستثمرة بالكامل ومُستغلة خارجياً. إن مفارقة الشرق الأوسط ليست قلة الإمكانيات، بل وفرتها المنفصلة — موارد هائلة دون تكامل، وجغرافيا مشتركة دون حوكمةٍ مشتركة.



## ثانيًا: الطريق إلى الأمام — نحو شرق أوسط تعاوني

يقف الشرق الأوسط اليوم عند منعطفٍ تاريخي حاسم. فبعد عقودٍ من الصراعات والتجزئة، باتت المنطقة تمتلك من الثروة، والقدرة السكانية، والوزن الاستراتيجي ما يمكنها من إعادة تعريف دورها العالمي. لكن ما ينقصها ليس القدرة بل التنسيق، وليس الموارد بل الغاية المشتركة. إن المرحلة المقبلة من التنمية تعتمد بدرجةٍ أقل على المساعدات الخارجية، وبدرجةٍ أكبر على الاندماج الداخلي — أي تحويل المنافسة إلى تعاون يتناول هذا القسم كيف يمكن للشرق الأوسط أن يتحول من ساحةٍ للتنافس إلى كتلةٍ متماسكة قادرةٍ على التأثير في تحولات الطاقة العالمية، والممرات التجارية، والابتكار التكنولوجي، وحوكمة المناخ (كامراف، الشرق الأوسط الحديث، 2023).

### 1. مبررات التكامل الإقليمي

على المستويين البنيوي والاستراتيجي، يبدو التكامل خيارًا منطقيًا وضروريًا. فالمنطقة تشكل مركز التقاء القارات القديمة: تمر قناة السويس بما يقارب 12% من إجمالي التجارة العالمية، بينما يبقى مضيق هرمز وباب المندب ركيزتين أساسيتين لتدفقات الطاقة الدولية ومع عدد سكانٍ يقترب من 470 مليون نسمة وناتج محلي إجمالي يتجاوز 4.6 تريليونات دولار أمريكي، فإن شرقًا أوسطًا منسقًا يمكن أن يشكل إحدى أكبر الكتل الاقتصادية في العالم، قابلة للمقارنة مع الاتحاد الأوروبي أو رابطة آسيان (ASEAN) من حيث الحجم والتأثير (صندوق النقد الدولي، التقرير الإقليمي الاقتصادي: الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، 2024).

ومع ذلك، لا تزال التجارة البينية الإقليمية أقل من 10% من إجمالي الصادرات — نسبة شبه ثابتة منذ عقود، ودون المستويات التي حققتها مناطق التكامل في أوروبا وجنوب شرق آسيا تُفاقم الانقسامات السياسية، وتضارب القوانين، وضعف الربط في البنية التحتية من محدودية الترابط الاقتصادي>

إن بناء آليات للثقة، وتوحيد المعايير الجمركية واللوجستية، وتطوير مشاريع بنية تحتية مشتركة يمكن أن يحول الجغرافيا من ساحة صراعٍ إلى جسر تواصل. فشبكات السكك الحديدية والطاقة والاتصالات الرقمية المشتركة قد تُحوّل خطوط

الانقسام إلى نسيج رابط يعزز الاستقرار من خلال التقارب الاقتصادي (أليرينا وآخرون، مجلة النمو الاقتصادي، 2021).

## 2. دروس من التجارب المقارنة

تُقدّم التجارب الإقليمية السابقة دروسًا عملية قيّمة. فالتكامل الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية لم يبدأ برؤى سياسية كبرى، بل انطلق من التعاون الوظيفي المحدود — عبر إنشاء الجماعة الأوروبية للفحم والصلب (1951) التي أسست للاعتماد المتبادل في الصناعات الحيوية وجعلت الصراع بين الدول مستحيلًا ماديًا (هاس، توحيد أوروبا، 1958).

أما رابطة آسيان (ASEAN) فقد تطورت بمنهج تدريجي قائم على التوافق، مُثبتة أن التكامل الإقليمي لا يحتاج إلى وحدة أيديولوجية أو اتحادٍ سياسي (أنتساريا، بناء مجتمع أمني في جنوب شرق آسيا، 2001).

وتشير هذه النماذج إلى أن التكامل البراغماتي — الذي يبدأ بالتنسيق في الاقتصاد والطاقة والبنية التحتية — يمكن أن يرسخ الثقة والذاكرة المؤسسية الضرورية للتعاون الأوسع (فوسيت، العلاقات الدولية في الشرق الأوسط، 2023).

بدلًا من فرض الوحدة من الأعلى، يمكن للنجاحات الجزئية على المستوى العملي أن تولّد إقليمية تصاعدية تنشأ من القاعدة إلى القمة، فتحول التحديات المشتركة إلى فرص مشتركة.

## 3. أسس التجديد الإقليمي

### أ. التكامل الاقتصادي والبنوي

تكمّن أعظم مكاسب المنطقة غير المستثمرة في تسهيل التجارة وتعزيز الترابط العابر للحدود — من خلال بناء ممرات وأنابيب وشبكات طاقة وموانئ وبنى رقمية تربط المغرب والشرق والخليج في فضاءٍ اقتصاديٍّ واحدٍ (الإسكوا، تقرير التكامل الإقليمي العربي، 2022).

في الوقت الراهن، تزيد التجزئة اللوجستية وعدم التناسق التنظيمي تكاليف التجارة البينية بنحو 30٪، ما يضعف التنافسية ويثبط الاستثمارات >

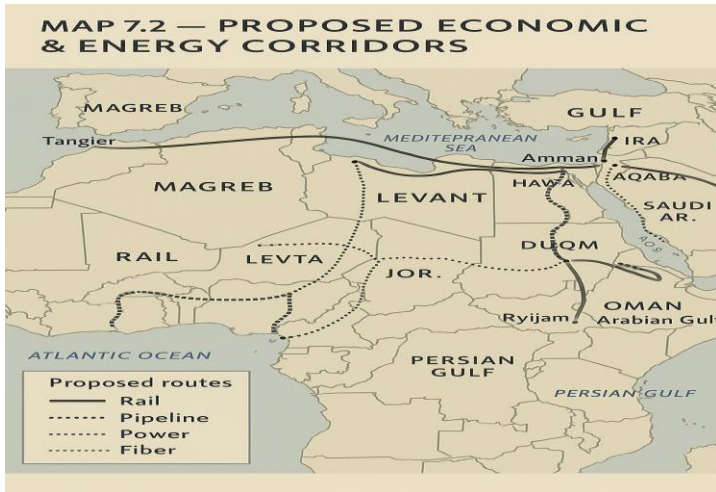
تُبرز المشروعات الاستراتيجية —مثل خط الغاز العربي، والممر الاقتصادي للبحر الأحمر، وشبكة السكك الحديدية المقترحة بين الخليج والمشرق —الإمكانات الكامنة في التكامل الوظيفي عبر الأقاليم الفرعية.

يمكن للربط المنسّق في مجالي النقل والطاقة أن يحوّل التنافس إلى سلاسل إمدادٍ تكاملية، تربط المراكز الصناعية في مصر والخليج بمراكز الزراعة والموارد البشرية في المشرق وشمال إفريقيا.

ولتحقيق ذلك، يُقترح إنشاء هيئة البنية التحتية للشرق الأوسط لتوحيد المعايير التقنية والإجراءات الجمركية والأنظمة اللوجستية، على غرار نموذج شبكات الاتحاد الأوروبي العابرة لأوروبا (TEN-T) أو إطار الترابط الآسيوي لرابطة آسيان (اليزينا وآخرون، مجلة النمو الاقتصادي، 2021).

وتُظهر النماذج الإقليمية التي أعدها الإسكوا والبنك الدولي أن هذا التقارب قد يضيف ما بين 2 إلى 3٪ للناتج المحلي الإجمالي السنوي ويوفر ملايين فرص العمل من خلال خفض تكاليف التجارة وزيادة كفاءة سلاسل التوريد (الإسكوا، 2022؛ البنك الدولي، 2023).

في هذا التصور، لا تُعد البنية التحتية مسألة تقنية فحسب، بل أداة سياسية لبناء الثقة. فشبكات الأنابيب والكهرباء والكابلات الرقمية المشتركة يمكن أن توحد الاقتصادات مصلحيًا، وتجعل التعاون أكثر جدوى من الصراع، محوِّلةً الجغرافيا من مصدرٍ للانقسام إلى أساسٍ للتجديد الجماعي.



## ب. الطاقة والتكنولوجيا والتحول الأخضر

تمتلك منطقة الشرق الأوسط أكثر من نصف احتياطي النفط العالمي وقرابة 40% من احتياطي الغاز الطبيعي، ما يجعلها الخزان الهيدروكربوني الأكبر في العالم. لكن أهميتها المستقبلية لا تكمن فقط في ثرواتها التقليدية، بل أيضًا في قدرتها على قيادة التحول الطاقى العالمي. فالمنطقة تتمتع بإشعاع شمسي استثنائي، وقدرات رياحية هائلة، ومساحات جيولوجية مناسبة لتخزين الكربون، مما يؤهلها لتكون رائدًا عالميًا في الطاقة المتجددة والهيدروجين الأخضر (الوكالة الدولية للطاقة، توقعات الطاقة العالمية، 2023).

إن توسيع مشاريع الطاقة الشمسية والرياح والهيدروجين الأخضر — ولا سيما في شبه الجزيرة العربية ومصر والمغرب والأردن — قد يُعيد تشكيل الملف الاقتصادي للمنطقة من مصدرٍ للوقود الأحفوري إلى مركزٍ لتصدير الطاقة النظيفة كما يمكن ربط الطاقة المتجددة في شمال إفريقيا بالشبكات الأوروبية عبر الربط الكهربائي المتوسطي، وتنسيق تسعير الكربون ونقل التكنولوجيا وأطر الاستثمار من خلال إنشاء مجتمع طاقة شرق أوسطي يدمج المنطقة في اقتصاد إزالة الكربون العالمي المتنامي (البنك الدولي، تقرير التحول الطاقى في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، 2023).

يحمل هذا التحول أيضًا فوائد جيوسياسية، إذ إن التعاون في تنويع مصادر الطاقة يمكن أن يخفف من صراعات تراجع عائدات النفط، ويخلق مساحات جديدة للتعاون بين الخصوم السابقين.

### ج. رأس المال البشري والتعاون المعرفي

بمعدل عمرٍ وسطي يقل عن 30 عامًا، يُعد الشباب أعظم رصيد طويل الأمد للمنطقة. ومع ذلك، فإن ضعف الاستثمار في البحث والابتكار والتعليم العالي أبقى الإنفاق على البحث والتطوير دون 1% من الناتج المحلي الإجمالي في معظم الدول وهو معدل أقل بكثير من المتوسط العالمي (اليونسكو، تقرير العلوم العالمي، 2021).

إن إنشاء اتحاد جامعات الشرق الأوسط وصندوق إقليمي للعلوم والابتكار يركّز على الذكاء الاصطناعي والعلوم الصحية والتقنيات المتجددة، قد يُضاعف أو يُثَلِّث الإنفاق الإقليمي على البحث والتطوير ليصل إلى 3-2% من الناتج المحلي الإجمالي، مما يدفع نحو التحول من الاعتماد على الموارد إلى الاقتصادات القائمة على المعرفة.

كما أن برامج التبادل الأكاديمي الإقليمي، والتجمعات البحثية المشتركة، ومبادرات البيانات المفتوحة، يمكن أن تُعزز التبادل الثقافي وتُنشئ جيلًا من “رواد التكامل” — علماء ومهنيين يبنون مستقبلهم على التعاون عبر الحدود لا على الانقسام (منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، سياسات الابتكار في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، 2023).

#### د. التعاون البيئي والمائي

تشهد منطقة الشرق الأوسط ارتفاعًا في درجات الحرارة يعادل ضعف المعدل العالمي، ويواجه 60% من سكانها مستويات عالية أو قصوى من الإجهاد المائي. إن التدهور البيئي لم يعد خطرًا بعيدًا، بل تحديًا وجوديًا مشتركًا.

يمكن لـ ميثاق بيئي شرق أوسطي أن يُنسق إدارة الأحواض المائية في أنهار دجلة والفرات والنيل والأردن، ويُعزز الزراعة الصحراوية وتقنيات التحلية، ويوحد الاستراتيجيات الوطنية للمناخ بما يتماشى مع أهداف اتفاق باريس للتكيف (المناخي) (برنامج الأمم المتحدة للبيئة، تقرير حالة البيئة والتنمية في غرب آسيا، 2022).

قد يؤدي هذا النوع من التعاون البيئي الدور نفسه الذي أدّاه الفحم والصلب في أوروبا ما بعد الحرب — أي تحويل البيئة إلى ركيزة لبناء الثقة والتكامل الإقليمي.

#### هـ. الأمن والحوكمة

ينبغي أن يُقدّم التكامل الأمني بشكل تدريجي، بناءً على إجراءات الثقة قبل إنشاء الهياكل المؤسسية. يمكن أن تركز المرحلة الأولى على:

- تفادي النزاعات البحرية،
  - تبادل المعلومات الاستخبارية لمكافحة الإرهاب،
  - والشفافية في تجارة الأسلحة عبر الخليج والبحر الأحمر
- ومع مرور الوقت، يمكن أن تتطور هذه الآليات إلى اتفاق عدم اعتداء إقليمي، ثم إلى منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط تماشياً مع قرارات الأمم المتحدة (مكتب الأمم المتحدة لشؤون نزع السلاح، تقرير المناطق الخالية من الأسلحة النووية، 2023).

أما من الناحية المؤسسية، فإن إصلاح جامعة الدول العربية أو إنشاء مجلس شرق أوسطي جديد قد يحول الدبلوماسية إلى إطار مؤسسي مُلزم للتعاون الاقتصادي والأمني، على غرار نموذج الإجماع المتدرج لرابطة آسيان (فوسِت، العلاقات الدولية في الشرق الأوسط، 2023).

#### 4. التوضع العالمي — جسر بين الشرق والغرب

تؤكد العلاقات التجارية الحالية الموقع الجغرافي المحوري للمنطقة. فالتجارة السنوية مع أوروبا تتجاوز 700 مليار دولار، بينما تتخطى التجارة مع آسيا — وخاصة الصين والهند واليابان وكوريا الجنوبية 850 — مليار دولار. وإذا ارتفعت التجارة البينية من 10% حاليًا إلى نحو 25%، فقد يبلغ إجمالي حجم التجارة قرابة تريليوني دولار، ما يجعل الشرق الأوسط بين أكبر ثلاث كتل اقتصادية في العالم (الإسكوا، 2022).

سيحوّل هذا التكامل المنطقة إلى ممر مرونة عالمي يربط بين سلاسل التوريد في الأطلسي والمحيطين الهندي والهادئ — جسرًا بين الشرق والغرب، وبين الإنتاج والاستهلاك الطاقوي، وبين الإرث الحضاري والابتكار المعاصر. في عالم يتسم بالترابط المتبادل، يكمن مصير الشرق الأوسط لا في انقساماته، بل في قدرته على تحويل الجغرافيا إلى ازدهارٍ مشترك.

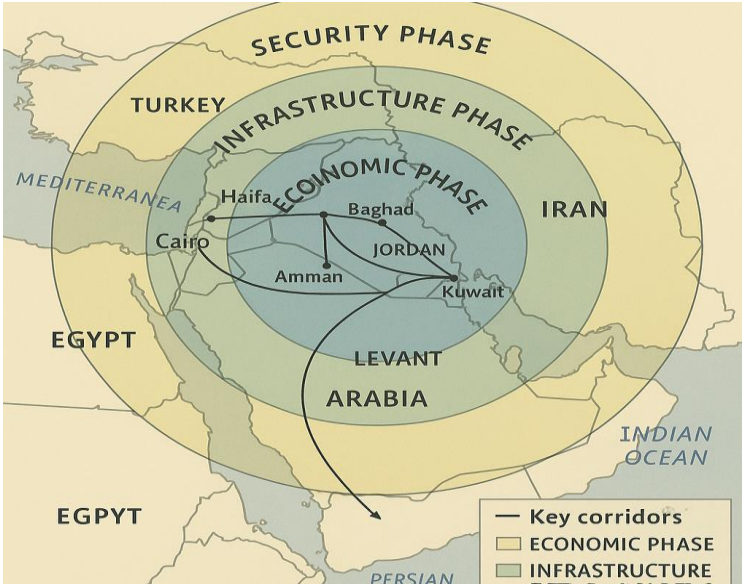
#### 5. الرؤية — مجتمع الشرق الأوسط الاقتصادي (MEEC)

يمكن رسم خطة عمل واقعية من خلال أربع مراحل متتابعة:

1. المرحلة الأولى — التنسيق الاقتصادي:  
توحيد الإجراءات الجمركية، وأطر الاستثمار، والمعايير الفنية.
2. المرحلة الثانية — التكامل البنيوي والرقمي:  
إنشاء شبكات عابرة للحدود تشمل السكك الحديدية، والكهرباء، والغاز، والألياف الضوئية، وأنظمة المدفوعات.
3. المرحلة الثالثة — التعاون البيني والتعليمي:  
تطوير برامج مشتركة في الاستدامة والمعرفة.
4. المرحلة الرابعة — الأمن والحوار السياسي:  
العمل على منع النزاعات، والوساطة، والدبلوماسية الجماعية.



لن يُلغي مجتمع الشرق الأوسط الاقتصادي (MEEC) سيادة الدول، بل سيعمل على تنظيمها، مُمكنًا هذه الدول من العمل الجماعي حين تتقاطع المصالح، وتمهيد الطريق نحو شراكة إقليمية قائمة على الثقة والتنمية المشتركة.



## 6. الخلاصة: من التشرذم إلى الفاعلية

إن الطريق إلى مستقبلٍ مستقرٍ ومزدهرٍ للشرق الأوسط يتطلب تحولًا مفاهيميًا وعمليًا — من الوحدة كشعارٍ خطابي إلى التكامل كوظيفةٍ مؤسسية. فعلى مدى قرنٍ كامل، تكررَت الدعوات إلى الوحدة العربية، والوحدة الإسلامية، والتضامن الإقليمي، لكنها تعثرت — لا لغياب المشاعر المشتركة — بل لغياب القدرة المؤسسية والتنظيمية. لقد وعدت الثورات بالعدالة والسيادة، لكنها انهارت حيث ظلت الحوكمة شخصيةً ومجزأةً وتابعةً للخارج (هينيبوش، السياسة الدولية في الشرق الأوسط، 2022).

إن الاستقرار الدائم لا ينبع من توافقٍ أيديولوجي، بل من تعاونٍ مؤسسي منظم — آليات تجعل الترابط أكثر نفعًا من التنافس (فوسيت، العلاقات الدولية في الشرق الأوسط، 2023). لذا فإن مستقبل المنطقة يكمن في التكامل الوظيفي: أي في شراكاتٍ واقعية في مجالات الطاقة، والتعليم، والبنية التحتية، والتكنولوجيا، تُبنى عليها الثقة والمساءلة المشتركة بمرور الوقت.

وإذا ما وجّهت المنطقة ثروتها النفطية وطاقتها البشرية الشابة وموقعها الجغرافي الاستراتيجي نحو الاستثمار في البنية التحتية، ورأس المال البشري، وبناء الثقة محور — المؤسسية، فإنها ستتجاوز منطق الاعتماد والتبعية إلى توازن جديد يربط بين تحول الطاقة، والتجارة، والابتكار عبر ثلاث قارات (صندوق النقد الدولي، التقرير الاقتصادي الإقليمي: الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، 2024؛

في هذا التّصوّر، لا يُعدّ مصير الشرق الأوسط بالانقسام أو التقليد، بل بما يمكن تسميته الاتحاد الوظيفي — نظامٌ تصبح فيه التعاونات المؤسسية هي هيكل السيادة الجديد، وتتحول الجغرافيا من مكن ضعيف إلى مصدر دائم للقوة الجماعية.

### ثالثاً: بين التشرذم والإمكان

يُجسّد الشرق الأوسط الحديث مفارقةً جوهريّة — إقليمًا غنيًا بالموارد، لكنه عاجز عن تحويلها إلى قوة جماعية فاعلة. فالعجز ليس في الفرص، بل في الثقة والرؤية. وفي القرن الحادي والعشرين، لم تعد اللاتعاون مجرد خيار سياسي، بل أصبح عبئاً وجودياً في عالم مترابط المصالح والمصير.

#### 1. الحاضر الممزّق

لا تزال الحروب الأهلية في اليمن وسوريا وليبيا تتواصل بأشكالٍ متحوّلة، فيما ينهار اقتصاد لبنان تحت وطأة شلل النخب الحاكمة، وتواجه فلسطين استمرار الاحتلال والانقسام، وتتأرجح العراق والسودان بين الاحتجاج والتراجع.

أما الدول الأغنى، فتمضي في مسارات تحديثٍ منفردة، تتنافس على النفوذ أكثر مما تتقاسمه. ورغم أن الناتج المحلي الإجمالي المشترك يتجاوز 4.6 تريليونات دولار وتملك المنطقة نحو نصف احتياطات الطاقة في العالم، تبقى نسبة التجارة البينية من الأدنى عالمياً (صندوق النقد الدولي، 2025).

لم تنضج المنظمات الإقليمية لتصبح أدواتٍ عملية للتعاون، إذ يعمل الشرق الأوسط فعلياً كمجموعة من أكثر من عشرين اقتصاداً منفصلاً — قوة مهدورة بسبب التكرار وانعدام الثقة.

## 2. دروس من الماضي

لقد جلب الانقسام دومًا السيطرة الخارجية — من التقسيمات الاستعمارية إلى حروب الوكالة في الحرب الباردة وحتى التدخلات ما بعد 11 سبتمبر.

وعلى العكس، فإن فترات التأثير الإقليمي — كالصور الأولى للخلافة، أو تنسيق دبلوماسية النفط في السبعينيات — انبثقت حين تحقق حدًا أدنى من التماسك.

حتى التنسيق الرمزي — كما في حظر النفط عام 1973 — أعاد ترتيب موازين القوى عالميًا مؤقتًا. وهكذا، فإن المكانة الدولية للمنطقة ترتفع وتنخفض بقدر قدرتها على الفعل المشترك.

## 3. الفرص الضائعة

تحمل عقد العشرينيات من القرن الحالي فرصًا فريدة:

- التحول الطاقى: توسيع مشاريع الهيدروجين الأخضر والطاقة الشمسية عبر تنسيقٍ تكنولوجي ومالي.
- الموقع الجيو-اقتصادي: توحيد البنى اللوجستية لتحويل المنطقة إلى مركزٍ عالمي للمرونة والتوريد.
- العائد الديموغرافي: تعبئة الشباب عبر منصات إقليمية للمهارات والابتكار وريادة الأعمال.

لكن تحقيق هذه الإمكانيات يتطلب أطرًا عابرة للحدود، فبدونها تبقى حتى الاقتصادات الغنية معزولة ومعرضة لتقلبات الأسواق وضغوط السياسة.

## 4. الضرورة الأخلاقية للتعاون

لم يعد التعاون حلًا رومانسيًا، بل ضرورة استراتيجية. فالمخاطر الكبرى — المناخ، شح المياه، الأمن السيبراني، وضغط السكان — تتجاوز الحدود الوطنية.

وكما أدركت أوروبا بعد الحرب، فإن البقاء المشترك يتطلب أدوات مشتركة. إن مجتمع الشرق الأوسط الاقتصادي — (MEEC) أو ما يعادله من أطرٍ عملية

يمكن أن يحافظ على السيادة الوطنية مع دمج السياسات التي تُؤدّ الازدهار والأمن معًا.

## 5. رؤية تتجاوز الحاضر.

تخيل شرقًا أوسطيًا موحد الوظيفة: حدودًا جمركية مخففة لتدفق السلع والكفاءات، وشبكات طاقة مترابطة، واتحادات جامعية تقود الابتكار والبحث، ورؤوس أموال خليجية تعيد إعمار سوريا واليمن، وقناة السويس وبلاد الرافدين كشريانين مزدوجين للتجارة العالمية، وحلٍ عادلٍ للقضية الفلسطينية باعتباره الركيزة الأخلاقية للمصالحة.

كما بدأت أوروبا بعد 1945، أو شرق آسيا بعد حروبها، فإن التكامل يبدأ بالإرادة وينمو بالممارسة.

## 6. بين الجغرافيا والمصير.

تربط الجغرافيا المنطقة بالتناقض كما بالميزة. فهي تمتد عبر القارات وتتحكم بممرات الطاقة العالمية، ما يجعلها غير قابلة للاستبدال جيوسياسيًا.

موحدة، يمكن أن تنافس الاتحاد الأوروبي في القوة الاقتصادية؛ منقسمة، قد تنزلق إلى هامشية بنوية في اقتصادٍ عالمي يعيد تنظيم نفسه.

## 7. الخاتمة: خيار الخيال السياسي.

يعتمد مستقبل الشرق الأوسط على قادةٍ مستعدين لمقايسة المكاسب الآتية بثقةٍ مؤسسية طويلة الأمد. فالمسار من التشرذم إلى الفاعلية هو في جوهره فعل خيالٍ سياسي — رؤية الجار كشريكٍ لا كمنافس، والتعاون كأسمى أشكال السيادة.

لقد كان الشرق الأوسط عبر التاريخ مسرحًا للأحداث؛ أما تحديه اليوم، فهو أن يصبح كاتبها وصانعها.

## الانتقال إلى الفصل الثامن

النظام العالمي في تحوّل: الشرق الأوسط وتغيّر ميزان القوى

بينما يسعى الشرق الأوسط إلى تجاوز الانقسام نحو تجديدٍ تعاوني، يشهد العالم بأسره تحولاً عميقاً.

فالنظام الدولي في القرن الحادي والعشرين — الذي كان يرتكز على الهيمنة الغربية والتحالفات الثنائية — يدخل مرحلة إعادة اصطفافٍ مرنة.

تنشأ مراكز جديدة للثقل الاقتصادي والسياسي في آسيا وإفريقيا، بينما تُعيد التحولات التكنولوجية وأزمة المناخ والتغيرات الديموغرافية رسم خريطة النفوذ العالمي.

وفي قلب هذا المشهد المتغيّر، يقف الشرق الأوسط في موقعٍ محوريٍّ لكنه غير محسوم:

جغرافيته تجعله مركزاً لتقاطع التجارة والطاقة، وثرواته تظل أساسية لاستقرار العالم، لكن انقساماته الداخلية كثيراً ما حوّلتها من فاعلٍ دولي إلى ساحة تنافسٍ خارجي.

سيتناول الفصل القادم موقع المنطقة داخل هذا الميزان العالمي الجديد — بين الكتل الأطلسية والأوراسية، وبين التحالفات الراسخة والشرائط الصاعدة، وبين الاعتماد على الموارد وإعادة ابتكار الاستراتيجية.

فإن كانت الفصول السابقة قد تتبعت صراع الشرق الأوسط الداخلي من أجل التماسك، فإن هذا الفصل المقبل سيتجه إلى الخارج —

ليستكشف أهميته الدولية في عصر التحولات الكبرى، وهندسة الأمن الجديدة، وإعادة تعريف الفاعلية في النظام العالمي الآخذ في التشكل.

## الفصل الثامن: النظام العالمي في تحوّل — الشرق الأوسط وتغيّر ميزان القوى

### الملخص

يحلّل هذا الفصل التحولات العالمية الاقتصادية والسياسية والتكنولوجية التي تُعيد تشكيل موقع الشرق الأوسط في النظام الدولي. ويتناول تآكل الأحادية القطبية الأمريكية، وصعود الصين والهند، وتجدد الطموح الروسي، واتساع أدوار القوى المتوسطة مثل تركيا والمملكة العربية السعودية.

ومن خلال هذا المنظور، يدرس الفصل إعادة توازن العلاقات في مجالات الطاقة والتجارة والأمن ضمن بيئة متعددة الأقطاب. وفي ختامه، يعرض مسارات محتملة لدور الفاعلية الإقليمية في القرن الحادي والعشرين:

هل سيبقى الشرق الأوسط ساحةً للتنافس بين القوى الكبرى، أم سيتمكن من أن يصبح فاعلاً منسقاً ومؤثراً في النظام المتعدد الأقطاب الجديد؟

### أولاً: السياق العالمي — من الأحادية إلى التعددية القطبية

يمثّل القرن الحادي والعشرون مرحلة تحوّل بنيوي في السياسة الدولية. فالنظام الذي تلا الحرب الباردة، والذي هيمنت عليه الولايات المتحدة لعقود، بدأ يفسح المجال لتشكّل نظامٍ متعدد الأقطاب في القوة الاقتصادية والاستراتيجية (أشريا، 2018).

ولا يقتصر هذا التحول على إعادة توزيع القوة العسكرية، بل يشمل أيضاً تحوّل مراكز الإنتاج والابتكار والدبلوماسية. والنتيجة هي نظامٌ عالمي يتميز بـ تداخل دوائر النفوذ، وتحالفات هجينة، ومعايير متنازع عليها.

شهدت الألفية الأولى من القرن الجديد ذروة التفوق الأمريكي: فقد ظل الدولار العملة الاحتياطية العالمية، وتجاوز الإنفاق الدفاعي الأمريكي مجموع إنفاق أكبر عشر دول تليه مجتمعة، بينما قادت شركات التكنولوجيا الأمريكية موجة العولمة الرقمية.

لكن مع حلول العقد الثاني من القرن، بدأت تلك الهيمنة تتآكل بفعل حروب العراق وأفغانستان، والأزمة المالية عام 2008، والإرهاب الداخلي من التدخلات الخارجية، ما قلل من قدرة واشنطن واستعدادها للاستمرار في دورها المهيمن (والت، 2019).

في المقابل، شكّل صعود الصين قطبًا اقتصاديًا منافسًا هائلًا. فبين عامي 2000 و2020، ارتفعت حصة الصين من الناتج العالمي من 4% إلى أكثر من 18%. فيما توسعت مبادرة الحزام والطريق (BRI) في البنى التحتية وشبكات التجارة عبر آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط (البنك الدولي، 2023).

أما روسيا، فقد استعادت مكانتها بعد عام 2014 من خلال تدخلها في أوكرانيا وسوريا، مؤكدة استعدادها لاستخدام القوة الصلبة لتأكيد حضورها العالمي. وإلى جانبها، برزت الهند والبرازيل وتركيا كقوى متوسطة طموحة تسعى إلى مساراتٍ مستقلة بين الكتل الكبرى.

يمثل هذا الواقع نهاية ما يُعرف بـ “النظام الدولي الليبرالي”، وبداية ما يمكن تسميته بـ “النظام المتعدد المراكز — ” نظامٌ متنوع في أنماط الحوكمة والنماذج الاقتصادية، لكنه مترابط من خلال تدفقات التجارة والتكنولوجيا (كابتشان، 2020).

### أ. تراجع الأحادية القطبية

• لقد استندت اللحظة الأحادية القطبية — أي مرحلة الهيمنة الأمريكية بعد الحرب الباردة — إلى تفوقٍ شاملٍ للولايات المتحدة في خمسة مجالات رئيسية: الاقتصادي، والعسكري، والتكنولوجي، والمالي، والأيديولوجي. غير أن كلاً من هذه الركائز بدأ يتآكل تدريجيًا خلال العقود الأخيرة.

### • المجال الاقتصادي

انتقل مركز التصنيع والإنتاج الصناعي العالمي تدريجيًا نحو شرق وجنوب آسيا، ولا سيما الصين والهند وفيتنام، مما قلل من الوزن النسبي للاقتصاد الأمريكي في سلاسل التوريد والتجارة العالمية.

## • المجال العسكري

لم تعد الولايات المتحدة قادرة على فرض تفوقها العسكري المطلق كما في السابق، إذ بدأت قوى إقليمية — مثل تركيا ببرامجها للطائرات المسيّرة والمملكة العربية السعودية بسياساتها الدفاعية المستقلة — تتصرّف بشكلٍ متزايدٍ بمعزلٍ عن المظلة الأمنية الأمريكية التقليدية، مما يعكس تحولاً في ميزان الاعتماد الاستراتيجي.

## • المجال التكنولوجي

برزت المنظومات الرقمية الصينية والهندية كمنافساتٍ رئيسية لـ وادي السيليكون، من خلال إنشاء أنظمةٍ تكنولوجية واقتصادية موازية تركز على الاتصالات، والذكاء الاصطناعي، والتجارة الإلكترونية، الأمر الذي قلّص من الاحتكار الأمريكي في مجال الابتكار الرقمي.

## • المجال المالي

بدأت حصة الدولار في الاحتياطات العالمية بالتراجع التدريجي، مع اتساع نطاق التنويع نحو اليوان الصيني واليورو الأوروبي، وتزايد استخدام العملات المحلية في التبادلات الثنائية، ما يشير إلى بداية تعددٍ ماليٍّ عالميٍّ يقلل من الهيمنة النقدية الأمريكية.

## • المجال الأيديولوجي

تضاءل البريق العالمي للنموذج الليبرالي الديمقراطي، في ظل صعود الشعوبيات والأزمات المؤسسية في الغرب، وما يُعرف بـ الإرهاب من الديمقراطية نتيجة الاستقطاب والشلل السياسي. وباتت دولٌ كثيرة تنظر إلى البراغماتية والاستقرار بوصفهما بديلين أكثر واقعية من النموذج الديمقراطي الغربي التقليدي.



وبذلك، لم يعد التفوق الأمريكي مطلقًا كما كان؛ إذ تتقدم قوى جديدة — آسيوية وإقليمية — لتعيد تشكيل موازين القوة في نظامٍ عالمي يتجه نحو التعددية القطبية.

### ب. صعود الصين ومحور الهند-باسيفيك

تتجلى قوة الصين المتنامية في ثلاثة مجالات رئيسية: تمويل البنية التحتية، والتجارة، والتكنولوجيا.

فمنذ إطلاق مبادرة الحزام والطريق (BRI) عام 2013، تمكنت بكين من دمج الشرق الأوسط ضمن الشبكة الاقتصادية الأوراسية، محوِّلةً الإقليم إلى جسرٍ تجاري واستراتيجي بين آسيا وإفريقيا وأوروبا.

أصبحت دول الخليج العربي، وعلى رأسها المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، شركاء محوريين في هذا المشروع؛ فقد أصبحت تجارتهما مع آسيا تفوق تجارتهم مع الغرب. وشهدت المنطقة توسعًا واسعًا في الاستثمارات الصينية، من بناء الموانئ في عُمان، إلى المدن الصناعية في مصر، وحتى الشبكات الرقمية والبنى التحتية الذكية في السعودية.

ورغم هذا التمدد، فإن النهج الصيني في المنطقة يظل اقتصاديًا-جيوستراتيجيًا أكثر منه عسكريًا؛ فبكين تسعى إلى الوصول لا إلى السيطرة، وتركز على الربط والتكامل بدلًا من المواجهة والصدام (تشاو، 2022).

### ج. عودة روسيا الاستراتيجية

منذ تدخلها العسكري في سوريا عام 2015، أعادت روسيا ترسيخ حضورها كفاعلٍ محوري في معادلات القوة الإقليمية.

قدّمت نفسها كـ شريكٍ موثوق في الوقت الذي ترددت فيه القوى الغربية، واستخدمت دبلوماسيتها متعددة الأدوات — من الطاقة وتصدير السلاح إلى التنسيق مع إيران وتركيا — لتوسيع نفوذها في الشرق الأوسط.

غير أن الحرب الأوكرانية (2022-) كشفت حدود هذه الاستراتيجية؛ فقد أدت العقوبات والعزلة الاقتصادية وتقلص الوصول إلى الأسواق العالمية إلى تقليص قدرة موسكو على المناورة. كما جعلها ذلك أكثر اعتمادًا على الصين اقتصاديًا ودبلوماسيًا، حتى مع استمرار وجودها العسكري في سوريا وليبيا كأداة نفوذٍ مستمرة (ترينين، 2023).

#### د. صعود القوى المتوسطة

إلى جانب القوى الكبرى، برزت قوى متوسطة جديدة — مثل تركيا والمملكة العربية السعودية والهند والإمارات العربية المتحدة — لتصبح أركانًا أساسية في النظام المتعدد الأقطاب.

تتبنى هذه الدول سياسة “الانحياز المتعدد” (Multi-Alignment)، أي التعامل المتوازي والبراغماتي مع كلّ من الولايات المتحدة والصين وروسيا، بهدف تعظيم المكاسب الاستراتيجية دون الارتهان لأي محور واحد.

أمثلة على ذلك:

تركيا: تتوسط في الأزمة الأوكرانية، بينما تعمّق تجارتها مع روسيا وتسعى في الوقت ذاته إلى تعزيز علاقاتها مع الاتحاد الأوروبي.

السعودية: توازن بين شراكتها الأمنية مع واشنطن، وانضمامها إلى مجموعة “بريكس”، وانخراطها في دبلوماسية صينية الوساطة مع إيران.

الهند: توسّع تجارتها مع الخليج العربي، وفي الوقت ذاته تقود دول الجنوب العالمي في مبادرات البنية التحتية الرقمية والتنمية المستدامة.

بهذا الصعود المتوازي، تتحول القوى المتوسطة إلى محركاتٍ جديدةٍ للتعددية القطبية، تُعيد تشكيل ميزان العلاقات الدولية من أسفل إلى أعلى، وتؤكد أن القرن الحادي والعشرين لم يعد حكرًا على القوى العظمى التقليدية، بل بات ساحةً تتشارك فيها الدول الصاعدة في صياغة النظام العالمي الجديد.

## ثانيًا: الشرق الأوسط في لحظة التعددية القطبية

عاد الشرق الأوسط إلى مركز الاهتمام العالمي خلال عقد العشرينيات من القرن الحادي والعشرين، لكن هذه العودة لم تكن مدفوعةً بالأيديولوجيا أو الصراع فحسب، بل جاءت نتيجة لموقعه المحوري في النظام العالمي المتعدد الأقطاب الآخذ في التشكل.

فبعد عقود طويلة من الاعتماد شبه الكامل على التحالفات الغربية، بدأت القوى الإقليمية في المنطقة — من الخليج إلى تركيا وإيران ومصر — تتبنى سياسات خارجية أكثر تنوعًا ومرونة، تقوم على التوازن بين المحاور العالمية المتنافسة بدلًا من الارتهان لأي منها.

لقد أصبحت العلاقات الاقتصادية والأمنية في الشرق الأوسط أشبه بشبكة متداخلة من الشراكات المتقاطعة، تعكس تحولًا في هرم النفوذ الدولي وفي فهم الدول لمصادر قوتها ومصالحتها (احتشامي وهينبوش، 2020).

هذه اللحظة المتعددة الأقطاب منحت المنطقة فرصة لإعادة تعريف دورها العالمي: فلم تعد مجرد ساحة تنافس بين القوى العظمى كما في القرن الماضي، بل بدأت — وإن تدريجيًا — تتحول إلى لاعبٍ فاعلٍ يسعى لتشكيل مسار الأحداث عبر البراغمية، والتعددية، والتكامل الاقتصادي المتبادل.

### أ. إعادة معايرة التحالفات

على مدى معظم القرن العشرين، كان الاتجاه الاستراتيجي للشرق الأوسط ثانيًا: فالدول كانت إما منحازة للغرب بقيادة الولايات المتحدة، أو مرتبطة بالمعسكر السوفييتي في حقبة الحرب الباردة.

أما في العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين، فقد تلاشى هذا الانقسام الثنائي ليُفسح المجال أمام بنية ثلاثية أكثر تعقيدًا تضم الولايات المتحدة والصين وروسيا، حيث تمتلك كلٌ منها أدوات نفوذ مختلفة تمارس من خلالها تأثيرها في المنطقة.

## • الولايات المتحدة

لا تزال واشنطن توفر المظلة الأمنية الأساسية من خلال الضمانات الدفاعية والتعاون الاستخباراتي وتزويد الحلفاء بـ أنظمة التسليح المتقدمة. إلا أن ما يُعرف بـ "الانكماش الاستراتيجي الأمريكي" (*Strategic Retrenchment*) أي الانسحاب التدريجي من التدخل المباشر — قد نقل عبء الحفاظ على الاستقرار الإقليمي إلى الفاعلين المحليين أنفسهم (وولت، 2019).

## • الصين

في المقابل، ملأت الصين جزءاً من هذا الفراغ عبر الاندماج الاقتصادي العميق مع دول المنطقة. ففي اليوم أكبر شريك تجاري لمعظم دول مجلس التعاون الخليجي، والمستثمر الرئيسي في مشروعات البنية التحتية الحيوية — من الموانئ والمناطق الصناعية إلى شبكات الاتصالات والطاقة (البنك الدولي، 2023).

## • روسيا

أما روسيا، فعلى الرغم من محدودية قدراتها الاقتصادية، فقد استطاعت أن تفرض نفسها كقوة صلبة براغماتية، تستخدم القوة المحدودة بدقة عالية لتحقيق مكاسب سياسية، خاصة في سوريا وليبيا، حيث استطاعت أن تحقق نفوذاً يفوق وزنها الاقتصادي الفعلي.

لقد أدت هذه الأدوار المتداخلة إلى نظام اصطفااف جديد متعدد الطبقات، غير مسبوق في تاريخ المنطقة: ف دول الخليج العربي — على سبيل المثال — تستضيف قواعد جوية أمريكية، وتستورد القمح الروسي، وتعتمد في الوقت ذاته على البنية التكنولوجية الصينية في الاتصالات والطاقة.

وهكذا، لم تعد التحالفات في الشرق الأوسط ثابتة أو حصرية، بل أصبحت مرنة ومتقاطعة، تعكس براغماتية جديدة تسعى من خلالها الدول إلى تنويع مصادر القوة والأمن في عالم يتجه نحو توازن متعدد الأقطاب.

## ب. هندسة أمنية جديدة

يشهد الشرق الأوسط تحولاً جذرياً في البنية الأمنية الإقليمية. فالنموذج التقليدي الذي اتبعته المنطقة لعقود — نموذج المحور والعجلات (Hub-and-Spoke) — حيث كانت كل دولة ترتبط بعلاقات ثنائية مستقلة مع الولايات المتحدة، يستبدل اليوم بنموذج جديد من الأمن الشبكي التعاوني (Networked Security)، يقوم على الترابط المتعدد الأطراف وتبادل الأدوار.

### 1. اتفاقات التطبيع والتحالفات التقنية

مثل توقيع اتفاقات أبراهام (2020) بين إسرائيل وعدد من الدول العربية نقطة تحول في هذا الاتجاه، إذ دشّن ما يمكن تسميته بـ تحالف إقليمي جديد يربط بين دول الخليج والشرق وشمال إفريقيا عبر شبكات من التعاون التكنولوجي والاستخباراتي والأمني. بهذا أصبحت التكنولوجيا والأمن السيبراني أدوات توحيد جديدة، تحلّ تدريجياً محل التحالفات العسكرية التقليدية.

### 2. أطر بديلة ناشئة

في الوقت نفسه، ظهرت هياكل مؤسسية بديلة تُعيد تموضع المنطقة داخل النظام العالمي المتعدد الأقطاب:

- توسّع مجموعة بريكس (BRICS+) بانضمام السعودية ومصر وإيران والإمارات، مما وضع المنطقة ضمن كتل اقتصادية غير غربي يسعى لتقليل الاعتماد على الدولار والنظام المالي الغربي.
- منظمة شنغهاي للتعاون (SCO) منحت دولاً شرق أوسطية منصة للحوار الأمني الأوراسي، وفتحت مجالات للتنسيق مع روسيا والصين وآسيا الوسطى.
- مجموعة I2U2 (الهند، إسرائيل، الإمارات، الولايات المتحدة) تمثل نموذجاً جديداً للتعاون الهندو-المتوسطي في مجالات الغذاء والطاقة والتكنولوجيا (كاي، 2023).

هذه الأطر المتشابكة تجسد ما يسميه الباحثون «التعددية الوظيفية (Functional Multipolarity)» — أي أن الدول تتعاون في قضايا محددة دون اصطافٍ أيديولوجي، حيث أصبح المنفعة المتبادلة أهم من التحالف السياسي الدائم.

### ج. التبعية المسلحة

لم تُضعف العولمة الاقتصادية ديناميات القوة في الشرق الأوسط، بل أعادت تشكيلها وصياغتها بأدوات جديدة. فأصبح النفط والغاز والممرات اللوجستية والبنى الرقمية أسلحةً جيو-اقتصادية بامتياز (فاريل ونيومن، 2019).

لقد أبرزت أزمة الطاقة عام 2022 كيف يمكن لقرارات الإنتاج في الخليج أن تؤثر مباشرة في معدلات التضخم والاستقرار السياسي حول العالم. كما أعادت التوترات في البحر الأحمر ومضيق هرمز تأكيد الموقع الحاسم للشرق الأوسط في سلاسل الإمداد العالمية.

أما في البعد التقني، فقد أصبحت البنية التحتية الرقمية — من كابلات الإنترنت البحرية إلى شبكات الجيل الخامس ومراكز البيانات السحابية — ساحةً جديدة للمنافسة بين الشركات الصينية والغربية.

وفي موازاة ذلك، تحولت الأمن السيبراني وتقنيات المراقبة إلى أدوات قوة ناعمة جديدة، حيث برزت الإمارات وإسرائيل والسعودية كقوى سيبرانية صاعدة تستخدم التكنولوجيا لتعزيز النفوذ الإقليمي والدولي (أوكسفورد أناليتكا، 2024).

بهذا المعنى، لم يعد الاعتماد المتبادل بين الدول ضماناً للسلام، بل أصبح مجالاً جديداً للمناورة والتأثير — حيث تُستخدم الترابطات الاقتصادية والتكنولوجية كوسائل ضغطٍ واستراتيجية قوةٍ ناعمةٍ وصلبةٍ في آنٍ واحد.

### د. التحوط الاستراتيجي وتعدد الاصطفافات

في ظلّ هذا التوازن الإقليمي المتشظّي، لم تعد أي دولة في الشرق الأوسط تتبنّى تحالفاً حصرياً أو ولاءً مطلقاً لأي محورٍ دولي.

بل أصبح التحوط الاستراتيجي (Strategic Hedging) أي تنويع العلاقات والتحالفات لتقليل المخاطر وتعظيم المكاسب — هو المنطق الدبلوماسي السائد في المنطقة (بركات، 2022).

## أمثلة على هذا النهج الجديد:

- المملكة العربية السعودية تتعاون عسكرياً وأمنياً مع الولايات المتحدة، وتُبرم صفقات نفطية وتجارية كبرى مع الصين، وتُخترط في الوقت نفسه في مصالحة دبلوماسية مع إيران بوساطة آسيوية.
- تركيا تُحافظ على عضويتها في حلف الناتو، لكنها تطوّر تعاوناً دفاعياً مع روسيا، وتؤدي دوراً متزايداً في الوساطات الإقليمية من أوكرانيا إلى القوقاز والشرق الأوسط.
- الإمارات العربية المتحدة تستثمر في التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي الأمريكي، وفي الوقت ذاته تعمّق شراكاتها مع منظومة البريكس (BRICS) والنظام الرقمي الصيني ضمن مبادرة "الحزام والطريق".

هذا النهج البراغماتي المتعدد الاصطفافات يُعبّر عن نضج جديد في الفاعلية الإقليمية: فلم تعد دول الشرق الأوسط مجرد أدوات في تنافس القوى الكبرى، بل أصبحت وسطاء في ربط الأنظمة العالمية ببعضها — تمدّ جسور الاتصال بين الشرق والغرب، وبين الاقتصاد الرقمي والطاقة التقليدية، وتعيد تعريف السيادة ليس كعزلة، بل ك قدرة على المناورة والتوازن داخل عالم مترابط ومتعدد الأقطاب.

## ثالثاً: إعادة التوجّه الاقتصادي والممرّات العالمية

شهد عقد العشرينيات من القرن الحادي والعشرين إعادة رسمٍ شاملةٍ للجغرافيا الاقتصادية للشرق الأوسط. فبعد أن كان يُنظر إلى المنطقة لعقودٍ طويلة باعتبارها مصدرًا رئيسيًا للطاقة، بدأت اليوم تُعيد تموضعها كمركزٍ لوجستي محوري — يشكّل جسراً برياً وبحرياً يربط بين العمالة الاقتصادية في آسيا وأوروبا وإفريقيا.

لقد تحوّلت المنطقة، بفضل مشاريع تكامل مسارات الطاقة والسكك الحديدية والشبكات الرقمية، من ساحة تنافسٍ جيوسياسي إلى مركزٍ عالمي للترباط والتدفق (خنا، 2022).

وتتجسّد هذه الرؤية الجديدة في صيغٍ متعددة من الممرّات الاقتصادية، التي تتنافس وتتكامل في آنٍ واحد، مثل مبادرة الحزام والطريق الصينية (BRI) ، والممرّ الاقتصادي الهندي-الأوروبي-الشرق أوسطي (IMEC) ، بالإضافة إلى شبكات البيانات والكابلات البحرية التي تربط الخليج العربي وشرق المتوسط وشمال إفريقيا بالعالم الرقمي.

### أ. مبادرة الحزام والطريق: (BRI) الارتكاز الآسيوي

أطلقت الصين مبادرة الحزام والطريق عام 2013، لتُعيد من خلالها توجيه البنية التحتية وأنظمة التجارة في الشرق الأوسط نحو الشرق. وتُشكّل المنطقة اليوم نقطة التقاء رئيسية للممرّات البحرية والبريّة ضمن هذه المبادرة.

#### 1. الممرّات البحرية والبرية

- طريق الحرير البحري يربط الموانئ الصينية عبر المحيط الهندي وصولاً إلى البحر الأحمر والبحر المتوسط، ما يجعل موانئ عُمان ومصر السعودية عقداً حيوية في هذا المسار.
- أمّا الحزام الاقتصادي لطريق الحرير البري فيمتدّ من آسيا الوسطى مروراً بـ إيران وتركيا نحو الأسواق الأوروبية، مما يجعل الشرق الأوسط جسراً برياً بحرياً مزدوج الأهمية في التجارة العالمية (تشاو، 2022).

#### 2. الاستثمارات الصينية في البنية الإقليمية

قدّمت الصين تمويلات واستثمارات ضخمة في مشاريع استراتيجية، من أبرزها:

- ميناء الدقم في سلطنة عُمان كمركز لوجستي على طريق الحرير البحري.
- المنطقة الاقتصادية لقناة السويس في مصر كمحور صناعي-تجاري عابر للقارات.
- مشروعات الطاقة والبنية التحتية في العراق والسعودية والإمارات.

وتعكس هذه المشاريع المنطق الجيو-اقتصادي لبكين: تأمين خطوط إمداد الطاقة، وتأسيس ممرات تجارية بديلة مستقلة عن المضائق التي يهيمن عليها الغرب.



### 3.تفاوت في الاستجابة الإقليمية

رغم ذلك، يبقى الإقبال على مبادرة الحزام والطريق متفاوتاً داخل المنطقة:

- **دول الخليج** — لا سيما السعودية والإمارات وقطر — رحّبت برأس المال الصيني واعتبرته فرصة لتنويع الشركاء وتطوير البنى التحتية.
- في المقابل، **دول مثل الأردن ومصر** تتعامل بحذرٍ مع الاستدانة من الاستثمارات الصينية، خشية الاعتماد الاستراتيجي المفرط ومخاطر الديون طويلة الأمد.

وهكذا، يظهر نمط تفاعلي متباين يتحدّد مستوى المشاركة في مبادرة الحزام والطريق وفق قدرة الدولة على الحوكمة الاقتصادية ومدى ارتباطها بالمحاور الغربية، مما يجعل المبادرة شراكةً انتقائية أكثر من كونها منظومة موحّدة في العالم العربي.

#### ب. الممرّ الاقتصادي الهندي-الشرق أوسطي-الأوروبي (IMEC)

أعلن عن مشروع الممرّ الاقتصادي الهندي-الشرق أوسطي-الأوروبي (IMEC) خلال قمة مجموعة العشرين لعام 2023، بوصفه بديلاً مدعوّاً من الغرب لمبادرة الحزام والطريق الصينية.

#### 1.رؤية المشروع ومساره

يهدف المشروع إلى إنشاء شبكات بحرية وبرية متكاملة تربط مدينة مومباي في الهند بميناء حيفا في البحر المتوسط، مروراً بـ الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية، مع دمج الموانئ وخطوط الأنابيب وشبكات الاتصالات الرقمية على طول هذا الممر (البنك الدولي، 2024).

#### 2.مقاربة مغايرة لمبادرة الحزام والطريق

على عكس النموذج الصيني، يركّز IMEC على الشراكات بين القطاعين العام والخاص وعلى آليات تمويل شفافة ومستدامة، الأمر الذي يجذب دول الخليج الساعية إلى تنويع الاقتصاد وتحقيق توازنٍ في علاقاتها الدولية بين الشرق والغرب.

### 3.التحديات وشروط النجاح

يتوقف نجاح الممر على الاستقرار السياسي والتكامل التقني والتنظيمي بين الدول الأعضاء— وهي الهند، الإمارات، السعودية، الأردن، وإسرائيل. ويُعد المشروع اختبارًا عمليًا للتعاون العابر للحدود في عالم ما بعد الأحادية القطبية.

### 4.الأثر الاقتصادي والاستراتيجي

عند اكتماله، يمكن للممر أن يُقلّص زمن الشحن بين آسيا وأوروبا بنسبة 40%، ليُصبح بديلًا فعالًا لفتاة السويس في نقل البضائع عالية القيمة (كاي، 2023).

يمثل IMEC بذلك تحوّلًا في معادلة الترابط العالمي: فهو لا ينافس الصين فحسب، بل يؤكد سعي الهند ودول الخليج إلى أن تكون المنطقة جسرًا متوازنًا بين الشرق والغرب — حيث تتقاطع الاستثمارات، والطاقة، والتكنولوجيا، والحوكمة الاقتصادية الجديدة ضمن رؤية أكثر تعددية واستقلالًا للنظام العالمي القادم.



## ج. الخليج كمركز لوجستي عالمي

حوّلت دول الخليج ثروتها النفطية إلى طاقةٍ لوجستية هائلة، فأصبحت المنطقة اليوم أحد أهم مراكز الربط التجاري في العالم، تجمع بين الشرق والغرب عبر منظومات متكاملة من الموانئ، والمطارات، وخطوط النقل.

### 1. الإمارات العربية المتحدة: نموذج التكامل اللوجستي

نجحت الإمارات في تحويل ميناء جبل علي ومطار دبي ورلد سنترال إلى مركز متعدد الوسائط يجمع بين النقل البحري والجوي والبري في منظومة واحدة. ويُعد هذا التكامل اللوجستي أحد أعمدة قوتها الاقتصادية، إذ جعل من دبي محطة محورية للتجارة العابرة للقارات، تربط آسيا بأوروبا وإفريقيا في شبكة واحدة من الموانئ والمناطق الحرة.

### 2. المملكة العربية السعودية: اللوجستيات ضمن رؤية 2030

تضع رؤية السعودية 2030 اللوجستيات في قلب عملية التنويع الاقتصادي، من خلال مشاريع ضخمة مثل القطار البري (Land Bridge Railway) الذي يربط جدة على البحر الأحمر بـ الدمام على الخليج العربي، ليحوّل المملكة إلى محور عبور رئيسي للبضائع بين البحرين. كما تُسهم المدن الاقتصادية والموانئ الجديدة في إعادة توجيه مسارات التجارة عبر الأراضي السعودية نحو الأسواق الإقليمية والعالمية.

### 3. سلطنة عُمان: منصة الحياد والانفتاح

يُعد ميناء الدقم في سلطنة عمان نموذجًا لـ المنصة اللوجستية المحايدة، إذ يجذب الاستثمارات الغربية والآسيوية على حدٍ سواء، ويجسّد دور الخليج كمفترق طرقٍ استراتيجي بين التكتلات الدولية. بموقعه خارج مضيق هرمز، يمثل الدقم بديلاً آمناً ومفتوحاً للملاحة العالمية، ومركزاً إقليمياً للتصنيع والخدمات البحرية.

#### 4. الترابط الاستراتيجي بدل السيطرة الإقليمية

تجسّد هذه المشاريع ما يُعرف في الدراسات الحديثة بـ “الترابط الاستراتيجي” — (*Strategic Connectivity*) أي السعي إلى النفوذ عبر ممرات التجارة والبنية التحتية بدلاً من السيطرة الإقليمية التقليدية (حنّا، 2022).

وبذلك، أصبح الخليج العربي لا يُقاس فقط بموارده من الطاقة، بل أيضًا بقدرته على إدارة الحركة العالمية للتجارة والبيانات، ليتحول من “مورد للطاقة” إلى قلب نابض للربط العالمي بين القارات الثلاث.

#### د. طرق الحرير الرقمية وممرات البيانات

لم تعد البنية التحتية المادية وحدها هي ما يُعيد تشكيل خريطة الشرق الأوسط الاقتصادية، بل باتت الشبكات الرقمية — من الكابلات البحرية إلى مراكز البيانات — تُكوّن البنية التحتية الجديدة للقوة والتأثير في القرن الحادي والعشرين.

##### 1. الشرق الأوسط كمفترق طرق للبيانات العالمية

تمتدّ اليوم الكابلات البحرية التي تربط البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي، لتجعل من المنطقة مفترقًا حيويًا لحركة البيانات بين أوروبا وآسيا وإفريقيا. ومن أبرز هذه المشاريع:

- كابل Africa 2 بقيادة شركة Meta (فيسبوك سابقًا)،
- كابل السلام (Peace Cable) الصيني، اللذان يمران عبر الممرات البحرية في المنطقة، ويعكسان تزايد الترابط الرقمي العالمي عبر الشرق الأوسط.

##### 2. استثمارات الخليج في مراكز البيانات والذكاء الاصطناعي

تسعى دول الخليج إلى أن تصبح قلب الاقتصاد الرقمي العالمي، من خلال الاستثمار في مراكز بيانات الذكاء الاصطناعي والبنى السحابية. ومن الأمثلة البارزة:

- شراكة السعودية مع Google Cloud لتطوير مراكز حوسبة سحابية إقليمية.

- تعاون الإمارات مع شركة Huawei الصينية لتوسيع بنية الذكاء الاصطناعي والحوسبة الفائقة.

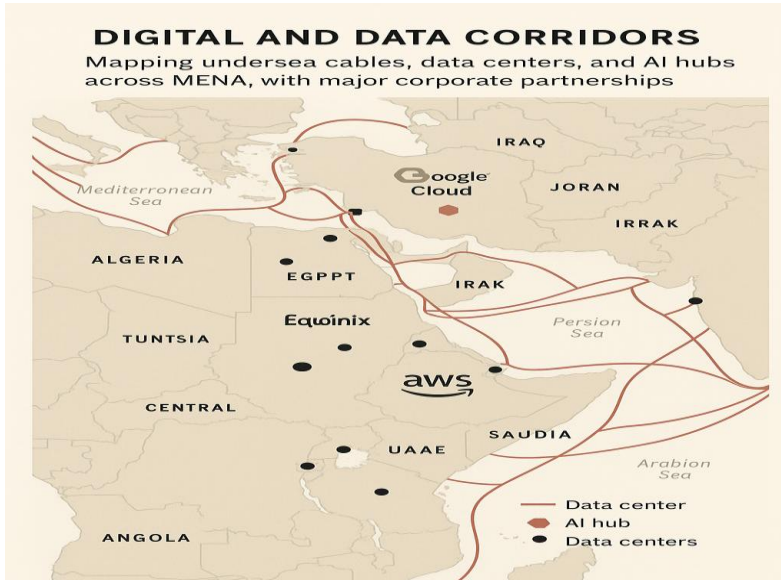
هذه المشاريع تمثل الطبقة الرقمية لمبادرات التنوع الاقتصادي، وتضع الخليج في موقع تنافسي بين الشرق والغرب في سباق الذكاء الاصطناعي.

### 3. ممرات برية جديدة لحركة البيانات

برزت إسرائيل والأردن ومصر كممرات برية أساسية لنقل البيانات بين آسيا وأوروبا، من خلال شبكات الألياف الضوئية العابرة للقارات (أوكسفورد أناليتيكا، 2024). وبذلك أصبحت الممرات الرقمية تكمل الممرات البحرية والبرية التجارية، لتعيد رسم الجغرافيا الاقتصادية للمنطقة بحدود غير مرئية.

### 4. الجغرافيا الرقمية كجبهة جديدة للقوة الناعمة

يحمل هذا التوسع في الكثافة الرقمية أبعادًا استراتيجية عميقة: فمن يسيطر على البنية التحتية للبيانات، يملك أدوات النفوذ العالمي. ولهذا تحوّلت “الجغرافيا الرقمية للشرق الأوسط” إلى جبهة جديدة في منافسة القوى الناعمة — حيث تتقاطع التكنولوجيا، والسيادة، والاقتصاد في سياقٍ على السيطرة على الطريق الرقمي بين الشرق والغرب.



## هـ. الموانئ الاستراتيجية والمضائق الحيوية

لا تزال قناة السويس ومضيق باب المندب ومضيق هرمز تشكل شرايين التجارة العالمية، لكن المشهد البحري في الشرق الأوسط يشهد توسعاً في عقدٍ جديدة تُعيد رسم خريطة الجغرافيا البحرية والسياسية للمنطقة. موانئ مثل حيفا والدقم وجوارر أصبحت رموزاً لتحولٍ استراتيجي من الاعتماد على ممرات محدودة إلى شبكة أوسع وأكثر تنوعاً.

### 1. قناة السويس، هرمز، وباب المندب — محاور الملاحة العالمية

تمثل هذه الممرات الثلاثة نقاط الاختناق الحيوية (Chokepoints) التي يمرّ عبرها أكثر من 30% من تجارة النفط العالمية وحوالي 12% من إجمالي التجارة البحرية. تُشكل هذه المواقع القلب الجغرافي للتجارة الدولية، حيث يتقاطع فيها الشرق والغرب عبر البحرين الأحمر والعربي.

### 2. الموانئ الناشئة ودلالاتها الاستراتيجية

- ميناء حيفا: أصبح بعد اتفاقات التطبيع (2020) رمزاً لاندماج إسرائيل التدريجي في منظومة التجارة الإقليمية والعالمية، خاصة بعد استحواذ شركات آسيوية على حصص تشغيلية فيه، ما جعله حلقة وصل بين شرق المتوسط وممرات الطاقة الخليجية.
- ميناء جوارر (Gwadar) في باكستان: يشكل الركيزة البحرية لممر الصين-باكستان الاقتصادي (CPEC)، وهو أحد أهم مشاريع مبادرة الحزام والطريق، حيث يمنح الصين منفذاً استراتيجياً على بحر العرب بعيداً عن الممرات الخاضعة للنفوذ الأميركي.
- ميناء الدقم (Duqm) في سلطنة عُمان: يمثل نموذجاً للحياض الاقتصادي، إذ يجذب الاستثمارات الغربية والآسيوية على السواء، ويُجسّد رؤية خليجية للتعاون العابر للكتل الدولية دون ارتباطٍ بإيديولوجيا أو تحالفاتٍ صدامية.

### 3. من الأطراف إلى المركز: الخليج والبحر الأحمر كعقد عالمية

يشهد النظام البحري العالمي تحوُّلاً من تركيز الممرات في ممرات ضيقة إلى شبكة عقد مترابطة تشمل موانئ استراتيجية جديدة.

تُبرز هذه الموانئ تحوُّل الشرق الأوسط من هامشٍ للطريق التجاري العالمي إلى قلبٍ نابضٍ لحركته — منطقة لم تعد تُقاس بموقعها الجغرافي فحسب، بل بقدرتها على الربط بين قارات العالم الثلاث وتوجيه تدفقات التجارة والطاقة والبيانات.

#### الخريطة 8.5 — الممرات والموانئ الحيوية:

تُبرز الخريطة المرافقة النقاط التالية كمحاور رئيسية للتجارة العالمية: قناة السويس، مضيق هرمز، مضيق باب المندب، ميناء حيفا، ميناء الدقم، وميناء جوارر لتؤكد انتقال الشرق الأوسط من موقعٍ جغرافي استراتيجي إلى مركز عالمي للترابط الاقتصادي والبحري.



## رابعاً: الطاقة والجغرافيا الاقتصادية الجديدة

تطلّ الطاقة في الشرق الأوسط أكثر مصادر القوة والاستمرارية — وأيضاً المفارقة — وضوحاً.

فعلى الرغم من أن المحروقات (النفط والغاز) لا تزال العمود الفقري لاقتصادات المنطقة، إلا أن العالم يشهد اليوم تحوُّلاً جذرياً في منظومة الطاقة، يُعيد رسم أنماط الإنتاج والتحالفات وتوزيع الثروة التي شكّلت ملامح الشرق الأوسط منذ منتصف القرن العشرين.

### 1. من الوقود الأحفوري إلى الطاقة المتجددة

يتمثل التحوُّل الأبرز في الانتقال من الاعتماد على النفط والغاز إلى الطاقة المتجددة والهيدروجين الأخضر.

هذا الانتقال لا يقتصر على التقنية فقط، بل يُغيّر المنطق الجيوسياسي والاقتصادي للعلاقات الدولية: من علاقة “منتج-مستهلك” تقليدية إلى ترابط متبادل تحكمه التكنولوجيا والمعرفة (تاغليابيترا، 2023).

الشرق الأوسط، الذي طالما كان “خزان الطاقة العالمي”، يجد نفسه اليوم أمام خيارين تاريخيين:

إما أن يبقى مصدراً للمواد الخام في النظام القديم، أو أن يتحوّل إلى محركٍ للابتكار والتحول الطاقوي العالمي.

### 2. إعادة تشكيل الاقتصاد السياسي للطاقة

مع تسارع سياسات التحوُّل الأخضر في أوروبا وآسيا، أصبح من الضروري على دول المنطقة إعادة هيكلة اقتصاداتها، من خلال الاستثمار في الطاقة الشمسية والرياح والهيدروجين النظيف، إلى جانب تطوير شبكات النقل والتخزين العابرة للحدود.

ويؤدي هذا التحوُّل إلى إعادة ترتيب ميزان القوى داخل المنطقة نفسها:

- دولٌ كالسعودية والإمارات تتجه لتصبح قوى طاقة متعددة المصادر.
- في حين تسعى دول شمال إفريقيا (كمصر والمغرب) إلى تصدير الكهرباء الخضراء إلى أوروبا.



- أما دول شرق المتوسط، فتستثمر في الغاز الطبيعي بوصفه وقودًا انتقاليًا في مرحلة ما قبل التحول الكامل.

### 3. الطاقة كأداة لإعادة توزيع النفوذ

لم تعد الطاقة مجرد مصدر دخل، بل أصبحت أداة لإعادة تعريف التحالفات والسياسات الخارجية.

فمن خلال مشاريع الربط الكهربائي والأنابيب العابرة للقارات، تتداخل المصالح الاقتصادية مع الاعتبارات الأمنية والتكنولوجية، لتتحول الطاقة إلى لغة جديدة للدبلوماسية الإقليمية.

- تزايد حصة آسيا (وخاصة الصين والهند وكوريا الجنوبية) في واردات النفط والغاز.
- تراجع الاعتماد على الأسواق الأوروبية والأميركية تدريجيًا.
- ظهور صادرات الهيدروجين الأخضر من دول الخليج وشمال إفريقيا كمصدر جديد للطاقة النظيفة.

بهذا، لم تعد الطاقة مجرد ثروة طبيعية، بل أصبحت أداة لإعادة هندسة الاقتصاد السياسي الإقليمي — تُحوّل الشرق الأوسط من مورد للطاقة التقليدية إلى مركز عالمي للابتكار الطاقوي والربط الجغرافي الاقتصادي.

### أ. تنويع الطاقة والتحول نحو المستقبل

أدى السعي العالمي نحو الحياد الكربوني بحلول منتصف هذا القرن إلى تسريع وتيرة الاستثمار في الطاقة المتجددة والتقنيات النظيفة، وهو ما دفع دول الشرق الأوسط — خصوصًا في منطقة الخليج — إلى التعامل مع هذا التحول لا بوصفه تهديدًا، بل فرصة استراتيجية لإعادة صياغة هويتها الاقتصادية كمبتكرين للطاقة لا كمجرد مصدّرين لها.

#### 1. السعودية — من النفط إلى الهيدروجين الأخضر

تتضمن رؤية السعودية 2030 واحدة من أضخم مبادرات التحول الطاقوي في العالم: مشروع إنتاج الهيدروجين الأخضر في مدينة نيوم (شركة Green Hydrogen

Co)، الذي يهدف إلى جعل المملكة مركزًا عالميًا لتصدير وقود المستقبل، القائم على الطاقة الشمسية والرياح بدلاً من الوقود الأحفوري.

## 2. الإمارات — دبلوماسية المناخ والطاقة النظيفة

تُعد الإمارات من الرواد الإقليميين في الاستثمار الأخضر من خلال:

- مبادرة مصدر (Masdar) للطاقة النظيفة، واستضافتها لمؤتمر COP28 في دبي (2023)، ما عزز مكانتها كمحور رئيسي في الدبلوماسية المناخية العالمية.

تعمل الإمارات على تنويع مزيجها الطاقى عبر مشاريع في الطاقة الشمسية والنووية والهيدروجين، لتصبح نموذجًا لـ التحول المنظم من الريع النفطى إلى اقتصاد الكربون المنخفض.

## 3. المغرب ومصر — الجسر الإفريقى للطاقة المتجددة

برز كل من المغرب ومصر كقوتين صاعدتين في الطاقة الشمسية والرياح، من خلال مشاريع عملاقة مثل:

مجمع نور للطاقة الشمسية في ورزازات (المغرب)، ومزارع الرياح في خليج السويس (مصر). ويعمل البلدان على تصدير الكهرباء النظيفة إلى أوروبا عبر شبكات الربط الكهربائى المتوسطية، مما يجعلها حلقة وصل بين إفريقيا وأوروبا في سوق الطاقة الخضراء.

## 4. نحو نموذج "تعددية الطاقة"

يمثل هذا الاتجاه بروز نموذج جديد في الاقتصاد العالمى للطاقة، هو نموذج التعدد الطاقى (Energy Pluralism)، حيث يتعايش النفط والغاز والهيدروجين والطاقة المتجددة ضمن منظومة واحدة.

بهذا التحول، لم يعد الشرق الأوسط مجرد مركز لإنتاج الوقود الأحفوري، بل أصبح مختبرًا عالميًا لإعادة تشكيل النظام الطاقى — نظام يقوم على المرونة، الابتكار، والتكامل بين مصادر الطاقة في عالم يسعى إلى تحقيق التوازن بين النمو والحياد الكربونى.

## ب. صعود دبلوماسية الهيدروجين

يُعد الهيدروجين اليوم الحدود الجديدة في الجغرافيا السياسية للطاقة، إذ يتحول من وقود نظري إلى ركيزة استراتيجية في سباق التحول نحو اقتصاد خالٍ من الكربون. وتستثمر دول الخليج وشمال إفريقيا في هذا المجال لتصبح روادًا عالميين في إنتاج الهيدروجين الأخضر والأزرق، مستفيدة من مزاياها الطبيعية والبنية التحتية المتطورة للتصدير.

### 1. مزايا تنافسية طبيعية

تتمتع المنطقة بعوامل تجعلها في طليعة منتجي الهيدروجين عالميًا:

- إشعاع شمسي وفير يوفر طاقة رخيصة للتحليل الكهربائي.
- تكاليف إنتاج منخفضة مقارنةً بالمناطق الصناعية في أوروبا وآسيا.
- بنية تحتية قائمة من الموانئ وخطوط الأنابيب ومحطات التصدير.

هذه العوامل تجعل من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا مركزًا جغرافيًا مثاليًا لربط أسواق الطاقة القديمة بالاقتصاد الطاقى الجديد.

### 2. اتفاقيات تصدير طويلة الأجل

- الإمارات، السعودية، وسلطنة عُمان وقَّعت اتفاقيات تصدير طويلة الأمد مع اليابان وكوريا الجنوبية وألمانيا لتزويدها بالهيدروجين النظيف ومشتقاته (مثل الأمونيا الزرقاء والخضراء).
- مصر والمغرب يوجَّهان استراتيجياتهما نحو الأسواق الأوروبية عبر تصدير الأمونيا الخضراء وربط شبكات الغاز الحالية بخطوط نقل الهيدروجين.
- الأردن وإسرائيل تستكشفان مشاريع مشتركة لتبادل المياه والطاقة وفق نموذج “الماء مقابل الكهرباء”، الذي يوازن بين ندرة الموارد وحاجة الجانبين إلى الأمن الطاقى والمائي (IEA، 2024).

### 3.تحول في خريطة التحالفات

تُعيد هذه الاقتصادات الهيدروجينية الناشئة تشكيل أنماط التحالف الدولي: فبدلاً من تدفق النفط أحادي الاتجاه من الغرب إلى الشرق، سيصبح تدفق الطاقة متعدد الاتجاهات — حيث تُصدّر المنطقة الهيدروجين الأخضر إلى أوروبا وآسيا وتستورد التكنولوجيا والمعرفة من شركائها الصناعيين.

بهذا، تتحول دبلوماسية الطاقة من أداة للنفوذ الريعي إلى آلية للتكامل المناخي والتكنولوجي، تربط الشرق الأوسط بشبكات الاقتصاد العالمي منخفض الكربون.

### ج. الدول النفطية كمستثمرين عالميين

بينما تمضي اقتصادات الشرق الأوسط الغنية بالطاقة في التحول داخلياً نحو التنويع والاستدامة، فإنها في الوقت نفسه تُعيد توسيع نفوذها عالمياً عبر صناديقها السيادية للاستثمار (SWFs).

هذه الصناديق، التي تتجاوز أصولها مجتمعة أربعة تريليونات دولار أمريكي (IMF، 2024)، لم تعد تقتصر على الاستثمار في النفط والغاز، بل أصبحت مموّلاً رئيسياً لاقتصاد ما بعد الكربون تضخ رؤوس أموال ضخمة في الطاقة النظيفة، الذكاء الاصطناعي، والمعادن الحيوية.

#### 1.السعودية والإمارات — التمويل من أجل المستقبل

- صندوق الاستثمارات العامة السعودي (PIF) ومبادرة الإماراتية يستثمران في شركات ناشئة للطاقة المتجددة وصناعات المركبات الكهربائية في أوروبا وآسيا، ما يضع عاصمتي الخليج في موقع الممول العالمي للتحول الطاقوي.
- هيئة قطر للاستثمار (QIA) تركز على البنية التحتية للطاقة والأنظمة التقنية العالمية، مستثمرة في شبكات الكهرباء الذكية وشركات البطاريات.

#### 2.من تصدير الطاقة إلى استثمارها

يمثل هذا التحول مرحلة جديدة في دور دول الخليج: فهي لم تعد مجرد مصدرة للطاقة الخام، بل أصبحت مستثمرة في طاقة المستقبل.

وبذلك تغيّر موقعها في النظام الاقتصادي العالمي من متلقية للأسعار (Price Takers) إلى مُحدِّدة للأسواق والتكنولوجيا. (Capital Allocators)

هذا تحول هادئ لكنه حاسم يعيد صياغة موازين القوة الاقتصادية في القرن الحادي والعشرين.

## د. تلاقي الطاقة والتكنولوجيا والأمن

أصبحت الروابط المتزايدة بين أنظمة الطاقة والبنية الرقمية تطمس الحدود التقليدية بين الاقتصاد والأمن.

- شبكات الطاقة اليوم رقمية ومتصلة، ما يجعلها أكثر كفاءة — لكنها أيضًا أكثر عرضة للهجمات السيبرانية.
- التقنيات التي تعزز الكفاءة — مثل الشبكات الذكية والذكاء الاصطناعي والمراقبة بالأقمار الصناعية — تخلق في المقابل اعتمادًا على مزودي التكنولوجيا الأجانب.

على سبيل المثال، أثارت أنظمة الشبكات الذكية الصينية في الخليج نقاشات حول سيادة البيانات والمخاطر الاستراتيجية (Oxford Analytica، 2024).

في الوقت نفسه، أدى التحول نحو المركبات الكهربائية وتخزين البطاريات إلى إدخال المعادن الحيوية مثل الليثيوم والنيكل والكوبالت ضمن محافظ الاستثمار الشرق أوسطية، مما وسّع حضور المنطقة الاقتصادي إلى إفريقيا وأمريكا اللاتينية.

### 📄 الجدول 8.1 — الروابط الناشئة بين الطاقة والتكنولوجيا

الشركاء الرئيسيون	القطاع المحوري	الشراكات / الاتفاقيات	الدولة / الجهة
Air Products (الولايات المتحدة)، ACWA Power	الطاقة المتجددة والهيدروجين	مشروع نيوم للهيدروجين الأخضر	السعودية
Microsoft، Siemens	الذكاء الاصطناعي والشبكات الذكية	التعاون الرقمي بين مصدر وسيمنز	الإمارات

الشركاء الرئيسيون	القطاع المحوري	الشراكات / الاتفاقيات	الدولة / الجهة
Northvolt (السويد)، شركات الاتحاد الأوروبي	تقنيات البطاريات والتخزين	استثمار QIA في Northvolt	قطر
Mitsubishi (اليابان)، Adani (الهند)	الهيدروجين المتجدد	اتفاقيات تصدير الأمونيا الخضراء	عمان
Schneider، Huawei Electric	الطاقة الشمسية والأنظمة الذكية	مشروع بنبان + إدارة الشبكات بالذكاء الاصطناعي	مصر
Google DeepMind، شركات ناشئة محلية	أنظمة الطاقة الذكية	مختبرات دمج الطاقة والذكاء الاصطناعي	إسرائيل
الاتحاد الأوروبي، الولايات المتحدة، اليابان	المعادن والعناصر النادرة	تحالف المعادن الحيوية	المغرب
Siemens، Vestas Gamesa	طاقة الرياح والذكاء الاصطناعي	مزارع الرياح المدمجة تقنياً	تركيا

## هـ. الشرق الأوسط ودبلوماسية المناخ

من مؤتمرات المناخ إلى استراتيجيات التكيف، تعيد المنطقة صياغة دورها في حوكمة المناخ العالمية.

- استضافة مصر لمؤتمر COP27 (2022) والإمارات لمؤتمر COP28 (2023) أبرزت رغبة المنطقة في الانتقال من موقع التأخر البيئي إلى موقع القيادة السياسية للمناخ.
- إطلاق مبادرة الشرق الأوسط الأخضر بقيادة السعودية عكس إدراكاً متزايداً بأن الاستدامة أصبحت أداة جيوسياسية.

ورغم وجود شكوكٍ دولية حول عمق الالتزام البيئي، إلا أن الاتجاه العام واضح: الشرق الأوسط يسعى إلى تحويل المسؤولية البيئية إلى شرعيةٍ استراتيجية.

في عالم أصبحت فيه البصمة الكربونية عبئاً سياسياً، قد يصبح تصدير الطاقة النظيفة قريباً أسمى أشكال القوة الناعمة.

بهذا، تدخل المنطقة مرحلة جديدة من الريادة في التحول الطاقى والمناخى، حيث تتلاقى الاستثمارات السيادية، التكنولوجيا المتقدمة، والحوكمة البيئية لتعيد تعريف دور الشرق الأوسط كفاعل عالمي لا مجرد مسرح للتنافس الدولي.

**ب. تكتلات بريكس+ ومنظمة شنغهاي — صعود المنصات غير الغربية**

أدت توسعة تكتل بريكس (2023) -وازياد أهمية منظمة شنغهاي للتعاون (SCO) إلى إعادة رسم الخريطة الدبلوماسية للشرق الأوسط، مما منح دول المنطقة قنوات بديلة للتأثير والتعاون خارج الإطار الغربي التقليدي.

من خلال الانضمام إلى هذه المنصات، أرسلت الدول العربية والإقليمية إشارة واضحة إلى رغبتها في تحقيق استقلالية متعددة الأقطاب (Multipolar Autonomy)، والبحث عن التمويل، الأسواق، والتوازن السياسي عبر مؤسسات غير غربية (Stuenkel، 2023).

#### 1. توسّع بريكس+ وموقع الشرق الأوسط

- انضمت السعودية، مصر، إيران، والإمارات إلى تكتل بريكس+، لتصبح جزءاً من منظومة اقتصادية وسياسية تمثل أكثر من 40% من سكان العالم وقرابة ربع الناتج العالمي الإجمالي.
- يتيح هذا الانضمام الوصول إلى نماذج تمويل بديلة مثل بنك التنمية الجديد (New Development Bank)، الذي يوفّر قروضاً واستثمارات خارج منظومة صندوق النقد والبنك الدولي، ويشجع مشاريع البنية التحتية المستدامة والطاقة النظيفة في الجنوب العالمي.

#### 2. منظمة شنغهاي للتعاون — (SCO) نحو فضاء أوراسي موحد

- توسّعت المنظمة لتشمل إيران كعضو كامل العضوية وتركيا كشريك في الحوار والتعاون، ما يعزز الارتباط الجغرافي السياسي بين الشرق الأوسط وآسيا الوسطى.

- تساهم هذه العضوية في توسيع أطر مكافحة الإرهاب والتطرف، وتطوير ممرات النقل والتجارة الأوراسية التي تربط الصين بتركيا وإيران وصولاً إلى المتوسط.

### 3. الدبلوماسية المتوازنة والمرونة الاستراتيجية

تشير هذه الانضمامات إلى ظهور نظام دبلوماسي متعدد المسارات، يمنح دول الشرق الأوسط هامش مناورة أكبر في الساحة الدولية.

فبدل الارتهان الكامل للمؤسسات الغربية (WTO)، IMF، (World Bank)، توفر منصات مثل BRICS+ وSCO ما يمكن تسميته بـ “الازدواج الدبلوماسي” — (Diplomatic Redundancy) أي القدرة على التحرك بين الأنظمة الدولية المختلفة دون فقدان النفوذ.

وبذلك، تصبح المنطقة لاعباً متعدد الاتجاهات، قادراً على موازنة علاقاته مع الغرب، الصين، وروسيا، مع الحفاظ على استقلالية القرار الاقتصادي والسياسي.

### ج. أوبك+ ودبلوماسية الطاقة الجماعية

منذ تأسيسها عام 2016، مثلت منظمة أوبك+ التي تجمع بين أعضاء أوبك التقليديين ومنتجين من خارجها بقيادة روسيا نقلة نوعية في دبلوماسية الطاقة العالمية.

فمن خلال تنسيق الإنتاج بين الخليج وموسكو، أصبحت قرارات خفض أو زيادة الإمدادات تُتخذ جماعياً، مما منح دول الشرق الأوسط قدرة مباشرة على ضبط الأسعار العالمية (Tagliapietra، 2023).

### 1. هندسة السوق العالمية من الرياض وفيينا

- القرارات التي تُتخذ في الرياض أو فيينا أصبحت تُحرّك الأسواق العالمية لحظةً بلحظة، وهو ما يعكس مدى النفوذ الجديد الذي اكتسبته المنطقة.
- ورغم انتقادات الغرب لهذا التنسيق باعتباره "تلاعباً بالأسعار"، فإنه يُظهر نضوجاً استراتيجياً لدى المنتجين الإقليميين الذين تعلموا توظيف إدارة العرض الجماعي كأداة للاستقرار والمساومة السياسية.



## 2. من سوق النفط إلى دبلوماسية الطاقة

تحوّلت أوبك+ من مجرد منظمة إنتاج إلى منتدى للتنسيق الجيو-اقتصادي، يوازن بين مصالح المنتجين والمستهلكين، ويعزز مكانة الشرق الأوسط كمحور مركزي في منظومة الطاقة العالمية.

بهذا، أصبحت دبلوماسية الطاقة الجماعية أداة رئيسية لإعادة تعريف علاقة الشرق الأوسط بالاقتصاد العالمي، حيث يتحول النفط من مصدر اعتمادٍ خارجي إلى وسيلةٍ للنفوذ المتبادل والاستقرار العالمي.

## د. التحول الإنساني والوساطي في دبلوماسية الشرق الأوسط

إلى جانب سياسات الموارد والطاقة، برزت في السنوات الأخيرة مجموعة من الدول الشرق أوسطية بوصفها وسطاء إنسانيين ودبلوماسيين، تسعى إلى إعادة تعريف نفوذها عبر القوة الناعمة المبنية على العمل الإنساني والوساطة السياسية. ويعكس هذا الاتجاه ما يسميه الباحثون بـ "التوازن الناعم عبر الإحسان-Soft) (Balancing through Benevolence) أي توظيف العمل الإنساني والوساطة كأدوات لتوسيع النفوذ دون اللجوء إلى القوة العسكرية (Lynch، 2023).

## 1. قطر — الدبلوماسية عبر الحوار الإنساني

برزت دولة قطر خلال العقد الأخير كأبرز الوسطاء في النزاعات الإقليمية والدولية.

- أدّت دورًا رئيسيًا في تسهيل مفاوضات تبادل الأسرى والرهائن، سواء في أفغانستان أو غزة أو السودان.
- حافظت على قنوات اتصال مفتوحة مع أطراف متخاصمة — من الولايات المتحدة وإيران إلى حركة طالبان وحماس — مما جعل الدوحة مركزًا عالميًا للدبلوماسية غير الرسمية.
- وتستثمر قطر في هذه المكانة لتقدّم نفسها كدولة توازن بين الانفتاح والوساطة، مستفيدة من مواردها المالية وشبكة إعلامها الدولي (مثل قناة الجزيرة).

## 2. عُمان — المدرسة الصامته للوساطة

تمثل سلطنة عُمان نموذجًا فريدًا لـ "الوساطة الهادئة"، إذ تنتهج نهجًا بعيدًا عن الأضواء في إدارة النزاعات المعقدة.

- لعبت دورًا محوريًا في الاتصالات السرية بين طهران وواشنطن قبل توقيع الاتفاق النووي عام 2015.
- وتواصل اليوم تيسير الحوار الإقليمي بين إيران ودول الخليج، ولا سيما بعد الاتفاق السعودي-الإيراني الذي رعته الصين عام 2023.
- وبفضل حيادها التاريخي، أصبحت عُمان قناة ثقة إقليمية نادرة ومقرًا مفضلًا للمفاوضات الحساسة التي تتطلب بيئة آمنة وغير متحيزة.

## 3. الإمارات — القيادة الإنسانية العابرة للحدود

في المقابل، اعتمدت الإمارات العربية المتحدة على العمل الإنساني واسع النطاق لبناء سمعة دولية متنامية.

- تصدرت جهود الإغاثة وإعادة الإعمار في مناطق الأزمات مثل السودان واليمن وغزة.
- أسست صناديق تمويل للمساعدات والتنمية تعمل بالتعاون مع الأمم المتحدة والبنك الدولي.
- كما تستضيف مؤتمرات دولية متكررة حول الاستجابة الإنسانية والابتكار في المساعدات، مما جعل أبوظبي مركزًا إقليميًا للحكومة الإنسانية والتنسيق الدولي.

## 4. الدبلوماسية الإنسانية كرأس مال للسمعة

تحوّلت الدبلوماسية الإنسانية إلى أصلٍ رمزيٍّ مهم في السياسة الدولية، تستخدمه الدول لتعزيز شرعيتها في مواجهة الانتقادات المرتبطة بالحكم الداخلي. ففي حين تُنَّهَم بعض الأنظمة بالاستبداد أو تقييد الحريات، تُقدّم مساهماتها الإنسانية كدليل على المسؤولية الأخلاقية والتضامن العالمي.

كما تمنح هذه المقاربة طريقًا بديلًا للنفوذ، خصوصًا مع تراجع جاذبية المشاريع العسكرية أو الأيديولوجية في المنطقة.

## هـ. الأصوات الشرق أوسطية في صياغة القواعد العالمية

أصبح للشرق الأوسط حضوراً متزايداً في النقاشات المعيارية العالمية حول حوكمة التكنولوجيا، والهجرة، والحقوق الرقمية، بما يعكس انتقال المنطقة من موقع المتلقي إلى موقع المشارك في تحديد معايير المستقبل.

- الإمارات العربية المتحدة تتأهّل لفرق عمل تابعة للأمم المتحدة حول أخلاقيات الذكاء الاصطناعي والتنمية المستدامة، وتدفع باتجاه إطار دولي يوازن بين الابتكار والمسؤولية الأخلاقية.
- مصر والأردن يشركان في تطوير أطر حوكمة الهجرة ضمن الاتفاق العالمي للاجئين، مساهمين في بلورة سياسات أكثر إنسانية تجاه النزوح والتهجير القسري.
- السعودية باستضافتها القمة العالمية للذكاء الاصطناعي (2024) تؤكد طموحها لتصبح مركزاً مؤثراً في وضع القواعد والمعايير الدولية في مجالات أخلاقيات البيانات والابتكار التقني (OECD)، 2024).

إن هذا الحضور النشط يعكس فهماً استراتيجياً جديداً: فالتأثير في القرن الحادي والعشرين لم يعد نابغاً من كسر القواعد، بل من صناعتها. أصبحت المعايير والقوانين الدولية ساحة النفوذ الجديدة، ومن خلالها تسعى دول الشرق الأوسط إلى تحويل الخبرة التقنية والاقتصادية إلى نفوذ معياري عالمي.

### و. من التبعية إلى المشاركة في التصميم

ربما يُعدّ أهم تحول في الدبلوماسية الشرق أوسطية تحولاً نفسياً ومفاهيمياً قبل أن يكون مؤسساتياً— تحولاً من السعي إلى الإدماج ضمن النظام الدولي، إلى المشاركة في تصميمه.

لم تعد دول المنطقة تكتفي بردّ الفعل على المبادرات العالمية، بل باتت تطرح مبادراتها الخاصة وتسعى لتشكيل الأجندة الدولية:

- مبادرة الشرق الأوسط الأخضر (السعودية) — إطار إقليمي للحد من الانبعاثات وتعزيز الاستدامة.

- **شراكات البوابة العالمية (Global Gateway)** بين الإمارات والاتحاد الأوروبي — نموذج للتكامل بين رأس المال الخليجي والتكنولوجيا الأوروبية.
- **ممر الهند-الشرق الأوسط-أوروبا — (IMEC)** مشروع يربط جنوب آسيا بالمتوسط عبر البنية التحتية والطاقة الرقمية.

هذه المبادرات لا تُنهي التبعية البنوية، لكنها تُدخل منطق الشراكة في التصميم، حيث تتحول المنطقة من طرفٍ متلقٍ إلى شريكٍ مصمّم في بناء النظام العالمي الجديد، أي من الهامش إلى المشاركة في الهندسة الكبرى للعلامة القادمة.

## الشرق الأوسط وتغيّر موازين القوى العالمية

يقف الشرق الأوسط في القرن الحادي والعشرين عند نقطة التقاء نظامين عالميين:

- النظام الأطلسي القائم على الهيمنة الأميركية،
- والنظام الأوراسي الذي يتشكل حول الفاعلية الاستراتيجية للصين وروسيا والهند.

ومع تزايد توزع القوة العالمية وتفكك المركز الواحد، تحوّل الإقليم من تابعٍ أمنيٍ سلبيٍ إلى وسيطٍ نشطٍ يدير تحالفات متقاطعة وشراكاتٍ مرنة تجمع بين البراغمية والغموض الاستراتيجي (Fawcett & Acharya، 2023).

### أ. تراجع الهيمنة الأميركية

رغم أن الولايات المتحدة لا تزال الفاعل الخارجي الأقوى في الشرق الأوسط، فإن نفوذها الفعلي والإداري قد تراجع خلال العقدين الماضيين.

- بعد عقودٍ من التدخلات العسكرية المكلفة — العراق (2003)، ليبيا (2011)، وسوريا — (2014) انتقلت واشنطن إلى عقيدة الانكفاء النسبي (Retrenchment) القائمة على تقاسم الأعباء والتموضع من الخارج (Walt (Offshore Balancing، 2018).
- وأصبحت التحالفات الخليجية، التي كانت تعتمد كليًا على الضمانات الأمنية الأميركية، تنتظر اليوم إلى هذا الالتزام على أنه مشروطٌ ومصليحي.

- عزّزت الانسحابات الأميركية من أفغانستان (2021) ، وتراجع الانخراط في سوريا، والمواقف المتذبذبة خلال أزمات ك غزة (2023-2024) هذا الشعور بأن واشنطن لم تعد الضامن المطلق للاستقرار الإقليمي.

نتيجة لذلك، اتجهت عواصم الشرق الأوسط نحو تنويع استراتيجياتها، ليس بالانفصال عن التحالف الأميركي، بل بإعادة معايرته ضمن معادلة تعددية الأقطاب.

ومع هذا التحول، انتقل الإقليم من مرحلة الاعتماد الكامل على القوة الواحدة إلى مرحلة التوازن بين القوى الكبرى، حيث أصبح الشرق الأوسط لاعباً مركزياً في لعبة إعادة توزيع النفوذ العالمي.

## ب. عودة روسيا وصعود القوى الأوراسية

مثّلت التدخلات الروسية في سوريا عام 2015 نقطة تحوّل مفصلية في المشهد الجيوسياسي للشرق الأوسط، إذ شكّلت أكبر عودة لقوة عظمى إلى المنطقة منذ الحرب الباردة.

من خلال مزيج من الوجود العسكري، وصفقات السلاح، والمرونة الدبلوماسية، تمكّنت موسكو من إعادة ترسيخ مكانتها ك بديلٍ براغماتي للتدخل الغربي التقليدي (Trenin، 2024).

### 1. أدوات النفوذ الروسي

اتبعت روسيا مقاربة مركّبة تجمع بين الصلابة العسكرية والمرونة السياسية:

- عزّزت وجودها عبر قواعد دائمة في طرطوس وحميميم على الساحل السوري، مما منحها نقطة ارتكاز استراتيجية على البحر المتوسط للمرة الأولى منذ انهيار الاتحاد السوفيتي.
- وقّعت عقوداً للطاقة النووية مع مصر والجزائر، ضمن سياسة توسيع النفوذ التكنولوجي عبر "الدبلوماسية النووية المدنية".
- وسّعت صادراتها العسكرية إلى إيران وبعض دول الخليج الساعية لتنويع مصادر التسلح بعيداً عن الاحتكار الغربي.

هذه التحركات مكّنت روسيا من أن تصبح فاعلاً لا يمكن تجاوزه في معادلة الأمن الإقليمي، خصوصاً في ظل تراجع التدخل الأميركي وتردد القوى الأوروبية في الانخراط الميداني.

## 2. المرونة الدبلوماسية تحت الضغط

رغم القيود التي فرضتها حرب أوكرانيا (2022-) والعقوبات الغربية الواسعة، فقد أظهرت موسكو قدرة استثنائية على الحفاظ على حضورها في الشرق الأوسط.

- استعادت موقعها كـ "موازن اضطراري (Spoiler and Stabilizer)"،
- تتدخل لإعادة ضبط التوازنات دون التورط في مشاريع توسعية مباشرة.
- وتحوّلت إلى وسيطٍ غير أيديولوجي في قضايا تتردد فيها القوى الأخرى، مثل الحوار بين دمشق وأنقرة، والتنسيق مع تل أبيب في الأجواء السورية، والتفاهات التكتيكية مع إيران وتركيا في ملفات ليبيا والقوفاز.

بهذا الأسلوب، رسّخت روسيا سمعتها كقوة حاضرة ومستقرة رغم العزلة الغربية، مُقدّمة نموذجاً جديداً لـ "القوة المثابرة (Resilient Power)" التي تستخدم أدوات محدودة بفعالية عالية.

رغم الضغوط والعزلة، نجحت روسيا في أن تحافظ على موقعها كقوة "ضامنة للفوضى المنظمة" في الشرق الأوسط — لا تُهيمن كما في الماضي، لكنها تُوازن وتُناور بذكاء، لتظل أحد الأعمدة الأساسية في النظام العالمي المتعدد الأقطاب.

## ج. التقدّم الجيو-اقتصادي الصيني

يمثّل صعود الصين التحوّل الأكثر عمقاً واستمرارية في علاقات الشرق الأوسط الخارجية خلال القرن الحادي والعشرين. فبدافع من حاجتها للطاقة، وتوسّعها في تصدير التكنولوجيا، وتمويلها للبنية التحتية، أصبحت بكين أكبر شريك تجاري لغالبية اقتصادات المنطقة، متجاوزة الولايات المتحدة في حجم المبادلات والتدفقات الاستثمارية (Kinninmont, 2024).

## 1. القوة الاقتصادية بدل القوة العسكرية

تستند الاستراتيجية الصينية في الشرق الأوسط إلى الدبلوماسية الاقتصادية لا إلى الوجود العسكري. تعتمد بكين على مزيج من:

- القروض طويلة الأمد،
- عقود البناء الكبرى،
- الشراكات الرقمية ضمن إطار مبادرة الحزام والطريق (Belt and Road Initiative – BRI).

تركّز الصين على بناء الاعتماد المتبادل البّناء بدل فرض النفوذ القسري. فهي تسعى إلى الربط الجغرافي والتكنولوجي أكثر من السيطرة، وتقدّم نفسها كقوة تسعى إلى الاستقرار عبر التنمية لا عبر التدخل العسكري.

## 2. الحياد المترسّخ: سياسة "الارتباط المتوازن"

تُجسّد المشاركة الصينية ما يُعرف بـ "الحياد المتجذّر (Embedded Neutrality)" — حيث تحافظ بكين على علاقات متوازنة مع إيران والسعودية في آنٍ واحد، بل لعبت دورًا مباشرًا في الوساطة بينهما عام 2023، ما عزّز صورتها كقوة موثوقة قادرة على بناء الجسور بين الخصوم الإقليميين.

هذا النهج سمح للصين بأن تُقدّم نفسها كبدلٍ غير أيديولوجي للقوى الغربية التي غالبًا ما تُفحم شروطًا سياسية في شراكاتها.

## 3. الأثر الهيكلي في اقتصادات المنطقة

من خلال تمويل الموانئ والطرق والمناطق الصناعية، باتت الصين تملك بصمة جيوا-اقتصادية متنامية تمتد من سلطنة عُمان (ميناء الدقم) إلى المنطقة الاقتصادية بقناة السويس في مصر، ومن مشروعات الطاقة في السعودية والعراق إلى شبكات الاتصالات والذكاء الاصطناعي في الإمارات وقطر.

تُظهر هذه المشاريع أن بكين تُعيد رسم خريطة الاعتماد الاقتصادي للشرق الأوسط لتتحول المنطقة من هامشٍ في الاقتصاد الغربي إلى حلقة رئيسية في الاقتصاد الأوراسي الصاعد.

## الرسم البياني 8.9 — البصمة التجارية والاستثمارية الصينية (2010-2025):

يعرض حجم التجارة الثنائية، وعدد مشروعات البنية التحتية، واستثمارات الصين في الاقتصاد الرقمي والطاقة النظيفة عبر المنطقة. ويُبرز كيف تحوّلت الصين من مستهلك للنفط الشرق أوسطي إلى مُهندسٍ لشبكات التنمية الإقليمية.

إن صعود الصين في الشرق الأوسط لا يقوم على الغزو أو الإملاء، بل على تطبيع الاعتماد المتبادل، حيث تُترجم التنمية إلى نفوذٍ مستدام، وتُصبح الممرات التجارية والرقمية أدوات القوة الجديدة في عالمٍ تتراجع فيه الهيمنة الأحادية.

### د. الجناح الغربي للهند ودخولها الاستراتيجي إلى الشرق الأوسط

يشكّل صعود الهند كقوة عالمية صاعدة أحد التحولات الأكثر وضوحًا في الجغرافيا السياسية والاقتصادية للشرق الأوسط خلال العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين. فمع توسّع حضورها في الخليج وشرق أفريقيا، أصبحت الهند فاعلاً متجذراً في البنية الاقتصادية للمنطقة، ولم يعد ارتباطها بها مجرد علاقة تجارةٍ أو عمالة، بل شراكة استراتيجية عابرة للقارات.

#### 1. الروابط السكانية والاقتصادية العميقة

يُقيم ما يقارب تسعة ملايين هندي في دول مجلس التعاون الخليجي، مما يجعل الجالية الهندية أكبر جالية أجنبية في المنطقة، ومصدرًا رئيسيًا للتحويلات المالية ولرأس المال البشري المتخصص.

وقد تجاوز حجم التجارة بين الهند ودول الخليج حاجز 200 مليار دولار في عام 2024 (صندوق النقد الدولي، 2025)، لتصبح دول الخليج ثاني أكبر شريك تجاري للهند بعد جنوب شرق آسيا.

تغطي هذه العلاقات قطاعاتٍ متعددة: الطاقة، الغذاء، الخدمات اللوجستية، والابتكار الرقمي، ما يجعلها نموذجًا للتكامل الاقتصادي المتبادل بين الجنوبيين الآسيوي والعربي.



## 2. ممر الهند-الشرق الأوسط-أوروبا: (IMEC) الجسر الجيو-اقتصادي الجديد

جاء إطلاق ممر الهند-الشرق الأوسط-أوروبا (IMEC) عام 2023 ليُكرّس هذا الارتباط رسمياً، ويحوّل الهند إلى الركيزة الغربية لقوسٍ عابرٍ للقارات يربط آسيا بأوروبا عبر الخليج.

فالمشروع يدمج السكك الحديدية والموانئ وشبكات الطاقة والاتصالات من مومباي إلى حيفا مروراً بالإمارات والسعودية والأردن، ويُعدّ الردّ الغربي المتوازن على مبادرة الحزام والطريق الصينية.

يمثل هذا الممر نقلة نوعية في التفكير الهندي: من الاكتفاء بالتجارة إلى المشاركة في تصميم البنية الجيو-اقتصادية للعالم، بما يعزز حضورها كقوةٍ توصيليةٍ بين المحيط الهندي والبحر المتوسط.

## 3. نموذج الشراكة الهندي: القطاع الخاص والابتكار بدل القروض

يختلف النهج الهندي عن النموذج الصيني القائم على التمويل الحكومي الضخم. فنيودلهي تعتمد على:

- استثمارات القطاع الخاص في النقل والطاقة.
- شراكات في التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي مع دول الخليج.
- منصات رقمية مشتركة تسهّل التجارة والخدمات عبر الحدود.

يرتكز هذا النموذج على الروابط الثقافية والشتات الهندي في المنطقة، الذي يعمل كجسرٍ بشري واقتصادي بين القارتين.

الهند، عبر هذا المسار، لا تسعى إلى الهيمنة بل إلى "الاندماج من خلال الكفاءة —" تُقدّم بديلاً يقوم على التنمية المشتركة والمصالح المتبادلة بدلاً من القروض المشروطة أو النفوذ العسكري.

إن دخول الهند إلى الشرق الأوسط لم يعد خطوة اقتصادية فحسب، بل تحوّل استراتيجي يعيد رسم التوازن بين آسيا والعالم العربي، حيث تتحوّل الجاليات والابتكارات إلى أدواتٍ للقوة الناعمة والاستقرار المشترك.

## هـ. إعادة الانخراط الاستراتيجي الأوروبي

بعد سنواتٍ من التهميش النسبي، بدأت الاتحاد الأوروبي يستعيد حضوره في الشرق الأوسط ولكن بنهجٍ حذرٍ ومتدرّجٍ، يركز على تنويع مصادر الطاقة والدبلوماسية المناخية بدل الأدوات العسكرية.

### 1. الطاقة كدافعٍ للعودة

أدت حرب أوكرانيا (2022) إلى أزمةٍ حادةٍ في أمن الطاقة الأوروبي، دفعت الاتحاد الأوروبي إلى البحث عن بدائل عاجلة للغاز الروسي. هذا التحول جعل من الجزائر وقطر ومصر موردين استراتيجيين رئيسيين، وارتفع دور شمال أفريقيا والشرق الأوسط في تأمين احتياجات أوروبا من الغاز الطبيعي والغاز المسال (LNG).

في الوقت نفسه، تسعى بروكسل إلى تنويع خطوط الإمداد من خلال مشروعات الربط عبر المتوسط ومبادرات الطاقة النظيفة، ضمن رؤية أوروبية أوسع لأمن الطاقة المستدامة.

### 2. مبادرة البوابة العالمية (Global Gateway)

تُعدّ مبادرة البوابة العالمية، التي أطلقها الاتحاد الأوروبي عام 2024، ردًا استراتيجيًا على مبادرة الحزام والطريق الصينية (BRI) وتهدف إلى تمويل مشروعات البنية التحتية الخضراء والمستدامة في المتوسط والقرن الأفريقي، بما يشمل شبكات النقل والطاقة والاتصال الرقمي.

تركّز أوروبا على الاستدامة والحوكمة الرشيدة، وترتبط استثماراتها بمعايير الشفافية، وحماية البيئة، وحقوق الإنسان، ما يجعل نفوذها قائمًا على القيم والمعايير التنظيمية لا على القوة الصلبة.

### 3. حدود التأثير الأوروبي

ورغم هذا الانخراط المتجدد، يظل تأثير أوروبا محدودًا بسبب:

- الانقسامات الداخلية بين الدول الأعضاء.
- ضعف القدرات الدفاعية الموحدة.

- واعتمادها على الأدوات الدبلوماسية والتنظيمية بدل النفوذ العسكري المباشر.

لذلك، تبقى قوة أوروبا في الشرق الأوسط “معارية” أكثر من كونها “قسرية”، تركّز على المعايير المناخية، وسياسات الطاقة، والتنمية المستدامة بوصفها أدوات للنفوذ الأخلاقي والتنظيمي.

### 📄 الجدول 8.3 — شراكات الطاقة بين أوروبا ومنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: (2020–2025)

الدولة الشريكة	الشركاء الأوروبيون الرئيسيون	مجالات التعاون	القيمة / الإنتاج (التقديري-2020-2025)
الجزائر	إيطاليا (ENI)، إسبانيا (Naturgy)	الغاز الطبيعي، الغاز المسال	أكثر من 30 مليار يورو؛ توسيع خطوط Medgaz و TransMed
مصر	فرنسا، اليونان، إيطاليا	صادرات الغاز المسال، الهيدروجين الأخضر	صادرات الغاز بلغت نحو 7 ملايين طن سنوياً بحلول 2025
المغرب	ألمانيا، فرنسا	الطاقة الشمسية، الرياح، الهيدروجين	استثمار بقيمة 2 مليار يورو في مجمع "نور" وتجريبية للهيدروجين
تونس	إيطاليا (Terna)	الربط الكهربائي، المزارع الشمسية	مشروع ربط كهربائي بقيمة 850 مليون يورو قيد التنفيذ
ليبيا	إيطاليا (ENI)، فرنسا (TotalEnergies)	إنتاج الهيدروكربونات	تعافٍ تدريجي حتى 1.2 مليون برميل يومياً (2024)
السعودية	ألمانيا، المملكة المتحدة، هولندا	صادرات الهيدروجين من نيوم، الوقود المتجدد	10 مشاريع بقيمة مليارات يورو تستهدف السوق الأوروبية

القيمة / الإنتاج (التقديري-2020 2025)	مجالات التعاون	الشركاء الأوروبيون الرئيسيون	الدولة الشريكة
استثمارات مشتركة بقيمة 5 مليارات يورو (Masdar-BP ADNOC-Total)	التكنولوجيا النظيفة، وقود الطيران المستدام	فرنسا، المملكة المتحدة، إسبانيا	الإمارات
عقود طويلة الأجل تتجاوز 25 مليار م <sup>3</sup> سنوياً بحلول 2025	تنويع إمدادات الغاز المسال	ألمانيا، فرنسا، إيطاليا	قطر
مذكرات تفاهم لتصدير الهيدروجين عبر مركز "الدقم"	الهيدروجين الأخضر والنقل البحري	هولندا، بلجيكا	عمان
مشروع أنابيب بقيمة 6 مليارات يورو لربط الغاز الأوروبي	ممرات تصدير الغاز	اليونان، قبرص، إيطاليا (EastMed)	إسرائيل

## و. القوى المتوسطة والشرق الأوسط المتعدد الأقطاب

برزت مجموعة من القوى الإقليمية — تركيا، السعودية، الإمارات، إيران، وإسرائيل كمحركات رئيسية في النظام الإقليمي الجديد، تستفيد من تحوّل موازين القوى العالمية لتوسيع استقلالها الاستراتيجي.

هذه الدول باتت تُعرف بـ "دول التوازن المتأرجح (Swing States)"، إذ تنتقل بين القوى الكبرى دون التزامٍ مطلق بأي محور.

- تركيا تجمع بين عضويتها في الناتو وتنسيقها الدفاعي مع روسيا.
- السعودية تنضم إلى تجمع BRICS+ مع الحفاظ على شراكتها الأمنية مع الولايات المتحدة.
- الإمارات تستثمر في التكنولوجيا الصينية بينما تستضيف قوات غربية على أراضيها.

- إسرائيل تعمّق تطبيعها مع الخليج وتتعاون في الذكاء الاصطناعي والدفاع مع أوروبا والولايات المتحدة.

هذا النمط من “الازدواجية الاستراتيجية”(Strategic Ambidexterity) ” حوّل الشرق الأوسط إلى أحد أكثر مختبرات التعايش المتعدد الأقطاب تعقيداً في العالم (Lynch، 2023).

## ز. المرونة الدبلوماسية والنظام المعاملي

يتبلور في الأفق نظام إقليمي جديد يمكن وصفه بـ “التعددية المعاملية” (Transactional Multipolarity)، حيث تُبنى التحالفات على الفرص والمصالح القطاعية لا على الأيديولوجيا أو الانتماء الثابت.

- الطاقة مع الصين،
- الدفاع مع الولايات المتحدة،
- التجارة مع الهند،
- الوساطة والدبلوماسية الإنسانية مع أوروبا.

هذا التنوع يُقلّل من التبعية لكنه يزيد من تعقيد المشهد: فعدد الشركاء في المنطقة لم يكن يوماً أكبر، لكن مرتكزات الاستقرار أقل وضوحاً من أي وقتٍ مضى.

## السيناريوهات والآفاق الاستراتيجية(2030)

مع استمرار تحوّل النظام العالمي نحو التعددية القطبية، تدخل منطقة الشرق الأوسط عقداً حاسماً سيحدد موقعها في النظام الدولي الجديد. فالخيار بين القدرة على التكيف أو الركود المؤسسي سيحسم ما إذا كانت المنطقة ستتمكن من توظيف مزاياها الاستراتيجية أو ستبقى عالقة في دوامة التبعية الدورية.

وتعرض هذه الفقرة ثلاثة سيناريوهات محتملة لمستقبل المنطقة بحلول عام 2030 —تتراوح بين الاستمرار في التجزئة، والبراغماتية المنسقة، والتكامل الاستراتيجي — لكل منها ملامح مختلفة من حيث القيادة، والتعاون، والانخراط الخارجي (Lynch، 2023؛ Fawcett، 2022).

## أ. السيناريو الأول — استمرار التجزئة: منطقة التنافسات المتواصلة

في هذا المسار، تبقى الأنماط الراهنة على حالها دون تحوّل جوهري. المصالح الوطنية تظلّ تتفوّق على الأولويات الإقليمية، ويستمر انعدام الثقة الأيديولوجي، ولا تنشأ أي مؤسسات تكاملية قادرة على تجاوز التباينات.

### 1. المشهد السياسي والأمني

تستمر المنطقة منقسمة إلى كتلتين متنافستين:

- محور الخليج مقابل إيران،
- ومحور تركيا مقابل مصر،
- ومحور إسرائيل مقابل الدول غير المطبّعة.

تتجدّد النزاعات بالوكالة بشكلٍ دوري، وتبقى المبادرات الدبلوماسية ردّ فعلٍ للأزمات لا أدواتٍ لصناعة التوازن.

### 2. الانعكاسات الاقتصادية

- تجنّد التجارة البينية عند حدود 10% من إجمالي التجارة الإقليمية.
- انتقال الطاقة نحو المصادر المتجددة يسير بشكلٍ غير متوازن بين الدول الغنية والفقيرة.
- الاعتماد على الأسواق الخارجية يزداد، بينما تغيب سياسات تنويع اقتصادية فاعلة (IMF، 2025).

تستغل القوى الكبرى هذا الوضع عبر تحالفات انتقائية وصفقات تسليح متبادلة تعيد إنتاج التبعية الاستراتيجية.

### 3. السيادة الرقمية والاختلال التكنولوجي

تظل السيادة الرقمية منقسمة، حيث تُدار البنى التحتية التكنولوجية عبر أنظمةٍ موازية:

- بنى أميركية،
- وأخرى صينية،
- وثالثة روسية.

هذا التعدد يزيد من التشردم التكنولوجي ويُضعف التكامل الرقمي الإقليمي، في حين يرسّخ التنافس بين الشركاء الخارجيين داخل المنطقة نفسها.

#### 4. النتيجة العامة: استقرار فوضوي

ينتج عن هذا السيناريو "نظام اضطراب مستقر— (Stable Disorder)" حالة من الأزمات القابلة للإدارة دون حلولٍ دائمة، تسمح بالاستمرار لكنها تمنع التقدّم المؤسسي أو بناء رؤية مشتركة.

يبقى الشرق الأوسط في هذا الإطار منطقةً تتفاعل مع التحولات العالمية دون أن تسهم في صياغتها، ويظلّ تابعاً في النظام المتعدد الأقطاب بدل أن يكون أحد مهندسيه.

#### ب. السيناريو الثاني — البراغماتية المنسّقة: التعاون الوظيفي في ظل التنافس

يُعد هذا السيناريو الأكثر احتمالاً على المدى المتوسط، إذ تسعى الحكومات فيه إلى التقارب العملي في القضايا المشتركة — مثل لوجستيات التجارة، وانتقال الطاقة، والتكيف المناخي — من دون الانخراط في مشاريع اندماج سياسي عميق أو اتحادات مؤسسية صلبة.

يبقى التنافس الإقليمي قائماً، لكنه يُدار هذه المرة عبر التعاون الانتقائي بدلاً من المواجهة المفتوحة.

#### 1. دوافع المسار

تتقدم موجة جديدة من الترابط الإقليمي الوظيفي مدفوعة بثلاثة محركات رئيسية:

- توسّع مشاريع الربط الاقتصادي مثل ممر الهند-الشرق الأوسط-أوروبا (IMEC) ودمج بعض الدول في مبادرة الحزام والطريق (BRI)
- الالتزامات المناخية المتنامية، بما في ذلك مبادرة الشرق الأوسط الأخضر ومتابعة تنفيذ مخرجات قمم المناخ (COP)
- التحالفات التقنية بين العواصم الخليجية من جهة، والهند وشرق آسيا من جهة أخرى، في مجالات الذكاء الاصطناعي، والطاقة النظيفة، والبنية الرقمية.

## 2. ملامح النموذج الناتج

يتحول الشرق الأوسط تدريجيًا إلى اقتصادٍ شبكيٍّ مترابط، تتعايش فيه مراكز قوى سياسية متنافسة ضمن إطار وظيفي للتكامل الاقتصادي يقوم على المنفعة المتبادلة لا على الولاءات الأيديولوجية.

- تنشأ أنماط اعتماد متبادل في الطاقة والنقل والبيئة.
- وتصبح الملكيات الخليجية بمثابة الوسيط الاقتصادي الرئيسيين بين الشرق والغرب، مستفيدة من موقعها الجغرافي وثروتها المالية وقدرتها على الاستثمار في البنية التحتية العابرة للحدود.

هذا النموذج لا يلغي التنافس، بل يعيد تعريفه كحافزٍ للتنمية والتوازن، حيث تتقدم المشاريع التكاملية من أسفل إلى أعلى — من السوق إلى السياسة، لا العكس.

## 3. النتائج المتوقعة

- تراجع التوترات الحادة دون اختفائها الكامل.
- تحقيق نموٍ متدرجٍ في التجارة الإقليمية بفضل التكامل اللوجستي.
- تحسّن الاستقرار المناخي والتنموي عبر التعاون في إدارة الموارد.

يُشبه هذا المسار نموذج الآسيان (ASEAN) في جنوب شرق آسيا — أي تكاملٍ اقتصادي مرنٍ بحدٍ أدنى من التسييس، أو ما يُعرف اختصارًا بـ "البراغماتية القصوى، والسياسة الدنيا" (Beeson، 2021).

## ج. السيناريو الثالث — التكامل الاستراتيجي: مجتمع الشرق الأوسط الاقتصادي (MEEC+)

يُعدّ هذا السيناريو الأكثر طموحًا لكنه الأقل احتمالًا على المدى القريب، حيث يتخيّل نشوء مجتمع اقتصادي شرق أوسطي موسّع (MEEC+) عبر عملية تدريجية من التناغم المؤسسي والاقتصادي، تستلهم تجارب التكامل الأوروبية والآسيوية الناجحة.



## 1. ملامح النموذج المقترح

يهدف هذا المجتمع الإقليمي إلى تحويل التعاون المؤقت إلى مؤسسات دائمة من خلال مراحل متتابعة من التوحيد في المجالات التالية:

- التكامل في البنية التحتية والشبكات الرقمية:  
ربط الممرات العربية-الشامية-الخليجية بشبكات نقلٍ وطاقة واتصال موحدة تخدم المنطقة كلها.
- إنشاء بنك إقليمي للاستثمار والتنمية المستدامة:  
يمول مشروعات التكنولوجيا الخضراء والتحول الرقمي والطاقة المتجددة.
- تأسيس اتحاد للطاقة يربط صادرات الهيدروجين والطاقة الشمسية والرياح ضمن منظومة تبادلٍ مشترك بين الدول المنتجة والمستهلكة.
- إرساء إطار للحوار الأمني الإقليمي قائم على مبادئ عدم الاعتداء وبناء الثقة، تمهيداً لخلق بيئة استقرار تسمح بالتكامل الاقتصادي العميق.

## 2. النتيجة المتوقعة

يؤدي تطبيق هذا السيناريو إلى تحول الشرق الأوسط من هامش استهلاكي في الاقتصاد العالمي إلى مركز إنتاج ولوجستي متكامل — قطب ثالث بين القوى الأطلسية (الولايات المتحدة وأوروبا) والقوى الأوراسية (الصين وروسيا والهند).

وبحلول عام 2030:

- يتجاوز الناتج المحلي الإجمالي الإقليمي 6 تريليونات دولار.
- ترتفع نسبة التجارة البينية إلى أكثر من 25 % من إجمالي الصادرات.
- تشكل الطاقة المتجددة والهيدروجين ما يقارب 20% من الصادرات الكلية (World Bank، 2025).

## 3. دلالة المسار

يمثل هذا السيناريو التحول البنوي الأعمق في تاريخ المنطقة الحديثة — فهو لا يكتفي بإدارة الخلافات أو تحسين البنية التحتية، بل يسعى إلى تأسيس هوية اقتصادية مشتركة تحول الجغرافيا إلى قوة تكاملية والتنوع السياسي إلى مصدر توازنٍ وظيفي.

يصبح التكامل هنا أداة للسيادة، حيث لا تُمحى الحدود بل تُنظَّم المصالح عبرها، ليتحوّل الشرق الأوسط من هامشٍ تابعٍ إلى فاعلٍ مشاركٍ في تصميم النظام العالمي الجديد.

سيناريو يُظهر خريطة لمرات النقل والطاقة المشتركة، وشبكات الهيدروجين والرقمنة عبر الخليج والشرق والمغرب، إضافةً إلى الهيكل المؤسسي المقترح للبنك الإقليمي واتحاد الطاقة.

### Map 8.8 — The MEEC+ Vision

Concentric zones of cooperation across infrastructure, energy, education, and security



INFRASTRUCTURE      EDUCATION  
ENERGY      SECURITY

## التحديات المتوقعة:

بغض النظر عن السيناريو المختار، هناك عوامل بنيوية ستحدد مسار النتائج المستقبلية:

### 1. العامل الديموغرافي.

من المتوقع أن يتجاوز عدد الشباب في العالم العربي 300 مليون نسمة بحلول عام 2030، وهو ما سيشكل ضغطاً هائلاً على أسواق العمل ونظم الحكم والخدمات الاجتماعية.

ستصبح قدرة الدول على تحويل هذا الزخم البشري إلى طاقة إنتاجية، وليس إلى بطالة أو هجرة، العامل الحاسم في استقرارها الاقتصادي والسياسي.

### 2. الإجهاد المناخي.

ارتفاع درجات الحرارة، وشح المياه، وتزايد موجات النزوح البيئي سيختبر قدرة المؤسسات الحكومية على الصمود والتكيف. فالمناخ لم يعد مسألة بيئية فحسب، بل عاملاً وجودياً يعيد رسم خرائط السكن والاقتصاد والسياسة.

### 3. السيطرة الرقمية.

ستواجه المنطقة معضلة متزايدة بين تشجيع الابتكار التكنولوجي وفرض السيادة السيبرانية على فضاء الإنترنت. القدرة على تحقيق توازن بين حرية المعرفة وأمن الدولة ستحدد ما إذا كانت التكنولوجيا أداة تمكين للمجتمعات أم وسيلة جديدة لترسيخ السلطوية.

### 4. التوازن الخارجي.

سيبقى مستقبل المنطقة مرهوناً بقدرتها على التفاعل مع القوى الكبرى دون الارتهان لها. والتحرك بين واشنطن وبكين وموسكو ونيودلهي وبروكسل يتطلب براعة في إدارة العلاقات المتقاطعة بما يحافظ على الاستقلالية الاستراتيجية ويمنع العودة إلى أنماط التبعية القديمة.

## هـ. النظرة الاستراتيجية: من مفترق الطرق إلى مركز العالم

مع حلول عام 2030، سيعتمد مصير الشرق الأوسط على الكيفية التي يُعيد بها تعريف موقعه الجغرافي: هل يبقى ممرًا لطموحات الآخرين، أم يتحوّل إلى مركزٍ لمشروعه الخاص؟

إذا واصلت المنطقة جهودها الجارية في التنويع الاقتصادي والتكامل اللوجستي، فإنها قد تصبح مفصلًا جيو-اقتصاديًا عالميًا يصل بين انتقال الطاقة وممرات التجارة العالمية والابتكار الرقمي بين القارات (Khanna، 2022).

إن التحدي الحقيقي ليس ماديًا بل مؤسسيًا: فالمطلوب هو تحويل الثروة إلى ثقة، ثم تحويل الثقة إلى تعاون.

في عالمٍ يحكمه الترابط المتبادل، لم تعد التجزئة خيارًا قابلاً للاستمرار، ولم يعد التكامل ترفاً سياسياً — بل ضرورة وجودية لمستقبلٍ مشترك.

### تطور فاعلية الشرق الأوسط: (2000 → 2030)

- **2000:** مرحلة التبعية — مركز للنفط لا للقرار.
- **2020:** مرحلة التنويع — انفتاح على التعددية الاقتصادية والرقمية.
- **2030:** مرحلة التصميم — بناء مؤسسات إقليمية فاعلة ومبادرات مشتركة في الطاقة، والتجارة، والابتكار.

## الخاتمة — من الهامش إلى المحور

بحلول عام 2030، سيعتمد موقع الشرق الأوسط في النظام العالمي أقل على ما يطلبه الآخرون منه، وأكثر على ما يطلب به هو من نفسه.

لقد منحت المرحلة ما بعد الأحادية القطبية المنطقة مساحة غير مسبقة للمناورة — في الاقتصاد والدبلوماسية والتكنولوجيا على السواء.

ونكمن أعظم فرصها اليوم ليس في الاختيار بين الشرق والغرب، بل في تحديد مسارٍ ثالث يقوم على الانخراط المتوازن، والترابط الوظيفي، والإصلاح المؤسسي (Fawcett، 2022؛ Khanna، 2023).

إن كان القرن الماضي قرن التبعية، فهذا القرن هو قرن التصميم — تصميم الآليات التي تحوّل الجغرافيا إلى فاعلية، والموارد إلى مرونة واستدامة.

إن التحدي القادم أخلاقي بقدر ما هو استراتيجي: أن نستبدل التنافس بالترابط، والعزلة بالاندماج، في نظامٍ دوليٍّ جديدٍ لا يُقاس فيه النفوذ بالهيمنة، بل بالقدرة على تحويل الاختلاف إلى تكامل.

## الخاتمة التأملية — نظرة إلى الأمام

إن التاريخ، حين يُدرّس بصدق، ليس مجرد سجلٍّ للأحداث، بل مرآة لمعضلات الإنسان المتكرّرة.

وعلى امتداد العصور، وقف الشرق الأوسط شاهداً ومشاركاً في التجربة الكبرى للحضارة — حيث التقوى والقوة والأخلاق تتلاقى في حوارٍ لا ينتهي.

ارتفعت إمبراطوريات تُنادي بالعدالة، لكنها سقطت بالظلم. وسعت أممٌ إلى الحرية، لكنها تعثّرت بالطموح المفرط.

ورغم التقلّبات، تبقى قدرة المنطقة على الصمود — أكثر من معاناتها — هي إرثها الأصدق والأعمق.

في كل قرنٍ، تعود الأسئلة ذاتها لتطرق الضمير الإنساني:

- هل يمكن أن تقوم الوحدة بلا رؤية أخلاقية؟
- وهل يمكن أن تدوم الرفاهية بلا عدالة؟
- وهل يمكن للإيمان أن يتعايش مع الحداثة دون أن يفقد روحه؟

واليوم، بينما تتغير الحدود وتنهيار اليقينيات، لا تزال هذه الأسئلة تنبض بالحاجة والإلحاح ذاتهما.

فالعالم المعاصر — المسلح بالمعرفة والتكنولوجيا — ما زال يعاني الفقر الروحي ذاته الذي حاول الأنبياء الأوائل مداواته.

إن استمرارية الخطأ الإنساني تذكّرنا بأن التقدّم بلا ضمير ليس سوى تكرارٍ للانحلال في هيئةٍ أكثر تعقيداً.

لكن داخل كل دورة انحدار، تكمن بذرة التجدد. فالحضارات لا تموت — بل تتحوّل.

وعندما تستعيد الشعوب أسسها الأخلاقية التي جمعتها يوماً — الرحمة، والعدالة، والمسؤولية المشتركة — يستعيد التاريخ وظيفته الأصلية كمعلمٍ لا كقاضٍ.

ويبقى الشرق الأوسط، مهد الوحي وموقد التجربة الإنسانية، يقمّ للعالم تحذيراً ووعداً في آنٍ واحد:

أن لا حضارة تدوم بلا اتساقٍ أخلاقي، وأن طريق النهضة يبدأ، كما كان دائماً، بالحقيقة.

# الملحق أ — المراجع والمصادر التاريخية الأساسية

## Appendix A — References and Primary Historical Sources

تم إعداد هذا الملحق لتوثيق المراجع الأساسية والوثائق التاريخية التي اعتمد عليها هذا الكتاب في بناء تحليله وتفسيره للأحداث. وتُدرج جميع المراجع بلغتها الأصلية — العربية أو الإنجليزية أو غيرها — حفاظاً على الدقة الأكاديمية وإتاحة الرجوع إليها في مصادرها الأصلية. يضم هذا القسم ثلاثة أصناف رئيسية من المصادر:

1. المصادر التاريخية والأثرية الأولى.
2. الدراسات الأكاديمية الحديثة والتقارير الدولية.
3. الخرائط، والجداول، والوثائق الأرشيفية ذات الصلة.

Al-Ṭabarī (1989) *The History of al-Ṭabarī: General Introduction and From the Creation to the Flood*, ed. E. Yar-Shater. Albany: State University of New York Press.

Ibn Khaldūn (1967) *The Muqaddimah: An Introduction to History*, trans. F. Rosenthal. Princeton: Princeton University Press.

Balfour, A. J. (1917) Letter to Lord Rothschild, 2 November 1917. In: *The Balfour Declaration: Text and Historical Contexts*.

League of Nations (1920) *Covenant of the League of Nations*, Article 22. Geneva.

McMahon, H. and Husayn ibn ‘Ali (1915–1916) *The Husayn–McMahon Correspondence*. British Archives, London.

Sykes, M. and Georges-Picot, F. (1916) *Anglo–French Agreement on Asia Minor*. Paris: French Foreign Ministry.

Treaty of Sèvres (1920) *Treaty of Peace with Turkey*. Paris Peace Conference Records, 10 August 1920.

### Classical and Medieval Eras

Bosworth, C. E. (1996) *The New Islamic Dynasties: A Chronological and Genealogical Manual*. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Gibb, H. A. R. (1970) *The Arab Conquests in Central Asia*. London: Royal Asiatic Society.

- Hodgson, M. G. S. (1974) *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*, Vols. I–III. Chicago: University of Chicago Press.
- Kennedy, H. (2004) *The Prophet and the Age of the Caliphates*. 2nd ed. Harlow: Pearson Longman.
- Lapidus, I. M. (2014) *A History of Islamic Societies*. 3rd ed. Cambridge: Cambridge University Press.
- Lewis, B. (1950) *The Arabs in History*. Oxford: Oxford University Press.
- Mottahedeh, R. (1980) *Loyalty and Leadership in an Early Islamic Society*. Princeton: Princeton University Press.
- Rosenthal, F. (1968) *Political Thought in Medieval Islam*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Watt, W. M. (1968) *Islamic Political Thought: The Basic Concepts*. Edinburgh: Edinburgh University Press.

### **Early Modern to Ottoman Period**

- Faroghi, S. (2004) *The Ottoman Empire and the World Around It*. London: I. B. Tauris.
- Hathaway, J. (2008) *The Arab Lands under Ottoman Rule, 1516–1800*. Harlow: Pearson Education.
- Imber, C. (2002) *The Ottoman Empire, 1300–1650: The Structure of Power*. Basingstoke: Palgrave Macmillan.
- Kinross, P. (1964) *The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire*. London: Cape.
- Mansel, P. (2010) *Constantinople: City of the World's Desire, 1453–1924*. London: John Murray.
- Quataert, D. (2005) *The Ottoman Empire, 1700–1922*. 2nd ed. Cambridge: Cambridge University Press.
- Shaw, S. J. and Shaw, E. K. (1976) *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*. Cambridge: Cambridge University Press.

### **Modern and Contemporary Studies**

- Cleveland, W. L. and Bunton, M. (2016) *A History of the Modern Middle East*. 6th ed. Boulder: Westview Press.
- Fromkin, D. (1989) *A Peace to End All Peace*. New York: Henry Holt.
- Gelvin, J. L. (2016) *The Modern Middle East: A History*. 4th ed. Oxford: Oxford University Press.



- Hourani, A. (1991) *A History of the Arab Peoples*. London: Faber and Faber.
- Kedourie, E. (2013) *Politics in the Middle East*. New York: Routledge.
- Lewis, B. (2002) *The Emergence of Modern Turkey*. 3rd ed. Oxford: Oxford University Press.
- Mansfield, P. (2010) *A History of the Middle East*. Revised ed. London: Penguin Books.
- Owen, R. (1981) The Middle East in the Nineteenth Century. *History Today*, 31(3), pp. 12–20.
- Rogan, E. (2015) *The Fall of the Ottomans*. London: Allen Lane.
- Toynbee, A. J. (1927) *Survey of International Affairs, 1920–1923*. Oxford University Press.

### **Philosophical, Cultural, and Theological Contexts**

- Arkoun, M. (1994) *Rethinking Islam*. Boulder: Westview Press.
- Asad, M. (1980) *The Message of the Qur'an*. Gibraltar: Dar al-Andalus.
- Nasr, S. H. (2002) *The Heart of Islam*. San Francisco: HarperSanFrancisco.
- Smith, W. C. (1981) *Islam in Modern History*. Princeton University Press.
- Watt, W. M. (1973) *Islam and the Integration of Society*. London: Routledge.

### **Maps, Atlases, and Archaeological Sources**

- British War Office (1916–1919) *Survey of the Middle East War Maps*. London: Imperial War Museum.
- Freeman-Grenville, G. S. P. (2003) *The Atlas of the Arab World*. New York: Facts on File.
- National Geographic Society (2004) *Atlas of the Middle East*. Washington, DC: National Geographic Books.
- Hourani, G. F. (1951) *Arab Seafaring in the Indian Ocean*. Princeton University Press.

## الملحق ب — المصطلحات والاختصارات

المصطلح العربي	English Term	الشرح المختصر
آدم	Adam	يرمز إلى أول إنسان أو أول جماعة بشرية عاقلة، ويمثل بداية التكليف الأخلاقي في التصور القرآني.
إبراهيم	Abraham	،نبي محوري نشأ في جنوب الجزيرة العربية يُرجّح في حضرموت، أعاد إحياء التوحيد المستمد من التقاليد اليمنية القديمة
(الأردن) نهر	Jordan River	يشير إلى أودية عربية مثل وادي بيجان أو وادي حضرموت، وليس إلى نهر في الشام
الأمم المتحدة	United Nations (UN)	منظمة دولية تأسست بعد الحرب العالمية الثانية بهدف حفظ السلم والأمن العالميين
بنو إسرائيل (إسرائيل)	Children of Israel	،جماعة من المؤمنين الموحدين نشأت في اليمن تتبع سلسلة الأنبياء قبل إبراهيم، وليست محصورة في نسل يعقوب
أورشليم (القدس)	Jerusalem (al-Quds)	،مفهوم روحي أصله في جنوب الجزيرة العربية وليس بالضرورة الموقع المعروف اليوم
أوبك	OPEC	منظمة الدول المصدرة للنفط، تأسست عام 1960 لتنسيق السياسات النفطية بين أعضائها
باب المندب	Bab al-Mandab Strait	ممر بحري استراتيجي يربط البحر الأحمر بخليج عدن والمحيط الهندي
بابل	Babylon	قوة قديمة ورمز للأنظمة الاستبدادية، يُحتمل أن لها جذوراً رمزية في التراث العربي الجنوبي
بنو إسرائيل	Children of Israel (Banī Isrāʾīl)	الجماعة التوحيدية الأولى في اليمن وجنوب الجزيرة العربية، وليست مفهوماً عرقياً
توراة	Torah	تجميع متأخر للنصوص الدينية اليمنية القديمة التي تم تحريرها لاحقاً في الشام وبابل
جَنَّة عدن	Eden	،موقع رمزي أو فعلي في المرتفعات اليمنية يُشير إلى ازدهار الإنسان الأول
جمير	Himyarite Kingdom	مملكة عربية جنوبية ورثت سبأ ووسّعت نفوذها في الجزيرة واليمن
جلف سايكس بيكو	Sykes-Picot Agreement	اتفاق سري عام 1916 بين بريطانيا وفرنسا لتقسيم المشرق العربي بعد انهيار الدولة العثمانية

داود	David (Dāwīd)	نبيّ صالح وقائد من المرحّج أنه عاش في اليمن وكان جزءاً من الكيان السبئي
سُلَيْمَان	Solomon (Sulaymān)	نبيّ وملك في جنوب الجزيرة العربية، يُحتمل أنه حكم في مأرب ضمن ثقافة سبأ
سبأ	Sabaeen Kingdom	مملكة عربية جنوبية قديمة ازدهرت في مأرب وتميّزت بنظامها الزراعي والسياسي المتقدم
سفينة نوح	Noah's Ark	رمز للبقاء والنجاة، يُحتمل أن أصل القصة من السواحل اليمنية أو القرية منها
جبل (سيناء)	Mount Sinai	جبل في اليمن وليس في شبه جزيرة سيناء بحسب الجغرافيا القديمة
صَفَيْن (معركة)	Battle of Ṣiffīn	معركة سنة 657م بين الخليفة علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، مثّلت أول انقسام سياسي في الإسلام
الخلافة	Caliphate	نظام الحكم الإسلامي الذي يجمع بين القيادة الدينية والسياسية بعد وفاة النبي محمد ﷺ
العهد (الميثاق)	Covenant	عقد روحي وأخلاقي بين الله والناس، يمثل جوهر الرسائل الأولى
فرعون	Pharaoh	لقب للحكّام المستبدين في الممالك العربية الجنوبية، لا سيما في العصر الحميري والسبئي
قناة السويس	Suez Canal	ممر مائي صناعي يربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، يمثل شريان التجارة العالمية
مَدْيَن	Midian (Madyan)	مستوطنة في شمال اليمن أو غرب الجزيرة العربية ارتبطت بالنبي شعيب عليه السلام
مصر	Egypt (Miṣr)	قد تشير إلى حصن أو مدينة عربية، وليست بالضرورة وادي النيل
ميثاق حسين مكماهون -	Husayn- McMahon Correspondence	تبادل رسائل بين الشريف حسين ومندوب بريطانيا مكماهون (1915-1916 حول الاستقلال العربي
نُوح	Noah	نبيّ من أنبياء العرب القدماء، رمز للصبر والإيمان والتجديد الأخلاقي
هجرة (الخروج)	Exodus	حركة انتقال أو نهضة اجتماعية في اليمن، تحمل معنى التحرر الداخلي
يعقوب (إسرائيل)	Jacob (Israel)	نبيّ من اليمن، يرتبط بالجماعة التوحيدية القديمة في الجنوب العربي
يوسف	Joseph (Yūsuf)	نبيّ وداعية في أرض اليمن، تمثل قصته نموذجاً للصبر والعفة في مواجهة المحن

## الملحق ج — التسلسل الزمني للأحداث التاريخية

الأحداث الرئيسية	Period (English)	الفترة التاريخية (بالعربية)
نشوء حضارات السومريين والأكاديين والبابليين؛ قيام المدن-الدول؛ ازدهار الأسر الفرعونية؛ بدايات الهجرات السامية ومسارات التجارة القديمة	Ancient and Biblical Era (3000–600 BCE)	العصور القديمة والحقبة التوراتية (3000–600 ق.م)
توحيد المشرق تحت الإمبراطورية الأخمينية؛ انتشار الزرادشتية؛ غزو الإسكندر الأكبر للمنطقة	Persian and Classical Era (600–330 BCE)	العصر الفارسي (والكلاسيكي) (600–330 ق.م)
حكم السلوقيين والفرتيين والبيزنطيين؛ تمازج الثقافات اليونانية والفارسية والسامية؛ صعود الممالك العربية التجارية	Hellenistic to Roman Era (330 BCE–630 CE)	العصر الهلنستي –والروماني (330 ق.م م 630)
بعثة النبي محمد ﷺ ونشأة الإسلام؛ الخلافت الراشدة والأموية والعباسية؛ انتشار الحضارة الإسلامية من الأندلس إلى آسيا الوسطى	Early Islamic Expansion (630– 1258 CE)	عصر التوسع الإسلامي (المبكر) (630–1258 م)
سقوط بغداد؛ الغزوات المغولية؛ قيام دولة المماليك في مصر؛ الحفاظ على العلوم والشبكات التجارية الإسلامية	Mongol and Mamluk Period (1258–1517 CE)	عصر المغول والمماليك (م 1258–1517)
ترسيخ الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى في الشرق الأوسط وجنوب آسيا؛ نهضة علمية وثقافية؛ تشكل الحدود الإقليمية	Ottoman–Safavid– Mughal Era (1517– 1800 CE)	–العصر العثماني –الصفوي–المغولي (م 1517–1800)
التوسع الأوروبي؛ حملة نابليون على مصر؛ إصلاحات التنظيمات	Colonial and Reform Era (1800–1914 CE)	عصر الاستعمار –والإصلاح (1800 م 1914)

		العثمانية؛ بروز الفكر القومي والنهضة الفكرية
الحرب العالمية الأولى (والتقسيم) 1914-1920 م	World War I and Partition (1914-1920 CE)	انهيار الدولة العثمانية؛ الثورة العربية الكبرى؛ اتفاق سايكس-بيكو؛ فرض نظام الانتداب البريطاني، والفرنسي
حقبة الانتداب وصعود القومية (1920-1948 م)	Mandates and Nationalism (1920-1948 CE)	نشوء دول العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن؛ تصاعد الحركات التحررية؛ بدايات الوحدة العربية والهجرة الصهيونية
الحرب الباردة وسياسات النفط (1948-1990 م)	Cold War and Oil Politics (1948-1990 CE)	قيام دولة إسرائيل؛ الحروب العربية-الإسرائيلية؛ صعود الناصرية والبعثية؛ بروز نفوذ النفط؛ التنافس بين المعسكرين
العولمة والصراعات الحديثة (1990-الوقت الحاضر)	Globalization and Conflict (1990-Present)	حروب الخليج والربيع العربي وتبدل التحالفات؛ العولمة التكنولوجية؛ البحث عن الاستقرار وسط صراعات الهوية والإيمان

## عن المؤلف



**الدكتور محمد حسن عمر** أستاذ جامعي متقاعد ورجل أعمال، وباحث وكاتب ومربي كرّس جهوده للفكر المستنير وجعله في متناول القارئ المعاصر. يجمع الدكتور عمر في خلفيته الأكاديمية بين تقنية المعلومات والدراسات الإسلامية، مما يمنحه رؤية معرفية فريدة تمزج بين المنهج العلمي والتأمل النصي.

تركز كتاباته على إعادة قراءة النصوص المقدسة بعيون ناقدة وأمانة في آن واحد، مع إبراز الجوانب الجغرافية واللغوية المهملة في الأحداث التاريخية. وفي سلسلته *إعادة اكتشاف التاريخ* — الكتاب الأول *تاريخ اليمن والجزيرة العربية*؛ الكتاب الثاني *إعادة النظر في التاريخ المقدس*؛ الكتاب الثالث *إعادة النظر في تاريخ فلسطين* (بالعربية والإنجليزية والإسبانية والفرنسية والألمانية والروسية). يضاف هذا الكتاب " *تاريخ مصر من الفراعنة إلى الوقت الحاضر* " إلى سلسلة إعادة اكتشاف التاريخ تكملة للأعداد السابقة: كتاب *تاريخ بلاد الشام الكبرى* ، وكتاب *تاريخ بلاد ما بين النهرين* ، — حيث يتحدى الروايات التقليدية ويقدم رؤية جديدة.

كما ألّف الدكتور عمر كتباً أخرى منها *رحلة في رحاب القرآن*، وهو دليل موجز للعقيدة الإسلامية موجّه للأجيال الشابة و*عالمات مسلمات في الإسلام* وكتاب *دليل القرآن* لشرح بعض آيات القرآن الكريم.

